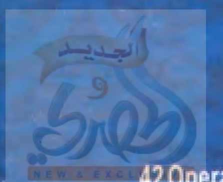
# الصَفَدِيُّ

## وَشرحُهُ علىٰ لامِيَةِ العَجَم

### دِراسَةٌ تَحليلِيَةٌ



الدكتور / نبيل محمد رشاد
كلية التربية - جامعة عين شمس






مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٣٩٠٠٨٦٨
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868





# الصَّفَدِيُّ

## وَشَرْحُهُ على لامِيَّةِ العَجَم

### دِراسَةٌ تحليليَّةٌ

تأليف
الدكتور/ نبيل محمد رشاد
كلية التربية - جامعة عين شمس

مَكتبةُ الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٣٩٠٠٨٦٨






الناشر
مكتبة الآداب





الطبعة الأولي : ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

الصفدي وشرحه علي لامية العجم - دراسة تحليلية
تأليف : د. نبيل محمد رشاد - القاهرة - مكتبة الآداب ٢٠٠٧
٤٢٤ ص - ٢٤سم
تدمك : ٨ ٨٨٧ ٢٤١ ٩٧٧
١- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ١٢٩٦ - ٩٦٣
٢- اللغة العربية - نحو
أ - العنوان
٤١٥,١

عنوان الكتاب : الصفدى وشرحه علي لافتة العجم / دراسة تحليلية
اسم المؤلف : د. نبيل محمد رشاد
اسم الناشر : مكتبة الآداب

رقم الإيداع : ٢١٩٦٤ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 - 241 - 887 -8



الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)-
e-mail: adabook@hotmail. com





# إهداء

إلى والدى :

فضيلة الأستاذ الشيخ

**محمد رشاد مصطفى**

مع دعائى له بالصحة وطول العمر







## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.. وبعدُ..

فلا يزال البحث العلمي في ميدان الأدب المملوكي مغريًا وممتعًا، وأكثر رحابة، وأجدى ثمرة، على الرغم من أن الكثرة الكاثرة من دارسينا ولت وجهها شطره هذه الأيام، وتضافرت جهودها على بحثه ودرسه، وأخذت تنقب عن آثار أدبائه وعلمائه لتخرجها إلى النور، محقّقة تحقيقًا ييسر سبل الانتفاع بها، بعد أن طالت رقدتها في خزائن المكتبات الكبرى مخطوطةً، لا ينتفع بها، ولا يُستهدى بما تضم من روائع وذخائر..

ودارسُ الأدب المملوكي يدخل هذا الميدان من أكثر من باب، وبأكثر من غاية ووجهة؛ وذلك نظرًا لطبيعة هذا العصر الخاصة، ولطبيعة هذا الأدب الخاصة أيضًا.

فالعصر كان عصر الموسوعات، وحركة احتضان التراث العربي والإسلامي خوفًا من ضياعه، وانطماس الهُوِيَّة بعده إثر سقوط بغداد على أيدى التتار، وضياع الأندلس وانهيار دولة الإسلام بها.. فلقد خاض المجتمع الإسلامي - وقتئذ - حروبًا مصيرية فاصلة حقق بها النصرَ على أعدائه من الصليبيين والتتريين، إلا أنه خسر فيها كثيرًا من مقومات حضارته؛ خسر كتبًا نفيسة كانت تكتظ بها مكتبات بغداد عامةً وخاصة، وخسر علماء أجلاء، ومفكرين أصلاء كانت الأمة مشغولة عنهم بما هي فيه من معارك - فُرضت عليها فرضًا - تذود بها عن بيضة الإسلام. ومن هنا أخذ المجتمع - في إثر تنفُّسه الصعداء من غبار هذه المعارك - يعمل على تعويض ما فقد باحتضان ما تبقَّى بكل ما في مُكْنته مِن قوة وعزم.




والأدبُ كان ذا طبيعة خاصة - أيضًا - إذ واكب بعضُه العصرَ، وتفاعل مع أحداثه الجسام معبرًا عن الانتصارات الكبرى التى حققها الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، وابنه الأشرف خليل على فلول الصليبيين والتتار.

تجد هذا التعبير عن هذه الأحداث فى شعر شعراء العصر، وفى رسائل كتابه؛ من مثل الصلاح الصفدى، وشهاب الدين أبى الثناء محمود، وابن فضل الله العمرى، وغيرهم.

وانصرف بعض أدب العصر إلى المجتمع والناس؛ حيث وصف الأدباءُ - كتابًا وشعراء - كل ما وقع تحت أنظارهم من ظواهر إيجابية وسلبية، وكان بعض هؤلاء الأدباء ينتمى إلى الطبقات الدنيا من المجتمع؛ فجاء أدبه تعبيرًا واقعيًا عن الحياة والناس فى مصر فى القرن الثامن الهجرى.

وكتاب «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى من الكتب التى تمثل - أصدق تمثيل - طبيعة العصر، وطبيعة الأدب فى القرن الثامن الهجرى. فهو - وإن أداره صاحبه على موضوع معيّن؛ وهو شرح القصيدة اللامية التى أنشأها مؤيّد الدين الطغرائى الموسومة بلامية العجم- فإنه لم يستطع الفكاك أو التخلص مما سيطر على أدباء العصر المملوكى الأول وعلمائه من نزعة الميل إلى الموسوعية، ولَمَّ شتات ما تبقّى من آثارنا وتراثنا الذى كاد يتعرض للزوال، ومن هنا تجد هذا الكتاب قد أفسح فيه صاحبه أوسع مجال للحديث عما يمكن الحديث عنه من مباحث علوم العربية والإسلام؛ من لغة، ونحو، وصرف، ونقد، وبلاغة، وتاريخ، وفلسفة، وتفسير، وحديث، وفقه . . . الخ.

ثم هو من ناحية ثانية وثيقةٌ مهمة تعبّر عن ملامح المجتمع المصرى - آنذاك - بما حوى من نصوص شعرية لشعراء عديدين من شعراء العصر، وهذا ما دفعنى لدراسة هذا الكتاب، واتخاذه موضوعًا لنيل درجة الماجستير فى الآداب عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد.

ولقد جاء هذا البحث فى خمسة فصول؛ تحدثت فى الفصل الأول منها عن الحياة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى الأول، وفيه أظهرت كيف قامت مصر بدورها فى المحافظة على هوية الأمة العربية والإسلامية وتراثها، ووصفت الحياة الفكرية، وبيّنتُ أنها كانت مزدهرة ناهضة، وأرجعت هذا الازدهار إلى

عوامل خمسة هى: انتشار المدارس فى شتى أنحاء البلاد، وانتشار حلقات الدرس بالمساجد الكبرى بالقاهرة والأقاليم، وكثرة المكتبات العامة والخاصة فى ذلك الوقت، وجمع عدد من الشعراء لآثارهم الفنية ونتاجهم الشعرى، ومسايرة الحركة النقدية للحركة الإبداعية فى الأدب والفن.

ثم انتقلت إلى الشام فوصفت الحياة الفكرية والأدبية بها، وما أنشئ فيها من مدارس، ولاحظت أن بناء المدارس فى هذا الزمان كان عملاً تنويريًا مجيدًا؛ إذ أسهم المجتمع حكامًا ومحكومين فى بناء المدارس، وتنافسَ العلماء وكبار الموسرين من التجار فى ذلك، ولاحظت أن المرأة قد أسهمت فى هذا المجال كما فعلت خاتون بنت عز الدين مسعود التى بنتْ المدرسةَ الأتابكية التى درَّس فيها كبار علماء مصر والشام فى ذلك الزمان.

ثم تحدثتُ عن صورة الحياة الفكرية فى العصر كما رسمها الصفدى فى الغيث، وختمتُ هذا الفصل بالحديث عن منهج علماء العصر المملوكى في التأليف العلمى.

وفى الفصل الثانى وعنوانه «ثقافة الصفدى» حاولت أن أرسم صورة واضحة المعالم لشخصية صلاح الدين الصفدى العلمية، وذلك من خلال تتبُّعى لما كتبه عنه المؤرخون القدماء، والدارسون المحدثون من ناحية، ومن خلال استنطاق نصوص كتابه الغيث المسجم وسائر كتبه الأخرى من ناحية ثانية، وفى هذا الفصل ظهرت شخصية الصفدى التى جمعت فى توافق وانسجام بين العلم والفن؛ إذ كان إلى جوار علمه باللغة والنحو، والتاريخ، والأدب، والفقه، وعلم الكلام، كان إلى جوار ذلك فنانًا له نثرُه الذى يتمثل فى رسائله الديوانية، والإخوانية، والأدبية، ومعارضاته الشعرية، وأزجاله وموشحاته.

وجعلتُ الفصل الثالث لمصادر الشرح حيث تعقبت الصفدى فى الغيث، وأحصيت المصادر التى استقى منها مادة كتابه، وهى تنقسم إلى قسمين كبيرين: الأول المصادر الشفهية، والثانى المصادر المكتوبة، وتتنوع مصادره المكتوبة تنوعًا هائلاً؛ فمنها الكتاب اللغوى، والكتاب النحوى، والكتاب النقدى، والكتاب البلاغى، والكتاب التاريخى، والكتاب الفلسفى، والكتاب العلمى ... الخ.

ولقد كان الصفدى كما أوضحت الدراسة على وعى كامل بما يأخذ من مصادره، كما كانت له شخصيته التى تناقش ما يأخذ من موادّ عن الآخرين.

أما الفصل الرابع فكان خاصًا بمنهج الشرح حيث بينت أنه قد حدَّد معالم هذا المنهج بنفسه فى مقدمته التى وضعها للكتاب، ثم تعقَّبْتُ الصفدى فى الشرح، وبينت إلى أى مدى التزم بمنهجه الذى اشترطه على نفسه فى المقدمة، ثم تحدثت عن مظاهر غلبة النزعة التعليمية فى الشرح، والفكاهات والنوادر فى الغيث. وختمت الفصل بإيراد لامية الطغرائى، ثم أوردت نص الصفدى الذى عارض به لامية الطغرائى؛ نقلاً عن كتاب «نفحة اليمن فيما يزول به الشجن» للشروانى اليمنى الأديب.

وجعلت الفصل الخامس للحديث عن الآراء النقدية والبلاغية فى الشرح، وقد تحدثت فيه عن خمسة مباحث:

الأول: موقف الصفدى من موسيقا الشعر.

الثاني: موقف الصفدى من شعر المتنبى.

الثالث: انتصاف الصفدى لابن سناء الملك، وتَعَقُّبُهُ لشرف الدين بن جبارة حيث قام صاحبنا بالرد على ما تعنت به ابن جبارة على ابن سناء الملك.

الرابع: وجعلته لسرقات الطغرائى فى لامية العجم، وعالجت فيه تأثر الطغرائى فى معانيه وألفاظه بمن سبقه من الشعراء؛ كأبى تمام، وأبى نواس، ومسلم، والمتنبى، وغيرهم.

الخامس: تحدثت فيه عن الفنون البديعية فى الشرح؛ وكانت ستة عشر فنًا.

وبعد هذا الفصل أوردت ملحقًا جمعت فيه نصوص الصفدى الشعرية التى بثها فى تضاعيف كتابه مضبوطة، ومحققةً تحقيقًا علميًا، وبلغ عددها سبعة وثمانين ومائة نص.

وهناك رسالتان جامعيتان ليستا فى موضوع بحثى، وإنما عالجتْ أو مسَّتْ كل واحدة منهما موضوع بحثى مسًا خفيفًا - إذا جاز لى مثل هذا التعبير:

أما الرسالة الأولى فهى تلك التى تقدمت بها الباحثة مناهل فخر الدين فليح لنيل درجة الدكتوراة فى الآداب من كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م،

وهى بعنوان «نشاط الصفدى فى النقد والبلاغة»، وهى رسالة - كما يبدو من عنوانها، ومن المشكلات العلمية التى أثارتها - تحرص على جمع آثار الرجل فى النقد والبلاغة، وتصنيفها، ودرسها، وكان من بين آثاره التى تحدثت عنها كتاب الغيث المسجم فى شرح لامية العجم الذى هو موضوع دراستى، فهو يشكل جزءاً من موضوع رسالتها إلا أنه لم يأخذ حقه من الدرس والبحث؛ حيث جاء الحديث عنه فى ثلاث عشرة صفحة؛ من الصفحة الثانية والثمانين حتى الصفحة الخامسة والتسعين من رسالتها.

وبدهى أن دراسة كتاب كبير يقع فى مجلدين من القطع الكبير وتبلغ صفحاته ٩١٦ صفحة - عدا صفحات الفهارس الفنية فى ثلاث عشرة صفحة - أمرٌ يستحق الدهش، ويوجب إعادة النظر فيما حققته هذه الدراسة، وما وصلت إليه من نتائج تتعلق بهذا الكتاب ومباحثه.

وعلى أية حال فالباحثة ليست ملومة فيما فعلت؛ لأن هذا الكتاب يشكل جزءاً من كلٍّ فى رسالتها ذات الموضوع المحدد، والتى يغلب عليها منهج الجمع والتصنيف الموضوعى؛ حيث كان هدفها حصرَ كل آثار الرجل؛ لا فى النقد وحده، وإنما فى النقد والبلاغة معًا، والحديث عنها، واستنباط ما سمَّته بمقاييس الصفدى النقدية، والتى أرجعتها إلى ما سمَّته بالمقياس الفنى، والمقياس الروحى، والمقياس الأخلاقى.

وعلى هذا فالفرق واضح بين موضوع رسالة الباحثة، وموضوع دراستى؛ فموضوعها يغلب عليه الحصر والجمع لكل آثار الرجل فى النقد والبلاغة، وموضوعى يقف عند واحد فقط من هذه الآثار، وهو ذلك الكتاب الذى أداره على شرح لامية الطغرائى الموسومة بلامية العجم.

وموضوعى- وهو إذ يقف عند هذا الكتاب المهم من كتب الصفدى - يسلط أشعة من الضوء الكاشف على مصادره الأدبية والنقدية، ويبحث عدداً من القضايا المهمة التى تتدرج تحت تلك الطريقة التى آثرها الصفدى فى تأليفه، وصوغ مباحثه، كما ينحو فى معالجة دراسة الكتاب دراسة نقدية منحًى آخر يعتمد على محاولة الكشف عن مواقف الرجل - بوصفه ناقداً وبلاغيًا - من قضايا نقدية

كبرى أهمها: موسيقا الشعر، والسرقات الشعرية، ومن شعراء موهوبين كالمتنبى، وابن سناء الملك. هذا عن الرسالة الجامعية الأولى.

أما الرسالة الثانية فهى تلك التى تقدم بها الدكتور إبراهيم محمد منصور لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة طنطا وهى بعنوان «شروح لامية العجم دراسة تحليلية نقدية». وموضوعها يتصل بدراستى من حيث كون الغيث أحد بل أهم شروح لامية العجم وأكبرها حجمًا، إلا أن دراسة جميع شروح لامية العجم المطبوعة والمخطوطة فى رسالة جامعية واحدة يعتبر مجازفة خطيرة، غير مأمونة العواقب؛ وذلك لسعة الموضوع وتشعبه من ناحية، ولكثرة هذه الشروح من ناحية أخرى، الأمر الذى جعل هذه الرسالة أشبه ما تكون بالمقارنة بين الشروح، وكان منهجها يغلب عليه الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين هذه الشروح فى معالجة أبيات اللامية لغويًا وأدبيًا ونقديًا؛ ومن هنا تاه الغيث وسط هذا الركام الهائل من النصوص التى نقلها الباحث من الشروح المختلفة بغية المقارنة بينها، وجانَب الصوابَ فى عدد من الأحكام التى أصدرها على الصفدى وكتابه، ولو أن الباحث تناول هذه الشروح جميعها بالدرس، وتتبع فى درسه المنهج التحليلى، واستند فى ذلك على التسلسل التاريخى للشروح، واضعًا نصب عينيه الوقوف على أسرار كل شرح وتبيان خصائصه التى ينفرد بها ويتميز عن بقية الشروح الأخرى، لكان من الممكن أن يصل فى ذلك إلى نتائج مجدية على الرغم من وعورة هذا الطريق وصعوبته.

ودراستى إذن تلتقى مع رسالة الباحث من حيث إن موضوعها والكتاب الذى تعرض له بالدرس كان أحد تلك الكتب التى تناولتها الرسالة السابقة، إلا أنها تختلف معها فى كثير من النقاط: التى منها التركيز على شرح واحد فقط من هذه الشروح ودراسته دراسة مستفيضة تحاول أن تستشف تلك الخصائص التى يتميزُ بها، عن طريق درسه فى إطار عصره ومن حيث كونه دالاً على الحياة الفكرية فى عصره من ناحية، وعلى ثقافة صاحبه وشخصيته العلمية من ناحية ثانية، وعن طريق البحث عمّا يحوى مِن مضامين نقدية وبلاغية وآراء فى الشعر والشعراء.

ومن هذا العرض لهاتين الرسالتين الجامعيتين تتضح أهمية الموضوع الذى أقوم بدرسه؛ حيث لم يتناوله باحثٌ قبلى - فيما أعلم - بالدرس والبحث العلمى؛ لا على هذا النحو الذى قمتُ بدرسه عليه، ولا على نحو آخر يخالفه أو يوافقه.

وقد أفدتُ في دراسة هذا الموضوع من كثير من المصادر القديمة، والمراجع الحديثة التي تناولت العصر المملوكي، وترجمتْ لرجاله، ودرستْ الكثير من الظواهر الأدبية في ذلك العصر. وقد ألحقتُ في نهاية الرسالة قائمة بتلك المصادر والمراجع.

والشيء الذي أحب أن ألفت الأنظار إليه في هذا المجال هو أن هذه الدراسة كانت تعتمد على نصوص الغيث بالدرجة الأولى في جميع فصولها، فقد كانت نصوصه بمثابة المحور الذي تدور عليه، مباحث الفصول؛ فهي إذن دراسة نصية بالدرجة الأولى تحاول أن تستنطق الغيث، وتستنبط من نصوصه مواقف الرجل وآراءه النقدية والبلاغية، كما تحاول أن تلتمس السمات الدالة على شخصية الصفدي من هذه النصوص.

وقد كان لأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور/ محمد زغلول سلام أكبر الأثر في هذا العمل؛ فقد تفضل بالإشراف عليه وحظي من رعايته وعنايته بما لا أستطيع القيام بشكره؛ حيث كان المرشد والمعين والمشجع على العمل والبحث طوال سنوات الدرس، وأشهد أني ما كنت أستطيع أن أصل إلى ما وصلت إليه لولا جهوده وإرشاداته وتوجيهاته، ولا يسعني إلا أن اعترف - هنا - بما غمرني به من الفضل، وأدعو له بالصحة والعافية.

وبعد.. فهذه محاولة قمت بها جاداً مخلصاً، فإن تكن نافعة فالحمدُ لله على ما هدى وأعان، وإن كانت غيرَ ذلك فالخيرَ أردتُ، والجهدَ بذلتُ، ونيةُ المرء خيرٌ من عمله.. وأستغفر الله العظيم، والحمد لله أولاً وآخراً، وعليه -سبحانه- قصد السبيل.

**د. نبيل محمد رشاد**
**٦ شـوال ١٤٢١هـ**
**١ يـنـايـر ٢٠٠١م**

بريد ألكتروني: drnabilrachad@hotmail.com









## الفصل الأول

# الحياة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى الأول

### تمهيد

هذا الفصل يتناول الحياة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى الأول، ومنهج علمائه فى البحث والدرس والتأليف العلمى، وهو موضوع صعب عسير، وصعوبته وعسره ليس مردهما إلى قلة مادته العلمية؛ لأن مادته العلمية غزيرة وموفورة يستطيع الباحث جمعها من مظانها الأصلية؛ فهى مبثوثة فى بطون الكتب التى تؤرخ للحياة والناس فى هذه الحقبة؛ كالبداية والنهاية لابن كثير، والسلوك، والخطط للمقريزى، والنجوم الزاهرة، والمنهل الصافى لابن تغرى بردى، والوافى بالوفيات، ونكت الهميان، وأعيان العصر وأعوان النصر للصفدى، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى وغيرها.

بل يرجع وجه الصعوبة الحقيقى فى تناول الموضوع إلى الموضوع نفسه؛ حيث تناوله بالبحث والدرس عدد كبير من أساتذتنا أعلام الدراسات الأدبية والنقدية بجامعاتنا، وقدموا فيه كتبًا نفيسة يتقدمهم الرائد الجليل أمين الخولى فى كتابه «فى الأدب المصرى»، والدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه «الحياة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول»، والدكتور محمود رزق سليم فى موسوعة «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى»، والدكتور أحمد أحمد بدوى فى كتابه «الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام»، وأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلاّم فى كتابه «الأدب فى العصر المملوكى» بمجلداته الأربعة، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه «تاريخ الأدب العربى - عصر الدول والإمارات مصر والشام».

ووجدتنى إزاء هذه الدراسات الثرية أقف متسائلا فى حيرة: ما الذى أستطيع أن أقدمه فى هذا الفصل المحدود بعد هذه الدراسات التى بذل فيها أساتذتى من الجهد أضعاف ما فى مكنتى ووسعى؟

وأنفقت وقتًا غير قصير فى التفكير فى هذا السؤال والإجابة عنه، وفى المدخل الذى يمكن أن أفتتح به الكلام فى هذا الموضوع الشاق، حتى اهتدت نفسى إلى طريقة أظنها جديدة فى عرضه وكتابته؛ حيث بدأته بالحديث عن مكانة مصر ودورها فى الحياة الفكرية العربية في عصر الحروب الصليبية بعامة، ثم تكلمت عن مظاهر انتعاش الحياة الفكرية بها فى العصر المملوكى الأول، وبعد ذلك انتقلت إلى الشام فوصفت الحياة الفكرية بها، وبينت عوامل إذكائها ومظاهر انتعاشها، ثم انتقلت إلى الحديث عن منهج علماء العصر المملوكى الأول فى التأليف والكتابة العلمية، وأوضحت ما اتسم به هذا المنهج من سمات وخصائص، وأثر هذا المنهج فى حفظ العلوم العربية والمعارف الإسلامية إلى وقتنا هذا.

على أن موضوعات هذا الفصل ليست كلها تليدة مكررة، وإنما منها الطريف الذى لم أُسْبَقْ إليه فيما أعلم؛ وهو يتمثل فى الجزء الخاص بصورة الحياة الفكرية فى العصر المملوكى كما رسمها الصفدى فى الغيث.

وأجدنى هنا أشير إلى أمر ذى بال وهو كثرة رجوعى إلى الصفدى واعتمادى على نصوص كثيرة من كتبه: الغيث المسجم، ونكت الهميان، والوافى بالوفيات، وأعيان العصر وأعوان النصر، وهو عمل له ما يبرره فى نظرى من ناحيتين:-

**الأولى**: أن موضوع الكتاب يدور حول الصفدى وكتابه الغيث المسجم، ويسلط أشعة من الضوء الكاشف على آرائه النقدية والبلاغية المبثوثة في تضاعيف هذا الكتاب، ومن ثم وجب الاعتماد عليه، والرجوع إليه، واستنطاق نصوصه واستنباط الأحكام من هذه النصوص.

**والأخرى**: أننى رأيت فى الغيث صورة للحياة الفكرية فى ذلك العصر أجاد الصفدى رسمها، وأحسن نقلها، فأردت أن أسجلها وأبين مدى مطابقتها أو مخالفتها لما كانت عليه الحياة العقلية آنذاك من خلال الاطلاع على مصادر العصر، مما دعانى إلى الرجوع بكثرة إلى كتبه بعامة، والغيث المسجم بخاصة.

ولعل سائلاً يسأل: لم بدأتُ الفصل بالحديث عن الحياة الفكرية فى مصر؟ وكان يجب أن أبدأ بتفصيل القول فى الحياة الفكرية فى الشام؛ لأن الشيخ شامى المولد؛ إذ ولد بصفد من أعمال فلسطين، كما أنه شامى النشأة والتعليم؛ إذ تلقى تعليمه بدمشق وحلب، وشامى العمل؛ إذ عين كاتبًا للدرج بصفد قبل أن ينتقل إلى القاهرة.

والجواب عن هذا السؤال سهل ميسور؛ إذ لا يستطيع أحد أن ينكر أن مصر «كانت المباءة الرحبة، والكنف الخصيب الذى لجأت إليه علوم الدين وآداب العربية»[1] فى ذلك العصر، كما لا يستطيع أحد أن ينكر «أن الثقافة المصرية .... كانت لها السيادة إلى حد كبير فى الأصقاع الإسلامية الأخرى؛ وذلك لأن القاهرة صارت قلبًا للعالم الإسلامى بعد سقوط بغداد فى يد التتار، وصارت محوراً للعلوم والآداب الإسلامية وصارت مثابة آمنة لطلاب العلم والأدب من بلاد المسلمين كافة، فكانوا يفدون إليها من كل حدب وصوب»[2].

ومما لا شك فيه أن الصفدى حين أتى إلى القاهرة وجلس من علمائها مجلس التلميذ قد استفاد من علمها علمًا، ومن معارفها معارف، ومن أفضال هؤلاء العلماء فضائل، الأمر الذى لم يكن ليتحقق له لولا هذه الرحلة الميمونة إلى كنانة الله فى أرضه، وقبلة المسلمين فى علوم دينه وشرعه.

## أولاً: مكانة مصر ودورها فى الحياة الفكرية فى العصر:

عاش الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى حياته العلمية والعملية فى ظل القرن الثامن الهجرى؛ حيث ولد قبل بداية هذا القرن بأربع سنين[3]، ثم امتد به العمر حتى شهد الثلث الأول من النصف الثانى من هذا القرن[4]، وتعد هذه الفترة - التى قضاها الصفدى على مسرح الحياة - العصر الذهبى لدولة المماليك البحرية؛ إذ ساد فيها الهدوء، وعم الرخاء، وتبوأت مصر فيها مكانة مرموقة بين

---

(١) صفى الدين الحلى: محمود رزق سليم ص١٣ سلسلة نوابغ الفكر العربى دار المعارف ١٩٨٠م.

(٢) السابق نفسه ص١٤.

(٣) تجمع كل المصادر والمراجع على أن الصفدى قد ولد بصفد سنة ست وتسعين وستمائة، ما عدا ابن حجر الذى يقول فى كتابه الدرر الكامنة «ولد سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة تقريبًا». ينظر الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلانى جـ ٢ ص ٨٧ دار الجيل ببيروت د.ت، وينظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ١١ صـ ١٩، والأعلام لخير الدين الزركلى جـ٢ صـ ٣٦٤ طبع بيروت.

(٤) تجمع كل المصادر والمراجع على أن صلاح الدين الصفدى قد مات بدمشق سنة أربع وستين وسبعمائة، وبالتالى يكون قد شهد الثلث الأول من النصف الثانى من القرن الثامن تقريبًا. ينظر: الدرر الكامنة جـ٢ صـ ٨٨، النجوم الزاهرة جـ١١ صـ ١٩، الأعلام للزركلى جـ ٢ صـ ٣٦٤.

عواصم العالم الإسلامى وحواضره، وأصبحت بمدارسها ومعاهدها وأزهرها الذى أعاد له المماليك مكانته ومهابته، وعرفوا له قدره وأثره، أصبحت كعبة يحج إليها طلاب العلم من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه، بعد أن آلت إليها زعامة العالم الإسلامى الذى فقد - بسقوط بغداد على أيدى التتار - معقلاً من أقوى معاقله، فزحف منها إلى مصر أساطين الفكر العربى والإسلامى، حاملين علمهم ومؤلفاتهم معهم، ووجدوا فى رحابها الأمن، ومن أهلها التشجيع، ومن حكامها التكريم، فانكبُّوا على البحث والدرس، وأثروا الحياة الفكرية والأدبية - آنذاك - بروائع الفن، وذخائر الأدب.

وكما نكب العالم العربى الإسلامى - آنذاك - بسقوط بغداد، وما أعقبه من ضياع كنوزها، مُنِىَ العالم الإسلامى بزوال دولة العرب بالأندلس بعد أن أظل الإسلام هذه البلاد حقبة من الزمن تربو على ثمانية قرون، كان له فيها شأو وشأن، ففر علماؤها ومفكروها من بطش الحكام الفرنجة إلى بلاد المغرب العربى، ثم ما لبثوا أن سمعوا بمكانة مصر فشدوا رحالهم إليها، وأكرمت هى وِفادتهم، فعاشوا بها، وماتوا فيها، ودفنوا فى ترابها مخلِّفين وراءهم علمًا غزيرًا، وتراثًا ثرًا فى كل ميادين العلم والمعرفة التى كانت شائعة فى ذلك العصر.

على أن هناك رافدًا ثالثًا ساعد فى تكوين الشخصية المصرية وبنائها علميًا وأدبيًا - آنذاك - وهو نزول العلماء المغاربة إلى مصر للزيارة، والتماس الراحة فى أثناء ذهابهم إلى الأراضى الحجازية أو رجوعهم منها، فكان هؤلاء العلماء يلتقون بإخوانهم من العلماء المصريين، ويتبادلون الآراء فى العلم والأدب، ويتناقشون فى مباحث الفكر والدين، بل إن بعض المغربيين من ذوى المقدرة واليسار قد أسهموا فى إقامة المدارس بمصر، وفى هذا إثراء للحركة العلمية وبناء للشخصية المصرية. فقد حكى المقريزى عند حديثه عن مدرسة ابن رشيق أن وفدًا من بلاد التكرور «لما وصلوا إلى مصر فى بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالاً بناها به ودرَّس بها وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة، وكانوا يبعثون إليها فى غالب السنين المال»[1].

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقى الدين المقريزى ٤/ ٣٦٥، طبعة بالأوفست عن طبعة بولاق، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة د. ت، سلسلة الذخائر العدد ٥٤.

وقد أورد أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام فى كتابه الأدب فى العصر المملوكى أسماء عدد كبير من هؤلاء العلماء المشرقين والمغربيين والأندلسيين الذين وفدوا إلى مصر، وأسهموا فى بناء نهضتها العربية الإسلامية[1].

واستطاع العقل المصرى أن يحسن الأخذ عن هؤلاء العلماء المشارقة والمغاربة جميعًا، ولم يمض وقت طويل حتى لمعت فى سماء القاهرة أسماء كثيرة لعلماء وشعراء وكتاب مصريين موهوبين[2]، وتكونت بمصر مدرسة فكرية لا هى مشرقية ولا هى مغربية؛ وإنما تتميز بالطابع المصرى فى التفكير والإبداع الفنى، والكتابة العلمية فى علوم الإسلام والعربية.

وقد أماط أساتذتنا وباحثونا - فى الآونة الأخيرة - اللثام عن بعض خصائص هذه المدرسة وأهم أعلامها بما ألفوا من رسائل، وبما كتبوا من بحوث، وبما حققوا من مخطوطات، ومع كل هذه الجهود المخلصة والأعمال الرائدة، لا يزال الميدان رحبًا، ولا تزال الدراسات المنهجية قليلة، ولعل هذا القلم يشرئب يومًا ليحوز هذا الشرف فيدلى فى هذا الميدان بجهد، أو يضرب فيه بسهم، أو يشارك فيه ببحث فأقضى بذلك بعض ما علىَّ من دَيْن لوطنى وقومى.

ولم تقتصر جهود العلماء المصريين فى هذا العصر على التأليف العلمى وتدريس ما مهروا فيه من علوم بمدارس مصر ومساجدها وحسب، بل أعارت مصر جهودهم العلمية إلى سائر البلدان العربية ولا سيما بلاد الشام؛ حيث كانت العلاقة بين مصر والشام فى ذلك الوقت قوية، شديدة التماسك، ومصر والشام بينهما من الروابط التاريخية والمصالح القومية المشتركة ما جعلهما صفا واحدًا منذ فجر تاريخهما العربى الإسلامى، فلقد صدا معا فى هذه العصور الغزو الصليبى على الدولة الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبى فى حطين، والغزو التترى بقيادة قطز فى عين جالوت، وكان الشاميون يأتون إلى مصر، والمصريون يسافرون إلى

(١) الأدب فى العصر المملوكى أ. د/ محمد زغلول سلام جـ ١ صـ ١٠٦، صـ ١٠٧. دار المعارف بمصر د.ت.

(٢) لا أستطيع أن أحصى هذه الأسماء كثرة وأمثل هنا بعدد من الشخصيات التى تبوأت فى العصر المملوكى الأول مكانة مرموقة كمحيى الدين بن عبد الظاهر، وفتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس، وجمال الدين بن نباته المصرى..... وغيرهم.



الشام فى سهولة ويسر شديدين، وكان الشاميون يتولون بعض المناصب الرسمية هنا، والمصريون يتولون بعض المناصب الرسمية هناك[1] ولعل هذا ما دعا الباحثين إلى عدهما قطرا واحدا أو دولة واحدة، مما أدى إلى صعوبة الفصل بين ما يميز الحياة الفكرية فى مصر عن الحياة الفكرية فى الشام فى كثير من الأحايين.

وهكذا... لم تكن مصر فى موضع القيادة السياسية والعسكرية فى ذلك العصر وحسب، بل كانت - أيضًا - فى موضع الريادة الفكرية والعلمية، وقُدِّر لها أن تحمى التراث العربى والإسلامى وتصونه من الضياع، ومازالت تقوم بهذا الدور المجيد إلى يومنا هذا.

## ثانيًا: مظاهر انتعاش الحركة الفكرية بمصر فى العصر المملوكى:

ما كان ليتسنى لمصر أن تنتعش فيها الحياة الفكرية والأدبية وتأخذ مكانتها عاصمةً لدول العالم الإسلامى، ومركزًا من أهم مراكز الثقافة والفكر العربيين فى ذلك العصر لولا الجهود المخلصة التى بذلها الحكام فى تشجيع العلم ومكافأة العلماء والمؤلفين، وإدراكهم الحقيقى لخطورة المنعطف التاريخى الذى تمر به الأمة الإسلامية فى ذلك الحين، ثم وعيهم الكامل بخطورة الدور الذى يمكن أن تسهم به مصر فى الخروج من المأزق.

وكان لهذا الوعى، وهذا الإدراك أثرهما فى إثراء الحياة الفكرية فى مصر، حيث قام الحكام والسلاطين بالتوسع فى إنشاء المدارس، ووقف الإقطاعات الكبيرة عليها لصرف رواتب المدرسين ومكافآت الطلبة، والإنفاق على المدارس وتزويدها بالمكتبات الضخمة التى تضم أمهات الكتب فى كل العلوم والفنون لتكون مرجعًا للمدرس والطالب فى التحضير والتحصيل، وسوف أذكر أولاً مظاهر انتعاش الحياة الفكرية فى مصر فى ذلك العصر إجمالاً، ثم أُتبِعُها بحديث موجز عن كل مظهر من هذه المظاهر وهى:-

أ - انتشار المدارس فى شتى أنحاء البلاد.

ب - انتشار حلقات الدرس بالمساجد الكبرى.

---

(١) كصلاح الدين الصفدى الذى تولى كتابة الدرج بصفد، ثم نقل ليتولى كتابة الدرج بالقاهرة.

جـ - كثرة المكتبات العامة والخاصة.

د - الإقبال على تلقى العلم ودرسه.

هـ - جمع عدد من الشعراء لدواوينهم الشعرية ونتاجهم الفنى.

و - مسايرة الحركة النقدية للحركة الإبداعية فى الشعر والنثر.

**أ - انتشار المدارس فى شتى أنحاء البلاد:-**

ورث المصريون عن الفاطميين عدداً من المدارس التى أنشئت لتكون نواةً لصبغ الفكر المصرى بالصبغة الشيعية، ولعل دار الحكمة التى بناها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة خمس وتسعين وثلاثمائة هجرية خير دليل على ذلك؛ حيث نشطت بها دراسة الفقه على المذهب الشيعى نشاطاً ملحوظاً[1] فلما جاء عهد بنى أيوب أرادوا إزالة معالم هذا الفكر، فتم لهم ما أرادوا عن طريق وقف الدراسة بالجامع الأزهر ودار الحكمة وبناء عدد من المدارس لدراسة الفقه الإسلامى على المذاهب الأربعة المعروفة: المذهب الحنفى، والمذهب المالكى، والمذهب الشافعى، والمذهب الحنبلى[2]؛ فابتنى صلاح الدين الأيوبى سنة ست وستين وخمسمائة مدرستين لدراسة الفقه على المذهب الشافعى هما: المدرسة الناصرية[3]، والمدرسة الصلاحية، كما بنى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة مدرستين: إحداهما لدراسة الفقه على المذهب المالكى وهى المدرسة القمحية[4]، والأخرى لدراسة الفقه على المذهب الحنفى وهى المدرسة السيوفية[5]، كما بنى صفى الدين بن شكر وزير

---

(١) الأدب فى العصر الفاطمى أ.د. محمد زغلول سلام صـ ١٦٣ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.

(٢) يراجع فى ذلك خطط المقريزى ٤/ ٢٧٦، والأدب فى العصر الأيوبى أ.د/ محمد زغلول سلام صـ ٦٣، وما بعدها دار المعارف ١٩٨٣م، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام للدكتور أحمد أحمد بدوى صـ ١٥ دار نهضة مصر الفجالة ١٩٧٢م.

(٣) انظر حديث المقريزى عنها فى الخطط ٤/ ٣٦٣.

(٤) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٦٤، وسميت بذلك لأن الضيعة التى أوقفها السلطان الناصر صلاح الدين عليها كانت تزرع قمحاً يفرَّق على فقهاء هذه المدرسة.

(٥) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٦٥، وسميت بذلك لأن سوق السيوفيين كان على بابها.

الملك العادل المدرسة الصاحبية[١] لدراسة الفقه المالكى، هذا عدا المدارس التى بنيت لدراسة غير مذهب مثل المدرسة الفاضلية[٢] التى بناها القاضى الفاضل لدراسة الفقه على المذهبين الشافعى والمالكى، والمدرسة الصالحية[٣] التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب لدراسة الفقه على المذاهب الأربعة.

وورثت القاهرة عن الأيوبيين أيضًا دار الحديث الكاملية التى بناها سنة إحدى وعشرين وستمائة الملك الكامل محمد بن الملك العادل الكبير لدراسة الحديث[٤].

وجدير بالذكر أن هذه المدارس لم تكن لدراسة الفقه أو الحديث فحسب دون غيرهما من علوم الدين وعلوم اللغة، بل كانت مواد الدراسة بها تشمل هذه العلوم أيضًا لا بوصفها علومًا أساسية، ولكن بوصفها علومًا ثانوية مساعدة.

كما قام الأيوبيون ببناء عدد من المدارس فى بعض المدن الكبرى بالأقاليم كالإسكندرية، والفيوم وأسيوط، وقوص، حتى إذا جاء العصر المملوكى ودالت دولة الأيوبيين توسع المماليك فى إنشاء المدارس؛ فابتنى الظاهر بيبرس عام ٦٦٢هـ مدرسة كبيرة هى المدرسة الظاهرية[٥] لدراسة الفقه على المذهبين الشافعى والحنفى وافتتحها للدرس فى حفل مهيب تبارى فيه كبار شعراء العصر من مثل الجزار، والوراق، وجمال الدين بن الخشاب وغيرهم فى الإشادة بوصف المدرسة ومدح الظاهر بيبرس على هذا العمل، وكانت مدرسة شاملة حيث درس بها - إلى جوار الفقه على المذهبين الشافعى والحنفى - الحديث النبوى الشريف والقراءات القرآنية.

---

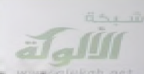
(١) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٧١، وسميت بذلك نسبة إلى منشئها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر.

(٢) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٦٦، وسميت بذلك نسبة إلى بانيها وهو القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى.

(٣) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٧٤، وسميت بذلك نسبة إلى منشئها الملك الصالح نجم الدين أيوب.

(٤) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٧٥، وسميت بذلك نسبة إلى منشئها الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان.

(٥) انظر حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٧٨، وسميت بذلك نسبة إلى منشئها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى.




وأنشأ الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا المدرسة الصاحبية البهائية[١] سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت مدرسة كبيرة يقول عنها المقريزى: «كانت من أجَلّ مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»[٢].

كما أنشأ المنصور قلاوون سنة أربع وثمانين وستمائة المدرسة المنصورية[٣] لدراسة الفقه على المذاهب الأربعة، كما بنى الناصر بن قلاوون المدرسة الناصرية[٤] ووقفَها - أيضًا - على دراسة الفقه على المذاهب الأربعة عام ٧٠٣ هـ... إلخ.

وقد أفاض الأستاذان الجليلان: الدكتور/ محمد زغلول سلام[٥] والدكتور/ شوقى ضيف[٦] فى الحديث عن عناية المماليك - لا سيما مماليك الدولة الأولى - ببناء المدارس.

وليس من شك فى أن هذه المدارس جميعها كانت مشاعل نور وهداية، ومنارات علم وعرفان، وأماكن تثقيف وتهذيب، خلقت الإنسان المصرى خلقًا آخر، وأسهمت فى تعليم أجيال كثيرة من المصريين الذين أعطوا لمصر فيما بعد هذه الصورة المشرقة فى هذا العهد العصيب.

**ب - انتشار حلقات الدرس بالمساجد الكبرى:**

لم يكن التوسع فى إنشاء المدارس زمن الأيوبيين والمماليك سببا فى إلغاء رسالة المسجد التعليمية؛ فقد شاركت المساجدُ المدارسَ - ولا سيما فى العصر المملوكى - فى التأديب والتثقيف، وتخريج أجيال من جلة العلماء، بل لعل سلاطين المماليك

---

(١) راجع حديث المقريزى عنها فى الخطط ٤/ ٣٧٠.

(٢) الخطط المقريزية جـ ٤ صـ ٣٧١.

(٣) راجع حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٧٩ وما بعدها.

(٤) راجع حديث المقريزى عنها فى السابق نفسه ٤/ ٣٨٢.

(٥) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ من صـ ١١١ إلى ١١٦.

(٦) عصر الدول والإمارات مصر والشام من صـ ٨٠ إلى صـ ٨٤.




كانوا أحرص على رسالة المسجد التعليمية من سابقيهم؛ فقد عطل الأيوبيون كما قلنا حلقات الدرس بالجامع الأزهر، وظل الجامع الأزهر قفرًا موحشًا ما يقرب من مائة عام، واعتدى الناس على أوقافه والأموال التى كانت تصرف عليه، وظل حال الجامع الأزهر على هذا السوء حتى أعاد له الأمير عز الدين الحلى مكانته ومهابته، وبدأت حلقات الدرس تعود إليه من جديد، وأسهم الأزهر فى إذكاء جذوة الحياة الفكرية فى مصر بما خرَّج من علماء وكتاب، حيث كان الملجأ والملاذ لعلوم العربية والإسلام طوال العصر المملوكى وما تبعه من عصور حتى عصر النهضة الحديثة.

ولقد شارك الجامعَ الأزهر فى هذه الرسالة السامية جوامعُ أخرى كجامع عمرو ابن العاص الذى اهتم به الظاهر بيبرس اهتمامًا خاصًا، وأعاد إليه حلقات الدرس، وكانت تدرس به العلوم الشرعية والعلوم اللغوية، ويذكر المقريزى أن الجامع تحول إلى عدد كبير من الزوايا التى يدرس فيها الفقه فيقول «وبالجامع زوايا يدرَّس فيها الفقه منها زاوية الإمام الشافعى رضى الله عنه يقال إنه درَّس بها.. وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.. ومنها الزاوية المجدية.. رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبو المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن على ابن غياث المهلبى البهنسى.. ومنها الزاوية الصاحبية رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حنا.. ومنها الزاوية الكمالية.. رتبها كمال الدين السمنودى.. ومنها الزاوية التاجية.. رتبها تاج الدين الطمى، ومنها الزاوية المعينية رتبها معين الدين الدهروطى... ومنها الزاوية العلائية تنسب لعلاء الدين الضرير.. ومنها الزاوية الزينية رتبها الصاحب زين الدين»[1].

ويصف المقريزى فى نص آخر الجامع العتيق وحلقات الدرس فيه بقوله: «وأخبرنى المقرى الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى - رحمه الله - قال: أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات قال: أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ

(١) الخطط المقريزية جـ ٤ من صـ ٢٥٥ إلى صـ ٢٥٦.



الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعًا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه»(١).

وكان جامع أحمد بن طولون من الجوامع الكبرى التى ترتفع مآذنها عالية فى سماء القاهرة، ويشع منه نور العلم والمعرفة، ثم أتت عليه عهود تجمد فيها نشاطه إلى أن تحول إلى مكان خرب مجهول بعد أن «خربت القطائع والعسكر وعدم الساكن هناك»(٢) ويحكى المقريزى فى خططه أن المغاربة كانوا ينزلون فيه بأمتعتهم وأباعرهم عند مرورهم بمصر فى موسم الحج، وظل المسجد على هذه الحال حتى هيأ الله له الأمير حسام الدين لاجين المنصورى الذى جدده بعد أن كان قد تهدم أكثره، ووقف عليه أوقافًا كثيرة، وجعل منه قلعة علمية شامخة لا لعلوم الدين فحسب بل لعلوم الدنيا أيضًا؛ إذ «رتب فيه دروسًا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عملُ أهل مصر عليها الآن، ودرسًا يلقى فيه تفسير القرآن، ودرسًا لحديث النبى ﷺ، ودرسا للطب»(٣).

وهناك مسجد رابع أسهم فى إنعاش الحركة الفكرية بمصر فى هذا العصر وهو مسجد الحاكم بأمر الله، الذى أعاد بيبرس الجاشنكير حلقات الدرس إليه سنة ٧٠٣هـ وألحق به مكتبة ضخمة(٤).

وليس من شك فى أن هذه المساجد كان لها أكبر الأثر فيما وصلت إليه مصر من مكانة علمية بين حواضر العالم الإسلامى فى ذلك الوقت؛ حيث تصدى للتدريس بهذه المساجد أعلام العلماء، وجلة الفقهاء، وثقات المحدثين، فكانت أفواج كثيرة من طالبى العلم ومحبى هؤلاء الشيوخ يرتادون مساجدهم لسماعهم ومحاولة الاقتداء بهم، فساعد هذا كله على ازدهار الحياة العلمية والحركة الثقافية بالقاهرة.

ولقد ذكر المقريزى فى خططه عددًا كبيرًا من مساجد القاهرة التى شاركت المساجد الكبرى فى التعليم والتثقيف؛ كجامع راشدة، وجامع المقس، وجامع

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٤ صـ ٢٥٦.

(٢) السابق نفسه جـ ٤ صـ ٢٦٨.

(٣) السابق نفسه جـ ٤ صـ ٢٦٨.

(٤) السابق نفسه جـ ٤ صـ ٢٧٧.



الصالح، والجامع الأقمر[1]. هذا مع ما كانت تقوم به مساجد الأقاليم من إرشاد وتعليم كمسجد العطارين بالإسكندرية، ومسجد الفتح بدِمْياط، ومساجد مدن الصعيد الكبرى وقراها حيث كانت مراكز للعلم ومصادر للإشعاع الدينى والثقافى لها أثرها ودورها وفعاليتها.

**جـ - كثرة المكتبات العامة والخاصة:**

كثرت المكتبات العامة والخاصة فى هذا العصر، وهذا أمر طبيعى، ونتيجة حتمية لشيوع المدارس على هذا النطاق الواسع الذى تحدثنا عنه؛ فقد كان السلاطين والأمراء والوزراء يحرصون على تزويد هذه المدارس بأنفس ما أُلف فى كل العلوم والمعارف التى كانت شائعة فى ذلك الوقت من كتب ورسائل، ومن أهم تلك المكتبات مكتبة المدرسة الفاضلية التى بلغ عدد كتبها مائة ألف مجلد[2]، ومكتبة المدرسة الظاهرية التى كانت أنموذجًا يدل على حب الظاهر بيبرس للعلم، وتكريمه للعلماء، حيث جعل منها منارة علمية؛ فإنه زوّدها بأمهات الكتب العلمية فى كل فروع العلم والمعرفة، وعين لها أمينًا من ذوى الخبرة والدراية بترتيب الكتب وتنسيقها حتى يساعد المطالعين فيها والمترددين عليها من طلاب العلم[3].

ولما أنشأ المنصور قلاوون المدرسة المنصورية، والبيمارستان والقبة المنصورية حرص على تزويدها بمكتبة ضخمة وزودها بالمصاحف الكثيرة وعدد من الكتب فى التفسير والحديث والفقه والشعر واللغة، وعدد آخر من كتب الطب لتدريس العلم الدينى والدنيوى[4]. وإلى هذه المنافع جميعها يشير الشاعر المصرى معين الدين عثمان بن سعيد التنيِّسى[5] فى قوله مادحًا قلاوون:

---

(١) ينظر فى المساجد السابقة خطط المقريزى جـ ٤ من صـ ٢٨٢ إلى صـ ٢٩٤.

(٢) راجع خطط المقريزى ٤/ ٣٦٦.

(٣) الظاهر بيبرس د. سعيد عبد الفتاح عاشور صـ ١٤٦ أعلام العرب المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة د. ت.

(٤) ينظر فى البيمارستان النجوم الزاهرة حوادث سنة ٦٧٨ هـ عند الحديث عن المنصور قلاوون جـ ٧ صـ ٣٢٧.

(٥) هو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن تولو الفهرى المصرى التنيسى معين الدين أبو عمرو الشاعر، ولد بتنيس سنة خمس وستمائة ومات بمصر فى ربيع الأول سنة خمس وثمانين وستمائة، قال عنه صاحب النجوم الزاهرة: «سمع الحديث وتفقه، وكان له معرفة بالأدب وله يد=



أنشأتَ مدرسةً ومارستانا    لتُصحِّحَ الأديانَ والأبدانا[1]

هذا عدا مكتبات المساجد التى كانت شائعة وكثيرة، ولعل من أهمها فى ذلك الحين مكتبة مسجد الحاكم بأمر الله التى أنشأها السلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣هـ[2] لتكون مقصد طلاب العلم الذين يدرسون بهذا المسجد بعد انتهاء حلقات الدرس وتفرغهم للقراءة والبحث.

ولم تنصرف همة السلاطين والأمراء والوزراء وحدهم إلى إنشاء المكتبات بل كان عامة الشعب من طالبى العلم، ومحبى الأدب مولعين باقتناء الكتب النفيسة والدينية بوجه خاص مما أدى إلى كثرة عدد الوراقين والناسخين، ويصور أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام هذه الحقيقة بقوله «ولم يقتصر اهتمام الناس بالعلم على الانتظام فى الدرس بالمدارس والجوامع بل شغفوا بالكتب واقتنائها، فراجت تجارتها، وقرأ طلاب العلم كل ما كان يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية والأدبية واللغوية والطبيعية والفلكية[3]» وإن قراءة الناس لكل ما وقع تحت أيديهم - وهو كثير- من كتبٍ فى كل هذه العلوم والفنون، ليَصور من وجوه كثيرة مدى ثراء الحياة الفكرية فى مصر فى ذلك العصر.

د- كثرة الاقبال على تلقى العلم ودرسه:

مر بنا فيما سبق ما يصور كثرة إقبال الطلاب على تلقى العلم ودرسه عند الحديث عن جامع عمرو بن العاص؛ إذ أوردت نصًا للمقريزى يدل على المنزلة التى بلغتها الحياة العلمية فى مصر وقتئذ؛ حيث كان بالمسجد بضع وأربعون حلقة «لإقراء العلم لا تكاد تُبرح منه»[4] وهذا النص كما يصور مكانة المسجد الجامع العلمية حينئذ يصور من وجه آخر كيف كان الإقبال على تلقى العلم ودرسه.

---

= طولى فى النظم، وشعره فى غاية الجودة».

النجوم الزاهرة جـ ٧ صـ ٣٦٩.

(١) السابق نفسه جـ ٧ صـ ٣٢٧.

(٢) راجع الخطط المقريزية ٤/ ٢٧٨.

(٣) الأدب فى العصر المملوكى جـ١ ص ١٢٠.

(٤) الخطط المقريزية جـ٤ ص٢٥٦.



ولا شك أيضًا أن توسع السلاطين والأمراء فى هذا العصر فى بناء المدارس لم يكن عبثًا أو مظهرًا شكليا فحسب وإنما كان تلبية لحاجة المجتمع إلى هذه المدارس حتى ينتظم فيها طلابه.

ولم تكن هناك سن معينة للانتظام فى هذه المدارس، ولا فى حلقات الدرس بالمساجد، بل كانت هذه وتلك مفتحة الأبواب لكل طالب علم وبحث، وكان طلاب العلوم والمعارف لا يقنعون بما فى أقطارهم من معاهد للدرس، ولا يكتفون بما لدى أشياخهم من علم وأدب، بل كانوا دائمى الترحال يجوبون ديار الأمة العربية والإسلامية المترامية الأطراف سعيًا وراء العلم والمعرفة، حتى ولو كانوا شيوخًا فى العلم والمعرفة طبقت شهرتهم الآفاق؛ فهذا أثير الدين أبو حيان الغرناطى النفزى المتوفى ٧٢٥هـ يقول عنه صلاح الدين الصفدى «قرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث بجزيرة الأندلس، وبلاد إفريقية، وثغر الإسكندرية، وديار مصر والحجاز، وحصَّل الإجازات من الشام والعراق وغير ذلك، واجتهد، وطلب، وحصَّل، وكتب، وقيد»[١].

وهذا النص يدل على سمة أخرى من أبرز سمات العلماء المسلمين وهى سمة الموسوعية؛ فأثير الدين ليس عالمًا متخصصًا فى فن واحد، بل هو بارع حاذق لفنون كثيرة منها القراءات القرآنية، والحديث النبوى الشريف، واللغة، والنحو، والصرف، والتفسير، والفقه، والتاريخ، كما أن له باعًا طويلاً فى الإبداع الفنى إذ «له نظم ونثر وله الموشحات البديعة»[٢].

واشتهر علماء المسلمين فى هذه العصور بالأمانة فى العلم، والدقة فى الفهم، والقوة فى التحصيل، والإقبال على الطلاب النجباء وتوقيرهم.

أما الأمانة العلمية فيصورها لنا من بعض الوجوه ما حكاه الصفدى عن أثير الدين أبى حيان حيث يقول: «وهو ثَبْتٌ فيما ينقله، محرِّرٌ لما يقوله»[٣] وهو هنا يشير إلى تثبت أبى حيان من المعلومة أو الفقرة المنقولة.

---

(١) نكت الهميان فى نكت العميان للصفدى تحقيق أحمد زكى طبعة أسعد طرازونى الحسينى ١٩٨٤م ص ٢٨٠.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وأما الدقة فى الفهم، والقوة فى التحصيل: فلقد كان للصفدى القدحُ المعلَّى فى هاتين الصفتين؛ فقد حكى غير مرة إعجاب الشيخ شهاب الدين محمود بذكائه وفهمه وتحصيله يقول «ولما قرأت المقامات الحريرية على الشيخ الإمام الأديب شهاب الدين أبى الثناء محمود - رحمه الله - أنشدنى من لفظه عند وصولى فى القراءة إلى بيتى ابن سكرة مواليًا لبعضهم:

لقيتُها قُلْتُ وُقيتِي مِنَ الآفات ... باللَّهِ ارْحَمِي صَبَّكِ المضنى وإلاّ ماتْ

قالتْ تُرِيدُ بحدوتةٍ وخرافات ... تنصبعلينا وتأخذ سادس الكافات

ثم التفت إلى الحاضرين وقال: هل فيكم من يحفظ من نوع ابن سكرة شيئًا؟ فبعض القوم أنشد قول ابن التعاويذى:

إذا اجتمعتْ فى مجلسِ الشربِ سبعةٌ ... فبادِرْ فما التأخيرُ عَنْهُ صَوَابُ

شواءٌ وشمامٌ وشهدٌ وشادنٌ ... وشمعٌ وشادٍ مُطْربٌ وشَرَابُ

وسكت الباقون، فأنشدته لابن قزل(*):

عَجِّلْ إلىَّ فَعِنْدِى سبعةٌ كَمُلَتْ ... وليس فيها من اللذاتِ إعوازُ

طارٌ وطبلٌ وطنبورٌ وطاسُ طلا ... وطفلةٌ وطباهيجٌ وطنَّازُ

وأنشدت له أيضًا:

جَاءَ الخَرِيفُ وعِنْدِى مِنْ حَوَائِجِهِ ... سَبْعٌ بِهِنَّ قوامُ السمعِ والبصرِ

موزٌ ومزٌّ ومحبوبٌ ومائدةٌ ... ومسمعٌ ومدامٌ طيبٌ ومَرِى

وأنشدته لغيره أيضًا:

رَمَتْنَا يَدُ الأيامِ عَنْ قَوْسِ خَطْبِها ... بِسَبْعٍ وَهَلْ ناجٍ مِنَ السَّبْعِ سَالِمُ

غلاءٌ وغاراتٌ وغزوٌ وغربةٌ ... وغمٌّ وغدرٌ ثُمَّ غبنٌ ملازمُ

---

(*) سيف الدين على بن قزل المشد: ولد بالقاهرة سنة ٦٠٢هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦هـ يراجع فى ترجمته فوات الوفيات بتحقيق محمد محيى الدين ٢/ ١٢٩، شذرات الذهب ٥/ ٢٨٠، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/ ٧٨، وقد نشر ديوانه بمنشأة المعارف بالإسكندرية، بعناية الدكتور محمد زغلول سلام عام ١٩٩٩م. سلسلة تراث مصر الإسلامية العدد رقم (١).



فأعجبه رحمه الله ذلك وأمر بتعليقها ثم إنه قال: «إلا أن من خاصية هذا النوع أنه لا بد وأن يكون بعض هذه السبعة موصوفًا ليقوم الوزن بذلك؛ فاستقريتُ ما أحفظه، فكان كذلك»[1].

فالصفدى لا ينشد شيخه قولاً واحدًا أو قولين لابن قزل فحسب، بل ينشده له ولغيره أيضًا، ثم يفهم تعليق شيخه وتعقيبه على هذا النوع ويحفظه، وبعد انتهاء الدرس يفكر فيما قال أستاذه ويستدعى الشواهد التى يحفظها من ذاكرته، ويطبق القول النظرى على الشواهد الأدبية حتى يطمئن على صحة ما قال الشيخ.

يقول «قلت: والعلة فى ذلك أنها سبعة ألفاظ، ويريد الناظم أن يأتى بها فى بيت واحد، فيضطره الوزن إلى زيادة لفظة ليكون كل نصف فيه أربعة»[2].

ثم يحكى أن هذا الكلام ظل فى خلده أيام التحصيل والطلب حتى إذا ما انتهى من هذه المرحلة من حياته وأخذ يمارس الحياة العملية - وأغلب الظن كما يوحى المقام أنها هنا الكتابة أو التدريس - أراد أن ينظم شيئًا فى هذه المادة يقول: «فأردت امتحان الخاطر المخاطر بنظم شىء من هذه المادة بحيث يكون سبعة ألفاظ بغير زيادة وصفٍ، فاتفق ذلك»[3].

ومن شعره الذى مثّل به على ما اتفق له فى ذلك قوله:

إن قدَّر اللهُ لى فى العمر واجتمعتْ ... سبعٌ فما أنا فى اللذات مغبونُ

قصرٌ، وقدرٌ، ووقَوَادٌ، وقَحْبَتُهُ ... وقهوة، وقناديلٌ، وقانونُ[4]

ويقول: وقلت فى الجمع بين ثمانية:

إلى متى أنا لا أنفكُّ فى بلدٍ ... رهينُ جيماتِ جورٍ كلُّها عطبُ

الجوعُ والجرىُ والجيرانُ والجدرى ... والجهل والجبن والجرذان والجرب[5]

(١) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ٢ ص ٤٥٨، ص ٤٥٩ دار الكتب العلمية بيروت د.ت.

(٢) السابق نفسه ٢/ ٤٥٩.

(٣) السابق نفسه ٢/ ٤٥٩.

(٤) السابق نفسه ٢/ ٤٥٩.

(٥) السابق نفسه ٢/ ٢٦٠.

وأما الإقبال على الطلاب النجباء واحترامهم وتوقيرهم فقد كان ديدن هؤلاء العلماء؛ يقول الصفدى عن أثير الدين أبى حيان الغرناطى: «وله إقبال على الطلبة الأذكياء، وعنده تعظيم لهم»(١).

هـ- جمع عدد من الشعراء لدواوينهم الشعرية ونتاجهم الفنى:

من مظاهر انتعاش الحركة الفكرية فى مصر فى ذلك العصر جمعُ عدد من الشعراء لدواوينهم الشعرية ونتاجهم الفنى، فى هذه الفترة أو ما قبلها بقليل، وإن من يقرأ الغيث ليدرك تمام الإدراك أن دواوين الشعراء تشكل جزءًا أساسيًا من مصادر الشرح على ما سنبين فيما بعد(٢)، وأن من بين هذه الدواوين التى اعتمد الصفدى عليها فى شرح اللامية دواوين الشعراء المصريين فى عصره وما قبله من عصور.

وقد أجمعت المصادر التى أرَّخت لشعراء هذه الفترة على جَمْع عدد كبير منهم لدواوينهم الشعرية، ونتاجهم الفنى، بل إن هذه المصادر تدلنا على أن بعض هذه الدواوين قد حاز شهرة واسعة؛ إما لجودته الفنية، وإما لأنه يشتمل على موضوع واحد، وإما لأنه يشتمل على فن واحد من فنون النظْم وغالبًا ما يكون الموشح.

ويأتى فى مقدمة هؤلاء الشعراء شهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠هـ(*) وكان شاعرًا مجيدًا قال فيه ابن تغرى بردى: «وكان له النظم الرائق، وله ديوان شعر مشهور»(٣) وقال: «والعزازى هذا صاحب الموشحات الظريفة المشهورة»(٤).

وكذلك الشاعر ابن المرحل(٥) وكان شاعرًا مصريًا مجيدًا، أثنى صاحب النجوم

---

(١) نكت الهميان ص ٢٨٠.

(٢) فى الفصل الخاص بمصادر الشرح.

(*) شهاب الدين العزازى هو أبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم بن عبد العزيز بن جامع شهاب الدين العزازى حيث ينسب إلى بلدته عزاز من بلدان الديار الشامية والتى بها ولد ونشأ وتربى، رحل إلى القاهرة وعاش بها من عمله بالتجارة وقد برع فى الموشحات وكانت وفاته عام ٧١٠هـ راجع: الدرر الكامنة ١/ ١٩٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٤، المنهل الصافى ٩/ ٢٦٣، الأعلام ١/ ١١٤.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٩ ص٢١٤.

(٤) السابق نفسه جـ٩ ص٢١٤.

(٥) هو صدر الدين أبو عبد الله محمد بن زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد العثمانى المعروف بابن المرحل، وابن الوكيل ولد سنة ٦٦٥هـ، وتوفي سنة ٧١٦هـ، راجع ترجمته في الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ١/ ٢٧.



الزاهرة على شعره وقال: «وله الشعر الرائق الفائق فى كل فن من ضروب الشعر»[1] وقال - أيضًا -: «وقلت: وله ديوان موشحات»[2].

وثمة شاعر ثالث لا أرتاب فى أنه جمع شعره بنفسه هو شمس الدين محمد ابن عفيف الدين التلمسانى(*) المتوفى سنة ثمان وثمانين وستمائة، الذى قال فيه صاحب النجوم الزاهرة: «وشعره فى غاية الحسن والجودة، وديوان شعره مشهور بأيدى الناس»[3].

ولقد وقع هذا الديوان فى يد الصفدى، بل وقعت أنفسُ نسخه فى يد الصفدى؛ وهى التى كتبها الشاعر بخط يده، وانتخب الصفدى منها الكثير ونقل منه فى الغيث.

والصفدى يصرِّح فى غير موضع أن ما ينقله عن شمس الدين التلمسانى إنما ينقله من خط يده، ولقد امتدح الصفدى شعر التلمسانى فى مناسبات عديدة ووصفه بالحلاوة والرشاقة يقول: «ألا ترى إلى قول شمس الدين محمد ابن العفيف التلمسانى ومن خطه نقلتُ:

وَعُيُونِ أمْرَضْنَ جِسْمِي وأَضْرَ ... مْنَ بِقلبِي لَواعجَ البَلْبَالِ

وخُدودٍ مثْلِ الرِّيَاضِ زَوَ ... اهِ ما لأيامِ حُسْنِهَا مِنْ زَوَالِ

لَمْ أكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّـ ... ـهُ وإنى لِجَمْرِهَا اليَوْمَ صَالِى

ما أحلاه وأرشقه، وكيف خدمته لفظة «جناتها» فصارت من «الجَنى» لا من الجناية»[4].

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٩ ص ٢٣٤.

(٢) السابق نفسه جـ٩ ص ٢٣٤.

(*) هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمسانى المعروف بالشاب الظريف، ولد بالقاهرة عام ٦٦١هـ، ومات عام ٦٨٩هـ، تراجع ترجمته فى النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧١، البداية والنهاية ١٣/ ٣١٥، شذرات الذهب ٥/ ٤٠٥.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٨١.

(٤) الغيث المسجم ١/ ١١٩.

ويصفه بالسحر الحلال الذى يلعب بالعقول فيقول: «وما أحسن قول شمس الدين محمد بن التلمسانى منقولاً من خطه:

فَكَمْ يتجافَى خَصْرُهُ وَهْوَ نَاحِلٌ ... وَكَمْ يَتَحَالَى ثَغْرُهُ وَهْوَ بَارِدُ
وَكَمْ يَدَّعِي صَوْنًا وَهَذِى جُفُونُهُ ... بِفَتْرَتِها لِلْعَاشِقِينَ تَوَاعُدُ

قلت: هذا هو السحر الحلال الذى يلعب بالعقول، ويدع الإعجاب بحسنه يقوم ويقول»[1].

ويطول بنا الحديث إن تتبعنا كل المواطن التى استعان فيها الصفدى بشعر التلمسانى[2]، بَيْدَ أن ما يجدر أن يلتفت إليه هو قوله فى كل مرة «ومن خطه نقلت» فهى تدل دلالة واضحة على جمع الشاعر ديوانه بنفسه، وكتابته إياه بخط يده، وكان من الممكن أن لا تدل على ذلك إذا كررها الصفدى مرتين أو ثلاث مرات مثلاً، فحينئذ يجوز أن نقول: لقد أعطى الشاعرُ الصفدىَ القصيدةَ أو القصائدَ بعد أن كتبها مثلاً، أما وقد توفى الشاعر قبل أن يولد الصفدى، وقد تكررت إشارة الصفدى «ومن خطه نقلت» فليس لها من دلالة سوى ما أشرنا إليه من جمع الشاعر لشعره بخط يده.

وما قيل فى شعر شمس الدين التلمسانى يمكن أن يقال مثله فى شعر السراج الوراق، وكان هذا الديوان المكتوب بخط صاحبه مصدراً مهمًا من المصادر التى اعتمد الصفدى عليها فى شرحه لامية العجم، حيث ضمَّن الشرحَ جزءاً كبيراً من شعر صاحبه، وصرح فى غير مرة أنه ينقل من خط السراج الوراق، وهو أحيانًا يورد بيتًا، وأحيانًا يورد عدة أبيات، وطوراً يورد عدة مقاطع، فمثال إيراده بيتًا قوله عند الحديث عن قول الشاعر:

وَلا بُدَّ مِنْ شكْوَى إلى ذِى مُرُوءَةٍ ... يُواسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

«رأيتُ بخط السراج الوراق - رحمه الله تعالى - بيتا قد زاده على هذا البيت وجعله ثانيًا له حيث يقول:

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٨٩.

(٢) ويمكن لمعرفة مزيد من هذه النصوص المنقولة من خط ابن التلمسانى أن يراجع الغيث ١/ ١٣٧، ١/ ٢٠٣، ١/ ٢٦٥، ٢/ ٢٢ على سبيل المثال.

وإن كـانَ مِن وَصفِ المروءةِ خاليًـا ... يُرائيك أو يُكيك أو ليس يَسْمَعُ»[1]

ومثال إيراده عدة أبيات قوله: «ونقلت من خط السراج الوراق قوله له:

هذا وَجُوخَتِي الزَّرْقَاءُ تَحْسَبُهَا ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي سَرْدٍ وإتْقَانِ

قَلَبْتُهَا فَغَدَتْ إذْ ذَاكَ قَائلَةً ... سُبْحَانَ رَبِّي بَلَى قَلْبِي وأَبْلانِي

إنَّ النِّفَاقَ لَشَيْءٌ لَسْتُ أَعْرِفُهُ ... فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنِّي الْيَوْمَ وَجْهَانِ

لَوْ أنَّ صَاحِبَنَا الْجَزَّارَ أَبْصَرَهَا ... على أبصَرَ لبدًا فوقَ جَرْبَانِ»[2]

ومثال إيراده عدة مقاطع قوله: «ونقلت من خط سراج الدين عمر الوراق له:

تَوَارَتْ مِنَ الْوَاشِي بِلَيْلِ ذَوَائِبٍ ... لَهُ مِنْ جَبِيْنٍ واضحٍ تَحْتَهُ فَجْرُ

فَدَلَّ عَلَيْهَا شَعْرُهَا بظلامِهِ ... وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

ونقلت له منه في بخيل صُدِع[3]:

وبَاخِلٍ يَشْنَأُ الأضْيَافَ حَلَّ بِهِ ... ضَيْفٌ مِنَ الصَّدْعِ نزَّالٍ عَلى القممِ

سَأَلْتُهُ مَا الَّذِي تَشْكُو فَجَاوبَنِي ... ضَيْفٌ أَلَمَّ برأسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ

ونقلت منه له - أيضًا -:

إذا مـا جـعلتم جـفنة الصلـح سكرا

فـقـد جئتم الأمـرَ الذى كـانَ أصلَحـا

وأنـتم أحـقُّ النـاس أن تنشـــدوننا

لنا الجـفنات الغُرُّ يـلمعن فى الضـحى»[4]

وتارة يسهب فى النقل حتى يبلغ ما ينقله عشرة مقاطع، وأحيانًا يورد له أبياتًا ليست بالديوان أو ليست بخط الوراق وينص على أنها ليست بخطه أو لم يرها بخطه؛ يقول: «وله ولم أره بخطه.

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١٥٦.

(٢) السابق نفسه جـ١ ص ١٤٥.

(٣) النص فى الغيث «صفع»، ولعل «صفع» تحريف والصواب «صدع» كما ذكرت.

(٤) السابق نفسه ص ١٢٢، ص ١٢٣.



وَسَقِيمِ الْجُفُونِ أَوْدَعَهُ اللـــ ـــهُ بِذَاكَ السَّقَامِ سِرًّا خَفِيًّا

غلبتْ مُقلتَاهُ قَلْبِي عِشْقًا وَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيًّا»[1]

وكما جمع الشعراء دواوين أشعارهم، جمع العلماء أيضًا ما لهم من شعر فى دواوين ومؤلفات؛ كالعلامة أثير الدين أبى حيان الذى يقول عنه الصفدى: «وانتقيت ديوانه وكتبته وسمعته منه[2]»، وكشافع بن على بن عباس بن إسماعيل ابن عساكر - الذى راسله الصفدى وراسل الصفدى - قد جمع ديوانه، وأجاز الصفدى فى روايته عنه؛ يقول الصفدى: «وذكر لى تصانيفه التى أجازنى روايتها عنه، وهى ديوان شعره، مناظرة الفتح بن خاقان المسمى شنفُ الآذان فى مماثلة تراجم قلائد العقيان...[3]».

ولا شك أن الشعراء والعلماء المبدعين فى هذا العصر لا يحصون كثرة، ويطول بنا المقام إن وقفنا ندلّل على جمعهم لدواوينهم الشعرية جميعًا، فحسْبُنا ما مضى من حديث؛ فهو يدل على هذا المظهر من مظاهر انتعاش الحياة الفكرية بمصر فى ذلك العصر.

و- مسايرة الحركة النقدية للحركة الإبداعية فى الشعر والنثر:

لست أعنى بالحركة النقدية هنا ما كتبه نقاد العصر وبلاغيوه من بحوث ودراسات تناولت الكشف عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، أو تناولت الأدب العربى شعره ونثره فيما سبق من عصور بالتحليل، والتقويم وبيان خصائصه وسماته، وبيان أثر السابقين فى اللاحقين، وسرقات اللاحقين من السابقين من الأدباء، فهذه دراسات يتوفر عليها العلماء والمتخصصون، وتدل دلالة قاطعة على خصوبة الحياة العلمية وجديتها. وإنما أعنى بها تلك الحركة المتتبعة والناقدة لآثار أدباء العصر وعلمائه فى كل فنون النظم والنثر، فقد رأينا فيما سبق كيف كانت الحياة الأدبية قائمة على قدم وساق، وكيف عنى الشعراء والعلماء بآثارهم الفنية فدونوها بأنفسهم، وأجازوا النابهين من طلابهم فى روايتها مما أدى إلى قيام حركة نقدية تناولت هذه الأعمال الفنية بالتحليل والتقويم أو بالشرح والتفسير.

---

(1) الغيث المسجم جـ1 ص ١٢٣.

(2) نكت الهميان فى نكت العميان ص ٢٨١، ٢٨٢.

(3) السابق نفسه ص ١٦٤، ص ١٦٥.



وإذا كنا قد رأينا للنقد العربى فى آثار السابقين بحوثًا ودراسات مستقلة تقسم المبدعين إلى طبقات أو تحلل آثارهم، فإننا نرى النقد الأدبى - فى هذا العصر - وقد اندمج مع الأدب، ولم تعد له دراسات مستقلة كما كان الأمر فى العصور السابقة، وأصبح الباحث محتاجًا لكى يدرس النقد فى هذه الحقبة إلى أن يلتمسه فى كتب المجاميع الأدبية، وعلى هذا فليس بصحيح ما شاع بين الدارسين من أن النقد قد اندمج مع البلاغة، أو تحول إلى بلاغة[1]، وإنما الصحيح أن البلاغة قد استقلت عن النقد وقعّدت قواعدها، وأُلِّفَتْ الكتب المستقلة فيها، واتخذ النقد الأدبى سبيله إلى كتب الأدب الجامعة التى احتوته واجتذبته، ومن يقرأ كتب الأدب العامة سواء تلك التى كتبها المصريون أم تلك التى كتبها الشاميون يدرك تمام الإدراك كيف اتخذ النقد الأدبى سبيله إلى هذه الكتب، وكيف أفسح هؤلاء النقاد - فى هذه الكتب - المجال لنقد آثار معاصريهم الفنية؛ فالصفدى على سبيل المثال فى «تشنيف السمع» يتناول كثيرًا من شعر أهل العصر بالنقد والتحليل، يستوى فى ذلك عنده الشعراء المصريون كأبى الحسين الجزار، والسراج الوراق وغيرهما، وشعراء الديار الشامية كمجير الدين محمد بن تميم، وشهاب الدين أبى الثناء محمود وغيرهما؛ ففى الباب الأول الذى جعله «فى أوان البكاء» أورد قول أبى الطيب:

كَأَنَّ الْعِيسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِى ... مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا سِرْنَ سَارَا

ثم أشار إلى تضمين مجير الدين محمد بن تميم للنصف الأول من هذا البيت بقوله: «وقد ضمَّن النصف الأول من هذا البيت مجيرُ الدين بن تميم فقال:

وجِيرانٍ أَلِفْتُهُمُو زَمَانًا ... فَأَبْعَدَهُمْ نَوَى الْحَدَثَانِ عَنِّى

أَثَارُوا عِيسَهُمْ فَجَرَتْ دُمُوعِى ... كَأَنَّ العِيسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِى»[2]

---

(١) يرى الباحث أن هناك سببين رئيسين تسببا فى شيوع هذه الفكرة هما: ما يقابل الدارس فى هذه الفترة من كثرة المؤلفات البلاغية ومن طغيان المذهب البديعى على الأدب والفن من جهة، وعدم نشر الكثير من الكتب والمؤلفات المخطوطة والمطبوعة لعلماء هذه العصور نشرًا علميًا محققًا من جهة أخرى.

(٢) تشنيف السمع بانسكاب الدمع: صلاح الدين الصفدى مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر د. ت نسخة مصورة عن دار الكتب ص ٣٩، ٤٠.

وفى الباب السادس من الكتاب يورد الأبيات الآتية لسراج الدين الوراق:

ودمـــوع فـى إثْرِهِـنَّ دِمَـــاءٌ     كـانسكَابِ الوَلْـى بَعْـدَ الوَسْـمِى
تراكـضْنِ بَيْنَ شُــهُبٍ وَجَـمْــرِ     والغَــوَانِى يَبْكِـينَ حَـوْلِـى بِدُهْمِ
وَزِنَاءُ الـعُــيُـــونِ تَطْهُـــرُهُ مِنْ     شُــهُبِ الـدَّمْعِ فَى الظَّـلاَمِ بِرَجْمِ

ثم يعلق عليـها بقوله «قلت: انظـر كيف أتى بذكر الرجم مـشتـركًا بين رجم النجوم وغـيره، وأيده بلفظ الـشهب التى وطأ بهـا فى كون الدمع، وأكـده بذكر الظلام، فلما كثرت التـوطئة جاز ذكر الرجم فى موضعه مـتمكنًا من القواعد التى قررها له، والدُّهْمُ فى قوله ليست صفـةَ الدمع، بل هى صفة العيون لأنه جاء فى ذكر الغوانى»[1].

وإذا كان الصفدى قد تناول ما اختاره من شعر معاصريه بالنقد، فإنه أيضًا يتناول شعر الشعراء السابقين لهم فـى القرنين الخامس والسادس بالنقد والتحليل، يجلى محاسنه، ويظهر معايبه، وينقّب عن أصول ألفاظـه ومعانيه فى شـعر الأولين، ومثال ذلك أنه عند الحديث عن تشبيه الدمع باللؤلؤ أورد قول الأرجانى:

لَمْ يَـسْأَرُوا فِى كَأسٍ دَمْعِى فَـضْلَةً     عَنْكُم فَـأجْـعَلُهَـا نَـصِيبَ الأرْبُعِ
هُوَ ذَلِكَ الدُّرُّ الـذى أَلْقَـيْـتُـمُـو     فِى مَـسْمَـعِى أَلْقَـيْـتُهُ مِنْ أدْمُـعِى

ثم يعقب عليه بقـوله إنه يشبه قولَ محمود الخـوارزمى صاحب الكشاف يرثى شيخه أبا نصر:

وقـــائلـةٍ مَـــا هَذِهِ الدُّرَرُ الـتى     تَساقَطُ مِنْ عَيْنَيْكَ سِمطَينِ سِمطَينِ
فَقُلْتُ لها الدُّرُّ الذى مِنْهُ قَدْ حَشَى     أبُو نَصْرٍ أذْنِى تَساقَطَ مِنْ عَيْنِى»[2]

وهو فى هذا التعقيب لا يشرح قول الأرجانى وإنما يقف بالقارئ على مصدره، أو يسوق للقارئ ما يشبهه من كلام معاصريه فـيورد بيتى الخوارزمى، ولم يكتف الصفـدى بهذا التعقـيب على بيتى الأرجانى، وإنما يـتعدى هذا إلى بيان صـعوبة الحكم باختـلاس أحدهما المعنى من الآخـر لأنهما متـعاصران، ثم لا يزال يـتتبع

---

(١) تشنيف السمع بانسكاب الدمع: صلاح الدين الصفدى ص ٥٤.

(٢) تشنيف السمع بانسكاب الدمع ص ٧١.

المعنى حتى يقف به عند أبى العلاء المعرى فيقول: «والأرجانى وصاحب الكشاف رحمهما الله تعالى كانا متعاصرين؛ لأن الأرجانى توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وصاحب الكشاف توفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة؛ فما تحكم لأحدهما أنه أخذ المعنى من الآخر، نعم إن الأرجانى أقعد منه بالشعر وبتخيل المعانى، وليس أحدهما بصاحب المعنى؛ لأن أبا العلاء المعرى توفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة وقد قال:

وأَلْقَيْنَ لِى دُرًّا فَلَمَّا عَدَدْتُهُ ... غَنَّى مَسَحَتْهُ شقوةُ الخَدِّ أَدْمُعِى»[1]

كما تقابلنا فى هذا الكتاب من كتب الموضوعات الأدبية آراء نظرية مهمة فى النقد من مثل قوله: «وقلَّ من تجد كلامه ينخرط فى سلك واحد إذا أجاد، فإذا ظفرت به فذلك الفذ الذى يُعَدُّ من الأفراد، وأبو عبادة البحترى ممن لا يعلو ولا يسفل، بل هو نموذج واحد، فكل كلامه من البسائط التى جزؤها يشبه كلها»[2] ومن مثل قوله فيما يقع فيه الشعراء من التناقض: «وربما عاب بعضُ الناس مثلَ هذا على الشعراء إذا تناقض كلامهم، وليس ذلك على إطلاقه، بل هو مشروط أن يكون ذلك فى مقام واحد، أعنى فى قصيدة واحدة، أما إذا كان التناقض فى قصيدتين فلا يعد ذلك عيبًا كقول امرئ القيس:

فَلَو أنَّ مَا أسْعَى لأدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِى وَلَمْ أَطْلُبْ قليلٌ مِن الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِى

ثم إنه قال من قصيدة أخرى:-

إذَا لَمْ يَكُنْ إبلٌ فَمَعْزَى ... كَأَنَّ قُرُونَ حُلَّتِها عِصِىُّ

فَتَمْلأُ بَيْتَنَا أَقِطاً وَسَمْناً ... وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِىُّ»[3]

ثم استشهد بأبيات أخر للمتنبى وقال: «ودواوين الشعراء ملأى من التناقضات فى اختلاف المقام، ولم يعدّ النقاد ولا الحذاق ذلك عيبًا؛ لأن الشاعر يتكلم على حسب حالاته وما تُحدثه به نفسه من السلو مرة، ومن دوام الحب أخرى، ومن القناعة مرة، ومن الغنى أخرى. . .»[4].

---

(١) تشنيف السمع بانسكاب الدمع ص ٧١.
(٢) السابق نفسه ص ٢١.
(٣) السابق نفسه ص ٤٩، ص ٥٠.
(٤) السابق نفسه ص ٥٠.



وعلى هذه الطريقة يمضى الصفدى فى هذا الكتاب، وهكذا ترى الكتاب الأدبى وقد تحول إلى كتاب نقدى يفسح فيه صاحبه أوسع مجال للنقد الأدبى بشقيه النظرى والتطبيقى.

كما نرى المؤرخين فى كتب التراجم عند حديثهم عن الشعراء يتحدثون عن دواوينهم الشعرية وأشعارهم، ويوردون أطرافًا منها، وقد يعلقون عليها، وكثيرًا ما تحمل تعليقاتهم آراء نقدية فى غاية الأهمية؛ فابن كثير المؤرخ والمفسر يتحدث عن الصفدى فيقول «وأنشدنى القاضى صلاح الدين الصفدى .... لنفسه فيما عكس عن المتنبى فى يديه من قصيدته وهو قوله:

إذا اعتادَ الْفَتَى خَوْضَ المَنَايَا ... فَأيْسَرُ مَا يَمُرُّ بِهِ الْوُصُولُ

قال:

دُخُولُ دِمَشْقَ يُكْسِبُنَا نُحُولا ... كَأنَّ لها دُخُولاً فِى الْبَرَايَا

إذَا اعْتَادَ الغَرِيبُ الْخَوْضَ فِيهَا ... فَأيْسَرُ مَا يَمُرُّ بِهِ الْمَنَايَا»[1]

ولا يكتفى ابن كثير بإيراد ما أنشده إياه الصفدى، بل يعلق على الأبيات تعليقًا يصفها فيه بالحسن والقوة، ويصف عكسه لبيت المتنبى بالصحة لأنه عكسه لفظًا ومعنى؛ يقول «وهذا شعر قوى، وعكس جلى لفظًا ومعنى»[2].

وصفوة القول إن النهضة الأدبية فى هذا العصر قد أدت إلى ظهور حركة نقدية مماثلة لها فى القوة والوضوح.

❊ ❊ ❊



(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ١٤ ص ٢٩٨ دار الفكر العربى د. ت.

(2) السابق نفسه ص ٢٩٨.

## ثالثا: الحركة الفكرية فى الشام عوامل إذكائها، ومظاهر انتعاشها:

إذا كان قد قُدِّرَ لمصر أن تكون مركز الثقل الثقافى والحضارى فى المنطقة فى هذا العصر، وأن تحمى التراث الإسلامى الزاخر وتصونه من الضياع، فإن الشام قد كانت من ورائها تحمل بعض العبء، وتسهم بنصيب فى الحفاظ على ما تبقى من آثار آبائنا وأجدادنا بما تهيأ لها من وسائل وعوامل أدت إلى استقرار الحياة بها وانتظام الأمور فيها على نحو أوحى بالثقة والأمان لنفر من جلَّة علماء بغداد الذين دهمهم الغزو التترى فشدوا رحالهم إليها، واستقر ببعضهم الحال فى دمشق، واستقر الحال ببعضهم الآخر فى حلب وغيرها من سائر البلدان الشامية.

أما دمشق فقد كانت عاصمة الديار الشامية، ولم يكن ببلاد الشام يومها مدينة تضاهيها جمالا وهدوءًا، وبها ذلك الجامع العتيق الذى بناه الخليفة الأموى الوليد ابن عبدالملك، وهو أقدم أثر ثقافى إسلامى بها، ولقد قام هذا الجامع بدور رائد فى هذا العصر؛ إذ انتظمت به حلقات الدرس، وكان مصدر نور وهداية وعرفان؛ حيث تخرج فيه مشاهير علماء العصر ونبغاؤه فى كل الميادين، ودرَّس فيه عدد جم من شيوخ العلم، وكبار المحدثين والفقهاء فى كل العصور[1].

وكان بها عدد كبير من المدارس التى أُنشئت زمن الأيوبيين لتعليم العلوم الدينية والدنيوية جميعا، من مثل المدرسة النورية الكبرى[2] والمدرسة النورية الحنفية الصغرى[3] وقد أنشأهما نور الدين محمود بن زنكى، والمدرسة التقوية التى بناها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين[4]، ودار الحديث النورية[5]، ودار الحديث الأشرفية[6] ودار الحديث الأشرفية البرانية[7]، كما كان بها عدد من المدارس لتعليم الطب من مثل المدرسة الدخوارية[8] التى أنشأها مهذب الدين عبدالرحيم بن على

---

(١) راجع فى الحديث عن هذا المسجد: الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢/ ٣٧١ - ٤١٦.

(٢) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٦٠٦ وما بعدها.

(٣) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٦٤٨ وما بعدها.

(٤) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٢١٦.

(٥) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٩٩.

(٦) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ١٩.

(٧) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٤٧.

(٨) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ٢/ ١٢٧.



ابن حامد المعروف بالدخوار عام ٦٢١ هـ والمدرسة الدنيسرية[١] التى أنشأها عماد الدين الربعى الدنيسرى، والمدرسة اللبودية التى أنشأها عام ٦٦٤ نجم الدين يحيى ابن محمد بن اللبودى[٢]، ونشطت الحركة العلمية بهذه المدارس نشاطا ملحوظا، وازداد نشاطها فى عهد المماليك، فكثر إقبال الطلاب على تلقى العلوم والمعارف بها، وكانت وفود العلماء تذهب إليها من مصر لتقوم بالتدريس بها وبغيرها من المدارس التى أنشأها المماليك؛ كالمدرسة الظاهرية الجوانية التى أنشأها السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠ هـ [٣] مما أدى إلى ازدهار الحياة الفكرية والعلمية والأدبية بدمشق، وساعد على كثرة علمائها ومفكريها فى ذلك العصر.

ولم يكن بناء المدارس في دمشق وقفًا على الأمراء والسلاطين من بنى أيوب ومن خلفوهم فى حكم البلاد كسلاطين المماليك فحسب، بل كان كثير من ذوى اليسار يسهمون فى بناء المدارس؛ كنفيس الدين أبى الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن سلامة بن على بن صدقة الحرانى الذى كان ذا ثروة من المال أوقفَ منها دارًا للحديث سميت بدار الحديث النفيسية[٤]، بل إن بعضهم كان يوقف بآخرة من عمره داره التى كان يسكنها على التدريس مثلما فعل بهاء الدين أبو محمد القاسم بن بدر الدين أبى غالب المظفر الذى أوقف داره على دراسة الحديث وسميت بدار الحديث البهائية[٥].

وفى هذه الأعصر المتقدمة وعت المرأة دورها الاجتماعى، وما يمكن أن تقوم به من عمل يسهم فى رقى الأمة الإسلامية معرفيًا؛ فقد حدثنا النعيمى فى الدارس عن المدرسة الأتابكية التى أنشأتها خاتون بنت عز الدين مسعود، وكانت من أكبر مدارس الشافعية بدمشق[٦]، ودرَّس بها مشاهير علماء العصر من مثل تاج الدين الإسكندرى الشحرور (ت ٦٦٣هـ)، وصفِىِّ الدين الهندى (ت ٧١٥هـ)، ونجم

---

(١) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ٢/ ١٣٣.

(٢) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ٢/ ١٣٥.

(٣) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ٣٤٨.

(٤) راجع فى الحديث عن هذه الدار: الدارس ١/ ١١٤.

(٥) راجع فى الحديث عن هذه الدار : الدارس ١/ ٥٥.

(٦) راجع فى الحديث عن هذه المدرسة: الدارس ١/ ١٢٩.





الدين بن صصرى (ت ٧٢٣هـ)، ومحيى الدين بن جهبل (ت ٧٤٠هـ)، وتقى الدين السبكى (ت٧٥٦هـ) وغيرهم.

وأما حلب فقد كانت ثانى مدن الشام بعد مدينة دمشق، وتهيأ لها ما تهيأ لدمشق من انتعاش فكرى؛ فقد كان بها عدد كبير من المدارس كالمدرسة الزجاجية التى أنشأها سنة ٥١٥ هـ بدر الدولة سليمان بن أرتق، والمدرسة العصرونية[1] التى أنشأها سنة خمس وأربعين وخمسمائة نور الدين محمود بن زنكى الذى بنى عددا آخر من المدارس بسائر بلدان الشام كحماة، وحمص، وحران، والقدس[2]. ولقد اهتم نور الدين محمود بن زنكى بدمشق وحلب وسائر مدن الشام، وأراد أن تكون الشام قلعة فكرية، وأن تمتلئ مدن الشام الكبرى بأساطين أهل الفكر حيث ذكر الأستاذ الرئيس محمد كُرد على أنه «كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابورى، وشرف الدين بن أبى عصرون، وكان يبنى لهم المدارس، ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الإحسان والمراتب[3]؛ لذا كثر العلماء بهذه الديار حتى لقد أُحْصِى فقهاء الشام فى عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه[4].

هذا عدا المحدثين، والمفسرين، والمؤرخين، واللغويين، والأدباء، والأطباء، والمهندسين، وغيرهم، ولا شك أن هذه الكثرة تصور من بعض الوجوه كيف كان رقى الحياة الفكرية فى ذلك الوقت، هذا الرقى الذى هيأ للشام أن تتبوأ فى العصر المملوكى الأول مكانة مرموقة بين أقاليم المجتمع الإسلامى، وأن تكون قبلة يؤمها طلاب العلوم والمعارف رغبةً فى تلقى العلم على أيدى شيوخها ومفكريها.

ولقد أورد الأستاذ محمد كرد على فى كتابه خطط الشام جريدة[5] بأسماء أشهر علماء الشام فى القرون السادس، والسابع، والثامن فى كل فروع العلم والمعرفة التى كانت شائعة فى ذلك الوقت كالطب، والفلك، والرياضة، والهندسة، والفلسفة، والمنطق، واللغة، والنحو، والتاريخ، والحديث، والقراءات القرآنية،

---

(١) راجع فى الحديث عن هاتين المدرستين: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد أحمد بدوى ص ٧٠.

(٢) راجع فى الحديث عن مدارس هذه البلدان الحياة العقلية - مرجع سابق ص ٧٢ وما بعدها.

(٣)، (٤) خطط الشام ٤/ ٣٩.

(٥) خطط الشام جـ ٤ ص٣٨ ومن صـ٤٣ صـ٥٥.

والأدب الذى ازدهرت فنونه وكثر دارسوه، ولمعت فى سماء دمشق أسماء كثيرة لعدد كبير من بلابله الصداحة كشهاب الدين أبى الثناء محمود الذى جمع عدداً من قصائده فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى ديوان أسماه أسنى المنائح فى أهنى المدائح[1]، وكمجير الدين محمد بن تميم الذى جمع ديوان شعره بنفسه - فيما يبدو لى- لأنه قد توفى سنة أربع وثمانين وستمائة أى قبل ميلاد الصفدى باثنى عشر عاما تقريبا، على حين نجد الصفدى ينقل عن ديوانه فى الغيث ويصرح فى كل مرة أن ما ينقله من خط يد مجير فيقول مثلا: «وما أحلى قول مجير الدين محمد بن تميم، وقد اجتاز ليلةً بدار صاحبٍ له ومعه شمعة وقد طفئت، فأوقدها من داره، ومن خطه نقلت:

لَمَّا أَزَرْتُكَ شَمْعَتَى لِتُنِيرَهَا ... جَاءَتْ تُحَدِّثُ عَنْ سِرَاجِكَ بِالْعَجَبْ

وَأَتَتْهُ حَاسِرَةً فَقَبَّلَ رَأْسَهَا ... وَأَعَادَهَا نَحْوِى بِتَاجٍ مِنْ ذَهَبْ»[2]

وفى موطن ثان يقول بعد أن أورد له عدداً كبيرا من المقاطع الشعرية «وعلى الجملة فمحاسنه فى التضمين كثيرة إلى الغاية، وأكثر ما أجاد فى التشبيه والتورية والتضمين، وقال فى كثرة تضمينه، وكل ما أوردته له نقلته من خطه:

أُطَالِعُ كُلَّ دِيوَانٍ أَرَاهُ.... ... وَلَمْ أَزْجُرْ عَنِ التَّضْمِينِ طَيْرِى

أُضَمِّنُ كُلَّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنًى ... فَشِعْرِى نِصْفُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِى»[3]

ولا شك أن كثرة عدد الشعراء من ناحية، وجمع مجير الدين محمد بن تميم وغيره لآثارهم الفنية من ناحية أخرى، ليصور ثراء الحياة الفكرية بالشام فى ذلك العصر.

## رابعا: صورة الحياة الفكرية فى العصر كما رسمها الصفدى فى الغيث:

رسم الصفدى فى الغيث صورة واضحة الملامح والقسمات للحياة الفكرية فى العصر بكل سماتها وخصائصها، وهذه الصفحات تحاول أن تقترب من الصورة لتتعرف على إطارها العام وخطوطها الرئيسية.

---

(١) الغيث المسجم ١/ ١١٤، وقد طبع هذا الديوان بمطبعة جريدة الشورى بمصر فى أوائل القرن العشرين.

(٢) السابق نفسه صـ٤٨.

(٣) الغيث المسجم جـ ١ صـ ١٢٢.

١ - والصفدى لا يلتزم فى الغيث بشرح أبيات اللامية شرحا لغويا وأدبيا فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى الحديث عن كل ما يستطيع من علوم العصر العقلية والعملية؛ كالكيمياء، والطب، والرياضيات، والفلسفة، والدينية كالفقه، والتفسير، والحديث، والإنسانية؛ كالتاريخ، والأدب، واللغة.

وسبيله إلى الحديث عن هذه العلوم الاستطراد والانتقال من موضوع إلى موضوع، ومن فن إلى فن، وهو عند حديثه عن العلوم التجريبية بلغة عصرنا أو العقلية بلغة عصرهم كالطب والكيمياء والرياضيات وغيرها لا يُلقى الكلام على عواهنه، وإنما ينسبه إلى أربابه.

أ - فقد عقد فصلاً فى أول الكتاب عن الكيمياء، وذلك بمناسبة الحديث عن الطغرائى، وبراعته فى علم الكيمياء، تحدث فيه عن تاريخها ومعناها، وتحدث عن إمكان صناعة الذهب من الزئبق والكبريت الطائرين فقال: «قال الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى: «أما إن أراد المدبر أن يصنع ذهبا نظير ما صنعته الطبيعة من الزئبق والكبريت الطائرين فيحتاج إلى معرفة أربعة أشياء: كمية كل واحد من ذينك الجزأين، وكيفية ومقدار الحرارة الفاعلة للطبخ وزمانه، وكل واحد منها عَسِرُ التحصيل»[1].

فهذا النص يدل دلالة واضحة على معرفة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى بالكيمياء، ومعرفته بطرق إجراء التجارب العلمية العملية، وهذا اللون من ألوان العلوم والمعارف التى كانت شائعة فى ذلك العصر سجله الصفدى فى الغيث.

ب- والصفدى يسجل فى الغيث معرفة أهل عصره بالطب وقراءاتهم كتاب القانون لابن سينا يقول: «أخبرنى الشيخ الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى قال: أخبرنى الحكيم علم الدين عبدالرحيم ابن أبى خليفة رئيس الأطباء عن والده الحكيم الرشيد رئيس الأطباء بمصر زمن الملك الكامل أنه أتت إليه امرأة من الريف ومعها والدها وهو مصفرٌ ناحل فوضع

(١) الغيث المسجم جـ ١ صـ ٢٢.

يده فى نبضه وقال لغلامه: ناولنى الفرجيـة، فتغير النبض تحت يده فى الحال فقال لها: هذا الغـلام عاشق واحدة اسمـها فرجـية، فقالت: إى والله يا مـولاى وقد عجزت فى عزله، فـعجب الحاضـرون من ذلك، أقول: إن الحكيم الرشـيد إنما اهتدى إلى ذلك من كلام الشيخ أبى على بن سينا فى القانون»[1].

ج - وهو يسـجل فى الغيث مـعـرفة العلمـاء فى عصـره للمـعادن الكريمـة وأنواعها؛ فـقد عقد فصلا عن اليـاقوت وأنواعه ذكر فيه أن للشـيخ الإمام شمس الدين مـحمـد بن إبراهيم بن ساعـد الأنصارى كـتابا فى الجـواهر أسمـاه «نخب الذخائر فى أحوال الجواهر»[2]، وقد أشار الصفـدى إلى أنه قرأ هذا الكتاب على مؤلفه ثم نقل عنه نصا يدل على تعمق ابن ساعـد فى هذا العلم ونبوغه فيه: «قال فى ذكر الياقوت: فالرمانى أعلاها وهو الشـبيه بحب الرمان الغض الخالص الحمرة الشديد الصبغ الكثير الماء، يؤخذ لونه بأن يقطر على صفيحة فضة مجلدة قطرة دم قـرمزى، أعنى من عـرق ضـارب، فلون تلك القطرة على تلك الصـفـيحـة هو الرمانى»[3].

د - ويسجل فيـه براعة علماء عصره فى علم المناظـر - وهو علم الضوء بلغة عصرنا - وتأليفهم فيه الكتـب النفيسة عندما يقول: «وعلمُ المناظر علمٌ ظريف إلى الغاية، ولابن الهـيثم فيـه كتاب جليل رأيتـه فى سبع مجلدات، ولشـهاب الدين القرافى كراريسُ أودعها خـمـسين مسألة من المناظر سماها «الاستبصـار فيما تدركه الأبصار»[4].

هـ - والصفـدى يتحدث فى الغـيث عن المسائل الهندسيـة مما يدل على براعة القوم فى علم الهندسة آنذاك، فقـد عرف قطر الدائرة بأنه «الخط الذى يمر بالمركز ويقطع الدائرة بنصفين، وقيل هو أطول خط فى الدائرة»[5].

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٨٥.

(٢) السابق نفسه جـ١ صـ ٩٤.

(٣) السابق نفسه جـ١ صـ ٩٤

(٤) السابق نفسه جـ١ صـ ١٤٣.

(٥) الغيث المسجم جـ١ صـ ٢٠٥.







ومضى الصفدى بعد ذلك يعرف الخط ويتحدث عن رسم أوقليدس للدائرة، ورد العلماء على أوقليدس، وتحدث عن نهاية العدد، والجذر الأصم، وتحدث عن الزوايا القائمة والحادة والمنفرجة، وتحدث عن الخط المستقيم، وتحدث عن رسم أرشميدس له، وكل هذه معارف لا تتأت له من فراغ، وإنما تتأتى له بالدرس والتحصيل، وهذا يدل على أن هذا العلم من العلوم التى أولاها العصر جانبا من اهتمامه ورعايته.

و - يتحدث عن علم الفلك وحركة الأفلاك حديثا يدل على معرفته بها معرفة نظن أنها مستوحاة من معرفة علماء العصر بها حيث يقول: «إن كل كوكب من الكواكب السيارة فى فلك يخصه، وهو مرصع فى فلكه كالفص فى الخاتم، والأفلاك السبعة دائرة من المغرب إلى المشرق بدليل أن الهلال يرى فى الليلة الأولى فى مكان، وفى الثانية ينتقل إلى مكان آخر آخذا إلى جهة الشرق، وفى الثالثة والرابعة كذلك إلى آخر الشهر حتى يكتمل لفلكه الدورة وهو أن يعود إلى النقطة التى كان عليها أولا، وهذه الحركة للفلك لا للكوكب، وهى الحركة الذاتية المختصة بكل فلك، وهذه الأفلاك السبعة وفلك البروج هو فلك الثوابت يحيط بها فلك تاسع يسمى الأطلس لأنه لم يظهر للعين فيه شىء من الكواكب، ولعل فيه كواكب لا تُرى للبعد المُفرط، وهذا الفلك الأطلس يدور بما فى باطنه من الأفلاك الثمانية فى كل يوم وليلة من المشرق إلى المغرب دورةً كاملةً فحينئذ لكل فلك من الثمانية دورتان: ذاتية وهى التى من المغرب إلى المشرق وقسرية وهى التى من المشرق إلى المغرب»[1].

ويتحدث عن تقريب العلماء لهاتين الدورتين فيقول: «وقرّبوا تفهيم ذلك بنملة ماشية إلى اليسار على رحى دائرة إلى اليمين، فللنملة فى هذه الحالة حركتان ذاتية، وقسرية»[2].

ومضى يذكر الأسباب التى جعلت العلماء يطلقون على الحركة العظمى اسم الحركة القسرية، ومضى أيضا يتحدث عن حديث ابن ساعد الانصارى عن تدوير

(١) السابق نفسه جـ١ صـ٢٣٧، صـ٢٣٨.

(٢) السابق نفسه جـ١ صـ ٢٣٨.



فلك المريخ. وهذا كله يدل على اهتمام علماء العصر بعلم الفلك ويصور بعض مظاهر هذا الاهتمام.

٢ - والكتاب يصور ما وصل إليه المجتمع من تدهور أخلاقى، وما شاع بين جمهور أدباء العصر من تناول الأمور الجنسية فى أشعارهم، حيث يورد الصفدى فى الكتاب نصوصا نظمها الشعراء فى المعانى الجنسية، وفيما تراود به المرأة الرجل عن نفسه، بل فيما تقوله المرأة للرجال أثناء معاشرتهم إياها، وأورد نصوصا نظمها الشعراء فى وصف أحوالهم عند معاشرة النساء، ولا سيما حين لا يقوون على ذلك[١]، وهذه النصوص من الكثرة بمكان، وهى مبثوثة فى تضاعيف الكتاب بجزئيه، وقد أعرضت عن إيراد شىء منها هنا للاستشهاد به.

والكتاب يصور من جهة ثانية وجود عادة الشذوذ الجنسى بين الشعراء والكتاب فى ذلك العصر، ويورد نصوصا كثيرة فى اللواط وغيره من صور الشذوذ، بل يورد حكايات فى غاية الغرابة والإيغال فى السخف، حيث يستنكر الذوق العام المعاصر حدوثها لا أقول من عامة الناس بل من أراذلهم فضلاً عن رجال العلم والدين والأدب، والأغرب والأعجب أن يطلب هؤلاء الأدباء الفضلاء الاستمتاع بالغلمان المرد فى بيوت الله عز وجل؛ حيث روى الصفدى عن ابن سيد الناس اليعمرى «أن الشيخ شهاب الدين بن النحاس دخل إلى الجامع الأزهر فوجد أبا الحسين الجزار جالسا وإلى جانبه مليح، ففرّق بينهما»[٢].

وعلى العموم فالتغزل بالغلمان ووصف الباه، والاشتياق إلى مباشرة الغلمان كل هذه من الموضوعات الرئيسية التى تقابل الدارس لشعر هذه الفترة ولا تخلو منها دواوين الشعراء، وقد أورد الصفدى فيها نصوصا كثيرة[٣] أعرضتُ عن الاستشهاد بنماذج منها هنا لمجافاتها للذوق العام فى عصرنا الحالى، وصونًا للبحث عن هذا السخف.

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ٢١١، جـ٢ من صـ٢٣٦ إلى صـ٢٤١، وهذا على سبيل المثال فقط.

(٢) الغيث المسجم جـ ١ صـ ٣٨٩، صـ ٣٩٠.

(٣) السابق جـ٢ صـ٥، صـ٦، صـ٧، صـ٨، وهذا على سبيل المثال فقط فهذا الشعر كثير فى الكتاب كما قلت فى المتن.

٣ - والكتاب يصور مَعلما آخر من المعالم المميزة للطابع الفكرى العام الذى سيطر على الأدباء ووجّه كتاباتهم وأشعارهم، وهو شيوع البديع بكل أنواعه الحسن منها والردئ، والمنسجم منها مع السياق والمتكلف، والكتاب يركز على أنواع ثلاثة من أنواع البديع وهى الجناس والتورية والتضمين، وحرى بالذكر أن الصفدى خص أول هذه الأنواع البديعية بكتاب مستقل هو «جنان الجناس»[1]، وأفرد للتورية كتابا ثانيا تحدث فيه عنها، وتحدث فيه عن لون آخر من ألوان البديع وهو الاستخدام وسمى كتابه «فض الختام عن التورية والاستخدام[2]».

والصفدى - وإن لم يخص التضمين بكتاب مستقل- قد استحسنه وصور شيوعه فى نَظْم معاصريه، وأتى فى الجزء الأول من الغيث خاصة بشواهد من شعره عليه؛ حيث ضمن أبياته أبياتا، وأنصاف أبيات كثيرة للمتنبى وغيره.

فعند شرحه لقول الطغرائى «فيم الإقامة بالزوراء لا سكنى......» البيت تحدث عن تضمين الشعراء لهذا المثل: «لا ناقة لى فى هذا ولا جمل» فقال: «وما أعرف أحداً ضمَّن هذا المثل- أعنى لا ناقة لى فى هذا ولا جمل- أمكنَ ولا أحسنَ من قول الشهاب أبى الثناء محمود أنشدنى لنفسه إجازة من قصيدة:-

أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَيْنَ الغَيْثُ مُنْفَصِلاً ... مِنْ بِرِّهِ وَهْوَ طُول الدَّهْرِ مُتَّصِلُ
مِنْ حَاتِمٍ عَدِّ عَنْهُ واطَّرِحْ فَبِهِ ... فِى الجُودِ لاَ بِسِواهُ يُضْرَبُ المَثَلُ
أَيْنَ الذى بِرُّهُ الآلافُ يُتْبِعُهَا ... كَرَائِمَ الْخَيْلِ مِمَّنْ بِرُّهُ الإِبِلُ
لَوْ مَثَّلَ الجُودُ سرحاً قَالَ حَاتِمُهُمْ: ... لاَ نَاقَةٌ لِى فِى هَذا ولاَ جَمَلُ»[3]

ومضى الصفدى يقارن بين تضمين الطغرائى وتضمين أبى الثناء محمود للمثل، وقد استهجن تضمين الطغرائى وقبحه، واستحسن تضمين الشهاب ووصفه بأنه

---

(١) هذا الكتاب حققه الأستاذ سمير حسين حلبى ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٧٨ وحققه - أيضا - الأستاذ هلال ناجى، ونشرت مقدمة التحقيق بالعدد الثالث من السنة الأولى من مجلة الذخائر صيف ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ ولما ينشر النص حتى مثول كتابنا هذا الكتاب للطبع.

(٢) هذا الكتاب حققه ونشره الدكتور المحمدى عبدالعزيز الحناوى عام ١٩٧٩م وأرى أنه بحاجة إلى تحقيق جديد؛ لأن المحقق قد تصرف فى الكتاب بحذف كثير من نصوصه.

(٣) الغيث المسجم جـ ١ صـ ١١٨، صـ ١١٩.

أجاء فى مكانه منسجم التركيب، ثابتا فى معناه، حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا فى هذا المكان، ولا ظهر إلا فى هذا القالب»[1].

ثم بيّن شيوع هذا اللون البديعى فى نظم معاصريه من مثل سراج الدين الوراق، ومجير الدين بن تميم، وأورد نصوصا كثيرة من شعرهما ومن شعره هو تدل على هذه الظاهرة[2].

هذا عن التضمين، أما الجناس فقد كان لونا بديعيا له منزلته ومكانته فى هذا العصر، والصفدى فى الغيث يصور تفوقه على ضروب البديع الأخرى، وكيف أن إجادته غايةٌ كان الأدباء يسعون إلى بلوغها، وقد أغرم الصفدى نفسه بهذا اللون البديعى وألف فيه كتابا مستقلا كما قلت، وكان يلتزم الإتيان به فى ثنايا كلامه، وإن مقدمة الغيث لتصور مبلغ ولوع الصفدى بالجناس أدق تصوير، فهو يقول فى بيان مكانة اللامية «أما فصاحة لفظها فيسبق السمع إلى حفظها، وأما انسجامُها فيطوف بخمر الأنس جامها، . . . . وأما قوافيها فتذهبُ القُوَى فيها»[3].

ويقول فى شرح الظروف الصحية التى كان يعايشها فى أثناء كتابة الشرح: «وقد علقت هذا الشرح وأنا فى هموم قد علم الله ترادف بعوثها، وانسكاب غمائم غمومها وغيوثها، وافتراس فوارسها، وأذهلنى الجناس عن ذكر ليوثها»[4].

وكان إذا ما أعجبه قولٌ أو بيت لأحد الشعراء أو الكتاب لما فيه من البديع يعرضه على أصدقائه من كبار أدباء العصر ليعرف رأيهم فيه أو ليوقفهم على ما به من مظاهر الحسن يقول: «ووقفت أيضا على بيتين لأبى الحسين الجزار وهما:

يا ربِ إنْ أعْدَمْتَنِى رَاحَةَ الدُّنْيَا فَهَبْ لِى رَاحَةَ الآخِرَةْ
فِىَ بلْدَتِى لَمْ أخلُ مِنْ هَاجِرٍ وَرِحْلَتِى لَمْ أخلُ مِنْ هَاجِرَةْ

---

(1) الغيث المسجم جـ1 ص 119.

(2) يمكن أن يراجع الغيث 1/ 120 - 125.

(3) السابق نفسه جـ1 صـ10.

(4) السابق نفسه جـ1 صـ 14.







فأعجباني وأنشدتهما لبعض أدباء العصر في زعمه، وكررت العجب منهما، فقال: لقد نفخت في غير ضرم، أي شيء قال؟ إنما ذكر أن له في بلده هاجرا وفي غربته هاجرة، فذكَّر وأنَّث، فعلمتُ أنه ذاهل عن نكتة البديع فيهما»[1].

٤ - والكتاب يصور النشاط الجدلي الذي كان شائعا في العصر؛ فلقد عاش أحداثَ هذا العصر عالمان جليلان هما تقي الدين بن تيمية الحراني وشمس الدين بن القيم وكانا يمثلان في وقتهما الاتجاه المحافظ الذي يضرب بيد من حديد على الفسقة والمنحرفين، ويكره كرهًا شديدا ويحارب محاربة لا هوادة فيها البدع والخرافات التي يظنها عامة الناس من الدين وهي ليست من الدين في شيء؛ كتقديس الأولياء وزيارة قبورهم والتوسل بهم إلى الله عز وجل...

ولقد ورث المجتمع الإسلامي في العصر المملوكي عدداً من الآراء العقدية التي كانت صدى طبعياً لحرية الفكر، والاطلاع الواسع على كتب الفلسفة والمنطق في العهود السابقة، وكان للمتصوفة دور خطير في بث أفكار مخالفة للإسلام في عقول العامة وقلوبهم، في وقت كان المجتمع فيه يشمر عن ساعد الجد ليلتقي مع التتار في معركة فاصلة، ومن هنا أدرك الإمامان الجليلان خطورة المنعطف التاريخي الذي تمر به الأمة وضرورة تبصيرها بما تقع فيه من أخطاء، وتوضيح حقيقة الإيمان لها توضيحا يتفق مع الكتاب والسنة وعمل الخلفاء الراشدين المهديين، وقاما بهذا الدور، وأدياه على خير ما يكون الأداء، ولم يُرهبهما بطشُ الحكام، ولم تفزعهما أصوات السياط، ولم تزعزع إيمانهما بواجبهما واعتزازهما بجهادهما ظلمات السجون.

وكان الإمام تقي الدين بن تيمية يجهر بآرائه دون خوف أو وجل، ودون حيطة أو حذر، ولقد أدى به هذا الجهر إلى السجن، وإلى مهالك كثيرة، وكان هذا الاندفاع والانزلاق إلى المعارضة دون تقدير لعواقبها موضع نقد معاصريه بل تلاميذه أيضا؛ فالصفدي يقول عنه: «كان الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية - رحمه الله - علمه متسع جدا إلى الغاية، وعقله ناقص يورطه في المهالك ويوقعه في المضايق»[2].

---

(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ٤٦٠.

(٢) الغيث المسجم جـ٢ صـ٤٣٧.



وليس المقصود بنقصان العقل هنا الخبل أو البله أو ما يشبههما، فهذا شىء لم يقصده الصفدى، كما أن من يوصف باتساع العلم إلى الغاية لا يمكن أن يكون بهذه الصفات، وإنما المقصود الحقيقى وصف قوة اندفاع الشيخ وانزلاقه إلى المعارضة والمجادلة دونما ترو وتأن.

ولم يفت الصفدى أن يسجل فى الغيث بعض مواقف هذا الإمام التى تدل على ما كان يقوم به من دور فى الرد على أصحاب المذاهب الباطلة، فقد أورد له أبياتا سمعها منه فى الرد على من يقول بالجبر حيث يقول: «وسمعت الشيخ تقى الدين ابن تيمية ينشد:

اصْفَعِ الْمُجْبَرَ الَّذِى ... بِقَضَا السُّوءِ قَدْ رَضِى

فَإِذَا قَالَ لِمْ فَعَلْـ ... ـتَ فَقُلْ هكَذَا قُضِى»[1]

وهذان البيتان نشعر فيهما بروح الإمام ابن تيمية الفكهة المتندرة الساخرة من هؤلاء الذين يؤمنون بالجبر فى كل الأمور والأحوال.

وكان الشيخ ابن تيمية ينكر ثبوت الكيمياء، وألف فى ذلك رسالة أثارت جدلا كبيرا، وردّ أحد معاصريه عليها. قال الصفدى «وكان الشيخ تقى الدين أحمد ابن تيمية ينكر ثبوتها وصنف رسالة فى إنكارها، ورد عليه فيها نجم الدين بن أبى الدر البغدادى وزيف ما قال»[2].

٥ - والكتاب يبين مظهرا من المظاهر التى شاعت بين كبار الشعراء فى هذه الحقبة وهو نظم الألغاز؛ فكثيرا ما كتبوا أشعارا تتضمن ألغازا بقصد حلها أو اختبار السامع ومعرفة هل يتوصل إلى حلها أم لا. ولا شك أن موضوع النظم فى الألغاز لم يكن موضوعاً رئيسياً من موضوعات الشعر قبل هذه الحقبة، وهو يحتاج إلى براعة فنية وقدرة ذهنية خارقة حتى يستطيع الشاعر أن ينظم اللغز فى بيت أو بيتين أو ثلاثة على أكثر تقدير؛ لأن الزيادة على هذا العدد فى نظم اللغز ليست مقبولة وتؤدى إلى تشتيت الذهن، فلا يستطيع السامع أن يركز فى حل اللغز من ناحية، ومن ناحية أخرى تفقد اللغز معناه؛ لأن أى تطويل فى النظم سوف يزيد من توضيح اللغز وتقريب الحل إلى السامع.

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٨٢.

(٢) السابق نفسه جـ ١ صـ ٢٠





والنظم فى الألغاز يحتاج إلى قدرات علمية أيضا؛ فالناظم لا بد أن يحيط بخصائص الشيء الذى ينظم فيه اللغز ومكوناته، وبالتالى فالنظم فى الألغاز يدل من وجه غير مباشر على خصوبة الحياة العلمية والفكرية فى ذلك العصر.

والصفدى يورد فى الغيث ألغازا كثيرة لشعراء العصر وكتابه، ومن يقرأ الكتاب يخيل إليه أن جميع شعراء العصر وكتابه قد نظموا فى الألغاز، وذلك لكثرة الألغاز التى تقابله فى غضون الكتاب، ومن أمثلة ما أورده الصفدى فى ذلك قوله: «وأنشدنى بعض الأصحاب لغزا حسنا هو:

يَا أَيُّهَا الْحَبْرُ الذِى عِلْمُ العَرُوضِ به امْتَزَجْ
أَبِنْ لَنَا دَائِرَةً فِيهَا بَسِيطٌ وَهَزَجْ»

ثم قال: «إن العالم العلامة نجم الدين أبا الحسين على بن داود القحفيرى أنشده لبعض الطلبة فى حلقته ففكر ساعة طويلة ثم قال: هذا فى الساقية فقال له الشيخ: أصبت إلا أنك درت فيها طويلا حتى وقفت على المقصود. فقلت: وهذا من الشيخ أحسن من فك اللغز؛ فإنه ظرف فى التنذير. واللغز ظاهره مشكل لأنه ليس فى دوائر العروض ما يجمع البسيط والهزج لأن البسيط من دائرة المختلف والهزج من المجتلب، وأوهم بالبسيط وهو يريد الماء لأنه أحد البسائط، وأوهم بالهزج وهو يريد الصوت اللذيذ المسموع من الساقية حال الدوران»(١).

فهذا النص يدل على عناية شعراء العصر بالنظم فى الألغاز، والتماس العلماء لهذه الألغاز بغية تدريب الطلاب على حلها كما فعل الشيخ على بن داود حيث سمع اللغز ثم سأل فيه أحد طلابه، ومازال الطالب يفكر فى حله، ومازال يقدح زناد فكره حتى وصل إلى الحل، والنص يدل من ناحية ثانية على ذكاء الشيخ حيث بين للطالب أن إجابته صحيحة ثم أردف ذلك بالتنذير الحسن فقال له: إلا أنك درت فيها طويلا، والتفت الصفدى إلى هذا التندر الحسن فقال: «وهذا من الشيخ أحسن من اللغز فإنه ظرف فى التنذير» ومضى الصفدى يشرح ما باللغز من غموض وإيهام حيث جاء غموضه من استخدام الناظم للتورية فى لفظتى بسيط وهزج.

---

(١) الغيث المسجم حـ ١ ص ٥٩.

والصفدى نفسه قد نظم ألغازا كثيرة منها قوله: «ومما اتفق لى نظمه فى الخلخال.

أيا عَجَبًا مِنْ صَابِرٍ صَامِتٍ وَلَمْ ... يَفُهْ بكَلام قطُّ فى سَاعَةِ الضَّرْبِ

أقَامَ وَلَمْ يَبْرَحْ مكَانًا ثَوَى بِهِ ... عَلَى أنَّهُ أضْحَى يَدُورُ عَلَى الْكَعْبِ»[1]

وأورد الصفدى فى ثنايا الكتاب ألغازا كثيرة لشهاب الدين العزازى[2]، ولأبى الحسين الجزار[3]، ولجمال الدين بن نباتة، ولشمس الدين بن دانيال[4]، ولسيف الدين بن قزل المشد[5]، وللنصير الحمامى[6]، ولمحيى الدين بن عبدالظاهر[7] ولكثيرين غيرهم.

٦- والكتاب يصور ملمحا جديدا من ملامح الحياة الفكرية فى العصر، هذا الملمح هو ازدهار الشعر فى هذه الحقبة، وظهور كثير من بلابله الصدَّاحة فى سماء القاهرة ودمشق وحلب وغيرهما من بلدان القطرين الكبيرين مصر والشام، وهو إذ يجمع نصوصا كثيرة من شعر هؤلاء يوضح لنا كيف كان رقى الحياة الفنية فى عصره، والغيث المسجم على هذا يعد وثيقة أدبية مهمة لأنه يحوى كل هذا القدر الكبير من شعر الشعراء ومن نثر الكتاب المعاصرين لمؤلفه الذين ضاعت آثارهم الفنية مع ما ضاع من ذخائر تراثنا، أو الذين لا تزال آثارهم حبيسة المكتبات العامة مخطوطةً لَمَّا يؤذَن لها أن ترى النور لينتفع بها طلاب البحث وعشاق الأدب.

---

(١) الغيث المسجم جـ ١ ص ٦٢.

(٢) السابق نفسه جـ١ ص ٢٧٩.

(٣) السابق نفسه جـ ٢ ص ٩٠.

(٤) السابق نفسه جـ٢ ص ٢٢٦.

(٥) السابق نفسه جـ٢ ص ٤٥٣.

(٦) السابق نفسه جـ٢ ص ٤٥٤.

(٧) السابق نفسه جـ٢ ص ٤٥٥.



٧- والكتاب يصور نزعة العصر الى الصوفية، ويبين أنهم كانوا فى هذه الحقبة قد وصلوا إلى أوج نشاطهم، وأن تعبيراتهم لا يفهمها إلا من أوتى حظا كبيراً من العلم بفنونهم وأحوالهم فقد قال تعقيبا على بيت ابن الفارض:

حَـديثِى قَـديمٌ فِى هَوَاهَا وَمَـا لَهُ كَـمَـا عَلِمَتْ بَعْـدُ وَلَيْسَ لَهُ قَـبْلُ

«هذا أمر خارج عن العقل؛ لأن العقل لا يمكن أن يتصور شيئا لا قبل له ولا بعد إلا واجب الوجـود، ولكن الصوفيـة يحيلون مثل هذه الأشياء على الذوق، ويقولون فى مثل هذه الأمـور إنها من وراء العقل»[١] ثم أورد قصة طريفة وقعت للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد حيث قال: «أخبرنى الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى قال: حضر يوما الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأيكى شيخ خانقاه وسعيد السعداء عند الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد رحمه الله وأخذ يتكلم فى طريقهم وأحوالهم ويتحدث على العرفان زمانا، والشيخ تقى الدين ساكت لا يفوه بكلمة، فلما قام من عندهم قال الشيخ تقى الدين للحاضرين: هل فيكم من فهم تراكيب كلامه فإنى ما فهمت غير مفرداته؟ أ. هـ»[٢]، وعقَّب الصفدى على هذا الخبر الذى أخذه عن شيخه ابن ساعد الأنصارى بقوله: «قلت: وهؤلاء القوم يُسَلَّمُ لهم حالُهم؛ فإنهم قد جاء منهم علماء كبار مثل الشيخ محيى الدين بن عربى، وقطب الدين بن معين، وفى كلامهم من هذا النوع كثير»[٣].

وإن كان النص السابق يشعر قارئه بموافقة الصفدى على ما يقول هؤلاء، فإن هناك نصًا آخر رأيت الصفدى يقف فيه موقف المعارض لتفسير أحدهم حديث رسول الله ﷺ: «الإحسانُ أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، يقول الصفدى: «وعلى ذكر الصوفية حضرتُ يوما فى صفد سنة ست وعشرين وسبعمائة مجلس الشيخ الإمام أبى الحسن على بن الصياد الفاسى وقد عمل درسًا

---

(١) الغيث المسجم جـ ١ ص ١٧٣

(٢) السابق نفسه جـ١ ص ١٧٣

(٣) السابق نفسه جـ١ ص ١٧٣



عاما تكلم فيه على سورة والضحى، واستطرد الكلام إلى قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقال: ذهب بعض الصوفية إلى أن معنى «فإن لم تكن تراه»: إن غبتَ عن وجودك ولم تكن رأيته، وحَسَّنَ ذلك واستحسنه من حضر، فقلت: إنَّ هذا حسن لو ساعد الإعراب عليه؛ فإن هذا شرطٌ وجوابه، وهما مجزومان، ويكون اللفظ الصحيح: «فإن لم تكن تره» حتى يصح المعنى. فاعترف بذلك»[1].

والصفدى يشير فى هذا النص إلى نقطة مهمة هى إهمال أهل التصوف القواعد النحوية عند تفسيرهم للنصوص الدينية، وذلك حتى يتسنى لهم لَيُّ عنق النصوص ليا حتى يُحملوها ما يريدون من معان وأفكار، وهم لا يراعون كذلك المعنى اللغوى للألفاظ لأنهم يحملون الألفاظ معانى أخرى لا توجد فى المعاجم، وقد سبق أن قال الصفدى إن لهم مواجيدهم وأحوالهم.

والحديث عن التصوف وأهله حديث متسع، والصفدى يكثر من ذكر أحوالهم وأخبارهم فى «الغيث»، وهو بذلك يسلط ضوءا آخر على الملامح المميزة للحياة الفكرية فى عصره.

٨ - والكتاب يوضح أثر العلماء الوافدين من الأندلس والمغرب العربى إلى مصر فى إثراء الحياة الفكرية والأدبية بها، وفى الإسهام بالجهود العلمية فى تعليم الأجيال وتأديب الرجال، ولقد ركز الكتاب على الدور الذى قام به العالم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على الغرناطى النفزى فى إثراء الحياة الفكرية بمصر بما لديه من علم وحكمة، فهو أولاً: **ينقل إلى أجيال المتأدبين ما سمعه من شعر الشعراء السابقين؛ أى يقوم بدور الراوية الذى ينشر هذه الآثار الشعرية الخالدة**، ولقد أورد الصفدى فى الغيث نصوصًا كثيرة تدل على هذا الدور منها قوله «أنشدنى الشيخ الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بمصر سنة سبعمائة وثمانية وعشرين قال: أنشدنى لنفسه محمد بن أحمد بن حسن بن عامر التجيبى فى مليح له رقيبٌ أحول:

بأبى رَشَا يَحْوِى مَعَ الإِحْسَانِ      ملكية موضوعُها إِنْسَانِى

---

(١) الغيث المسجم: جـ ١، ص ١٧٥.



أَحْوَى الجُفُونِ لَهُ رَقِيبٌ أحْوَلٌ ... الشئ فِى إدَارِكِــهِ شَــيْــئَـــان

يَالَيْــتَــهُ تَرَكَ الذِى أنَا مُــبْــصِــرٌ ... وَهْوَ المُخَبَّرُ فِى الغَزَالِ الثَّانِى»[1]

ولم يكن أثير الدين راويةً لشعـر ابن عامر التجيبى فقـط بل كان راوية لشعراء كثيرين، ونقل إلى أجيال المتأدبين بمصر والشــام أشعارًا كثيرة لشعراء عديدين منهم تقى الدين السروجى؛ قال الصفدى «وأنشــدنى من لفظه الشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان قال: أنشدنى لنفسه الشيخ تقى الدين السروجى[*]:

وأرَى لِلَيْـلَى العَـــامِـــرِيَّةِ مَنْزِلاً ... بِالْجُـودِ يُعْـرَفُ وَالنَّدَى أصْـحَـابُهُ

فيـه الأمانُ لِمَنْ يَخَـافُ مِنَ الرَّدى ... والخَـــيـــرُ قَـــدْ ظَفِـــرَتْ به طُلاَّبُهُ

قَـدْ أُشْرِعَتْ بِيضُ الصوارِمِ والقَنَا ... مِنْ حَـوْلِه فَـهْـوَ المَنِيعُ حِـجَـابُهُ

وعلى حِـــمَـــاهُ جَـلاَلَـةٌ مِنْ أهْلِهِ ... فَلِذَاكَ طَارِقَـــةُ العُـــيُـــونِ تَهَـــابُهُ

كَمْ قُلِّبت فـيـه الخدودُ علـى الثَّرَى ... شَـوقًـــا إليـه وقُـبِّلَتْ أعـتـــابُهُ

قـد أخضَـبَتْ منه الأباطحُ والربى ... للزائـرين وفـتِّـــحــت أبوابهُ»[2]

كمـا سمع الصفدى منه أبيـاتًا لبدر الدين أبى المحاسن يوسف المهـمندار؛ قال الصفـدى «وأنشدنى من لفظه الشيـخ الإمام الحافظ العـلامة أثير الدين أبو حـيان محـمد بن يوسف قـال: أنشدنى من لفظه لنفسـه بدر الدين أبو المحـاسن يوسف المهمندار سنة تسع وثمانين وستمائة:

لَوْ عَـــاينتْ عَـــيناكَ يوم نـزالنا ... والخيلُ تَضْـبَحُ فى العَـجَاجِ الأكْدَرِ

وسَنَا الأسِنَّةِ والـضـيـاء مِن الظبـا ... كـشـفـا لأعـيننا قـتـام العـيـثـرِ

وقد اطلَـخَمَّ الأمْرُ واحتـدمَ الوَغَى ... ووهَى الجبـانُ وساءَ ظَنُّ المُجْـترِى

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١٤١، ١٤٢.

(*) تقى الدين السروجى: هو عبد الله بن على، ولد فى سـروج وتوفى بالقاهرة عام ٦٩٣هـ، كان عالمًا بالقرآن والنحو والأدب يراجع فـوات الوفيات تحقيق محمد محـيى الدين ١/٤٦٦، وتحقيق إحسان عباس ٢/١٩٦، الوافى بالوفيات ٦/٣٤٢، الأعلام ٤/١٠٦.

(٢) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٣٦٩.

لرأيتَ سداً من حديدٍ مائرًا — فوقَ الفُراتِ وفوقَه نارًا تَرى

حتى سَبَقْنَا أسهُمًا طاشتْ لَنَا — منهمْ إلينا بالخُيولِ الضُّمَّرِ

طفرتْ وقد منعَ الفوارسَ عدُّها — تجرى ولولا خيلنا لم تطفُرِ

لم يفتحوا للرَّمْيِ منهم أعينًا — حتى كحلنَ بكُلِّ لدنٍ أسْمَرِ

ما كان أجْرَى خيلنا فى إثرِهِمْ — لو أنَّها برؤوسِهِم لم تعْثُرِ

فتسابقوا هربًا ولكنْ ردَّهُم — دُونَ الهَزِيمَةِ رُمْحُ كُلِّ غَضَنْفَرِ

كَمْ قَدْ فَلَقْنَا صخرةً مِنْ صرخةٍ — ولكَمْ مَلأْنا مَحْجرًا مِنْ مَحْجَرِ»[1]

وهو ثانيًا يصدح بالشعر فى مصر، وينشد فنه لطلابه وسامعيه، ولما كان الفن نبع البيئة التى نشأ فيها، فلنا أن نعد شعر أبى حيان الذى كتبه أو أنشده فى مصر ضمن الأدب المصرى، وبذلك يكون أثير الدين قد مدَّ الحياة الفكرية برافد ثان من الروافد التى أسهمت فى إنعاشها وإذكائها؛ قال الصفدى: «وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بالقاهرة سنة سبعمائة وثمانية وعشرين:

لقد ذكرتكِ والبحرُ الخِضَمُّ طَغَتْ — أمواجُهُ والورى منه على سَفَرِ

فى ليلةٍ أسْدَلَتْ جِلْبَابَ ظُلْمَتِها — وغابَ كَوْكَبُها عن أعينِ البَشَرِ

والماءُ تحتُ وفوق المزنِ واكفةً — والبرقُ يستلُّ أسيافًا مِنَ الشَّرَرِ

والفلكُ فِى وَسَطِ المَاءَينِ تحسَبُها — عينًا وقد أطبقتْ شفرًا على شَفَرِ

والروح من حَزَنٍ راحتْ وقد وردتْ — صدرى فيا لك من وِرْدٍ بِلاَ صَدَرِ

هذا وشخصك لا يَنْفَكُّ فى خَلَدِى — وفى فؤادِى وفى سَمْعِى وَفى بَصَرِى»[2]

وقال: «أنشدنى الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه:

أما أنه لولا ثلاثٌ أُحِبُّها — تَمَنَّيْتُ أنّى لاَ أُعَدُّ مِنَ الأَحْيَا

---

(١) الغيث المسجم جـ٢، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) السابق نفسه: جـ ٢، ص ٤٢.



فمنها رجائى أن أفوز بتوبة ... تكفر لى ذنبا وتنجح لى سعيا

ومنهن صون النفس عن كل جاهل ... لئيم فلا أمشى إلى بابه مشيا

ومنهن أخذى للحديث إذا الورى ... نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا

أنترك نصا للرسول ونقتدى ... بشخص؟ لقد بدلت بالرشد الغيا»[1]

وهو ثالثًا: عالم يشرح لطلابه غُرر الشعر العربى حيث أورد له الصفدى شرحًا لمعانى قول طرفة بن العبد «فلولا ثلاث»[2] قال «قلت أخبرنى من لفظه الشيخ الإمام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بالديار المصرية سنة سبعمائة وثمانية وعشرين قال: قرأتُ على أستاذنا العلامة أبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الحافظ المؤرخ حفظًا عن ظهر قلب الأشعار الستة ومنها ديوان طرفة بن العبد فمن ذلك قوله (فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى) الأبيات الأربعة، قال الشيخ أثير الدين: قوله وجدِّك: أى وسعدك، والعواد الزائرون فى المرض، والعاذلات: اللائمات، والشربة: هنا الخمر، وكميت: فيها حمرة وبياض، وتعل: تمزج، وتزبد: تصير عليها رغوة، وكرّى: عطفى، والمضاف: المستغيث، ومجنبا: فرسًا قويًا، والسيد: الذئب، والغضا: شجر، والمتورد: الذى صار لونه أحمر من دم الفرائس، والدجن: الغيم الذى فيه المطر، والبهكنة: الجارية الناعمة، والمعمد: الذى له العمد»[3].

كما يورد على طلابه خلاصة قراءاته المتعددة فى كتب الأدب قال الصفدى «وأخبرنى من لفظه أيضًا قال: وجدت فى كتاب طرف المجالسة وملح المؤانسة: تأليف الكاتب أبى عَمْرو عثمان بن أبى بكر بن يحيى المرابط وقد رأيته بغرناطة مما

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ١٥٧.

(٢) والأبيات هى:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف مجنبا ... كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطراف المعمد

نقلا عن شرح المعلقات السبع للزوزنى - المكتبة التجارية الكبرى بمصر د.ت ص ٤٨، ٤٩.

(٣) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ١٥٦.

الشكل للإمام المحدث ضياء الدين أبى جعفر أحمد بن صابر القيسى الظاهرى وقد أخبرنى عن ابن صابر الأستاذ أبو جعفر بن الزبير:

لـولا ثـلاثٌ هُـنَّ واللهِ مِـنْ ... أكُـبـرِ آمَـالى فى الدُّنْيَـا
حَجٌّ لِبـيْـتِ اللهِ أرْجُـو بِهِ ... أنْ يَقْبَلَ التَـوْبَةَ والسـعْـيَـا
والعِلْمُ تَحْـصِـيلاً وَنَشْـرًا إذا ... رويت أوسـعتَ الوَرَى رِيًّا
وأهل ودٌ أسْـألُ اللهُ أنْ ... يمتعَ بـالْبُـقْـيَـا إلى اللُّقْـيَـا
مـا كُنْتُ أخْشَى الموتَ أنَّى أتَى ... بل لَمْ أكُـنْ ألْتَـذُّ بِالْمَحْـيَـا»[1]

كما كان يقرأ على طلابه بعض كتبه حيث أورد الصفدى نصًا يفيد أنه قرأ عليه حديث رسول الله ﷺ «الدنيا دار بلاء» قال الصفدى «وأخبرنى سماعًا من لفظه الشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف النفزى الأندلسى بالقاهرة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة قراءة من كتابه أخبرنا الخطيب المقرى النحوى أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن سعيد بن أبى ريحانة الأندلسى الأنصارى فى كتابه إلىَّ من مالقة سنة اثنين وسبعين وستمائة وفيها توفى -رحمه الله - عن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن اليتيم، أخبرنا أبو الفضل معن ابن عبد الرزاق السجزى السائح بمقبرة سر من رأى قراءة عليه، أخبرنا عن أبى الحسين المبارك بن عبد الجبار عن أبى الفتح هلال بن محمد البغدادى عن محمد ابن أبى القاسم عن إسماعيل بن إسحاق عن نصر بن على عن الأصمعى عن أبى عمرو عن عيسى بن عمر عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الدنيا دار بلاء، ومنزل قلة وعناء، قد نزعت عنها نفوس السعداء وانتزعت بالكره من أيدى الأشقياء، وأسعد الناس أرغبهم عنها، وأشقاهم بها أرغبهم فيها، فهى الغاشة لمن انتصحها، والمغوية لمن أطاعها، والخاترة لمن انقاد لها، والفائز من أعرض عنها والهالك من هوى فيها، طوبى لعبد اتقى فيها ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته، وأخر شهوته من قبل أن تلفظه الدنيا إلى الآخرة فيصبح فى بطن موحشة غبراء مدلهمة ظلماء، لا يستطيع أن يزيد فى حَسَنه ولا ينقص من سيِّئِه ثُمَّ يُنْشَرُ فيُحْشَرُ إما إلى جنة يدوم نعيمها أو نار لا ينفك عذابُها»[1].

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢ ص ١٥٧.

(٢) الغيث المسجم: جـ ٢ ص ٤١٦.







ويمكن أن يمثل ما عرضه الصفدى من نشاط أثير الدين هذه الجهود التى قام بها الوافدون إلى مصر من الأندلس وبلاد المغرب العربى فى إنعاش الحياة الفكرية بمصر فى العصر المملوكى الأول.

٩ - ويذكر الصفدى دمشق ويكثر من الحديث عنها وعن علمائها وكيف أنه جلس منهم مجلس التلميذ المستفيد والطالب السائل عما يجهل، ومن أهم هؤلاء العلماء الشيخ تقى الدين بن تيمية حيث يقول «وسألت الشيخ الإمام العلامة تقى الدين أحمد بن تيمية - رحمة الله - سنة سبعمائة وثمانية عشر أو سنة سبعمائة وسبعة عشر بدمشق المحروسة عن قوله تعالى «وأخر متشابهات» فقلت: المعروف بين النحاة أن الجمع لا يوصف إلا بما يوصف به المفرد من الوصف فقال: كذا هو فقلت: ما مفرد متشابهات؟ فقال: متشابهة: فقلت كيف تكون الآية الواحدة فى نفسها متشابهة، وإنما يقع التشابه بين الإثنين، وكذا قوله تعالى: «فوجد فيها رجلين يقتتلان» كيف يكون الرجل الواحد يقتتل مع نفسه فعدل بى من الجواب إلى الشكر وقال: هذا ذهن جيد ولو لازمتنى سنة انتفعت»[1].

ويكثر الصفدى من الحديث عن الشعراء الذين أنشدوه شعرهم فى دمشق كشهاب الدين أبى الثناء محمود، وجمال الدين بن نباتة، ونور الدين على ابن محمد بن فرحون المالكى، وجمال الدين يوسف بن سليمان بن أبى الحسن الصوفى يقول «أنشدنى من لفظة لنفسه الشهاب أبو الثناء محمود بدمشق سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فى تشبيه الثريا، والهلال والدارة:

كأن الثريا والهلالَ ودارةً ... حوتهُ وَقَدْ زَانَ الثريا التثامُهَا

حَبَابٌ طَفَا مِنْ فَوْقِ زَوْرَقِ فِضَّةٍ ... بِكَفِّ فتاةٍ طَافَ بالراح جَامُهَا»[2].

ويقول «وما أحسن ما أنشدنيه لنفسه من لفظة المولى جمال الدين محمد ابن محمد بن نباتة بدمشق سنة تسع وعشرين وسبعمائة:

وِرْدٌ مع العُرْبِ منسوبٌ فلا قطعَتْ ... أيدى الحوادثِ مِنْ أنسابه شَجَرَةْ

(١) الغيث المسجم ٢/ صـ ٢٤.

(٢) الغيث جـ ١ صـ ٥١.



إذا امتطى ظَهرَهُ رامِي السهامِ مضى ... والسهمُ حذواً فلولا سبقه عقره

عجبت حين يسمى سابحًا وَلَهُ ... وَثْبٌ لو البحرُ أرْسَى دُونَهُ طَفَرهْ

فتحاءُ فى هضباتِ الحزنِ صاعدةٌ ... أو لا فصاعقةٌ فى السهلِ مُنْحَدِرَهْ

لما تَرفَّعَ عَنْ نِدٍّ يُسَابِقُهُ ... أضْحَى يُسَابِقُ فِي مَيْدَانِهِ نَظَرَهْ

وأنشدنى من لفظة لنفسه المولى جمال الدين يوسف بن سليمان بن أبى الحسن الصوفى بدمشق فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة:

وأدْهَمُ اللَّونِ فَاتَ البَرقَ وَانْتَظَرَهْ ... فغارتْ الرِّيحُ حتى غَيَّبَتْ أثَرَهْ

فواضعٌ رِجْلَهُ حَيْثُ انتهتْ يَدُهُ ... وواضعٌ يَدَهُ أنَّى رَمَى بَصَرَهْ

شهمٌ تراه يُحَاكِي السهمَ مُنْطَلِقًا ... وماله غَرَضٌ مستوقفٌ خَبَرَهْ

ويعقرُ الوحشَ فى البيداءِ فارسُهُ ... وينثنى وادعا لم يلتحِفْ غبرهْ»[1].

وحين يتحدث عن دمشق لا ينسى الجامع الأموى، وكيف ينسى هذا المسجد العتيق، وقد كان موئل طلاب العلوم والمعارف فى هذا العصر، وكيف ينسى هذا المسجد الجامع وقد كان الملتقى الذى يتذاكر الدروس فيه مع صديقه الشاعر جمال الدين بن نباتة، يقول «وكنت أجتمع أنا وهو بالحائط الشمالى من الجامع الأموى بدمشق بكرة النهار، وبعد العصر نتذاكر فاتفق أن غبت ليلة عن ميعادنا فكتب إلىَّ:

أمَوْلاَىَ غِبْتَ وَخَلَّفْتَنِى ... مِنَ الْهَمِّ ذا فكرة خَاضِعَةْ

فها أنا بَعْدَكَ فِى جَامِعٍ ... ولكنَّ قلبِىَ فِى جَامِعَةْ»[2].

وحين تحدث عن إشكال فى بيتين لشمس الدين محمد بن التلمسانى قال «ويقارب هذا الإشكال ما دار بينى وبين المولى جمال الدين محمد بن نباتة فى الجامع الأموى بدمشق سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة فإنه أنشدنى قول ابن الرومى فيما أظن:

---

(1) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٤٢، صـ ٤٣.

(2) السابق حـ ٢ صـ ٤٦١.

ومِنَ العَجائبِ أنَّ عُضواً واحِداً هو منكَ سهمٌ وهو منّي مَقْتَلُ

فقلت له: هذا ليس بعجيب إذا تركنا ظاهره، اللهم إلا إن فتحنا باب التأويل وأحضرنا المجاز. فقال: لأى شىء؟ قلت: لأن عين العاشق فى الهوى غير عين المعشوق يقينا، أمَّا أنهما من جنس واحد فمسلم»[1].

كما تحدث عن القاهرة وكيف أنه استمع إلى كثير من شعرائها الذين أنشدوه شعرهم من مثل محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى، وأورد كلامًا نستبين منه أن من أهم المدارس بمصر المدرسة الظاهرية، وقد حدد الصفدى مكانها، وذكر أنه بين القصرين بالقاهرة، وأن الشيخ علاء الدين مغلطاى كان يدرس بها الحديث الشريف قال: «وأخبرنى الشيخ الإمام الحافظ علاء الدين مغلطاى شيخ الحديث بالمدرسة الظاهرية بين القصرين بالقاهرة قال: جاء رجل إلى الشيخ شهاب الدين الحنبلى صاحب التعبير فقال له: رأيتُ فى منامى كأن قائلاً يقول لى: اشرب شراب الهكارى، فقال له: أيوجعك فؤادك؟ قال: نعم، قال: اذهب فاشرب عسلاً تبرأ بإذن الله تعالى»[2].

وأورد الصفدى كلاما يفيد أنه زار الإسكندرية وجلس إلى علمائها واستفاد منهم ونقل عنهم،وفى هذا ما يدل على ما كانت عليه الإسكندرية من رقى علمى؛حيث كانت عامرة بالعلماء الأجلاء والشيوخ الثقات الذين يُطلب علمهم، ويُسعى إليهم،ويؤخذ عنهم،قال الصفدى «أخبرنى العالم مفتى المسلمين شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ فتح الدين بن أبى الحسن على بن إبراهيم الأنصارى القمى من لفظه بثغر الإسكندرية،قال: أخبرنى الشيخ نجيب الدين عبد اللطيف ابن عبد المنعم بن على الحرانى، أخبرنا أبو حامد عبد الله بن مسلم بن جوالق قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا منصور بن أبى غالب القزاز، أخبرنا الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب، أخبرنا الحسن بن أبى بكر بن شاذان، حدثنا أبو الحسين عبد الرحمن بن نصر المصرى الشاعر إملاءً من حفظه، حدثنا أبو عمر الأنسى بمصر قال: حدثنا دينار مولى أنس بن مالك قال: صنع أنس لأصحابه طعامًا فلما طعموا قال: يا جارية هاتى المنديل، فجاءت بمنديل درم، فقال: اسجرى التنور واطرحيه فيه ففعلت، فابيض، فسألناه عنه فقال: إن

(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٢٣.

(٢) السابق جـ ١ صـ ٤٤٦، صـ ٤٤٧.

هذا كان للنبى ﷺ، وإن النار لا تحرق شيئًا كان للنبى ﷺ أو مسته يد الأنبياء.



دينار بن عبد الله ضعيف واهٍ. قاله أبو أحمد ابن عدى»[1].

فهذا النص يدل دلالة مباشرة على أن الصفدى قد زار الإسكندرية، وكان بها حينئذ إمام عالم وصفه الصفدى بأنه مفتى المسلمين هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن فتح الدين أبى الحسن ابن إبراهيم الأنصارى القمى، وأن الصفدى قد جلس إليه وسمع منه هذا الكلام السابق بهذه السلسلة الطويلة من الرواة، وهذا يدل من ناحية ثانية على عناية العلماء المصريين بحديث النبى ﷺ وأفعال صحابته الأكرمين.

وبهذا الحديث عن إشارة الصفدى إلى أهم البلدان التى كانت بمثابة المنارات الثقافية والعلمية فى ذلك العصر وما بها من مؤسسات تعليمية وعلماء أجلاء نُخْتَتِمُ صورةُ الحياةِ الفكريةِ فى العصر كما رسمها الصفدى فى الغيث.

## خامسًا: منهج علماء العصر فى الكتابة والتأليف العلمى:-

يصف الدكتور عبد اللطيف حمزة هذا العصر بأنه عصر الموسوعات العلمية الضخمة[2]، وضرب أمثلة - فى كتابه عن القلقشندى - لهذه الموسوعات بلسان العرب لابن منظور، ونهاية الأرب للنويرى، وصبح الأعشى للقلقشندى.

ولقد كانت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وقتها تحتم على علمائنا أن يعيدوا بعض ما فقدوه من ذخائر وروائع عقب سقوط بغداد على أيدى التتار، فما كان أمامهم من سبيل إلى لَمِّ شتات هذه العلوم سوى هذه السبيل.

واتخذ علماء العصر مذاهب شتى فى التأليف العلمى؛ فمنهم من شرَّق وغرَّب، وجعل موسوعته أشبه ما تكون بدائرة معارف - كما نقول بلغة عصرنا - كالنويرى فى نهاية الأرب[3]؛حيث تحدث فيه عن السماء والأرض،والمعالم العلوية

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٩٦، صـ ٩٧.

(٢) القلقشدنى فى كتابة صبح الأعشى عرض وتحليل للدكتور عبد اللطيف حمزة صـ ١٥، وزارة الثقافة والإرشاد القومى د. ت.

(٣) ينظر فى كتاب نهاية الأرب للنويرى المرجع السابق من صـ ٢٠ إلى ٢٣، وكذا كتاب «النويرى وكتابه نهاية الأرب مصادره الأدبية وآراؤه النقدية» للدكتورة أمينة محمد جمال الدين بكل أبوابه وفصوله. دار ثابت مايو ١٩٨٤م.



والسفلية، وعن الإنسان والحيوان، والتاريخ والأدب، ومنهم من وضع هدفًا محددًا نُصب عينيه وحرص على تحقيقه، فجعل كتابه فى موضوع واحد؛ كابن منظور فى كتابه لسان العرب[1]؛ فهو معجم لغوى، والقلقشندى فى صبح الأعشى[2] حيث جعل منه موسوعة فى الكتابة وأدواتها، وتاريخها، وتطورها، وأعلام الكتّاب ورسائلهم.

وإلى هذين القسمين الكبيرين تنقسم تيارات القوم فى التأليف والكتابة الموسوعية، فقد أفردوا لكل علم من علوم العصر الكثير من المؤلفات التى تتناول مباحثه بالشرح والتفسير، أو بالتحقيق والتأصيل، كما ألفوا كتبًا تعالج موضوعات شتى، وهذه بدورها تنقسم إلى كتب المحاضرات وكتب المجاميع الأدبية، ومن أهم كتب المحاضرات فى ذلك العصر كتاب الصفدى «جلوة المحاضرة وخلوة المذاكرة»، ومن أهم كتب المجاميع الأدبية كتاب «مطالع البدور فى منازل السرور» لعلاء الدين الغزولى[3].

غير أن تاريخ الفكر العربى قد ورث عن العلماء السابقين منهجًا فريدًا فى التأليف إذ «يعمد المؤلف إلى نص نفيس سار ذكره، أو كتاب موجز اشتهر أمره فيتناوله بالتفسير والشرح إن كان مبهما، أو يبسطه بالإيضاح إن كان موجزًا، أو يزيد فيه بما يتاح له من المعانى وما وقعَ له مِن خلال الخبرات والمشاهدات، ثم يستطرد بما يتداعى إلى ذهنه من فنون الكلام مما قرأ وحفظ أو سمع وروى، فيكون النص أو الكتاب بعد ذلك شيئًا آخر حفيلاً بالفوائد، جامعًا لشتيت المسائل[4]».

وأخذ علماء المماليك هذا المنهج عن السابقين، واعتمدوه فى البحث والتأليف

---

(١) ينظر فى تحليل لسان العرب لابن منظور كتابُ «القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى» عرض وتحليل للدكتور عبد اللطيف حمزة صـ ٢٨، صـ ٢٩.

(٢) ينظر فى تحليل صبح الأعشى المرجع السابق بكل أبوابه وفصوله، وكذا كتاب أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى تأليف نخبه من الأساتذة تحت إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٣م.

(٣) ينظر فى تحليل كتاب الغزولى «مطالع البدور فى منازل السرور» كتابُ الأدب فى العصر المملوكى جـ٢ لأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام من صـ ٣٢ إلى صـ ٣٤، طبعة دار المعارف.

(٤) من مقدمة تحقيق تمام المتون لمحمد أبى الفضل إبراهيم صـ ٣.

العلمي، واتخذوه مركبًا ذلولاً لبلوغ مآربهم من التوسع فى العلم، والاستطراد فى البحث، ومن أهم كتب الشروح فى ذلك العصر كتاب جمال الدين محمد بن نباته الذى تناول فيه الرسالة الهزلية لابن زيدون الشاعر الوزير العاشق الذى أحب ولّادة بنت المستكفى «إحدى الظريفات من نساء بنات خلفاء الغرب الأمويين»[1] وهذا الكتاب سماه صاحبه «سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون»، وكذلك كتاب صلاح الدين الصفدى الذى تناول فيه شرح رسالة ابن زيدون الجدية وهو كتاب «تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون»، وإذا كان هذان الكتابان قد تناول فيهما صاحباهما شرح نصين أدبيّين فإن هناك سيلاً من المؤلفات التى وضعت فى هذا العصر لشرح العديد من القصائد والمنظومات التعليمية كألفية ابن مالك فى النحو والصرف وقصيدة الشاطبى فى علم القراءات.

وهناك منهج رابع اعتمده علماء العصر فى التأليف، وهو منهجٌ يقوم على قراءة كتب السابقين وفهمها ثم اختصارها وتهذيبها تقريبًا لمادتها العلمية من القراء، وحذفًا لما يكون بها من الحشو الذى يحول دون التحصيل، وكثرت هذه الكتب فى هذا العصر كثرةً مفرطةً حتى ليقول الصفدى فى ابن منظور: «وما أعرف فى كتب الأدب شيئًا إلا وقد اختصره؛ من ذلك كتاب الأغانى الكبير رتبه على حروف المعجم مختصراً، وزهر الآداب للحصرى، واليتيمة، والذخيرة، ونشوار المحاضرة، واختصر تاريخ ابن عساكر، وتاريخَ الخطيب وذيلَ النجار عليه[2]» ويقول «واختصر صفة الصفوة، ومفردات ابن البيطار، وكتاب التيفاشى «فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب» اختصره فى عشر مجلدات وسماه سرور النفس[3]».

وهذه الكتب جميعها التى اختصرها ابن منظور تدور فى فلكين هما التاريخ والأدب. وشاع هذا المنهج أيضًا فى كتب البلاغة؛ فقد وضع عماد الدين إسماعيل ابن أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبى كتابًا فى البلاغة سماه «كنز البراعة فى أدوات ذوى البراعة» وكان الكتاب كبير الحجم جداً[4] فقام نجم الدين أحمد بن إسماعيل

(١) مقدمة تحقيق تمام المتون لأبى الفضل إبراهيم صـ ٤.
(٢) نكت الهميان للصفدى صـ ٢٧٦.
(٣) السابق نفسه صـ ٢٧٦.
(٤) مقدمة تحقيق جوهر الكنز لأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام صـ ٩.





باختصاره وتقريب فوائده إلى القارئ دونما إخلال بمادة الكتاب الأصلية فى كتاب سماه «جوهر الكنز» يقول: «فإنى لما وقفتُ على الكتاب الذى ألفه والدى الفقير إلى الله تعالى عماد الدين إسماعيل ابن الفقير إلى الله تعالى تاج الدين أحمد بن الأثير الشافعى الحلبى رحمهم الله تعالى فى علم الأدب، وضمّنه من أنواعه ما لم يسبقه إليه أديب ولا نحا نحوه فى فنه إلا ذو لب أريب، وسماه كنز البراعة...... ولقد وجدتُ فيه إسهابًا على من يروم حفظه، أو يقيد لفظه، فقصدتُ اختصاره رغبة فى سهولة تناوله وقصداً لنظم شتات نوعه لمبتغيه ومحاوله[1]» ويقول: «ووسمته بجوهر الكنز؛ إذ أجلّ ما يُدخر فى الكنوز الجواهر، ولعل هذا المختصر جمع أجل ما حواه كتاب الكنز من المعانى والألفاظ[2]» ويقول مرة أخرى مبينا أن عمله جاء فى «غاية الاختصار الذى لم يُخِل بما يحتاج إليه ولا يمل عند مطالعته[3]».

******

(١) جوهر الكنز بتحقيق أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية د. ت صـ ٢٧، صـ ٢٨.

(٢) السابق نفسه صـ ٢٨.

(٣) السابق نفسه صـ ٢٨.

# الفصل الثانى

## ثقافة الصفدى

### تقديم

ترجم غير واحد من مؤرخينا القدماء للصفدى؛ كابن حبيب فى «تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه»[١]، وابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة[٢]، والشوكانى فى البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع[٣]، وابن كثير فى البداية والنهاية[٤]، والسبكى فى طبقات الشافعية الكبرى[٥]، تراجم تختلف طولاً وقصرًا، وإيجازًا وإطنابًا.

ولقد أدهشنى وأنا بصدد البحث فى المصادر القديمة عما يُعيننى على وضع تصور لمراحل تطور الحياة العلمية للصفدى ما قاله ابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة» حيث ترجم لِعَلَمنا على نمط أهل عصره فى كتابة التاريخ ترجمةً موجزةً ثم قال إنه ترجم للصفدى ترجمة وافية شافية فى كتابه الكبير «المنهل الصافى»، وذهبت إلى المنهل الصافى لأقرأ تلك الترجمة الوافية الشافية، وما أن انتهيت من قراءتها حتى وجدتها غير وافية ولا شافية وليس بها من المعلومات ما يزيد على تلك الترجمة الموجزة التى عقدها له فى «النجوم الزاهرة»، إلا أنه شغل نفسه، وشغلنا معه بتلك الرسالة التى أوردها، وهى عبارة عن رسالة بعث بها الصفدى إلى جمال الدين بن نباتة يطلب فيها أن يجيز له الأخير رواية كتبه ومؤلفاته ما نَجَزَ منها وما لم يَنْجُزْ، ثم أورد رد ابن نباتة على رسالة الصفدى، وبعد ذلك أورد للصفدى مقطوعات من شعره، وبين رأيه فى هذا الشعر، وانتهت الترجمة دون أن تعطى قارئها تصورًا واضحًا لثقافة الصفدى وتنوعها وموسوعيتها، وإن أعطتنا -بطبيعة الحال- تصورًا واضحًا عن الرجل ومؤلفاته وأساتذته.

---

(١) تذكرة النبية فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦م، ٣/ ٢٦٨.

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ٢/ ٨٧.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى. دار المعرفة. بيروت د.ت، ١/ ٢٤٤.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى. مكتبة المعارف. بيروت ١٩٨٣م، ١٤/ ٣٠٣.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٦/ ٩٤.

وسوف أنهج فى تصويرى لثقافة الصفدى منهجًا أمزج فيه بين الاعتماد على ما ورد فى نصوص هذه التراجم من ناحية، واستنطاق نصوص كتاب الغيث المسجم وسائر كتب الصفدى من ناحية أخرى.

**نشأته ومواهبه:**

ولقد نشأ الصفدى نشأةً عادية كسائر أترابه، ولما بلغ سن الصبا ألحقه والده بأحد الكتاتيب التى تحفظ القرآن الكريم، وأتم الغلام حفظ القرآن الكريم فى صغره على ما يحكى لنا ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى[١]، وبعد ذلك بدأت رحلة الصفدى فى طلب العلم، ويبدو لى أن والده كان على درجة من الوعى وتفتُّح الذهن، وحُسْن الأمل فى الغلام؛ لأنه رفض أن يمكنه من الاشتغال فى مرحلة الطلب حتى بلغ عشرين سنة على ما يحكى لنا ابن حجر فى الدرر الكامنة[٢]، ولعل هذا التفرغ قد أعانه على الجد فى طلب العلم، والسعى فى تحصيله، وقد كان لهذا أكبر الأثر فيما بعد فى مؤلفاته وكتبه، فنتاج الصفدى الثر الغزير فى كل علوم عصره ومعارفه لا يمكن أن يتاح إلا لشخص تفرغ فى صباه وزهرة شبابه للدرس والتحصيل تفرغًا ينفى عنه ما يشغل خاطر أترابه من السعى على الرزق والاهتمام بأمور العيش، وفى هذه السن المبكرة تفتحت موهبة الصفدى الأدبية فنظم الشعر، وكتب النثر على طريقة أهل العصر، وتميز الصفدى بخطه الحسن الجميل، وقد رشحه هذا لكتابة الدرج بصفد، ثم كتابة بيت المال بدمشق، وكتابة الإنشاء بالديار المصرية، ثم ولى كتابة السر بحلب، وباشر وظائف جليلة»[٣].

وبجانب هاتين الموهبتين رُزق الصفدى موهبة ثالثة حيث كان رساما، ولم يكن رساما عاديًا، بل كان ماهرًا فى الرسم؛ قال ابن حجر: «وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها»[٤].

---

(١) المنهل الصافى: جـ ٥ ص ٢٤٢.

(٢) الدرر الكامنة: جـ ٢ ص ٨٧.

(٣) المنهل الصافى: جـ ٥، ص ٢٤٣.

(٤) الدرر الكامنة: جـ ٢، ٨٧.



وهكذا كان الصفدى فنانًا شاملاً جمع بين حسن الخط وجودة الرسم والمقدرة على التعبير عن خواطره وخلجات نفسه بالكلام الموزون وغير الموزون.

ورزق الصفدى بجوار هذه المواهب الثلاث مواهبة رابعة تتمثل فى ذاكرة حافظة لاقطة؛ فقد كان محفوظه من الشعر والنثر كثير جداً. وكان يحفظ كثيراً من المداعبات والنوادر التى حدثت لمعاصريه من الأدباء كتابًا وشعراء، يدل على ذلك روايته لكثير منها فى كتابه الغيث المسجم الذى كتبه بآخرة من عمره، فبالرغم من تقدم السن، وتصالح الأمراض على جسده، فإنه لم ينس هذه النوادر والمداعبات التى وقعت له أو لغيره من الأدباء والعلماء، وكان حظ الغيث المسجم منها عظيمًا حقًا.

وبهذه المواهب الأربع استطاع الصفدى أن يتخذ لنفسه مكانة مرموقة بين علماء العصر وأدبائه، كما استطاع أن يحصِّل هذه الألوان المتعددة من الثقافات والمعارف التى من أهمها:

**١ - التاريخ:**

فقد أولع الصفدى بهذا العلم، وأقبل عليه ودرسه على يد الشيخ الإمام شمس الدين الذهبى الذى ترجم له صاحبنا فى كتابه «نكت الهميان فى نكت العميان» ترجمة وافية جاء فيها «اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيرا من تصانيفه»[(١)] ثم يذكر الصفدى هذه التصانيف فيقول: «ومن تصانيفه: تاريخ الإسلام، وقد قرأت منه عليه المغازى، والسيرة النبوية إلى آخر أيام الحسن رضى الله عنه وجميع الحوادث إلى آخر سنة سبعمائة، والثلاثين البلدية، ومَن تُكلم فيه وهو موثَّق، وقد كتبتهما بخطى وقرأتهما عليه. . . ، وطبقات القراء وسماه: القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تناولتُه منه وأجازنى روايته وكتبت عليه:

عَلَيْكَ بِهَذِهِ الطبقاتِ فاصْعَدْ إليها بالثَّنَا إنْ كُنْتَ راقِ
تَجِدْها سبعةً مِنْ بعدِ عشرٍ كَنَظْمِ الدُّرِّ فى حُسْنِ اتفاقِ
تُجَلِّى عَنْكَ ظُلْمَةَ كُلِّ جَهْلٍ بِهِ أَضْحَى مقالُك فى وَثَاقِ



(١) نكت الهميان: ص ٢٤٢.



ومن كتب هذا الشيخ التى قرأها الصفدى عليه أيضًا كتاب فتح المطالب فى آخبار على بن أبى طالب؛ يقول الصفدى «وقرأته عليه من أوله إلى آخره»[2].

وقد كان الصفدى يجل هذا الشيخ ويوقره، ويعتمد على كتبه ويأخذ منها مادة كتبه، وليس أدل على ذلك من أنه ذكره فى أكثر من موضع فى أثناء شرحه للامية العجم ونقل عنه، بل صحح بكلامه أخطاء الآخرين. فقد نقل عن المسعودى فى شرح المقامات أن «المهدى لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية وهو صبى وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة وإياس يقدمهم فقال المهدى: أف لهذه العثانين أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟! ثم إن المهدى التفت إليه وقال: كم سنك يا فتى؟ قال: سنى أطال الله بقاء أمير المؤمنين سن أسامة بن زيد ابن حارثة لما ولاه رسول الله ﷺ جيشًا فيهم أبو بكر، فقال له: تقدمْ باركَ الله فيك»[3] وبعد أن نقل هذا النص صَحَّحَ ما فيه من أخطاء فقال: قلت: كذا ذكره المسعودى، والصحيح ما قرأته على الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى فى تاريخه الكبير أن إياسا قاضى البصرة توفى فى زمن بنى أمية سنة مائة وتسع عشرة ولم يلحق دولة بنى العباس»[4].

وكما درس التاريخ على شيخه الذهبى درسه على ابن سيد الناس اليعمرى على ما يقول هو، فقد تحدث فى تمام المتون عن بيعات العقبات الثلاث ثم قال: «فهذه بيعات العقبات الثلاث حدثنى بها شيخنا الإمام الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد ابن محمد بن سيد الناس اليعمرى مختصراً من سيرته»[5].

وقرأ الصفدى عدداً كبيراً من أمهات كتب التاريخ ونقل عنها فى مؤلفاته ككتاب «وفيات الأعيان»[6] لابن خلكان، وكتاب «الروض الأنف»[7] للإمام السهيلى، وكتاب «مروج الذهب» للمسعودى[8] وغيرها.

---

(١) نكت الهيمان: ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٢) السابق نفسه: ص ٢٤٣.
(٣) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٨٣، ص ٨٤.
(٤) السابق نفسه: ص ٨٤.
(٥) تمام المتون: ص ١٤٣.
(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث المسجم: جـ ١، ص ١٦.
(٧) يراجع على سبيل المثال تمام المتون: ص ٣٥.
(٨) يراجع على سبيل المثال تمام المتون: ص ٦٢.



وألف الصفدى عددًا كبيرًا من الكتب فى التاريخ منها «الوافى بالوفيات» الذى يصفه الأستاذ سمير حسين حلبى محقق كتاب جنان الجناس بقوله: «وهو أكبر معجم تاريخى من نوعه فى تراجم الصحابة والتابعين والقراء والمحدثين والقضاة والشعراء والنحاة والحكماء وغيرهم»(١).

وإذا كان هذا الكتاب فى تراجم أعيان علماء الإسلام عامة، فإن له كتابًا كبيرًا فى تراجم أعيان العصر سمّاه «أعيان العصر وأعوان النصر» وقد جعله «فى تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى من الرجال والنساء»(٢).

وخص ذوى العاهات ببعض الكتب التى ترسم الخطوط الرئيسية لحياتهم وآثارهم منها «نكت الهميان فى نكت العميان»(٣)، ومنها: «الشعور بالعور»(٤).

ومن مؤلفاته التاريخية أيضًا كتاب «قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة»(٥)، وكتاب «تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب»(٦)، وكتاب «زهر الخمائل فى ذكر الأوائل»(٧). هذا عدا ما يقص من الوقائع التاريخية فى ثنايا مؤلفاته الأدبية؛ فمن يقرأ كتاب «تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون» يشعر أن الكتاب قد تحول من كتاب أدبى إلى كتاب تاريخى، إذ تحدث فيه عن كثير من تاريخ الرسل والأنبياء كسيدنا نوح(٨) عليه السلام، وسيدنا

---

(١) جنان الجناس: مقدمة المحقق ص ٥، وقد طبع من الوافى بالوفيات أكثر من عشرين جزءًا بعناية جمعية المستشرقين الألمان، سلسلة النشرات الإسلامية، وبتحقيق لفيف من الدارسين.

(٢) جنان الجناس: مقدمة المحقق ص ٨، وقد حقق هذا الكتاب الدكاترة على أبو زيد، ونبيل أبو عشة، ومحمد موعد، ومحمود سالم محمد وقدم له الدكتور مازن المبارك ضمن مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبى، دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ٩٨.

(٣) طبع الكتاب بتحقيق الأستاذ أحمد زكى بك، ونشر بعناية أسعد طرازونى الحسينى.

(٤) طبع هذا الكتاب بتحقيق للدكتور عبد الرزاق حسين، دار عمار للنشر والتوزيع الأردن ١٩٨٨م.

(٥) يذكر الأستاذ هلال ناجى أن هذا الكتاب طبع بالقاهرة مرتين: الأولى سنة ١٢٨٧هـ، والثانية سنة ١٣١٦هـ، انظر مقدمة تحقيقه لجنان الجناس.

(٦) حقق الكتاب بدمشق بعناية إحسان بنت سعيد خلوصى، وزهير حميدان الصمصام.

(٧) ذكر هذا الكتاب ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى، وعدّه الأستاذ هلال ناجى ضمن مصنفات الصفدى المفقودة. راجع الذخائر ص ٤٧.

(٨) يراجع تمام المتون: ص ١١٨.





موسى[1] وسيدنا صالح[2]، كما تحدث فيه عن تاريخ العرب فى الجاهلية ومحاولة أبرهة الحبشى الفاشلة لهدم الكعبة[3]، كما تحدث عن بعض الخلفاء الفاطميين[4] وبعض سلاطين المماليك[5]، وهو فى كتابته التاريخية مشرق الأسلوب متخفف من أعباء البديع، مقنع بالحجج والبراهين، مصحح لما تعارف عليه الدارسون من أمور توارثوها على أنها مسلمات علمية بينما هى فى الواقع لا ظل لها من الحقيقة ولا تقوى أمام نقد المؤرخ ذى البصر والإلمام بأدوات درسه، هذا وإن كان يسير فى ترجمته للأعلام على نمط أهل عصره، فإنه قد يعنى بأن يضيف دائمًا الجديد إلى ترجمة العلم، ويرصد الظواهر ويحللها ويعلل لها.

وهذه صورة من صور كتابته التاريخية نقلها من تمام المتون قال: «لما واعد الله موسى لميقاته وهو أربعون ليلة، كان قوم موسى قد أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، فوعدَ الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه: إنى أذهب إلى ربى لآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون وواعدهم أربعين ليلة ثلاثين من ذى القعدة وعشرا من ذى الحجة، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما جاء الوعد أتى جبريل على فرس الحياة لا يمر على شىء إلا حيى، فلما جاء رآه السامرى وكان رجلاً صائغًا يقال اسمه منحا من أهل كرمان أو من أهل باجرمى أو كان من بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، فرأى مواضع الفرس تخضر، وكان منافقًا من قوم يعبدون البقر فقال: إن لهذا لشأنا، فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبريل، وألقى فى روع السامرى أنه إذا أُلقى فى شىء غيَّره، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليًا كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم، ولما أهلك الله فرعون وقومه بقيت تلك الحلى فى أيديهم، فقال السامرى لبنى إسرائيل: إن الحلى التى استعرتموها غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتى يرجع موسى من ميقات ربه فيرى رأيه فيها، أو أن هارون أمرهم أن يلقوها فى حفرة فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى

(١) السابق نفسه: ص ١١٩ وما بعدها.

(٢) السابق نفسه: ص ١٢٥ وما بعدها.

(٣) السابق نفسه: ص ١٣١ وما بعدها.

(٤) السابق نفسه: ص ٤٨.

(٥) السابق نفسه: ص ٥٣.



عجلاً فى ثلاثة أيام ثم ألقى القبضة التى أخذها من أثر حافر فرس جبريل فخرج عجلاً من ذهب مرصعًا بالجواهر من أحسن ما يكون، وخار خورة، وكان يمشى ويخور فقال السامرى: هذا إلهكم وإله موسى نسيه ها هنا وخرج يطلبه، وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الموعد، وعدّوا اليومَ مع الليلة حتى مضى عشرون يومًا ولم يرجع موسى، فوقعوا فى الفتنة فى العشرين، فعكف على عبادة العجل ثمانية آلاف يعبدونه، أو كلهم عبدوا العجل إلا هارون مع اثنى عشر رجلاً وهو الصحيح، أو عبدوه أجمعين إلا هارون، فأوحى الله إلى موسى إنا قد فتنا قومك، فرجع إليه غضبان أسفا، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] أى ليقتل البرئ منكم المجرم، فقالوا: نصبر لأمر الله تعالى، فجلسوا فى الأفنية محتبين وقال لهم من حلّ حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيده أو برجله فهو ملعون غير مقبول التوبة؛ فأصلتَ القومُ عليهم الخناجر، وكان الرجل يرى ابنه أو أباه أو أخاه أو صديقه أو جاره يُقتل فلا يقدر أن يدافع عنه وقالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله عليهم سحابة سوداء وأصبحوا لا يصر بعضهم بعضا، وكانوا يقتلونهم إلى المساء، ولما كثر القتل دعا موسى وهارون وبكيا وتضرعا إلى الله وقالا: يا رب هلكت بنو إسرائيل، فكشف اللهُ السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل، وكان عدد القتلى سبعين ألفًا، فأوحى الله إلى موسى: أما يُرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة؟»[1].

وهذا النص يبين منهج الصفدى فى سرد حوادث التاريخ؛ فهو يعتمد على أصح الآراء وأرجحها، وليس معنى هذا أنه لا يذكر إلا أصح الأقوال والآراء فقط، بل هو يورد جميع الآراء التى قالها المؤرخون فى موضوعه ثم يدل قارئه على الرأى الصحيح الذى يرجحه ويميل إليه، وهو يقص الحادثة التاريخية فى أسلوب مرسل يعتمد على التشويق والإثارة، ويبعد عن التكلف والصنعة.

### ٢ - اللغة:

يذكر ابن تغرى بردى فى ترجمته للصفدى فى المنهل الصافى أنه «برع فى



(١) تمام المتون صـ ١٢٠، صـ ١٢١، صـ ١٢٢.

النحو واللغة والأدب والإنشاء»[1]، وليس فيما بين أيدينا من نصوص ما يعيننا على التعرف على شيوخه فى اللغة، اللهم إلا تلك الإشارة العابرة التى ذكرها هو فى تضاعيف ترجمته لأثير الدين أبى حيان حيث قال: «وسمعت من لفظه كتاب الفصيح لثعلب»[2]، وقال «وسمعت من لفظه خطبة كتاب ارتشاف الضرب من لسان العرب»[3]، إلا أن آثاره تدل على تعمقه فى هذا الفرع المهم من فروع الثقافة العربية، فقد شُغل الصفدى على ما يبدو لى بالجوهرى وكتابه الصحاح فوضع عليه عدداً من الكتب من أهمها «عواصى الصحاح»[4]، و«حلى النواهد على ما فى الصحاح من الشواهد»[5]، و«نجد الفلاح فى مختصر الصحاح»[6]، و«نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهرى من الوهم»[7]، وأغلب هاتيك المؤلفات لا تزال حبيسه المكتبات العامة مخطوطة لما تنشر بعد مثلها فى ذلك كمثل معظم كتبه فى التاريخ والأدب.

ووضع الصفدى كتابًا يعالج أخطاء العامة أو ما تلحن فيه العامة سماه «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف»، وقد نشره الدكتور السيد الشرقاوى[8]، بعد أن حققه تحقيقًا علميًا أحرز به درجة الماجستير فى اللغويات من جامعة عين شمس.

هذه هى كل آثار الصفدى فى مجال اللغة، وتبقى بعد ذلك آراؤه اللغوية التى بثها فى تضاعيف كتبه الأدبية والنقدية من مثل «تشنيف السمع بانسكاب الدمع»، و«الغيث المسجم فى شرح لامية العجم»، و«جنان الجناس»، و«تمام المتون»،

---

(١) المنهل الصافى جـ ٥ صـ ٢٤٢.

(٢) نكت الهميان صـ ٢٨١.

(٣) السابق نفسه صـ ٢٨١.

(٤) هكذا ورد فى المنهل الصافى بهذا الاسم، ولست أدرى أهو كتاب غوامض الصحاح الذي حققه عبد الإله نبهان أم لا؟

(٥) هذا الكتاب ذكره الصفدى فى تصحيح التصحيف، وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى ووضعه الأستاذ هلال ناجى ضمن مؤلفات الصفدى المخطوطة.

(٦) يعد الأستاذ هلال ناجى هذا الكتاب ضمن كتب الصفدى المفقودة، مجلة الذخائر العدد الثالث ص٤٧.

(٧) هذا الكتاب ذكره الصفدى فى تصحيح التصحيف، وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى، وحاجى خليفة فى كشف الظنون، وذكر الأستاذ هلال ناجى أن منه مخطوطة فى مكتبة مجمع اللغة العربية، بالقاهرة؛ وقد حقق هذا الكتاب تحت إشراف الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب.

(٨) نشرت هذا الكتاب مؤسسة الخانجى للطبع والنشر بالقاهرة عام ١٩٨٥م.

و«فض الختام» وغيرها، وهى آراء جديرة بالدرس، إذ تكشف عن مقدرة صاحبها اللغوية وتبين رسوخ قدمه فى عالم اللغويات.

ومن أهم كتب اللغويات التى قرأها الصفدى واهتم بها كتاب الحريرى «درة الغواص فى أوهام الخواص» حيث نقل عنه كثيراً فى الغيث المسجم، وسوف يأتى حديث مفصل عن هذا الكتاب، وموقف الصفدى منه ومن صاحبه فى الفصل القادم الخاص بمصادر الشرح.

ويحدثنا الصفدى فى نكت الهميان أنه رأى أوائل كتاب ابن منظور المسمى بلسان العرب قال: «وجمع بين صحاح الجوهرى، وبين المحكم لابن سيده، وبين الأزهرى فى سبع وعشرين مجلدة ورأيت أنا أولَّها بالقاهرة، وقد كتب عليه أهل ذلك العصر يقرظونه ويصفونه بالحسن»[١].

والنص الآتى يبين مقدرة الصفدى اللغوية يقول:

«اعلم أن الأصل فى تورية وَوْرية فأبدلت الواو الأولى تاء، وهو كثير فى كلام العرب كما قالوا تولج وأصله وولج، وتراث وأصله وراث، وتوصية وأصلها ووصية لأن المادة الأولى مِن ولج والثانية مِن ورث والثالثة من وصى، وأما وزنها فهو تفعلة مثل تبصرة وتكرمة وتذكرة.

واعلم أن هذه المادة الأصلية وهى الواو والراء وما يأتى بعدهما من الحروف كيفما وقعت وتصرفت من تقديم بعضها على بعض لا يخرج عن ستة أقسام الأول: ورا، والثانى: وار، الثالث: أور، الرابع: راو، الخامس: روا، السادس: أرو، ولا يخرج معناها فى أى تركيب تصورته عن معنى الانتقال من الستر والخفاء إلى معنى الوضوح والظهور، كما فى النون والفاء وما يأتى بعدهما لا يخرج عن معنى الطرح والنفاد مثل نفذ، ونفث، ونفخ، ونفح، ونفد. وإنما أخرت الألف بعد الواو والراء لأن الأصل ورى؛ فالياء قلبت ألفا لأنه معتل الطرف بالياء»[٢].

وعلى هذا النحو يمضى الصفدى متحدثًا عن هذه الأقسام الستة فى إسهاب وتطويل، ثم يختم كلامه بالفخر بنفسه والاعتداد بها فيقول «واعلم أن تقديم هذا الاشتقاق إنما تكلفت له هذا التأويل الذى يدور على معنى الستر والكشف،

(١) نكت الهميان صـ ٢٧٦.

(٢) فض الختام عن التورية والاستخدام صـ ١٤٧، صـ ١٤٨.



واستنبطت هذه المعانى اللائقة لتساعد مقصدى فيما بعد فى ترجيح مذهب من سمى هذا النوع بالتورية على غيره، فقد اختلف أرباب البلاغة فى تسميتها على ما سيأتى، وما وقفت على كلام أحد سبقنى إلى هذا الترتيب[١]».

٣ - النحو:

يشكل النحو دون شك مقومًا أساسيًا من مقومات شخصية الصفدى العلمية، ويذكر ابن العماد الحنبلى أن الصفدى «أخذ النحو عن أبى حيان[٢]» وحقًا كان الشيخ أثير الدين إمام الدنيا فى النحو والتصرف على ما يقول الصفدى[٣]، إلا أن الصفدى فى ترجمته المستوفاة لشيخه لم يذكر أنه درس عليه النحو وإنما ذكر أنه أخذ عنه الأدب واللغة والقراءات القرآنية ولم يذكر النحو ضمن ما حصله من علوم الشيخ أثير الدين ومعارفه، ومع هذا كله تبقى إشارة ابن العماد الحنبلى ذات دلالة خاصة؛ فما دام الصفدى قد جلس من الشيخ مجلس التلميذ، وأخذ عنه كل هذه العلوم والفنون فقد تأثر - بلا شك - بآراء الشيخ النحوية ولا سيما أنه يكثر من النقل عن تلك الكتب التى كانت محل اهتمام أستاذه من مثل كتاب سيبويه، وشرح التسهيل لابن مالك وغيرهما، فقد حكى الصفدى عن شيخه أنه «التزم أن لا يقرئ أحدًا إلا إن كان فى كتاب سيبويه، أو فى التسهيل لابن مالك، أو فى تصانيفه[٤]».

ولم تشر الكتب القديمة إلى آثار الصفدى فى هذا العلم، كما لم يشر محققو مؤلفاته اللغوية والأدبية والتاريخية وغيرها إلى جهوده فى هذا العلم، كما لم يشر أساتذتنا الأجلاء فيما كتبوا من مؤلفات ودراسات إلى مؤلفات الصفدى النحوية[٥]، وربما كان مرجع هذا كله إلى قلة آثار الرجل فى هذا الفن، وقد

---

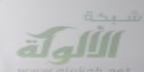
(١) فض الختام عن التورية والاستخدام صـ ١٥١.

(٢) شذرات الذهب ابن العماد الحنبلى جـ ٦ صـ ٢٠٠ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع د. ت.

(٣) نكت الهميان صـ ٢٨٠.

(٤) السابق نفسه صـ ٢٨٠.

(٥) يمكن أن تراجع مقدمة تحقيق تمام المتون لأبى الفضل إبراهيم، ومقدمة تحقيق فض الختام للحناوى، ومقدمة تحقيق جنان الجناس لسمير حلبى، ومقدمة تحقيق نكت الهميان لأحمد زكى، ومقدمة تحقيق تصحيح التصحيف للشرقاوى للتأكد من هذا الكلام.




استطعت أن أقف على بعض جهوده فى النحو منها تأليفه لرسالة جمع فيها جملة من المباحث النحوية فى حرف الواو، وقد تحدث عن هذه الرسالة فى كتابه الغيث المسجم، فعند إعرابه لقول الطغرائى «وحليةُ الفضلِ زانتنى لدى العطل» شرع يتحدث عن الواو واستخدامها فى العربية، وبين أنها قد تكون للعطف، وأنها قد تكون للتشريك فى الحكم بلا ترتيب، وأنها قد تأتى تارة بمعنى رب وتارة ثانية للقسم، وأنها قد تكون واو المعية، وقد تكون واو الحال، ومضى يستشهد بالآيات القرآنية التى تدعم آراءه ثم قال «وعلى الجملة ففى الواو مباحث جليلة جمعتها فى كراسة أضربت عن إثباتها هنا خوفًا من الإطالة[1]».

ومن جهوده فى النحو أيضًا تعليقه على الحاجبية، وقد ذكر هذا التعليق فى الغيث عند الحديث عن تلك القضية النحوية التى تختلف فيها آراء النحاة اختلافًا كبيرًا، ونعنى بها قضية العامل؛ فقد تحدث عن اختلاف النحاة فى رافع المبتدأ ثم قال «وقيل رافعُ المبتدأ التجردُ عن العوامل وليس بشىء؛ إذ العدم لا يكون علة للوجود وفيه نظر، وقيل رافعه الخبر، وهو باطل؛ لأن الخبر متأخر عنه وضعًا، وقيل: بل هما مترافعان، وقيل: الابتداء رافعهما، وهو ضعيف؛ لأن المعنى ما له هذه القوة، وقيل: الابتداء رفع المبتدأ، والمبتدأ رفع الخبر: وهو أقرب الأقوال، وقد استوفيت هذه المسألة فى تعليق لى على الحاجبية[2]».

وإذا دل هذا النص على أحد كتب الصفدى النحوية فإنه يدل من ناحية أخرى على منهج الصفدى أو على سمة من سمات منهج الصفدى فى عرض القضايا النحوية؛ حيث يتدرج بالقارئ فى تأنٍ وروية من باطل الآراء إلى صحيحها ثم أصحها، ومن راجحها إلى أرجحها، مع التعليل للرأى الذى يرجحه ومع بيان علة تضعيف ما يضعفه من الآراء، الأمر الذى يدل على رسوخ قدمه فى علم النحو وتمكنه من مباحثه تمكنا يمكنه من مجادلة الأعلام المبرزين فيه.

وتبقى بعد هذه الجهود آراؤه النحوية التى بثها فى ثنايا شرحه على لامية العجم وهى بحاجة إلى درس مستقل لكثرتها ودقتها.

---

(١) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٧١.

(٢) السابق نفسه حـ١ صـ ٦٨.



وهما من العلوم التى تدور فى محيط اللغة، وكان الصفدى على علم بهما، وحذق فيهما، وقد تحدث عنهما فى مقدمة الغيث المسجم حديثًا يدل على هذا العلم وهذا الحذق، فقد تحدث عن العروض لغةً، وعن العروض اصطلاحًا، ثم بيَّن سببَ تسميته بهذا الاسم، وهو يجل الخليل بن أحمد الفراهيدى أيما إجلال ويصفه بأنه «كان ذا ذهن متوقد، وعقل صحيح، وفطرة سليمة[١]».

ولعله درسَ هذا العلم على يد الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى فقد ورد نص فى الغيث المسجم يرجح هذا الاحتمال حيث قال الصفدى: «ذكر لى العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى أن الشعر اليونانى له وزن مخصوص، ولليونان عَروض لبحور الشعر، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل، قال ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شىء من ذلك فأعانه على إبراز العروض إلى الوجود[٢]».

والنص الآتى يبين مدى حذق الصفدى لهذا الفن حيث قال: «ومن فوائد علم العروض فصل القضية فيما يتنازع فيه: هل هو شعر عربى أم لا؟ وقد رأيت للشيخ جمال الدين بن واصل كلامًا على قول البهاء زهير:

يا مَن لَعِبَتْ به شَمُولُ ... ما أَلْطَفَ هَذِهِ الشَمَائِل

فقال فيها: إنها غير داخلة فى أبحر العروض، وتابعه جماعة، والصحيح أنها من بحر الوافر[٣] إلا أنه دخل فيه العقص وهو اجتماع الخرم[٤] بالراء والنقص[٥] فيخلفه (مفعول) بتحريك اللام، وشاهده:

---

(١) الغيث المسجم حـ١ صـ ٥٦.

(٢) السابق نفسه صـ ٥٤، وراجع حديثنا المفصل فى دحض هذا الرأى فى المبحث الأول من الفصل الخامس من كتابنا هذا.

(٣) بحر الوافر أحد بحور الشعر العربى وأصل تفاعيله هكذا:

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن ... مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

ولكنه لم يرد صحيحًا أبدًا، بل لا بد من قطف عروضه فتصير مفاعلتن مفاعل، وتحول إلى فعولن، وله عروضان وثلاثة أضرب؛ العروض الأولى مقطوعة وضربها مثلها، والعروض الثانية مجزوءة صحيحة ولها ضربان الأول مثلها والثانى مجزوء ومعصوب.

(٤) الخرم هو إسقاط أول الوتد المجموع فى أول شطر من البيت.

(٥) النقص هو اجتماع العصب مع الكف؛ أى إسكان الخامس وحذف السابع من التفعيلة. يراجع =

لولا مليكٌ رؤوفٌ رحيمٌ تداركني برحمته هلكتُ[١]»

وبعد أن صحح خطأ القائلين بخروج بيت البهاء عن أبحر العروض، قطَّع البيت حيث قال: تقطيع بيت البهاء زهير وتفعيله:

يا من لعبتْ به شمول ما ألطف هذه الشمائل

مفعول مفاعلن فعولن مفعول مفاعلن فعولن[٢]»

وبهذا يكون قد ظهر لنا أن الصفدى يحذق علم العروض بشقيه النظرى والتطبيقى[٣].

وما يقال فى علم العروض يقال فى علم القافية، فهما مترابطان، ولا يمكن أن يكون الصفدى على غير دراية بعلم القافية بعد ما رأيناه من رسوخ قدمه فى علم العروض وتمكنه منه، وقد تحدث فى الغيث عن القافية[٤] لغةً واصطلاحًا، كما تحدث عن رأيه فى قافية اللامية، وكل هذه مباحث ستأخذ حظها من الدرس فيما بعد[٥].

٥ - الأدب:

وليس من شك فى أن هذا الفرع من فروع الثقافة العربية هو أظهر هذه الفروع وضوحًا فى شخصية الصفدى العلمية، يدل على ذلك كثرة مؤلفاته الأدبية من جهة، وكثرة شيوخه فى هذا العلم من جهة أخرى.

أما عن شيوخه فى الأدب فقد حدثتنا عن بعضهم المصادر القديمة، وحدثنا هو عن بعضهم الآخر، وشيوخه فى الأدب من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤهم وبحيث نستطيع أن نعد كل من قابله الصفدى واستمع إليه وأخذ عنه شيئًا من

---

= كتاب «أهدى سبيل إلى علمى الخليل العروض والقافية» تأليف محمود مصطفى طبع مكتبة صبيح القاهرة ٨١.

(١) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٥٦، صـ ٥٧.

(٢) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٥٧.

(٣) السابق نفسه صـ ٥٧ حيث يراجع تقطيعه لمطلع إحدى قصائد أبى الحسين الجزار.

(٤) يراجع على سبيل المثال الصفحات ٦٠، ٦١، ٦٢، من المصدر السابق وما بعدها.

(٥) راجع حديثًا عنها فى المبحث الأول من الفصل الخامس من هذا الكتاب.





الأدب شيخًا من شيوخه فيه، ومع هذا لم يحدثنا ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى إلا عن شيخ واحد فقط وهو الشيخ جمال الدين بن نباته؛ فقد أورد نص الخطاب الذى أرسله الصفدى إلى ابن نباته ليجيزه فى روايته مصنفاته وتواليفه الأدبية وغير الأدبية حيث قال: «السؤال من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة أهل الأدب، قبيلة ذوى التحصين له فى التحصيل والدأب. . . . . . جمال الدين أبى عبد الله محمد ابن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباته جمع الله به شتات أهل الأدب فى دوحة هذه الدولة، ولمَّ به شعث أبنائه الذين لا صون لهم ولا صولة، وأقام به عماد أبيات الشعر التى لولاه لما عرفت دار ميَّة مِن أطلال خولة، إجازة كاتب هذه الأحرف - فسح الله له فى مدته - من رواية المصنفات فى الأحاديث النبوية والتأليفات الأدبية على اختلاف أوضاعهما، وتباين أجناسهما وأنواعهما بحسب ما تأدَّى ذلك إليه، واتصل به من سماع وإجازة أو وصية أو وِجادة[1] من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم، وإجازة ما له - أحسن الله إليه- من قول[2] نظمًا ونثرًا أو تأليفًا أو وضعًا إجازة خاصة، وإثبات ما له من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك إجازة عامة[3]».

وقد رد عليه جمال الدين بن نباته وقد أجابه إلى ما طلب قائلاً: «وأجزتُ لك أن تروى عنى ما يجوز لى روايته من مسموع ومأثور منظوم ومنثور وإجازةٍ ومناولةٍ وتصنيف وتنضيد وتفويق، وماض ومتردد وآت على رأى بعض الرواة، ومتجدد، وجميع ما تضمنه استدعاؤك فأجمع ما يكون من لفظه المتردد[4]».

وإذا كان ابن تغرى بردى لم يحدثنا فى المنهل إلا عن هذا الشيخ من شيوخه فى الأدب، فإنه قد فعل شيئًا يُحسب له ويحمد عليه وهو أنه تحدث عن رأيه فى

---

(١) فى تحقيق أبى الفضل إبراهيم: أو وجادة وهذا ما أثبته وقد قرأها محقق المنهل أو أوجازة.

(٢) فى تحقيق أبى الفضل: من مقول.

(٣) المنهل الصافى جـ ٥ صـ ٢٤٦.

(٤) السابق نفسه صـ ٢٥٠.



شعر الصفدى وكيف أن جيده يربو على رديئه حيث قال «قلت: وشعر الشيخ صلاح الدين المذكور كثير، وفضله غزير، وهو شاعر مجيد، على أن جيده يزيد على رديئه، ولولا أنه كان ضنينا بنفسه راضيًا بشعره لكان يندر له الردئ ويكثر من الجيد؛ فإنه كان غواصًا على المعانى، مبتكرًا للنكت البديعة، عارفًا بفنون الأدب، لكن رأيت من نظمه بخطه عندما يعارض بعض من تقدمه من مجيدى الشعراء فى معنى من المعانى اللطيفة فيأخذ ذلك المعنى أو النكتة فينظمها فى بيتين ويجيد فيها بحسب الحال، ثم ينظم أيضًا فى ذلك المعنى بعينه بيتين آخرين، ثم بيتين، ثم بيتين، ولا يزال ينظم فى ذلك المعنى وهو يقول «وقلت أنا» إلى أن يَمَلَّهُ النَّظَر، وتسأمه النفس، ويمجه السمع، فلو ترك ذلك وتحرى فى قريضه، لكان من الشعراء المجيدين، لما يظهر لى من قوه شعره، وحسن اختراعه»[1].

ولم يشأ ابن تغرى بردى أن يرسل رأيه فى شعر الصفدى على عواهنه، بل إنه قدم بين يدى رأيه مقطوعات من نظم الصفدى تتفاوت قوةً وضعفًا من مثل قوله:[2]

يَقُولُونَ حاكاهُ الهلال فلا تزغ ... عن الحقِ واعرف ذاكَ إن كُنْتَ تُنْصِفُ
فقلت: إذا ما صار بدرًا كاملاً ... حكاه ومع هذا عليه تكَلُّفُ

وقوله[3]:

أنْفَقْتُ كَنْزَ مَدَائِحِي فِي ثغرِهِ ... وَجَمَعْتُ فيه كُلَّ معنًى شَارِدِ
وَطَلَبْتُ مِنْهُ جَزَاءَ ذَلِكَ قُبْلَةً ... فَأَبَى وَرَاحَ تَغَزُّلِي فِي الْبَارِدِ

وقوله[4]:

بِسَهمِ أَلْحَاظِهِ رَمَانِي ... وذُبتُ من هَجْرِهِ وبَيْنِهْ
إنْ مِتُّ مَا لِي سِوَاهُ خَصمٌ ... لأنَّهُ قَاتِلِي بِعَيْنِهْ

(١) المنهل الصافى ص ٢٥٧.

(٢) السابق نفسه ص ٢٥٦.

(٣) السابق نفسه ص ٢٥٦.

(٤) السابق نفسه ص ٢٥٦، ص ٢٥٧.






وألحظ أن ابن تغرى بردى لم ينوع فيما اختاره من شعر الصفدى وإنما اختار اثنتى عشرة مقطوعة تدور حول التغزل بالغلمان.

ونترك ابن تغرى بردى إلى تاج الدين السبكى(*) الذى ترجم للصفدى ترجمة وافية فى الجزء السادس من كتابه طبقات الشافعية الكبرى، وسلط أشعة من الضوء الكاشف على حياتهما فى صغرهما (الصفدى والسبكى) فقد كانا صديقين حميمين، ثم صارا عالمين زميلين، وكان الصفدى يختلف إلى دروس والد تاج الدين السبكى، وتتمثل نفاسة هذه الترجمة فى أنها تعطينا تصورا - مهما يكن محدودًا فإنه كاف - عن علاقة الصفدى بتاج الدين وعما دار بينهما من المساجلات الأدبية.

وإذا كان ابن تغرى بردى قد أغفل ذكر أساتذة الصفدى ولم يذكر منهم إلا شيخًا واحدًا هو جمال الدين بن نباته، فإن تاج الدين السبكى قد فعل الشىء نفسه؛ حيث أتى حديثه عن مشايخ الصفدى موجزًا غاية الإيجاز، ويهمنا من هذا الحديث ما يتعلق بشيوخه فى الأدب، وقد ذكر شيخًا واحدًا هو الشيخ ابن سيد الناس حيث قال: «ولازمَ الحافظَ فتح الدين بن سيد الناس وبه تَمَهَّرَ فى الأدب(١)».

ولقد كان الصفدى السببَ المباشر الذى جعل تاج الدين السبكى يحب الأدب ويُقبل عليه، حيث كان يشجعه على نظم الشعر قال: «كنت أصحبه منذ كنت دون سن البلوغ، وكان يكاتبنى وأكاتبه، وبه رغبتُ فى الأدب، فربما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان، فكتبه هو عنى إذ ذاك(٢)».

وكان الصفدى يدعو صاحبه فى مناسباته السعيدة، فقد دعاه لحضور عقيقة مولود له فقال على لسان المولود(٣):

| | |
|---|---|
| عبدكَ هذا الجديد أضحى | يَقُولُ فاسْمَعْ لَهُ طَرِيقَهْ |
| يا جَوْهَرًا فى الزمانِ فردًا | ما ضَرَّ أنْ تَحْضُرَ العقيقهْ |

---

(*) هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ولد سنة ٧٢٧ وتوفى سنة ٧٧١هـ وهو صاحب طبقات الشافعية، وهو نجل الإمام السبكى الكبير.

(١) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى جـ٦ ص ٩٤.

(٢) السابق نفسه ص ٩٤.

(٣) السابق نفسه ص ٩٤، ص ٩٥.



فكتب يرد عليه قائلا[1]:

هنئت ذا الجوهر المقدَّى ... بالعرض والكنه والحقيقه

لو لم تكن حازمًا مُصيبا ... لم تفتدِ الناسَ بالعقيقه

وربط الحب بين قلبيهما، فعاشا توأمين، إذا غاب أحدهما عن الآخر أو سافر اشتاق الثانى إليه، وقد كتب الصفدى له مرة يعتذر عن عدم توديعه قائلا[2]:

يا سيداً سافرتُ عنه ولم أجِدْ ... جَلَدِى يُطَاوِعُنِى على تَوْدِيعِهِ

إنْ غِبْتُ عَنكَ فإنَّ قَلْبِىَ حاضرٌ ... يَصِفُ اشْتِياقِى لِلْحِمَى ورُبُوعِهِ

فرد عليه تاج الدين قائلا[3]:

يا راحلا بِحَشَا المقيم على الْوَفا ... ما الطرفُ بعدَكَ مؤذنًا بهجوعِهِ

إنْ غبتَ عنه فما تَغَيَّرَ مِنه ... إلا جسمُهُ سقمًا ولون دموعِهِ

والقلبُ بيت هواك راحَ كأنَّهُ ... بيتُ العَروضِيِينَ مِنْ تَقْطِيعِهِ

وكان الصفدى يعير تاج الدين كتبه ومؤلفاته، وكان تاج الدين يعرف للصفدى قدره العلمى، وهذا النص يوضح ذلك ويبينه؛ قال السبكى: «أعارنى مرة من تذكرته مجلداً، وكان يصنف كتابًا فى الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ويكتب على كل مجلد إذا نَجُزَ نُجزَ التشبيه منه، فلما وجدت ذلك عليه بخطه قلت: هذا نصف بيت فكتبت إلى جانبه:

نَجَزَ التَّشْبِيهُ مِنْهُ ... وروَى الراوونَ عَنْهُ

إنَّ مولانا لَبَحْرٌ ... طافحٌ إنْ لَمْ يَكُنْهُ

فاقِدُ الأشْبَاهِ فَرْدٌ ... فَدَعِ التَّشْبِيهَ مِنْهُ»[4]

ولم تقف العلاقات بينهما على ما يمكن أن أسميه بالعلاقات الاجتماعية، ثم

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص ٩٥.

(٢) السابق نفسه ص ٩٤.

(٣) السابق نفسه ص ٩٤.

(٤) طبقات الشافعية جـ٦ ص ٩٥.





العلاقات الإخوانية فحسب، وإنما امتدت لتنتظم الأمور العلمية أيضًا «فما صنف (أى الصفدى) كتابًا إلا وسألنى فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو، لا سيما أعيان العصر فأنا أشرت إليه بعمله ثم استعان بى فى أكثره، ولما أخرجت مختصرى فى الأصلين المسمى "جمع الجوامع" كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ علىّ ويلذ له التقرير، وسمعه كله علىّ وربما شارك فى فهم البعض منه رحمه الله تعالى»[1].

وكانت وساطة تاج الدين السبكى هى السبيل إلى ما تبوأ الصفدى من مناصب؛ قال السبكى: «وكنت قد ساعدته آخر عمره فولى كتابة الدست بدمشق، ثم ساعدته فولى كتابة السر بحلب، ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال، وكتابة الدست، واستمر بهما إلى أن مات بالطاعون ليلة عاشر شوال سنة أربع وستين وسبعمائة»[2]:

هذا عن شيوخه الذين حدثتنا عنهم المصادر القديمة أما عن شيوخه الذين حدثنا هو عنهم فمنهم أثير الدين أبو حيان الغرناطى؛ قال الصفدى فى نكت الهميان: «وقرأت عليه الأشعار الستة، وكان يحفظها، والمقامات الحريرية وحضرها جماعة من أفاضل الديار المصرية، وسمعوها بقراءتى عليه، وكان بيده نسخة صحيحة يثق بها، وبأيدى الجماعة قريب من اثنتى عشرة نسخة وإحداهن بخط الحريرى، ووقع منه ومن الجماعة فى أثناء القراءة فوائد ومباحث عديدة، وقال لى: لم أر بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك، ولما وصلنا إلى المقامة التى أورد الحريرى فيها الأحاجى قال: ما أعرف مفهوم الأحجية المصطلح عليها بين أهل الأدب، فأخذتُ فى إيضاح ذلك وضرب الأمثلة له، فقال لى: لا تتعب معى فإنى تعبت مع نفسى فى معرفة ذلك كثيراً، ولا أفاد ولا ظهر لى، وهذا فى غاية الإنصاف منه والعدالة؛ لاعترافه لى فى مثل ذلك الجمع وهم يسمعون كلامه بمثل ذلك، وقرأت عليه سقط الزند لأبى العلاء المعرى، وبعض الحماسة لأبى تمام الطائى»[3].

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص ٩٤.

(٢) السابق نفسه ص ٩٤.

(٣) نكت الهميان ص ٢٨١.



وقال «وانتقيت ديوانه وكتبته وسمعته منه، وسمعت من لفظه ما اخترته من كتابه مجانى الهصر»[1].

وهذان النصان فى غاية النفاسة لأنهما يوضحان أهم الكتب التى قرأها الصفدى على شيخه وهذه الكتب متنوعة تنوعًا كبيرًا؛ فمنها الكتاب النثرى، ومنها الكتاب الشعرى، فمقامات الحريرى قد بلغت من الروعة الفنية واللفظية حدًا جعل الأدباء والنقاد يحفظونها ويقتبسون منها فى كلامهم[2]، وهى لا شك قد أمدت الصفدى بثروة لغوية هائلة، وقدرة على تطويع هذه الثروة اللغوية فى أثناء كتابته الأدبية، ولا شك أن حماسة أبى تمام قد أثرت فيه بعض التأثير إذ أوقفته على ما بالشعر القديم من عوامل القوة وعناصر الإبداع، وقد كان لهذا أثره فى صقل مواهبه الفنية، كما أن انتقاءه لديوان شيخه قد كان له أثره فى ترقيق ذوقه وإرهاف حسه لأن الإنسان لا ينتقى عادة إلا أجود الأشياء وأعلاها قيمة، وبالتالى فلنا أن نزعم أن الصفدى قد وقف طويلاً عند أروع ما فى هذا الديوان من قصائد ومقطوعات، ويؤيد هذا الزعم تلك القصائد والمقطوعات التى أوردها الصفدى لهذا الشيخ فى ثنايا كتبه الأدبية، زد على ذلك أن أثير الدين أبا حيان قد أنشد الصفدى عددًا كبيرًا من قصائده ومقطوعاته، فالصفدى يقول فى ترجمته لأثير الدين: «وأنشدنى من لفظه لنفسه:

| | |
|---|---|
| يقولُ لى العذولُ ولَم أُطِعْهُ | تَسَلَّ فقَدْ بَدَا للحِبِّ لِحْيَه |
| تَخَيَّلَ أنها شَانَتْ حبيبى | وعندى أنها زَيْنٌ وحِلْيَه»[3] |

ويقول: «وأنشدنى من لفظه لنفسه:

| | |
|---|---|
| تعشقتُه شيخًا كأنَّ مَشِيبَهُ | على وَجَنَتَيهِ يَاسَمِينٌ على وردِ |
| أخا العقل يدرى ما يُراد مِن النُّهَى | أمنت عليه من رَقيبٍ ومن صدٍّ |
| وقالوا الورى قسمان فى شرعة الهوى | لِسُودِ اللِّحَى ناس وناسٌ إلى المُرْدِ |
| ألا إننى لو كنتُ أصبو لأمرَدٍ | صَبَوْتُ إلى هيفاءَ مائسةِ القَدِّ |

(1) نكت الهميان ص ٢٨٢.

(2) تاريخ النقد من القرن الخامس إلى القرن العاشر أ.د. محمد زغلول سلام ص ٢٢.

(3) نكت الهميان ص ٢٨٢.



وسود اللحى أبصرتُ فيهم مشاركا فأحببتُ أن أبقى بأبيضهم وحدى»[1]

وأخذ الصفدى الأدب عن شيخ رابع هو شهاب الدين أبو الثناء محمود حيث قرأ عليه كتبه، وسمع منه شعره، وتدارسا فيما بعد فى قضايا الأدب ومن أهم كتبه التى قرأها عليه كتابه فى وصف الخيل قال «وقرأت على الشيخ الإمام القاضى شهاب الدين أبى الثناء محمود الكاتب كتابًا أنشأه فى وصف الخيل جاء منه: «لا يستن داحسُ فى مضماره، ولا تَطمع الغبراءُ فى شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرامى طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانيًا مِن عِطفه[2]».

وقرأ عليه كتابه الموسوم بحسن التوسل فى صناعة الترسل؛ قال: «قرأت على الشيخ الإمام الكاتب أبى الثناء محمود كتابه الذى وسمه بحسن التوسل إلى صناعة الترسل وأورد فيه لنفسه قوله:

رأتنى وقد نال منى النحولُ وفَاضَتْ دُمُوعِى على الخَدِّ فَيْضَا

فقالتْ: بعينى هذا السقام فقلتُ: صَدَقْتِ وبالخصرِ أيضا»[3]

كما قرأ عليه كتابه الموسوم بأسنى المنائح فى أهنى المدائح قال: «قرأت على الشيخ الإمام الأديب الكاتب القاضى شهاب الدين أبى الثناء محمود بن زين الدين سليمان بن فهد الحلبى بدمشق مجلدة من نظمه فى مدح سيدنا رسول الله ﷺ وسمها بأسنى المنائح فى أهنى المدائح؛ من ذلك فى أثناء قصيدة:

ألا حَبَّذَا مَسْرَى الرَّكَابِ وَقَدْ رَأَتْ لها معلما عند الثَّنِيَّةِ معلما

وقد نزلَ الركبانُ عنها وعفَّروا سُحَيْرًا على الأرض الوجوهَ لِتكرُما

ولاحَ الحِمَى والصبحُ فى طُرَّةِ الدُّجَى فلم يدر ماشق الحنادسَ منهما

وقد أشرفتْ تلك القباب وأشرقتْ وجوهٌ زهَاهَا الحسنُ أنْ تَتَلَثَّمَا»[4]

وأجاز هذا الشيخ لصلاح الدين الصفدى رواية شعره قال «أنشدنى لنفسه إجازة الشيخ الإمام شهاب الدين أبو الثناء محمود:

---

(١) نكت الهميان ص ٢٨٢، ص ٢٨٣.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ٤١، ص ٤٢.

(٣) الغيث المسجم جـ١، ص ٢٦٢.

(٤) السابق نفسه ص ١١٤.



يا راكبًا يَفْـرِي جُيُـوبَ الفَـلا | على أمـون جـسـرة أو جـواد
يَسْـرِي فَتُـبْـدِيهِ ظُهُـورُ الرُّبَا | طورًا وتُخـفـيـه بُطونُ الوِهَادِ»[1]

وقال فى مـوضع آخر: «وأنشدنى لنفسه إجازةً الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود:

ولقـد ذكـرتكِ والسـيوفُ لوامع | والموتُ يرقبُ تحت حصن المرقب
والحصنُ مِنْ شَفَقِ الدُّرُوعِ تَخَالُهُ | حسناءَ تَرْفُلُ فِى رِدَاءٍ مُذَهَّبِ
سامِى السماءَ فَمَنْ تَطَاوَلَ نَحْوَهُ | للسَّمْعِ مُسْتَرِقًا رَمَاهُ بِكَوْكَبِ
والموتُ يَلْعَبُ بالنفوسِ وَخَاطِرِى | يلهو بطيب ذكرك المُسْتَعْذَبِ»[2]

وتنوع آثار الصفدى الأدبية تنوعًا كبيرًا؛ فمنها ما كان شرحًا لأعمال أدبية[3] ككتابه «تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون[4]» وهو شرح على الرسالة الجدية لابن زيدون، وكتاب «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم»[5] الذى هو موضوع دراستنا هذه، ومنها ما كان فى الدراسات النقدية ككتاب «نصرة الثائر على المثل السائر»[6] والذى انتصر فيه لابن أبى الحديد على ضياء الدين بن الأثير، ومنها ما كان فى الدراسات البلاغية وما كان منها خاصًا بالفنون البديعية على وجه الخصوص كـ «فض الختام عن التورية والاستخدام»[7] و«جنان الجناس»[8]،

---

(1) الغيث المسجم ص ٢٨٧ ويفرى بمعنى يقطع، جيوب بمعنى مداخل، الفلا بمعنى الصحراء، الرُّبى: المرتفعات، والوهاد: الوديان، والأمون: الناقة الوثيقة الخَلْقِ، والجسرة: العظيمة الممتلئة.

(2) السابق نفسه جـ٢ ص ٤١.

(3) عولت على المنهل الصافى فى ذكر أسماء مؤلفات الصفدى، وقامت المصادر والمراجع الأخرى بأدوار ثانوية تتمثل فى تصحيح ما بالمنهل من أخطاء فى أسماء بعض الكتب.

(4) حقق هذا الكتاب الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ونشر بالقاهرة.

(5) وهو الكتاب موضوع دراستنا، وقد طبع أكثر من مرة، وأكثر طبعاته تداولاً طبعة دار الكتب العلمية. بيروت لبنان وهى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا.

(6) حقق هذا الكتاب الدكتور محمد على سلطانى، ونشر بدمشق.

(7) سبق أن أشرنا إلى أن هذا الكتاب قد حققه الدكتور الحناوى، ونشر بالقاهرة.

(8) سبق أن أشرنا إلى أن هذا الكتاب قد حقق أكثر من مرة نذكر منها تحقيق سمير حلبى، وتحقيق هلال ناجى.





و«الكشف والتنبيه على التشبيه»[1]، و«الهول المعجب في القول بالموجب»[2]، ومنها ما كان أعمالاً أدبية أو جمعًا لآثار معاصريه الأدبية كـ «جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة»[3]، و«ألحان السواجع بين البادي والمراجع»[4]، و«غرة الصبح فى اللعب بالرمح»[5]، و«رشف الرحيق فى وصف الحريق»[6] و«نجم الدياجى فى نظم الأهاجى»[7]، و«المثانى والمثالث»[8]، ورسالة «عبرة اللبيب بمصرع الكئيب»[9]، و«الحسن الصريح فى مائة مليح»[10]، و«كشف الحال فى وصف الخال»[11]، و«لوعة الشاكى ودمعة الباكى»[12]، و«التذكرة الصفدية»[13]، و«جر الذيل فى وصف الخيل»[14]، و«ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء»[15]، و«صرف

---

(١) حقق هذا الكتاب الأستاذ هلال ناجي، ونشر ببيروت. وذكر أن اسمه «الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه».

(٢) هذا كتاب من مؤلفات الصفدى المخطوطة، راجع مقدمة هلال ناجى لتحقيق جنان الجناس ص٤٦.

(٣) هذا الكتاب من مؤلفات الصفدي المخطوطة، راجع مقدمة هلال ناجى المرجع السابق ص ٤٤.

(٤) حقق الجزء الأول منها أستاذنا الدكتور محمد عبد الحميد سالم وحصل به على درجة الدكتوراه فى الآداب من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، كما حقق الأستاذ الجليل الجزء الثانى منها، ذكر هذا لى فى لقائى معه.

(٥) عدَّ الأستاذ هلال ناجى هذا الكتاب ضمن كتب الصفدى المفقودة، راجع مقدمته لتحقيق جنان الجناس ص ٤٧.

(٦) حقق هذه الرسالة الدكتور سمير الدروبى ونشرها فى مجلة البلقاء - جامعة عمان، وقد أمدنى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلاّم بنسخة مصورة منها.

(٧) عدَّ الأستاذ هلال ناجى هذا الكتاب ضمن مؤلفات الصفدى المفقودة راجع مقدمة التحقيق جنان الجناس ص ٤٧

(٨) وهو أيضًا من المؤلفات المفقودة كما يذكر هلال ناجى، راجع المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٩) ذكر الأستاذ هلال ناجى أن له عددًا من المخطوطات بصنعاء، والأستانة، والتيمورية، راجع المرجع السابق ص ٤٥.

(١٠) ذكر الأستاذ هلال ناجى أن منه مخطوطات فى الظاهرية والتيمورية، والمتحف البريطانى، وأيا صوفيا، راجع السابق ص ٤٤.

(١١) هذا الكتاب حققته سهير صلان ونشرته دار سعد الدين بدمشق، ولم يشر هلال ناجى إلى ذلك.

(١٢) نشر هذا الكتاب، وطبع بمطبعة الجوائب بالأستانة، ولم يشر هلال ناجى إلى ذلك.

(١٣) من مؤلفات الصفدى المخطوطة، راجع هلال ناجى مقدمته لتحقيق جنان الجناس ص ٤٣ مجلة الذخائر مرجع سابق.

(١٤) عدّه هلال ناجى ضمن مؤلفات الصفدي المفقودة راجع السابق نفسه ص ٤٧.

(١٥) ذكر هلال ناجى أن منه مخطوطة فى فينا برقم ٣٨٩. راجع السابق نفسه ص ٤٤.

العين عن وصف العين»[1]، و«رصف الزلال فى وصف الهلال»[2]، و«مجموع مختار من شعر الأربعة الكبار أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء»[3]، و«الروض الباسم والعرف الناسم»[4]، و«توشيع التوشيح»[5]... الخ.

ويرى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام أن أسلوب الصفدى فى كتاباته يتذبذب «بين السرد والتأنق حسب الموضوع الذى يكتب فيه لكنه يعمد فى رسائله ومقاماته دائمًا إلى تكلف السجع والبديع[6]» وهو فى هذا لا يشذ عن ذوق عصره وطريقة معاصريه فى الكتابة الأدبية؛ إذ سيطر الصبغ البديعى على الكتابات الأدبية فى ذلك العصر.

وقد عنى الصفدى بشعره وكان حريصًا على أن يضمن تأليفه مجموعات من شعره «وهو فى شعره أقل مستوى من نثره على كثرته[7]» وقد كثرت إشارات القدماء إلى السرقات التى تعوَّد عليها وكان أغلبها من شعر ابن نباته، ولا بد هنا أن نشير إلى أن الصفدى قد برع فى معارضته الشعراء الفحول.

ومن شعره الذى بثه فى تضاعيف شرحه على لامية العجم قَوْلُهُ: «وقلت فى تفضيل مملوك على خادم:

يا من يُرَجِّحُ وجهًا كالظَّلام على ... وجهٍ كَصُبْحٍ تَبَدَّى فى بَشَائِرِهِ
إنْ كان مَمْلُوكُ هذا مِثْلَ خَادِمِ ذَا ... فما انتفاع أخى الدنيا بِنَاظِرِهِ»[8]

---

(١) حقق هذا الكتاب بإشراف أ.د محمد يونس عبد العال، وأحرز به المحقق درجة الماجستير فى الآداب من كلية الآداب جامعة عين شمس، وناقشته لجنة علمية مكونة من أ.د. المشرف، وأ.د إبراهيم عبد الرحمن محمد، وأ.د نبيل نوفل.

(٢) عده الأستاذ هلال ناجى ضمن كتب الصفدى المطبوعة اعتمادًا على ما قرره محققو تصحيح التصحيف، ونصرة الثائر، وتحفة ذوى الأدب، وإن كاد قد عاد وقال: نعتقد أنه غير مطبوع إذ لم يذكروا جميعًا مكان وزمان طبعه، ولم يقف عليه مطبوعًا أحد، ثم قال: ومنه مخطوطة فى برلين برقم ٧٠٦٤ راجع السابق ص٤٠.

(٣) ذكر هذا الكتاب ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى.

(٤) عده الأستاذ هلال ناجى ضمن مؤلفات الصفدى المخطوطة، راجع السابق ص ٤٤.

(٥) حقق هذا الكتاب الأستاذ ألبير حبيب مطلق، ونشر فى بيروت.

(٦) الأدب فى العصر المملوكى أ.د. محمد زغلول سلام ص٩١ جـ٢.

(٧) السابق نفسه ص ٩٤.

(٨) الغيث ١/١٢٤، ١٢٥.



وقوله [1] «وقلت أيضا:

ألا فاسقنى من ريقة لذَّ طعمها بفيكَ ولا تبخلْ وقل لى هى الخمرُ
وحُطَّ لثامًا حَجَّبَ اللَّثمَ عَنْ فَمِي فلا خيرَ فى اللَّذَّاتِ من دونها سِتْرُ»

وقد كتب الصفدى الزجل، والموشح، وسائر فنون النظم التى سادت فى العصر المملوكى، فمن أزجاله التى أوردها فى الغيث المسجم قوله: «فقلت من جملة زجل:

يا فؤادى لا تحول عن هوى ذا الظبى الأحور
إياك أن يُطغيك لائم قال كنك بو تعذر
ما ترى كافور خَدُّو وعليه الخال عنبر
لا تخَفْ صولة عذارو دع يجى ويركب ابلق» [2]

وأما الموشح فله موشحات كثيرة وهى فى أغلبها معارضات لموشحات أخر كتبها وشاحون كبار، وقد جمع الصفدى قدرا كبيرا منها فى كتابه توشيع التوشيح، ونذكر هنا على سبيل المثال موشحته التى كتبها بناء على اقتراح شهاب الدين أحمد ابن فضل الله العمرى حيث طلب منه معارضة موشحة أحمد بن حسن الموصلى التي مطلعها:

باسمٌ عن لآلْ ناسِمٌ عن عِطْرِ نافرٌ كالغزالْ سافرٌ كالْبَدْرِ

قال الصفدى [3]: وكان الذى قلته أنا ولم أغير من القوافى شيئا:

جامحٌ فى الدلالْ جانحٌ للهَجْرِ خاطرٌ فى الجمالْ، عاطرٌ فى النَّشْرِ
غُصْنُ بانٍ رَطِيبْ قد زها بالطربْ
يَنْثَنِى فِى كَثِيبْ بالصَّبا عَن كَثَبْ

(١) الغيث المسجم صـ١٢٥.

(٢) الغيث المسجم جـ١ صـ٣١٦.

(٣) توجد الموشحة كلها بتوشيع التوشيح للصفدى تحقيق ألبير حبيب صـ٣٩ وما بعدها وقد نقلتها منه ومن ديوان الموشحات المملوكية فى مصر والشام جمع وتحقيق الدكتور أحمد محمد عطا صـ٣٤٥ الطبعة الأولى. مكتبة الآداب القاهرة ٩٩.

مـيـتــا لقلبى نصب شيب منه غير النصب
تمرٌفى كمالْ، فوق غُصنٍ نَضِرِ طالعاً لا يزال فى دياجى الشَّعَرِ

***

كَمْ جَــلاَ بالسَّنَا فَرْقُهُ لى صَبَاح
وَحَلاَ فى الْجَنَى مَبْسَمٌ كالأُقَاحْ
إنْ رَنَا وانْثَنَى أو تَبَدَّى ولاَحْ
يا حياء الغزالْ، وافتضاحَ السُّمر واختفاءَ الهِلالْ - وكسوف البدر

***

لِلعَذَارِ الرَّقِيمْ خَالُهُ كَالرَّقِيبْ
حَوْلَ رَوْضٍ وَسِيمْ وَسْطَ نَارٍ تُذِيبْ
فى النعِيمِ المُقِيمْ يَتَشكَّى اللهِيبْ
ذَاقَ بَرْدَ الظلاَلْ، فى لَهِيبِ الجَمرِ واهْتَدَى فى الضلاَلْ. بِبُرُوقِ الثغرِ

***

شَقَّ خدَّ الشقِيقْ مِنْهُ خَدٌّ أَنِيقْ
والقَوامُ الرَّشِيقْ فِيهِ معنًى دَقِيقْ
كَمْ سَقَانِي الرَّحِيقْ من فَمٍ كالعَقِيقْ
بَعْدَ ذَاكَ الزلالْ مَا حلاَ لِي صَبْرِى والقوامُ المُمالْ قَامَ فيه عُذْرى

***

غُصنُ بانٍ يَمِيسْ فى رِياضِ الزَّهَرْ
رِيقُهُ الخَنْدَرِيسْ فى زُلال ظَهَرْ
فِيه دُرٌّ نفِيسْ فى عقِيقٍ ظهرْ
جَفْنُهُ حِينَ صَالْ فى خبايا صدرى لو كفانى النبل لاكتفى بالسَّحَرْ(١)

---

(١) الموشحة توشيع التوشيح صـ٤٥ وما بعدها.

وهى موشحة غزلة تتميز ألفاظها بالرقة والجمال، وخرجتها عربية فصيحة، وتدل على ما أصاب الحبيب من الألم، وكيف أن المحبوب قد أصاب الحبيب بسهمين: الأول سهم جفنه والآخر سهم سحره، وهى على أية حال تدل على براعة الصفدى فى فن المعارضات الأدبية، ويرى ألبير حبيب محقق توشيع التوشيح أن الصفدى «استطاع فى أحيان قليلة أن يضارع الموشح الأصلى بل ويتفوق عليه[١]» وإنما ذكر ألبير حبيب هذا الحكم مشروطا بقوله «فى أحيان قليلة» وذلك لأن التزام الصفدى «بوزن الموشح الذى يعارضه وبروحه وبألفاظه أحيانا جعله يقع تحت تأثير الناظم الأول[٢]» وعلى أية حال «تكثر المقاطع الجميلة فى معارضات الصفدى ويبدو عمله متقنا أنيقا يمتاز بالبساطة والذوق السليم[٣]». وهكذا كان الصفدى عالما فنانا، واستطاع أن يجمع فى انسجام وتناسق بين شخصية العالم وإحساس الفنان، ولعل فيما مضى من حديث ما يصور من بعض الوجوه كيف تسنى له ذلك.

٦ - الحديث الشريف:

تُجمع المصادر القديمة على أن الصفدى قد سمع قدرا صالحا من الحديث النبوى الشريف، ولعل ذلك كان فى سنى عمره الأولى، ولعله قد عاوده الحنين فيما بعد ذلك إلى الاختلاف إلى حلقات العلم فى الحديث الشريف فاستجاب لهذا الحنين، قال السبكى: «وعُنِىَ بالحديث وسمع بالآخرة من جماعة[٤]» ويحدد ابن حجر فى الدرر الكامنة هذه الجماعة فيقول: «وسمع بمصر من يونس الدبوسى، وبدمشق من المزى[٥] ومن غيرهما».

والصفدى نفسه يروى عن شيخه الحافظ المزى أحاديث تدل على اختلافه إليه وسماع الحديث عنه ومنها قوله «وقرأتُ على الشيخ الإمام العلامة الحجة الحافظ جمال الدين أبى الحجاج يوسف المزى بدمشق، أخبرنا المشايخ الثلاثة فخر الدين

(١) توشيع التوشيح صـ١١.
(٢) السابق نفسه صـ ١٠.
(٣) السابق نفسه صـ١١.
(٤) طبقات الشافعية جـ٦ صـ٩٤.
(٥) الدرر الكامنة جـ٢ ص٨٧.

أبو الحسن على بن النجارى، وكمال الدين أبو محمد عبدالرحيم بن عبدالملك المقدسيان بدمشق، وكمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالقاهر النصيبى بحلب قال المقدسيان: أخبرنا أبو اليمن تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندى وقال ابن النصيبى: أخبرنا افتخار الدين الهاشمى بحلب سنة اثنتى عشرة وستمائة، أخبرنا أبو شجاع عمر بن محمد البسطامى، وأبو الفتح عبدالرشيد ابن النعمان الولواجى، وأبو حفص عمر بن على الكرابيسى، وأبو على الحسين ابن بشر النقاش قالوا: أخبرنا أبو القاسم أحمد بن أبى منصور محمد بن عبدالله الزيادى الخليلى قال: حدثنا أبو القاسم على بن أحمد بن محمد بن عبدالله الخزاعى البخارى المعروف بابن المراغى سنة ثمان وأربعمائة قال: حدثنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشى الأديب ببخارى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة قال: حدثنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة الحافظ الترمذى قال حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا جميع بن عمرو بن عبدالرحمن العجلى قال أخبرنا رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة يكنى أبا عبدالله عن ابنٍ لأبى هالة عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: سألت خالى هند بن أبى هالة وكان وصَّافا عن حلية النبى ﷺ وأنا أشتهى أن يصف لى شيئًا منها فقال: «كان رسول الله ﷺ فخما مُفخّمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر» فذكر الحديث بطوله، قال الحسن: فسألته عن مَخرجه كيف كان يصنع فيه؟ قال: «كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلّفهم ولا يُنَفّرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذّر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقه...» وفى الحديث طول»[1].

وقد أطال الصفدى حقا فى نقل سلسلة السند، وكان من الممكن له أن يختصر به لأن الكتاب كتاب أدب وليس كتاب حديث، إلا أن هذا التطويل له معناه، وهو أنه أخذ الحديث عن شيخ محدِّثٍ لا يتهاون أىَّ تهاونٍ فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ، وقد جعله هذا حجة وقدوة، وإن الصفدى قد اكتسب شيئا من خلال شيخه، فكان حريصًا على نقل ما قرأ دون حذفٍ أو اختصار.

والتقى الصفدى فى أثناء إقامته بمصر بالشيخ علاء الدين مغلطاى شيخ الحديث

(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٣١٣.



بالمدرسة الظاهرية التى كانت بين القصرين بالقاهرة، وروى عنه بعض ما حكاه له من أخبار مما يدل على أنه جلس من هذا الأستاذ مجلس التلميذ أو على الأقل تذاكرا سويا فى مسائل العلم الذى هو بطبيعة الحال الحديث النبوى الشريف. قال الصفدى «وأخبرنى الشيخ الإمام الحافظ علاء الدين مغلطاى شيخ الحديث بالمدرسة الظاهرية بين القصرين بالقاهرة قال: جاء رجل إلى الشيخ شهاب الدين الحنبلى صاحب التعبير فقال له: رأيت فى منامى كأن قائلا يقول لى: اشرب شراب الهكارى، قال له: أيوجعك فؤادك؟ قال: نعم قال: اذهب فاشرب عسلا تبرأ بإذن الله تعالى. فقيل له: من أين لك هذا؟ قال: لأنى فكرت فلم أر شرابا منسوبا إلى الهكارى، فرجعتُ إلى الحروف فوجدتُها شراب إلهك أرى، والأرى هو العسل، وتذكرت حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، فعلمت أن فؤاده يوجعه، فوصفت له العسل»[1].

ونقل الصفدى عن محدث الشام الإمام محيى الدين النووى فقد ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان» برواياته المتعددة، ثم قال «قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله فى هذه الأحاديث بيانُ تغليظ تحريم الغدر لا سيما من صاحب الألوية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثير[2]».

وحين يورد الصفدى حديثا من أحاديث سيدنا محمد ﷺ ينص على مصدره كأن يقول «رواه مسلم»[3] أو «متفق عليه» وهذا يدل على اطلاعه على هذه المصادر، وإلمامه بما فيها من أحاديث.

٧ - الفقه:

واهتم الصفدى بالفقه، وقرأ فيه؛ قال السبكى «وقرأ يسيرا من الفقه والأصلين[4]» وكانت هذه القراءة تعينه على ما يريد الخوض فيه من مسائل الفقه، وإذا أشكلت عليه مسألة من المسائل سأل فيها أهل الاختصاص والعلم، قال

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ٤٤٦.

(٢) السابق جـ٢ صـ٣٤٥.

(٣) يراجع على سبيل المثال ما ورد من أحاديث فى تمام المتون صـ٩٠، صـ١٩١.

(٤) طبقات الشافعية جـ٦ صـ٩٤.



السبكى: «فما صنف كتابا إلا وسألنى فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو[1]».

وكان شافعىَّ المذهب بدليل أن السبكى قد ترجم له ترجمة وافية فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى، وبدليل أن ابن العماد الحنبلى قد ذكر اسمه ونسبه ومذهبه قائلا: «صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدى الشافعى[2]».

ولم تكن قراءات الصفدى فى الفقه محصورة فى فقه مذهبه فحسب، وإنما كان له اطلاع واسع على فقه الإمامين العظيمين أبى حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، وكذا كان له اطلاع واسع على فقه الإمام ابن حزم الظاهرى، فقد قرأ موطأ الإمام مالك بن أنس، وكان على حذق بتعليل الفقهاء للأحكام، فقد قال: «إذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم فى المسألة قال: هذا تَعَبُّدٌ، كما يعلل المالكى غسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب؛ لأنه قائل بطهارته، فإذا أورد عليه الحديث وهو: «طُهُور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبعا» قال: هذا شىءٌ تعبَّدَنا الله به، والحديث رواه مالك فى الموطأ عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إذا شرب الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبع مرات. وفى حديث مسلم: طهور إناء أحدكم ولغ فيه الكلب: أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب. وفى حديث آخر: «وعفِّروه الثامنة بالتراب[3]».

وكثيرا ما قارن فى الغيث المسجم بين مذهبه ومذهب الإمام أبى حنيفة مقارنة تدل على معرفته بفقه المذهبين، فقد قال فى حكم الشهيد الذى لا يغسَّل ولا يُكَفَّن أنه «مَن مات بقتال من الكفارقبل انقضاء الحرب، سواء قتله كافر، أم أصابه سلاح مسلم خطأ، أو عاد إليه سلاحه، أو سقط عن فرسه متقطرًا، أو رمحته دابة فمات، أو وُجد قتيلا عند انكشاف الحرب ولم يُعلم سبب موته، سواء كان عليه أثر دم أم لا، وسواء كان جُنُبًا أم لا. أما إذا مات حتف أنفه، أو باغتيال، أو بقتال الكفرة بعده، أو البغاة: فقولان فى مذهب الشافعى، فإن جُرح فى الحرب، وبقيت فيه بعد انقضاء الحرب حياة مستقرة فقولان: أظهرهما أنه ليس بشهيد،

---

(1) طبقات الشافعية جـ٦ صـ٩٤.

(2) شذرات الذهب جـ ٦ صـ ٢٠٠.

(3) الغيث المسجم جـ ١ صـ ٦٧.



وقيل: إنْ مـاتَ عن قريب فقـولان، وإن بقى أياما فليس بشـهيد قطعًـا، أما إذا انقطعت الحرب وليس فيه إلا حركةُ مذبوحٍ: فشهيد بلا خلاف، وإن انقضتْ وهو متوقع البقاء فليس بشهيد.

وحُكمه أن لا يغسل لقوله ﷺ: «زملوهم في ثيابهم . . . الحديث» ولا يُصلَّى عليه لأنه مقطوع له بالجنة، والصلاة إنما هى شفاعة بالدعاء من المؤمنين له بالمغفرة ودخول الجنة، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ الآية، وفيـه نظر لأن الأنبياء صلوات الله وسـلامه عليهم مقـطوع لهم بالجنة وقد صلَّى على النبى «صلى الله عليه وسلم» وصَلَّى هو «صلى الله عليـه وسلم» على حمزة عمه رضى الله عنه يوم أحد سبعين مرة كلما قدَّموا ميتا صلى عليه معه[1] . . وبه قالت الحنفية مستشهدين بالصلاة على حـمزة، وخالفوا الشافعية فى الصغير الذى يقتل فى المعركة، فقالوا يغسل لأنه لم يجب عليـه فرض القتال، وخالفوهم أيضا فى الصلاة على الباغى المقـتول فقالوا: بمنع الصلاة علـيه لأن عليا رضى الله عنه أوجب محـاربتهم، والصحـيح الذى قاله الأشاعـرة أن القاتل والمقتـول فى حرب علىٍّ كرم الله وجهه ومعاوية من أهل الجنة لأن كـلاًّ منهم اجتهد، ولكن أصحاب على رضى الله عنه أصابوا، وأصحاب معاوية أخطئوا، وخالفوهم أيضا فى غُسل الجنب الشهيد قائلين: إن القتال لا يزيـل الجنابة، وقال الشافعية: إنما الغـسل لأداء الفرائض ولا فرض»[2].

وقد كـان الصفدى مـعتدلا فى مـذهبه، وكان يُجِـل الإمام أبا حنيفـة ويقدِّره ويعرف له مـنزلته وينتصـف له، فقد حـمل حملة شـعواء على الإمـام ابن حزم الظاهرى لأنه انتقص من قـدر الإمام أبى حنيفـة، واتهمه بالتمـرد على النصوص والعزوف عن التمسك بالحديث النبوى الشريف وذلك حـيث قال: «وقد بالغ فى الشناع - أى ابن حزم - حيث قال:

| | |
|---|---|
| إن كُنت كـاذبةَ الـذي حـدَّثْـتنى | فـعليكِ إثمُ أبـى حنيـفـة أو زُفَـرْ |
| الواثِبَـيْنِ علي القـيـاسِ تَمَـرُّداً | والراغِـبَـيْنِ عن التَّـمَـسُّكِ بالأثر |

(١) حذفنا من وسط الكلام أبياتا لابن عنين قالها فى موسوس.

(٢) الغيث المسجم جـ١ صـ١٦٤، صـ١٦٥.



واستطرد استطرادا قبيحا وحاش لله، ليس أبو حنيفة وزفر ممن يقال فى حقهما مثل هذا الكلام»[1]، نعم فما كان أبو حنيفة ليشب على القياس، وليس أبو حنيفة ممن يعزف عن التمسك بالآثار النبوية الشريفة، والصفدى محقٌ فى دفاعه عن الإمام الجليل، ونرى أن الإمام ابن حزم - على جلال قدره - قد أسرف فى الشطط حين اتهم الإمامين الجليلين بهذين الاتهامين البشعين، والإمام أبو حنيفة يعترف باجتهاده وأنه يبذل فيه أقصى ما فى وسعه فيقول: «عِلْمُنا هذا رأىٌ، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه»[2].

ولسنا نستطيع فى هذا الحيز المحدود أن نستقصى كل المواطن التى تكلم الصفدى فيها فى مباحث الفقه، لكنى أزعم أن ما مضى من حديث يلقى بعض الضوء على ثقافة الصفدى الفقهية.

٨ - علم الكلام:

علم الكلام من العلوم التى اهتم بها علماء العصر المملوكى وكانت لهم فيه مؤلفات ومصنفات، وحقا لم نعثر على نص يفيد أن الصفدى قد درس هذا العلم، وحقا لم نعثر على نص يدلنا على أن للصفدى فى هذا العلم جهودا أو مؤلفات، إلا أن لنا أن نزعم أنه قد أحاط بمباحث هذا العلم وقرأها واستوعبها وذلك للأسباب الآتية:

**الأول**: أن مباحث هذا العلم تشتبك مع مباحث عدة علوم كانت للصفدى فيها جهود واضحة وترتبط معها، ويدرسها جميعا كل من يولِّى وجهه شطر علوم الشرع الحنيف من مثل التفسير والحديث والفقه.

**والثانى**: أن الصفدى عاش فترة كان الصراع فيها على أشده بين أهل السنة والجماعة وأهل التصوف، كل يحاول أن يستدل من العقل والنقل على صحة مذهبه وبطلان مذهب الفريق الآخر، وليس هذا فحسب، وإنما كان الصفدى تلميذا لتقى الدين بن تيمية الحرانى الذى وقف عمره كله على محاربة البدع والخرافات، ورد الناس إلى الالتزام بالمنهج السلفى، ومجادلة أهل الكتاب والرد

(١) الغيث المسجم جـ ١ صـ ٩٥.

(٢) السابق نفسه جـ ١ صـ ٦٥.






عليهم، وله فى كل هاتيك المناحى التى هى لب علم الكلام مؤلفاته المشهورة التى لا نستبعد اطلاع الصفدى عليها، ومن هنا جاز لنا أن نزعم أن علم الكلام قد اتخذ سبيله إلى الصفدى عن طريق شيخه ابن تيميه ومؤلفاته.

**الثالث:** وقفاته المتأنية والطويلة فى كتابه الغيث المسجم عند مباحث هذا العلم وعرضها وتحليلها وبيان رأيه فيها، وأولى هذه الوقفات هى تلك التى تحدث فيها عن المناظرة التى دارت بين أبى الحسن الأشعرى وأبى على الجبائى وموضوعها يدور حول وجوب الأصلح والصلاح على الله تعالى، وكيف كانت هذه المناظرة السبب فى أن ينشق الأشعرى على المعتزلة ويخالفهم فى آرائهم ومذهبهم[1].

وثانية هذه الوقفات هى تلك الوقفة الطويلة التى استغرقت خمس صفحات كاملة من الجزء الثانى من الغيث[2]؛ فقد تحدث فيها عن المعتزلة ومبادئهم، وسبب تسميتهم بهذا الاسم، وكيف أنهم جائرون فى الإطلاق على الأشاعرة «مُجْبِرة»، وموقف الإمام الشافعى عند ما رأى الفتنة ستشتد فى إظهار القول بخلق القرآن، ثم تحدث عن ابتلاء الإمام أحمد بن حنبل فى هذه الفتنة، ثم تحدث عن فرق المعتزلة وأهم مشاهيرهم فقال: «والمعتزلة جنس يطلق على فرق منهم: الواصلية، والهذلية، والنظامية، والحائطية، والمعمرية، والمزدارية، والثمامية، والهشامية، والجاحظية، والبشرية، والخلطية، والجبائية، وهم: البهشمية، ومن مشاهيرهم الفضلاء الأعيان: الجاحظ، وأبو الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وواصل بن عطاء، وأحمد بن حائط، وبشر بن المعتمر، ومعمر بن عباد السلمى، وأبو موسى عيسى الملقب بالمزدار، ويلقب براهب المعتزلة، وقمامة بن أشرس، وهشام بن عمر الغوطى، وأبو الحسين بن أبى عمر الخياط أستاذ الكعبى، وأبو على الجبائى أستاذ الشيخ أبى الحسن الأشعرى أولاً، وابنه أبو هاشم عبدالسلام، وهؤلاء رؤساء مذاهب الاعتزال، وهم أساطين هذه البدع واليهم تنسب هذه الفرق وبينهم خلاف فى مسائل معروفة بين أصحاب الكلام»[3].

ويربط الصفدى بين علم الكلام والفلسفة والمنطق وهو فى مثل هذا الربط يقدم

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٨٠، صـ٨١، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

(٢) الغيث المسجم جـ٢ صـ٥١، صـ٥٢، صـ٥٣، صـ ٥٤، صـ ٥٥.

(٣) السابق نفسه جـ٢ صـ٥٤، صـ٥٥






لنا صورة لما كان عليه من الوعى بأصول هذا العلم؛ إذ نشأ نشأة إسلامية خالصة(1)، ثم يقدم صورة لما كان عليه من الوعى بما صار إليه هذا العلم فى آخر الأمر من «الإغراق فى الإغراب المكد للعقول والبصائر»(2) فقد تحدث عن إثبات الجوهر الفرد فقال: «وهو الجزء الذى لا يتجزأ، وهى مسألة عظيمة تدور عليها قواعد كثيرة فى علم الكلام، وإثباته يشق على من ناظر الفيلسوف، قال الذى منع ثبوته: كل جزء تفرضه فإن يمينه يتميز عن يساره، ومتى كان كذلك قبل القسمة، وقال المتكلمون: لا بد أن ينتهى القول إلى إثبات جزء فاصل بين كل يمين ويسار فرضًا فى قسمة الأجزاء، وهو المطلوب»(3).

ومن كلامه فى المسائل المنطقية فى الغيث قوله يشرح عبارة المناطقة «فى كل نوع حصة من جنسه»: «يعنون بذلك أن كل فرد من أشخاص الجسم النامى المتحرك بالإرادة من الناطق، والصاهل، والمفترس، والسابح، والنابح وغير ذلك فيه حصة من الحيوانية التى هى جنسه؛ وهى الجسمية والنمو والتحرك بالإرادة، والنوعية هى التى امتاز بها كل نوع من غيره، وهى الفصل مثل الناطقية أو الافتراسية أو السابحية أو النابحية»(4).

وقوله فى شرح الكليات الخمس: «والكليات الخمس عند أرباب المنطق هى: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام؛ فالجنس كالحيوانية، والنوع كالإنسانية، والفصل كالناطقية، ولا يريدون بالناطقية ما يفهمه عوام الناس من أنه النطق بالكلام لأنه ينتقض بالدربة، وهى الببغاء إذا حاكت شيئا من ألفاظ الناس يلزم أن تكون إنسانا لأنها بهذا الاعتبار حيوان ناطق، وينتقض بالأخرس، والطفل الذى لا يتكلم لأنهما ليسا من الأناسى لأنهما غير ناطقين، وإنما يريدون بالناطقية القوة المفكرة، فعلى هذا دخل الأخرس والطفل فى حد الإنسان، وخرج عنه البغاء.

---

(1) أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام لمحمد صالح سمك وعلى الجندى جـ ٢ صـ ٣٩٦. القاهرة عام ١٩٥٩م.

(2) السابق نفسه جـ ٢ صـ ٣٩٦.

(3) الغيث المسجم جـ ١ صـ ٢٥٠.

(4) السابق نفسه جـ ١ صـ ٩٢.



والناطق هو فصل الإنسان عن سائر الحيوان، والخاصة: كالكتابة لأنها تختص ببعض النوع ولم تعمه، والعرض العام كالضاحكية لأنها عامة لجميع النوع، ولهذا كان التعريف فى الحدود بالجنس القريب والفصل مطّرداً منعكساً، والتعريف بالجنس القريب والخاصة مطرداً غير منعكس»[1].

وما كان ليعنينا هذا النص فى كثير أو قليل، فقد مضى من النصوص ما يدل على تعمقه فى علم الكلام وحذقه للفلسفة والمنطق لولا أنه قال بعد ذلك: «ولقد قلت هذا لجماعة فلم يعرفوه حتى مثلته بأمثله كثيرة منها قول النحاة فى الاسم إنه كلمة تدل على معنى غير مقترنة بأحد الأزمنة الثلاثة، وقولهم فى الاسم أيضا إنه كلمة تدخلها حروف الجر، أو الألف واللام أو التنوين.

فالتعريف الأول بالجنس القريب والفصل لا جرم أنه مطرد منعكس، حيث وُجِدَ الحَدُّ وُجد المحدود وحيث وُجد المحدود صدق الحد؛ لأن كل اسم هو كلمة تدل على معنى غير مقترنة بزمان، وكل كلمة تدل على معنى غير مقترنة بزمان فهى اسم، والتعريف الثانى بالجنس والخاصة لا جرم أنه مطرد غير منعكس؛ لأن كل كلمة دخلها الجر أو الألف واللام أو التنوين فهى اسم، وليس كل اسم يدخله الجر كباب ما لا ينصرف والمبنيات، وما لا يدخله الألف واللام مثل: كل وغير وذكاء ودجلة وغير ذلك، ولا التنوين مثل الأسماء المؤنثة المقصورة كحبلى، ودنيا وبابهما، فأنت ترى كيف اطرد وما انعكس بخلاف الأول، فتنبه لهذه القاعدة فإنها فائدة جليلة»[2].

فهذا النص يحتاج منا إلى وقفتين: أولاهما: عند فهمه الدقيق لمباحث علمى المنطق والنحو، وتطبيق القواعد المنطقية على التعريفات النحوية، فقد استطاع أن يُقَرِّب المفاهيم المنطقية عن طريق تمثيلها وتطبيقها على تعاريف النحاة، ولم أستطع فعلاً أن أفهم القضية المنطقية منعزلة عن التمثيل النحوى، وهذا دليل على أن الصفدى يمتلك القدرة على إفهام قارئه أو سامعه القضية العلمية الدقيقة بعرضها عرضا يعتمد على البسط أولاً والتمثيل ثانيا.

---

(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ٣٧٥.

(٢) السابق نفسه جـ ٢ ص٣٧٥، صـ ٣٧٦.



وثانيه هاتين الوقفتين نقفهما عند قوله «ولقد قلت هذا لجماعة فلم يعرفوه»، وهنا أجدنى أتساءل: لقد تصدر الصفدى فى آخر أيامه للتدريس والإفادة بالجامع الأموى بدمشق على ما يحكى لنا ابن حجر فى الدرر الكامنة[1] فهل كان يدرس الفلسفة والمنطق؟ وما دفعنى إلى هذا السؤال إلا بخل المصادر القديمة بالمعلومات بخلاً يدفع الباحث إلى استنطاق النصوص، ومحاولة الإكثار من وضع الاحتمالات المتعددة والأسئلة الكثيرة والإجابة عليها.

وعلى أية حال فليست لدى إجابة قاطعة على هذا السؤال، وإنما هو احتمال ورد إلى الذهن رجحه وقواه قوله «ولقد قلت هذا لجماعة» فقلت لنفسى: أما وقد أتى الكلام مبهما هكذا فيحتمل أن يكون: ولقد قلت هذا لجماعة من طلبة العلم، كما يحتمل أن يكون: ولقد قلت هذا لجماعة من الأدباء أو العلماء أو الفضلاء، وهى إشارة لا تخلو على أية حال من طرافة لأنها تدل على أن الصفدى قد أفاد الآخرين فى علم المنطق كما أفادهم فى التاريخ واللغة والأدب.

**٩ - علوم الأوائل: (العلوم الطبيعية):**

وقد كان الصفدى على حظ عظيم من العلم بها، يدل على ذلك كثرة خوضه فى مسائلها لأوهى سبب، وأضعف صلة، ويخيل إلىّ أنه أخذ حظا منها دراسةً على الشيخ محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى الذى كان عالما متخصصا فى هذه العلوم، ثم انكب هو بعد ذلك على كتب هذه العلوم يقرؤها وعلى آثار أصحابها يستهديها أو ينقل عنها، وسوف أمثل لمعرفته بكل لون منها بفقرة أو نص من نصوص الغيث، وسأتوخى فى مثل هذه النصوص أن تكون موجزة - قدر الإمكان - من جهة، ومعبِّرة عن المعنى الذى سيقت من أجله من جهة أخرى، وبعد أنْ أوردَ النصَّ أعلق عليه وأناقشه حتى أقف على كل ما يمكن أن يوحى به النص من دلالات وإشارات.

أ - فمن علمه بالمعادن قوله: «والياقوتُ هو سيد الأحجار التى لا تذوب ولا تكلس بالنار، زعموا أنه تكون فى كهوف الجبال وخلال الرمال، ويتم نضجه فى عشرين سنة، وعلة تكوينه أن مياه الأمطار التى ترسخ فى المغارات والكهوف متى

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ صـ ٨٧، صـ٨٨.



لم يخالطها شيء من الترابية والطينية، وطال وقوفها هناك ازدادت صفاءً وثقلاً وغلظةً بتسلط حرارة المعدن على تجفيفها وطبخها، فانعقدت وصارت حجارة صلبة شفافة، وتكون ألوانها وخفتها وثقلها بحسب أنوار الكواكب المستولية على ذلك الجنس من الجواهر وعلى تلك البقاع على ما زعم أصحاب الكلام فى أحكام النجوم فإنهم يقولون: السواد لزحل، والحمرة للمريخ، والخضرة للمشترى، والصفرة للشمس، والزرقة للزهرة، والملون لعطارد، والبياض للقمر.

وأصحاب الكلام فى الطبائع يقولون: سبب اختلاف الألوان اختلاف بقاع الأرض التى يتكون فيها، ذلك لأن الماء إذا وقع عليها وغاص فيها ودام تغير بما انحل فيه من يبس الأرض وإسخان الشمس له، فعلى قدر حرارته يتكون؛ فإن اشتدت حرارته وأفرطت واستولى عليها اليبس عرض له السواد وظهر على أعلاه وبطنت الحمرة التى هى عن الحرارة المعتدلة فى باطنه، وربما طرحت الحمرة نورها إلى خارج مع ظهور السواد فقام بينهما اللون الأسمانجونى، وإن كانت الحرارة معتدلة انعقد أحمر، وهو أجود الياقوت، وإن قصرت الحرارة لمغالبة الرطوبة لها انعقد أصفر، وإن أفرطت الرطوبة، واستولت على الحرارة انعقد أبيض صافيا والأسمانجونى والأصفر إذا وُضعا على النار ابيضّا ولا يتغيرا عن البياض، فهذه الألوان الأربعة يشملها جنس الياقوت الأحمر، منها ينقسم إلى أربعة أصناف: البهرمانى وهو أشدها حمرة وأكثرها صفاء، ويوجد منه ما وزنه اثنا عشر مثقالا، ثم الوردى وهو أردأ أنواع الأحمر، ويوجد منه ما وزنه ثلاثون مثقالا، ثم الخمرى وأردأه ما قرب إلى البياض، ثم الأحمر العصفرى وأردأه ما قرب من لون الورس. . . . . .»[1].

فهذا النص نفيس غاية النفاسة، فقد عرَّف فيه الصفدى الياقوت، وبيَّن كيفية تكوينه فى باطن الأرض والعوامل التى تُكسبه ألوانه المتعددة، ثم درجات هذه الألوان، وأجود هذه الدرجات، وأردأ هذه الدرجات، وهى معارف تدل على حظه من هذا العلم.

وقوله: «قلت: زعم الطبيعيون فى علة كون الذهب فى المعدن أن الزئبق لما كمل نضجه جذبه إليه كبريت المعدن فأجنَّه فى جوفه لئلا يسيل سيلان الرطوبات،

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ٩٢.

فلما اختلطا واتحدا وذابت الحرارة فى طبخهما ونضجهما انعقد عند ذلك منهما ضروب المعادن، فإن كان الزئبق صافيا والكبريت نقيا واختلطت أجزاؤهما على النسبة وكانت حرارة المعدن معتدلة لم يعرض لها عارض من البرد واليبس ولا من الملوحات والمرارات والحموضات انعقد من ذلك على طول الزمان الذهب الإبريز، وهذا المعدن لا يتكون إلا فى البرارى الرملة، والأحجار الرخوة، فتبارك الله الفعال لما يريده. ومراعاة الإنسان النار فى عمل الذهب بيده على مثل هذا النظام مما يشق معرفة الطريق إليه والوصول إلى غايته، وعمل الزجاج ومعامل الفراريج بالديار المصرية مما يطمع العقول فى عمل الذهب»[1].

وهذا النص لا يقل فى أهميته عن النص السابق، بل ربما زاد عليه أهمية لما له من دلالة على ما كانت عليه مصر من التقدم فى المجال الصناعى فى تلك العصور المتقدمة من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى يسجل سمة من سمات الكتابة الصفدية وهى أن الصفدى يحرص على تسجيل مشاهداته التى رآها فى البلدان المختلفة فى كتبه ومؤلفاته الأدبية.

ب - ومن علمه بالطب قوله: «وأما أرباب العقول فقد اختلفوا فى حقيقة النفس ما هى اختلافا كثيرا إلى الغاية؛ أما الحكماء فقالوا النفس عبارة عن هذه الأجزاء النارية السارية فى هذا الهيكل؛ لأن النار خاصتها الإشراق والحركة، ولهذا قال الأطباء إن مدبر الجسد هو الحار الغريزى، وهذا رأى أفلاطون ومن تابعه، ومنهم من قال هو عبارة عن هذا الهواء لأنه متى كان النَفَس مترددا كانت الحياة باقية ، فالنفس هو الهواء المستنشق المتردِّد فى مخارق البدن ولأنه لا لون له ويدخل فى المنافس الضيقة، وهذا رأى ديوجينس ومن تابعه، ومنهم من قال: النفس عبارة عن الماء لأنه سبب لحصول النشوء والنمو، والنفس كذلك، فكانت هى الماء، وهذا رأى تاليس المالطى، وهذه الأقوال فاسدة؛ لأن الاشتراك فى بعض الصفات لا يوجب التساوى فى تمام الماهية.

ومنهم من قال: النفس عبارة عن مجموع الأخلاط الأربعة بشرط أن يكون كل واحد له قدر معين؛ لأنه ما دامت هذه الأخلاط باقية على كمياتها المخصوصة وكيفيتها المنصوصة فالحياة باقية، وهذا ضعيف أيضا لأنه لا يثبت العلم بمجرد

---

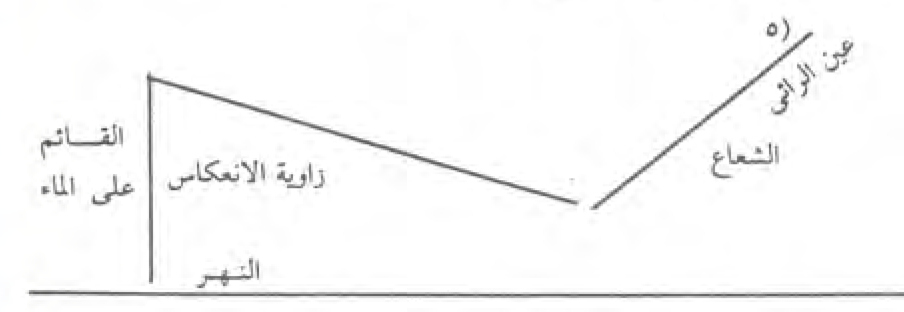
(1) الغيث المسجم جـ١ صـ٢٢.

الدور، ومنهم من قال: النفس عبارة عن الدم لأنه أشرف أخلاط البدن ومتى نزف الدم عن الجسد فارقته الحياة وهذا رأى جالينوس ومن تابعه من الأطباء فوافقوا الفقهاء وأهل اللغة، وهذا ضعيف؛ لأن الجسد يعرض له عدم الحياة والدم فيه، ولأنه كان ينبغى أن تزيد النفس بزيادة الدم فى البدن وأن تقوى معلوماتها وإدراكاتها وتضعف بقلته فى البدن، والقضية بالعكس»[1].

فهذا النص يبين مدى اطلاع الصفدى الواسع على كتب هذه العلوم؛ لأنه ينسب كل رأى إلى صاحبه، ويبين أيضا تضلعه فى علم الطب لأنه يناقش الآراء ويحللها ويضعف واهيها بحجج علمية قوية.

والصفدى يعرف العلل التى تؤدى إلى الإصابة ببعض الأمراض، ومثال ذلك قوله: «وأما العلة فى الفالج وغيره من الآفات اللاحقة للجمع بين السمك واللبن دون انفرادهما وإن تضاعف مقدار كل واحد منهما على انفراد: فهو أن المزج يُحدث للممتزج صورة لم تكن لكل واحد من البسائط، كما أن السكنجبين اليسير منه يقمع الصفراء ويكسر عاديتها على الفور، ولا يفعل ذلك السكر ولا الخل عند انفرادهما»[2].

جـ- ومن علمه بالطبيعة وعلم الضوء والرياضيات قوله «مسألة: لو قال قائل كانت الأشياء القائمة على الأنهار يرى أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها وترى السماء تحتها مع أنها فوق؟ فالجواب أن الشعاع الخارج من العين إذا اتصل بجسم صقيل وهو الماء أو غيره لم يثبت عليه لصقالته وزلق عنه إلى الجهة المقابلة للرائى إن لم يكن الصقيل أمامه؛ بحيث تكون زاوية الالتقاء على الصقيل مثل زاوية الانعكاس فى المساحة من غير زيادة ولا نقص، مثاله هكذا:




(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ١٤٧، ١٤٨.
(٢) السابق نفسه جـ ١ صـ ٢١٥.



فهاتان الزاويتان فى السعة واحدة، فيتصل طرف الشعاع بالقائم ثم يجرى فيه خياله إلى الماء فينطبع فيه، فكأن القائم وقع على سطح الماء، والقائم إذا وقع يصير أعلاه أسفله وأسفله أعلاه فلذلك رأينا السماء تحته وكل ما هو أعلى من صاحبه يراه أسفله، فلو أقيم الماء واقفا كالمرآة رؤى على هيئته، فالقائم فى القائم قائم، والقائم فى المنبسط منعكس؛ لأن موضوع الانطباع أسفل، والقائم أتى إليه، فكأنه انطبع فيه وهو قائم، فأخذه فى نفسه وانبطح، والانطباع فى الحقيقة إنما هو فى وجه الماء لا فى عمقه، وإنما الحس لا يمكنه ضبط ذلك[1]».

والصفدى فى حديثه عن مثل هذه الأمور العلمية لا يعتمد على الشرح النظرى فقط، وإنما يشفع الشرح النظرى برسم عملى يعين على تخيل المسألة ويقرب موضوعها إلى العقل مثلما فعل فيما مضى من حديث، وهو ينص على أن الحقيقة العلمية إذا ما شرحها أو قرأها الإنسان ثم نظر فى رسمها وضحت له وهو يكثر من وضع الرسوم اللازمة التى تعين الإنسان على تصور ما يقول من نظريات العلم فى تضاعيف كتابه الغيث المسجم فقد شرح السبب فى حدوث كسوف الشمس ثم قال: «وهذا الشكل يوضح لك ما ذكرته فتأمله وتدبر وضعه يظهر لك صورة كسوف الشمس»[2] ثم تحدث بعد ذلك عن خسوف القمر وأسبابه ثم قال: «ومن هذا الشكل يظهر لك ما ذكرته. فتأمله»[3].

وأجدنى بحاجة إلى التعليق على قوله: و«هذا الشكل يوضح لك ما ذكرته» وقوله: و«من هذا الشكل يظهر لك ما ذكرته» لأن هذا الكلام حرى أن يلفتنا إلى أمر مهم وهو براعة الصفدى فى هذه العلوم، فلو كان حظ الصفدى من هذه العلوم كحظ أترابه الذين تلقوا هذه العلوم فى أول مراحل حياتهم العلمية ما استطاع أن يكتب هذا الكلام، ولزالت هذه المعلومات العلمية من ذاكرته بمرور الأيام، أما وقد ألف الغيث فى سنى عمره الأخيرة كما سبق أن أشرت، وقد أتى حديثه عن العلوم العلمية على هذا النمط، فليس لذلك من دلالة سوى ما أشرت إليه من تضلعه فى هذه العلوم.

---

(١) الغيث المسجم جـ ٢ صـ ٢٨٢، صـ ٢٨٣.
(٢) السابق نفسه جـ ٢ صـ ٢٥٣.
(٣) السابق نفسه جـ٢ صـ ٥٣٤.







أخلاقه وصفاته ومنزلته بين أهل عصره:

يبدو لى أن الصفدى كان هادئ الطبع، رَضِىَّ النفس، معتدلَ المزاج، وقد وصفه أنداده وأترابه بكل حميد من الصفات وأثنوا عليه بما هو أهله من العلم والفضل؛ فقد قال عنه ابن تغرى بردى: «وذكره الحافظ أبو عبدالله الذهبى فى معجمه المختص، وأثنى عليه، وكتب عنه من نَظْمه ونثره وقال: كان إماما عالما صادقا، ماهرا، رأسًا فى صناعة الإنشاء، قدوةً فى فن الأدب، حسن الأخلاق والمحاضرة»[1].

وذكره ابن حجر فقال: «وكان محببا إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة»[2].

وكان الصفدى حسن الدين، وكانت صلته بربه قوية حيث كان دائم الدعاء والذكر لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله، وكان فى دعائه يسأله العصمة، ويستلهمه الرشد، وقد حفظ لنا فى كتابه الغيث عددًا من الأدعية التى تدل على رقة قلب صاحبها، وعلى امتلاء نفسه من الثقة فى الله، ومن أدعيته هذه قوله: «اللهم إنا نسألك لطف الهداية، والعصمة، ودوام النعمة التى لا تنالها نقمة، والثبات بالقول الثابت حتى نُحشر مع الفرقة الناجية من هذه الأمة؛ إنك أهل التقوى وأهل المغفرة، وولىُّ الخيرات التى وجدناها برسولك الصادق الأمين لنا مُسَخ[ـ]ـرَة»[3].

ويعترف جمال الدين بن نباته بأن الصفدى «بهرت الأفكار فضائله، وسحرت أرباب العقول عقائله»[4]، وبأنه «فريد أهل الأدب»[5].

ولقبه تاج الدين السبكى تارة بأديب العصر[6] وتارة أخرى بشيخ الأدباء[7]، وهذا يدل على أنه كان موضع احترام معاصريه وتقديرهم.

*****

---

(١) المنهل الصافى جـ ٥ صـ٢٤٣.

(٢) الدرر الكامنة لابن حجر جـ ٢ صـ٨٨.

(٣) الغيث المسجم جـ١ صـ٨١.

(٤) المنهل الصافى جـ ٥ صـ٢٤٧

(٥) السابق نفسه جـ ٥ صـ ٢٤٧.

(٦) طبقات الشافعية للسبكى جـ٦ صـ٩٤.

(٧) السابق نفسه جـ٦ ص٢٤.







## الفصل الثالث

# مصادر الشرح

أولاً: المصادر الشفوية.

ثانيًا: المصادر المكتوبة.

ثالثًا: تعامل الصفدي مع النص المنقول من المصدر.

رابعًا: الملاحظات والمشاهدات الشخصية كمصدر من مصادر الشرح.








## أولاً: المصادر الشفوية

يمثل النقل الشفهى أول أنواع المصادر التى اعتمد عليها الصفدى فى شرحه للامية، وربما كان أهم هذه المصادر جميعها، وذلك لكثرة اعتماد الصفدى عليه من ناحية، ثم لأنه العامل الأهم الذى أعطى للغيث قيمته العالية، فعن طريقه استطاع الكتاب أن يكون موسوعة فريدة تضم كثيراً من الأشعار، والأخبار التى يهرع إليها الدارسون والباحثون عند الحديث عن هذا العصر، وتسجيل خصائصه وسماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ذلك لأن الصفدى لا يكثر من النقل الشفهى إلا عند الحديث عن الشرح الأدبى، ومن هنا يجد المجال أمامه متسعًا لتسجيل الأشعار، والأخبار، والظواهر الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، حتى إننى أستطيع أن أجزم بأن الصفدى لا يعتمد على النقل الشفهى إلا فى الشرح الأدبى، وأنه عند الشرح اللغوى والنحوى لأبيات اللامية لا يعتمد مطلقًا على النقل الشفهى، ولا ينقل إلا عن مصادر مكتوبة.

### ١- النقل الشفهى وحصر الألفاظ الدالة عليه:

استخدم الصفدى عدداً من التعبيرات الدالة على نقله الشفهى عن علماء العصر وأدبائه من مثل قوله: «قال شيخٌ قرأت عليه مآثر غطفان من كتاب ...[١]»، وقوله «وحكى لى بعض من أنفق عمره فى الطلب...[٢]»، وقوله «حكى لى بعض الفضلاء ...[٣]»، وقوله «حدثنى من أثق به...[٤]»، وقوله «وأنشدنى من لفظه لنفسه...[٥]»، وقوله «وأنشدنى بعض الأصحاب...[٦]»، وقوله «وحكى لى بعض الأفاضل...[٧]»، وقوله «سمعت الشيخ تقى الدين بن تيمية ينشد...[٨]»،

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص١٢.

(٢) السابق نفسه جـ١ ص ٢٣.

(٣) السابق نفسه جـ١ ص ٢٤.

(٤) السابق نفسه جـ١ ص ٢٥.

(٥) على سبيل المثال السابق نفسه جـ١ ص٤٣، ٤٦، ٤٧، ٧٣، ٩٩.

(٦) السابق نفسه جـ١ ص ٥٩.

(٧) على سبيل المثال جـ١ ص٧٠، جـ٢، ص٢٣٥.

(٨) السابق نفسه جـ١ ص ٨٢.

وقوله «أخبرنى الشيخ الإمام العالم العلامة...[1]»، وقوله «أخبرنى العالم مفتى المسلمين...[2]»، وقوله «أخبرنى مولانا قاضى القضاة...[3]»، وقوله «وأنشدنى لنفسه المولى...[4]» وقوله «ذكرت هنا ما أخبرنى به الشيخ الإمام...[5]»، وقوله «حكى لى من لفظه المولى...[6]»، وقوله «حضرت يومًا... مجلس الشيخ... فقال[7]»، وقوله«حكى لى الشيخ...[8]»، وقوله «فسألت الشيخ... فقال...[9]»، وقوله«وحكى لنا...[10]»، وقوله «وأخبرنى من أثق به...[11]»، وقوله «وذكرت هنا ما حكاه لى المولى...»[12].

وتدور سائر الألفاظ الأخرى التى تدل على نقله الشفهى عن معاصريه على مثل هذه الصور التى أوردتها وأشباهها، ولى على مثل هذه الألفاظ عدد من الملحوظات التى لا ينبغى أن تمر بذهنى دون أن أسجلها.

**أولها:** أن الصفدى يصرح - أحيانًا - باسم الشيخ الذى نقل عنه كما فى مثل قوله: «ذكرت هنا ما أخبرنى به الشيخ الإمام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان من لفظه وأنا أقرأ عليه الأشعار السبعة (هكذا فى الغيث ولعلها الستة) عند قول طرفة: «وقوفًا بها صحبى» قال: إن بعض وزراء العرب - ذكره لى ونسيته أنا - أمر بضرب بعض العمال مائة سوط فقال «إذن أهلك» وكسرَ اللام، فقال الوزير: وأنت من أجل أَهْلِك الحق بأهلك[13]». وأحيانًا لا يصرح باسم الشيخ الذى نقل عنه

(1) الغيث المسجم جـ1 ص85، ص95.
(2) السابق نفسه جـ1 ص 96.
(3) السابق نفسه جـ1 ص 105.
(4) السابق نفسه جـ1 ص 123.
(5) السابق نفسه جـ1 ص 126.
(6) السابق نفسه جـ1 ص 150، ص 151.
(7) السابق نفسه جـ1 ص 175.
(8) السابق نفسه جـ1 ص 283.
(9) السابق نفسه جـ1 ص 411.
(10) السابق نفسه جـ1 ص 431.
(11) السابق نفسه جـ2 ص 91.
(12) السابق نفسه جـ2 ص 271.
(13) السابق نفسه جـ1 ص 126.



كما فى مثل قوله «وحكى لى بعض الأفاضل أنه جمع فى مراثى حمار أبى الحسين الجزار مجلدة جيدة ولم أرها»[1].

وثانيها: أنه أحيانًا ينقل عن الشيخ من شيوخ الأدب دون أن يذكر اسمه وذلك بناء على رغبته هو حيث يقول مثلاً: «وأنشدنى بعض أشياخى لنفسه وقال لى: لا تروها عنى:-

تَعَشَّقْتُهُ شيخًا كأنَّ مَشِيبَهُ ... على وَجَنَتَيْهِ ياسمينٌ على وَرْدِ

أخو العقلِ يدرِى ما يُراد من الذى ... أَمِنْتُ عليه مِنْ رقيبٍ وَمِنْ صَدّ[2]

الا إننى لو كُنْتُ أصبُو لأمْرَدٍ ... صَبَوْتُ إلى هيفاءَ مائسةِ القَدِّ

وسودُ اللُّحَى أبصَرْتُ فيهم مشاركًا ... فَرُحْتُ أنا صَبًّا بأَبْيَضِها وحدِى»[3]

وثالثها: أن الصفدى فى كثير من الأحيان لا يحدِّدُ اسم الشيخ الذى ينقل عنه فحسب، وإنما يحدد مكان اللقاء والسماع وزمانهما كما فى مثل قوله «وحكى لى من لفظه المولى جمال الدين محمد بن نباتة بدمشق المحروسة سنة اثنتَين وثلاثين وسبعمائة قال: أنشدت فلانًا - سمَّاه لى وهو بعض مشايخ أهل عصرنا ولم أذكره أنا، فإنه من العلم بمحل لم يشركه فيه غيره قولى فى مرثية فى ابن له توفى وعمره دون سنة - وهو:

يا راحلاً عَنِّى وكانتْ بِهِ ... مَخايلُ للفَضْلِ مَرْجُوّهْ

لَمْ تكتَمِلْ حَوْلاً وأوْرَثْتَنِى ... ضعفًا فلا حولَ ولا قُوَّهْ

فأعجباه وكتبهما بخطه، وكتب الثانى: فلا حول ولا قوة إلا بالله فقلت: يا

---

(1) الغيث المسجم جـ٢ ص ٢٣٥.

(2) وسقط بيت بعد هذا البيت وهو:

وقالوا الْوَرَى قِسْمَانِ فى شِرْعَةِ الْهَوَى ... لِسُودِ اللحى ناسٌ وناسٌ إلى المُرْدِ

(3) السابق نفسه جـ ٢، ص ٣٨٥، وهى لأثير الدين الغرناطى وقد أوردها له فى ترجمته فى نكت الهميان حيث قال: «وأنشدنى من لفظه تعشقته شيخا.. الأبيات..» النكت ص ٢٨٢، ٢٨٣، مع اختلاف فى رواية الأبيات.



مولانا إن كنتَ أردت بقولك «إلا بالله» البركة لكنت أتممت ذلك بالعلى العظيم، وإن كان غير ذلك فقد فسد المعنى والوزن علىّ»[1].

ورابعها: أن عدداً من هذه النقول الشفهية يدور حول ما حدث لعلماء العصر من مواقف، وما وُجه إليهم من أسئلة كما فى مثل قوله: «وحكى لنا الشيخ الإمام نجم الدين أبو محمد الحسن بن كمال الدين محمد القرشى الصفدى أن الشيخ تاج الدين الكندى حضرت إليه من بغداد فتيا فى إعراب قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] وأن جماعة من أهل دمشق خبطوا فيها وما أجابوا بشىء، ونسيت هل قال لى إن الشيخ تاج الدين الكندى أجاب أوْ لا»[2].

وخامسها: أن أكثر هذه النقول ما هى إلا أشعار سمعها الصفدى من أصحابها أو من غيرهم وسجلها فى الغيث لما بينها وبين معنى البيت الذى يشرحه أو الموضوع الذى يخوض فيه من صلة أو مناسبة.

**٢ - ثبت بأسماء العلماء الذين نقل عنهم الصفدى شفهيًّا فى الشرح علومهم ومعارفهم وما حكوه له من أخبار:**

١ - الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى (ت٧٤٩هـ)[3].

٢ - شرف الدين أبو عبد الله محمد بن فتح الدين بن أبى الحسن بن على ابن إبراهيم الأنصارى القمى[4].

٣ - قاضى القضاة تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الكافى السبكى الشافعى (ت٧٥٦هـ)[5].

---

(١) الغيث المسجم: جـ١، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢) السابق نفسه: جـ١، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) يراجع السابق نفسه: جـ١، ص ٨٥، ٩٥، ١٧٣، جـ٢، ص ٢٨٧، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٤/ ٢٢٥ وما بعدها.

(٤) يراجع السابق نفسه: جـ١، ص ٩٦.

(٥) يراجع السابق نفسه: جـ١، ص ١٠٥، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٣/ ٤١٧ - ٤٥٥.

٤ - الشيخ أثير الدين أبو حيان الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)[١].

٥ - الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت ٧٢٥هـ)[٢].

٦ - القاضي علاء الدين علي بن غانم (ت ٧٣٧هـ)[٣].

٧ - الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤هـ)[٤].

٨ - الشيخ نجم الدين أبو محمد الحسن بن كمال الدين محمد القرشي الصفدي (ت ٧٢٣هـ)[٥].

٩ - الشيخ الإمام الحافظ علاء الدين مغلطاي (ت ٧٦٢هـ)[٦].

١٠- المولى رشيد الدين يوسف بن أبي البيان (ت ٧٤١هـ)[٧].

١١- القاضي عماد الدين بن القيسراني (ت ٧٣٦هـ)[٨].

**٣ - ثبت بأسماء العلماء والأدباء الذين أنشدوا الصفدي أشعارهم التي سجلها في الغيث:**

١ - المولى جمال الدين يوسف بن سليمان بن أبي الحسن الصوفي (ت ٧٥٠هـ)[٩].

---

(١) يراجع الغيث المسجم: جـ ١، ص ١٢٦، جـ ٢، ص ٣٥٣، ٤١٦، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٣٢٥ - ٣٦٣.

(٢) يراجع السابق نفسه: جـ١، ص ١٩٢، ٤١٦، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٣٧٢- ٣٩٩.

(٣) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ١٩٨، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٣/ ٤٩٦ - ٥٠٢.

(٤) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٢٨٣، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٣٨، جـ ٢، ص ٤٦٢، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٢٠١-٢٤٤.

(٥) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٤٣١، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٢/ ٢٣٢ - ٢٤٤.

(٦) يراجع الغيث المسجم: جـ ١، ص ٤٤٦، ٤٤٧، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٤٣٣ - ٤٣٨.

(٧) يراجع السابق نفسه: جـ ٢، ص ٩٣، ٩٤، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٦٢٠ - ٦٢٢.

(٨) يراجع السابق نفسه: جـ ٢، ص ٢٧١، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ١/ ٥١٦ - ٥٢٢.

(٩) يراجع الغيث المسجم: جـ١، ص ٤٣، ٢٣٦، وقد ترجم له الصفدي في أعيان العصر ٥/ ٦٢٥.

٢ - المولى جمال الدين محمد بن نباتة (ت ٧٦٨هـ)(٢).

٣ - الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت ٧٢٥هـ)(٣).

٤ - الشيخ زين الدين عمر بن مظفر بن عمر الوردى (ت ٧٤٩هـ)(٤).

٥ - الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى (ت ٧٣٤هـ)(٥).

٦ - المولى صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى (ت ٧٥٢هـ)(٦).

٧ - الأمير علاء الدين الطنبغا الجاولى (ت ٧٤٤هـ)(٧).

٨ - المولى شهاب الدين الحسينى بن قاضى العسكر(٨).

٩ - القاضى جمال الدين عبد القاهر التبريزى (ت ٧٤٠هـ)(٩).

١٠- المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر (ت ٧٣٠هـ)(١٠).

---

(١) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٤٦، ٤٧، ٥٨، ١٢٣، ١٥١، ١٧٠، ٢٤٩، ٢٧١، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٠، جـ ٢، ص ٨، ٩، ٢٠، ٢٢، ٦٨، ٢١٧، ٣٢١، ٤٥٥، وقد ترجم له الصفدى فى الوافى ١/ ٣١١ وما بعدها.

(٢) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٥١، ١٢٣، ١٩٤، ٢٠٢، ٣٢٨، جـ ١، ٧٠، ٣٤٣، ٤٦٢، ٤٦٣.

(٣) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٧٣، ٨٦، ١٤٧، جـ ٢، ٣٨، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٣/ ٦٧٧، وما بعدها.

(٤) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٩٩، ١٧٤، ٣٢٨، جـ٢، ١١، ١٢، ١١٠، ١٧٠.

(٥) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ١٢٣، ٢١١، ٢١٣، ٢٦٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٨٧، جـ٢، ص ١٧، ٢٠، ٤٢، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٣/ ٦٨ وما بعدها.

(٦) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ١٢٣، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ١/ ٦١٠- ٦١٤.

(٧) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٢٢٤.

(٨) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٢٧٩، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٣/ ١٢٤، ١٢٩.

(٩) يراجع السابق نفسه: جـ ١، ص ٣٠٣، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٢/ ٥٠١ - ٥١٢.

١١- الشيخ إبراهيم المعمار (ت ٧٤٩هـ)[١].

١٢- الشيخ الإمام شهاب الدين محمد بن عبد المنعم المعروف بابن الخيمى (ت٦٨٥هـ)[٢].

١٣- القاضى علم الدين سليمان بن إبراهيم متولى دمشق(ت ٧٤٤هـ)[٣].

١٤- أثير الدين أبو حيان الغرناطى (ت ٧٤٥هـ)[٤].

١٥- المولى بدر الدين حسن بن على الغزى (ت ٧٥٣هـ)[٥].

١٦- المولى الحكيم شهاب الدين أحمد بن يوسف الصفدى (ت ٧٣٧هـ)[٦].

١٧- شرف الدين عيسى الناسخ(ت ٧٣٢هـ)[٧].

١٨- القاضى شرف الدين أبو عبد الله الحسين بن ريان[٨].

**٤ - ثبت بأسماء العلماء والأدباء الذين أورد شعرهم فى الغيث سماعًا عن شيوخه مع نماذج لهم:**

١ - **الإمام تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى**[٩] (ت ٧٠٢هـ)، وما أورده له من شعر فى الغيث كان عن طريق ابن سيد الناس مرة، وعن طريق جمال الدين محمد بن نباتة مرة أخرى. أما ما أورده عن طريق ابن سيد الناس فمن مثل قوله «أنشدنى العالم الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس إجازةً وفى غالب الظن سماعًا قال: أنشدنى لنفسه الشيخ الإمام العلامة القدوة تقى الدين أبو الفتح محمد بن الإمام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع ابن أبى الطاعة القشيرى المعروف بابن دقيق العيد - رحمه الله تعالى-:

---

(١) يراجع الغيث المسجم: جـ١، ص ٣٣٦، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ١/١٤٦ وما بعدها.

(٢) السابق نفسه: ٣٨٠، ٣٨١، وقد ترجم له الصفدى فى الوافى ٤/ ٥٠ وما بعدها.

(٣) السابق جـ ٢، ص ٢٠، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٢/٤١٣.

(٤) السابق نفسه: ص ٤٢، ص ١٥٧.

(٥) السابق نفسه: ص ٨١، ٢٢٨، وقد ترجم له الصفدى فى الوافى ١٢/١٤٨.

(٦) السابق نفسه: ص ١٩٨، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ١/٤٣٥.

(٧) السابق: جـ ١، ص ٢٨٩، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٣/ ٧٢١.

(٨) السابق نفسه: ص ٣٦٠.

(٩) يراجع على سبيل المثال السابق نفسه: ص ١٠٥، ١٤٦، ١٤٧، ٢٠١، ٢٣٧، وقد ترجم له الصفدى فى أعيان العصر ٤/ ٥٧٦.

أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ بين ذِلَّة كادحٍ ... طَلَبَ الحياةَ وبين حِرْصِ مُؤَمِّلِ
وأَضَعْتَ عُمْرَكَ لا خَلاعَةَ ماجنٍ ... حَصَّلْتَ فيه ولا وقارَ مُبَجَّلِ
وتَرَكْتَ حَظَّ النَّفْسِ في الدنيا وفي الأُ ... خْرَى ورُحْتَ عَنِ الجميعِ بِمَعْزِلِ»(١)

أما ما أورده له عن طريق ابن نباتة فمن مثل قوله: «وأنشدني جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة قال: أنشدني لنفسه إجازةً الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد:

لَعمري لقد قاسَيْتُ بالفقرِ شدةً ... وَقَعْتُ بِهَا في حَيْرَةٍ وشَتَاتِ
فإن بُحْتُ بالشكوى هَتَكْتُ مُروءَتِي ... وإنْ لَمْ أَبُحْ بالضرِّ خِفْتُ مماتي
فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ نَازِلٍ بِمُلِمَّةٍ ... يُزِيلُ حَيَائِي أَوْ يـزِيلُ حَيَاتِي»(٢)

٢ - محمد بن أحمد بن حسن بن عامر التجيبي، وكل ما أورده له كان سماعًا عن الشيخ أثير الدين أبي حيان الغرناطي من مثل قوله: «أنشدني الشيخ الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بمصر سنة سبعمائة وثمانية وعشرين قال: أنشدني لنفسه محمد بن أحمد بن حسن بن عامر التجيبي في مليح له رقيبٌ أحول:

بأبي رشا يحوي مع الإحسانِ ... ملكية موضوعُها إنساني
أحوى الجفونِ له رقيبٌ أحْوَلُ ... الشيءُ في إدراكِهِ شيئانِ
يا ليتَهُ تَرَكَ الذي أنا مُبْصِرٌ ... وهو المخيَّر في الغزال الثاني»(٣)

٣ - ناصر الدين حسن بن النقيب الفقيسي (ت ٦٨٠هـ)، وبعض ما أورده له كان سماعًا عن الشيخ أثير الدين أيضًا؛ يقول الصفدي: أنشدني الإمام الحافظ أبو حيان قال: أنشدى لنفسه ناصر الدين حسن بن النقيب الفقيسي:

وما بين كَفِّي والدراهمِ عامرٌ ... ولَسْتُ لها دُونَ الْوَرَى بِخَلِيلِ

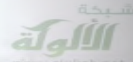
---

(١) الغيث المسجم: جـ١، ص ١٠٥.

(٢) الغيث المسجم: جـ١، ص ١٤٧.

(٣) السابق نفسه ١/١٤١، ١٤٢.






وما اسْتَوْطَنْتُها قطُّ يومًا وإنَّما ... تمرُّ عَلَيْها عابراتِ سبيلِ»[1]

٤ - فخر الدين حسن بن على بن مكزون السنجارى وما أورده له كان سماعًا عن الشيخ ابن ساعد الأنصارى؛ يقول الصفدى: «أنشدنى مِن لفظه الشيخ الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى قال: أنشدنى مِن لفظه لنفسه خالى فخر الدين حسن بن على بن مكزون السنجارى قصيدةً تائية طويلة فى وزن تائية ابن الفارض حطَّ فيها عليه، منها:

ولستُ كَمَنْ أَمْسَى على الْحُبِّ كاذبًا ... مُضِلاً لأربابِ الْعُقُولِ السخيفةِ

يَمُنُّ عَلَى الْجُهَّالِ من عُصْبَةِ الْهَوَى ... بِنِسْبَتِهِ فى الْحُبِّ مِنْ غَيْرِ نِسْبَةِ

فيزعمُ طَوْرًا أنه عينُ عَيْنِها ... ويزعُمُ طَوْرًا أنها فِيهِ حَلَّتِ

ويَجْمعُ ما بين النقيضينِ قولُه ... وذاكَ مُحَالٌ فى العقولِ السليمةِ»[2]

٥ - شمس الدين محمد بن دانيال (ت ٧١٠هـ) وبعض ما أورده له كان سماعًا عن الشيخ ابن سيد الناس وذلك مثل قوله: «أنشدنى مِن لفظه الشيخ الإمام الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس بالقاهرة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة قال: أنشدنى لنفسه الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال الموصلى:

كَمْ قِيلَ لِى إِذْ دُعِيتُ شمسًا ... لا بُدَّ لِلشَّمْسِ من طلوعِ

فكان ذاك الطلوعُ داءً ... يَرْقَى إلى السطحِ مِنْ ضُلُوعى»[3]

٦ - الإمام الفقيه أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) وما أورده له سمعه من شيخه ابن سيد الناس ومثال ذلك قوله: أنشدنى الحافظ المحدث الأديب فتح الدين محمد بن أبى عمرو محمد بن أبى بكر بن محمد بن سيد الناس اليعمرى بالقاهرة المحروسة قال: أنشدنى والدى قال: أنشدنى الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرح البنانى قال: أنشدنى أبو الوليد سعد السعود بن أحمد بن هشام قال: أنشدنى الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد الملك قال: أنشدنا أبو أسامة يعقوب قال: أنشدنى والدى الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم لنفسه:

---

(١) الغيث المسجم: جـ١، ص ١٤٦، وراجع فى نصوص أخرى الغيث جـ٢ ص ٢٠٧.

(٢) السابق نفسه: جـ١، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣) السابق نفسه: ص ٢٤٨، ٢٤٩.



| | |
|---|---|
| مَن عَذِيرى مِن أُناسٍ جَهِلُوا | ثُم ظَنُّوا أنهم أهلُ النَّظَرْ |
| رَكِبُوا الرأىَ عنادًا فَسَرَوْا | فى ظَلام تاهَ فيه مَنْ عَبَرْ |
| وطريقُ الرُّشْدِ نَهجٌ مَهْيَعٌ | مثلما أبصَرْتَ فى الأُفقِ القَمَرْ |
| وهو الإجماعُ والنصُّ الذى | ليس إلا فى كتابٍ أوْ أثَرْ»(1) |

٧ - **القاضى محيى الدين بن الظاهر** (ت ٦٩٢هـ) وبعض ما أورده له سمعه عن شيخه شهاب الدين أبى الثناء محمود، ومثال ما أورده له قوله: «وأنشدنى الشيخ الأديب الكاتب شهاب الدين أبو الثناء محمود قال: أنشدنى من لفظه لنفسه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر:

| | |
|---|---|
| وناطقةٍ بالنفخ مِن رُوحِ ربِّها | تُعَبِّرُ عمَّا عندنا وتُتَرْجِمُ |
| سكَتْنَا وقالتْ للقلوبِ فأسْمَعَتْ | فنحنُ سُكُوتٌ والهَوَى يَتكلَّمُ»(2) |

٨ - **الشيخ شمس الدين عبد الوهاب** وما أورده له سمعه من شيخه شهاب الدين أبى الثناء محمود أيضًا، ومن أمثلة ما أورده من شعره قوله: «وأنشدنى القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود لشمس الدين عبد الوهاب:

| | |
|---|---|
| مُنَقَّبَةٌ مهما خلَتْ مَعْ مُحِبِّهَا | يُزَوِّدُهَا لَثْمًا ويَنْظُرُهَا شَزْرا |
| وتصحيفُها فى كفٍّ مَنْ شِئْتَ فلْتَقُلْ | إذ شئتَ فى اليمنى وإن شئت فى اليسرى»(3) |

٩ - **الإمام مجد الدين بن الظهير الإربلى**: وقد نقل ما أورده له من شعر عن طريق السماع من شيخه أبى الثناء محمود، وأستطيع أن أدلل بهذا النص على ذلك؛ يقول الصفدى: «وأنشدنى الشيخ الإمام القاضى شهاب الدين محمود قال: أنشدنى شيخنا الإمام مجد الدين محمد بن أحمد بن عمر الظهير الإربلى الحنفى لنفسه من أبيات:

---

(1) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٦٤، وكذا تراجع صفحة: ٤٠٩، من الجزء نفسه.

(2) السابق نفسه: ص ٢٨٠.

(3) السابق نفسه: ص ٢٨١.



أواصلُ فيه لَوْعَتِي وَهْوَ هَاجِرٌ ... ويؤنِسُنِي تَذْكَارُهُ وهْو نافِرُ
غزالٌ منيعُ الخِدْرِ دُونَ مَزَارِه ... مُظَلَّلَةٌ بالبِيضِ منه الجآذرُ»[1]

١٠- الإمام شهاب الدين محمد بن عبد المنعم المعروف بابن الخيمي (ت٦٨٥هـ)

وما أورده الصفدي لهذا الإمام عن طريق السماع كان بعضه عن طريق شيخه ابن سيد الناس، ومن أمثلة ذلك قوله: «أنشدني الشيخ الإمام الحافظ فتح الدين محمد ابن محمد بن سيد الناس اليعمري قال: أنشدني لنفسه شهاب الدين محمد بن عبد المنعم المذكور إجازة إن لم يكن سماعًا، وفي غالب الظن أنه سمع قصيدته البائية التي أولها:

يا مَطلبًا ليس لي في غيره أرَبُ ... إليك آلَ التَّقَصِّي وانتهى الطَّلَبُ

ومنها:

باللهِ إنْ جُزْتَ كُثْبَانًا بِذِي سَلَمٍ ... قِفْ بي عَلَيْهَا وَقُلْ لِي هَذِهِ الكُثُبُ
وَخُذْ يمينًا لَمِغْنًى تَهْتَدِي بِشَذَا ... نَسيمِهِ الرَّطْبِ إنْ ضَلَّتْ به النُّجبُ»[2]

وهذه القصيدة نفسها قد أنشده إياها إجازةً شيخه شهاب الدين أبو الثناء محمود[3].

١١- القاضي زين الدين عمر المعروف بابن الوردي (ت٧٤٩هـ) وبعض ما أورده له من شعر في الغيث كان عن طريقين: أحدهما سماعًا عن شيخه ابن نباتة، والثاني سماعًا عن شمس الدين محمد بن علي بن أيبك السروجي، فمثال الأول قوله: «أنشدني مِن لفظه المولى جمال الدين محمد بن نباتة قال: أنشدني مِن لفظه لنفسه القاضي زين الدين عمر بن المظفر والمعروف بابن الوردي:

وَرُبَّ غَزالةٍ طلعتْ ... بِقَلْبِي وهو مَرْعَاهَا
نَصَبْتُ لها شِباكًا مِنْ ... نُضارٍ ثُمَّ صِدْنَاهَا
وقالتْ لِي وَقَدْ صِرنَا ... إلى عينٍ قَصَدْنَاهَا

(١) الغيث المسجم: جـ١، ص ٣٨٦، ٣٨٧، وكذا الصفحات ٣٠٧، ٣٥٥، ٤٠٤، ٤٠٦من الجزء نفسه.
(٢) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٣٨٠، ٣٨١.
(٣) السابق نفسه: ص ٣٨٠.

بَذَلَتْ العين فاكْحَلْهَا ... بطَلْعَتِها ومَجْراهَا»[1]

ومثال الثانى قوله: «وأنشدنى من لفظه المولى شمس الدين محمد بن على ابن أيبك السروجى قال: أنشدنى من لفظه لنفسه المولى القاضى زين الدين عمر ابن الوردى:

وَكُنْتُ إذا رَأَيْتُ ولَو عَجُوزًا ... يُبَادِرُ بالقِيَامِ على الحَرَارَهْ

فَأَصْبَحَ لا يَقُومُ لِبَدْرٍ تَمٍّ ... كَأَنَّ النَّحْسَ قَدْ وَلِيَ الوزارة»[2]

١٢- البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبى (ت ٦٨٠هـ) وما أورده له من شعر كان سماعًا عن لاجين الذهبى وذلك حيث يقول: «وما أرشق قول البدر يوسف ابن لؤلؤ الذهبى أنشدنيه الحاج لاجين الذهبى قال: أنشدنى البدر يوسف لنفسه:

يا عاذلى فى هواهُ ... إذا بدا كيفَ أسْلُو

يَمُرُّ بِى كلَّ وَقْتٍ ... وكلَّما مَرَّ يَحْلُو»[3]

١٣- أبو العز المكرم وقد أورد له نصًا شعريًا وحيدًا أنشده إياه الشيخ أثير الدين أبو حيان قال: «وأنشدنى مِن لفظه العلامة الشيخ أثير الدين أبو حيان بالقاهرة سنة تسعمائة وثمانية وعشرين قال: أنشدنى أبو عبدالله فتح الدين البكرى قال: أنشدنى الجمال الكاتب محمد بن أبى العز المكرم لأبيه:

الناس قد أثموا فينا بِظَنِّهِمُ ... وَصَدَّقُوا بالذى أدرِى وتَدْرِينَا

ماذا يَضُرُّكِ فى تحقيقِ ظنهمُ ... بأن نُحَقِّقَ ما فِينَا يَظُنُّونَا

وَحَمْلِي وَحَمْلُكِ ذنبًا واحدًا ثقةً ... بالعفوِ أجملُ من إثمِ الوَرَى فِينَا»[4]

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٩، ص ٣٠.

(٢) هذا المثال أنموذج لما كان عليه الذوق الأدبى فى ذلك العصر حيث شاع النظم فى مثل هذه المعانى، ولا ضير فى الاستشهاد بمثل هذه النصوص فى رأينا ما دامت صحيحة النسبة إلى أصحابها، ومن حق العلم علينا ومن حق الناس أيضًا أن يقدم الباحث صورة المجتمع فى ذلك العصر بكل إيجابياتها وسلبيَّاتها دون حجب شىء أو إخفائه. الغيث جـ ٢، ص ٢٤٢ وكذا يراجع السابق نفسه جـ ١، ص ٣٨٢، جـ ٢، ص ١٢٠.

(٣) السابق نفسه: جـ ١، ص ٢٦٩.

(٤) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٣٥٣.

**١٤- تقى الدين السروجي** (ت٦٩٣هـ) وما أورده الصفدى من شعره سمعه من شيخه أثير الدين أيضًا، ومن الشواهد على ذلك قوله: أنشدنى مِن لفظه الشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان قال: أنشدنى لنفسه الشيخ تقى الدين السروجى:

وأرى لليلَى العـامِـرية منزلا ... بالجود يُعْرَفُ والندَى أصحابُهُ
فيه الأمانُ لمَنْ يَخافُ مِنَ الرَّدَى ... والخيرُ قد ظَفِرَتْ به طُلاَّبُهُ
قد أُشرِعتْ بِيْض الصوارمِ والقَنَا ... من حولِهِ فهو المنيعُ حجابُهُ
وعلى حِمَاهُ جلالةٌ مِنْ أهْله ... فلذاكَ طارِقَةُ العيون تهابُهُ
كم قُلِّبَتْ فيه الخدودُ على الثرى ... شوقًا إليه وَقُبِّلَتْ أعتابُهُ
قد أُخَضِبَتْ منه الأباطحُ والربُى ... للزائرِينَ وفُتِّحَتْ أبوابُهُ»[(١)]

**١٥- علاء الدين الباجى الأصولى**: وقد سمع الصفدى شعر هذا الشيخ من أستاذه أثير الدين أبى حيان، ومما يدل على ذلك هذا النص من الغيث قال الصفدى: «وأنشدنى الشيخ الإمام الحافظ العلاَّمة أثير الدين أبو حيان قال: أنشدنى الشيخ علاء الدين على بن خطاب الباجى الأصولى لنفسه:

رثى لى عُذَّلِى إذ عَايَنُونِى ... وَسُحْبُ مدامعِى مِثْلُ العيونِ
ورَامُوا كَحْلَ عَيْنِى قُلْتُ كُفُّوا ... فَأَصْلُ بَلِيَّتِى كُحْلُ الجُفُونِ»[(٢)]

**١٦- شهاب الدين العزازى** (ت٧١٠هـ) وما أورده فى الغيث من شعر هذا الشاعر كان سماعًا عن ابن سيد الناس؛ يقول الصفدى: وأنشدنى من لفظه الشيخ الإمام الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى قال: أنشدنى لنفسه إجازةً الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله العزازى:

إن لم أمُتْ فى هَوَى الأجفانِ والمُقَلِ ... فَوَاحَيَائِى مِنَ العُشَّاقِ وَاخَجَلِى
ما أطيبَ الموتَ فى عِشْقِ المِلاحِ كذا ... لاسيما بسيوفِ الأعيُنِ النُّجُلِ
يا صاحِبَىَّ إذا ما مِتُّ بينكما ... دون الشَّهِيَّيْنِ وَرْدِ الخَدِّ والقُبَلِ

---

(١) الغيث المسجم: ص ٣٦٩.

(٢) السابق نفسه: ص ٤٠٤.



فاستغفرا لى وقولا عاشقٌ غَزِلٌ ... قضى صريع القُدودِ الهيفِ والمُقَلِ

راشَ الفتورُ له سهمًا فأخطأه ... حتَّى أتيح له سهمٌ مِنَ الكَحَلِ

وللعُيونِ اللواتى هُنَّ مِنْ أسَدٍ ... إلى القلوبِ سهامٌ هُنَّ من ثُعَلِ

فالجرحُ منهنَّ لَذَّاتٌ بلا ألَمٍ ... والطعنُ عند مُحِبِّهِنَّ كالقُبَلِ»[1]

١٧- بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهمندار وما أورده له من شعر كان سماعًا عن شيخه أثير الدين أبى حيان ومن ذلك قوله: «وأنشدنى من لفظه الشيخ الإمام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف قال: أنشدنى من لفظه لنفسه بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهمندار سنة تسع وثمانين وستمائة:

لو عاينتْ عيناك يومَ نزالنا ... والخيلُ تَضْبَحُ فى العَجَاجِ الأكْدَرِ

وسَنا الأسِنَّةِ والضِّياءُ مِنَ الظُّبا ... كشَفا لأعُينِنا قتامَ العَيْثَرِ

وقد اطْلَخَمَّ الأمرُ واحْتَدَمَ الوغَى ... ووهى الجبانُ وساء ظَنُّ المجترِى

لرأيت سدًا من حديدٍ مائرًا ... فَوْقَ الفراتِ وفوقَهُ نارًا تَرِى

حتى سَبَقْنَا أسْهُمًا طَاشَتْ لنا ... منهم إلينا بالخيولِ الضُمَّرِ»[2]

١٨- أبو الشكر حماد بن هبة الله بن حماد وما أورده له من شعر، كان سماعًا عن شيخه أثير الدين أيضًا قال الصفدى: «وأنشدنى من لفظه الشيخ الإمام العلامة حجة العرب أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف فى شعبان المعظم سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بالقاهرة قال: أنشدنى أبو الحسين القشيرى بقراءتى عليه قال: أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد الصوفى المؤذن بسبتة قال: أنشدنى أبو الشكر حماد بن هبة الله بن حماد بحرَّان لنفسه:

قالوا نراك كثيرَ السيرِ مجتهدًا ... فى الأرضِ تنزِلُها طورًا وترْتَحِلُ

فقلتُ لَو لَمْ يكُنْ فى السيرِ فائدةٌ ... ما كانتْ السَّبْعُ فى الأبراجِ تَنْتَقِلُ»[3]

---

(١) الغيث المسجم: جـ٢، ص ١٧، ١٨.

(٢) الغيث المسجم جـ٢، ص ٦٩، وقد اجتزأت من الأبيات لطولها.

(٣) السابق نفسه: جـ٢، ص ١١٨.



١٩- الصاحب عز الدين بن أبى الحديد المعتزلى وقد أورد الصفدى ما ذكره من شعره فى الغيث سماعًا عن شيخه أثير الدين أبى حيان؛ قال الصفدى: «وأخبرنى أيضًا مِن لفظه قال - أى أثير الدين - أنشدنا شيخنا الشيخ الناقل النسابة حافظ المشرق والمغرب شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن الدمياطى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ستمائة وثمانية بالقاهرة بقراءتى عليه قال: أنشدنى الشيخ الإمام العالم الصاحب عز الدين عبد الحميد أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن حسين بن أبى الحديد المعتزلى ببغداد ومولده بالمدائن يوم السبت مستهل ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة لنفسه:

لولا ثلاثٌ لم أخَفْ صِرعَتِى ... ليستْ كما قالَ فتى العبدِ

أنْ أنْصُرَ التوحيدَ والعدلَ فى ... كلِّ مكانٍ باذلاً جَهْدِى

وأنْ أُنَاجِى اللّهَ مستمتعًا ... بِخُلْوَةٍ أحلَى مِنَ الشَّهْدِ

وأنْ أتيهَ الدَّهَرَ كِبْرًا على ... كلِّ لَئِيمٍ أصْعَرِ الخَدِّ

لذاك أهْوى لا فتاة ولا ... خمر ولا ذى مَيْعَةٍ نَهْدِ»[(١)]

٢٠- الزين الجوبان وما ذكره من شعره فى الغيث سمعه عن شيخه ابن سيد الناس اليعمرى ومثال ذلك قوله: أنشدنى من لفظه الشيخ الإمام الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمرى قال: «أنشدنى شهاب الدين أحمد بن زكريا بن أبى العشائر الماردينى قال: أنشدنى الزين الجوبان لنفسه:

انظر إلى الشمسِ وقد عَمَّمتْ ... رُوسَ الهِضَابِ الضُّلْعِ بالأصفرِ

كأنها فى الجوِّ قلاّعَةٌ ... وجاءَ فلاحٌ عليها خَرِى»[(٢)]

٢١- عفيف الدين التلمسانى: وإذا كنا قد قررنا فيما سبق أن هذا الشاعر قد جمع ديوانه بنفسه وكانت عند الصفدى نسخة ينقل عنها، فإنّا هنا نضيف أن

---

(١) الغيث المسجم: ١٥٦/٢، ١٥٧.

(٢) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٦٣.

الصفدى قد أثرى شرحه للامية العجم بالكثير من شعر هذا الرجل الذى كان شاعراً مجيداً، وذلك الشعر لم ينقله من الديوان وإنما سمعه من أترابه من الأدباء والعلماء ومثال ذلك قوله: «وأنشدنى جمال الدين محمود بن طى المعروف بالحافى قال: أنشدنى عفيف الدين التلمسانى لنفسه من أبيات:

ولى علَى عـاذِلِـى حـقـوقُ هوًى ... عليـه شُكْرِى بِـبَـعْـضِـهَـا يَجِبُ

لامَ فـلـمَّـــــــا رآهُ هـامَ بِـهِ ... فكُنْتُ فى عِـشْـقِهِ أنا السَّبَبُ»[1]

٢٢- ظهر الدين إبراهيم البارزى (ت ٦٨٠هـ)(*) الحموى وما أورده الصفدى له من شعر فى الغيث أخذه سماعاً عن شيخه أثير الدين أبى حيان قال: «أنشدنى من لفظه الشيخُ الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان قال: أنشدنى ظهير الدين إبراهيم البارزى الحموى لنفسه:

تَعَجَّبْتُ والدنيا كـثيـرٌ عَجِـيْـبُـهَا ... لشخصٍ تَلاقَى عِـنْدَهُ الخبث والرِّيا

بَدَا سَبَـلٌ فِى عَيْنِه وَهْوَ مـخصبٌ ... ولم أرها يومًـا ألَمَّ بها حـيًّـا»[2]

٢٣- بهاء الدين بن النحاس وقد سمع الصفدى شعر هذا العالم المصرى عن شيخه ابن سيد الناس وأورد منه فى الغيث، ومثال ذلك قـوله: «وأنشدنى الإمام العلامة فتح الدين[3] محمد بن سيد الناس إجازةً قال: أنشدنى الإمام العلامة بهاء الدين بن النحاس لنفسه:

قـالوا حَبِـيْـبُكَ قَدْ تَبَـدَّى شَيْبُـهُ ... فـإلامَ قَلْبُكَ فـى هواهُ يَهِـيمُ

قلتُ اقْـصِـروا فالآنَ تَمَّ جَـمالُهُ ... وبَدَى شـقـاءُ فـتًى عليـهِ يَلومُ

---

(١) الغيث المسجم: جـ٢، ص ٣٦٤.

(*) ظهير الدين البارزى: قاضى حماة وابن قاضيها الإمام نجم الدين عبد الرحيم بن هبة الله الجهنى الشافعى كان إمامًا فى الفقه والكلام والأدب، ولد بحماة سنة ٦٠٨هـ، وتوفى سنة ٦٨٠هـ. تراجع ترجمته فى فوات الوفيات تحقيق محيى الدين: ١/ ٥٧.
الوافى بالوفيات: ٦/ ١٨٧، العبر: ٣/ ٣٥٢، شذرات الذهب: ٥/ ٣٨٢.

(٢) السابق نفسه: جـ٢، ص ٣٢٨.

(٣) وردت بالغيث بهاء الدين وهى خطأ، والصواب ما أثبته.

الصبحُ غُرّتُه وشَعْـرُ عِذَارِهِ ... ليلٌ ونَبْتُ الشَّيْبِ فيه نُجومُ»(1)



٢٤- ابن المتيتى: وقد أورد له الصفدى بيتين سمعهما من شيخه ابن سيد الناس قال: «وإنما الكامل فى مثل هذا التندير ما أنشدنيه الشيخ الإمام الحافظ فتح الدين أبو الفتح محمد بن سيد الناس بالقاهرة سنة سبعمائة وثمان وعشرين قال: أنشدنى ابن المتيتى نائب دار العدل بمصر لنفسه يخاطب زينَ الدين خالد الأشعرى:

قُلْتُ لِلزينِ: كيفَ لا ترى البعثَ ... وتنفى إنكارَهم للحَشْرِ؟

قال: أَثْبِتْ فقلت: ذقنك فى إستى ... قالا انْفِ، فقلت: فى وسَطِ حِجرى»(2)

٢٥- يحيى بن محمد بن زكريا الحموى الخباز وقد أورد من شعره بيتين سمعهما من شيخه جمال الدين بن نباتة وذلك حيث يقول: «وأنشدنى جمال الدين بن نباتة قال: أنشدنى القاضى زين الدين عمر بن الوردى قال: أنشدنى الأديب يحيى بن محمد بن زكريا الحموى الخباز لنفسه:

طَلَبْتُ منْهُ قُبْلَةً قالَ لِى ... إياك أنْ تَطْمَعَ فى القُرْبِ

البوسُ جاليش وأخْشَى بأنْ ... تستتبعَ الجاليشَ بالقَلْبِ»(3)

٢٦- شرف الدين محمد بن موسى المقدسى وما أورده له سمعه عن شيخه أثير الدين أبى حيان، ومثالُ ذلك قوله: «وأنشدنى مِن لفظه الشيخُ الإمام أثير الدين أبو حيان: قال: أنشدنى لنفسه الشيخ شرف الدين محمد بن موسى المقدسى:

اليومُ يومُ سرورٍ لا شرورَ بِهِ ... فزوِّج ابنَ سحابٍ بابنةِ العِنَبِ

ما أنْصَفَ الكَأْسَ مَنْ أَبْدَى القُطُوبَ لها ... وثَغْرُهَا باسمٌ عن لُؤْلُؤِ الحَبَبِ»(4)

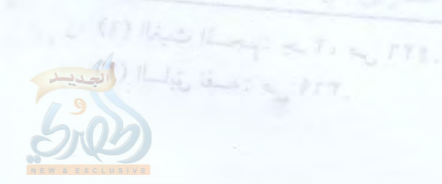
---

(1) الغيث المسجم: جـ٢، ص ٣٨٥.

(2) السابق نفسه: جـ١، ص ١٣٣.

(3) الغيث المسجم: جـ٢، ص ٤٥٠.

(4) السابق نفسه: جـ١، ص ٤٤٠.






٢٧- أبو حفص عمر بن محمد النجاتى البجلى اللغوى وما أورده له سمعه عن شيخه أثير الدين أيضًا يقول: «أنشدنى الشيخ الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان لأبى حفص عمر بن محمد النجاتى البجلى اللغوى قوله:

سِــــرُّكَ إنْ أوْدَعْــتَــــهُ ثانيًـــــا ... فـاعلـمْ بِأنْ قَـدْ آنَ أنْ تُفْـشِـيَـهْ
لأنَّ مـــا أُضْـمِــرَ فـى حـــالةِ ... الإفـرادِ تستـخرجُـهُ التَّـثْنِيَـهْ»[(١)]

٢٨- السلطان ابن الأحمر ملك الأندلس وقد سمع الصفدى له أبياتًا أوردها فى الغيث عن طريق شيخه أثير الدين وفى هذا إثراء للغيث المسجم ولقد حرصت على إثبات نصٍّ أمام كل شاعر أو عالم أو أديب حتى إذا ما وصلت إلى هذا الرجل خرجت بنتيجة مهمة وهى أن هذه النصوص التى أوردها لهؤلاء الأعلام سماعًا عن شيوخه - كما تنوعت زمانًا وموضوعًا - تنوعت مكانًا؛ يقول الصفدى: «وأنشدنى مِن لفظه الشيخ الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان الأندلسى للسلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان الغالب بأمر الله أبى عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجى يُعرف بابن الأحمر ملك الأندلس قال: رأيته مرارًا بغرناطة وأنشدته شعرًا، وحضرت عنده إنشاد الشعر، وكان رجلاً جميلاً حسن السياسة متظاهرًا بالدين:

أيا ربَّةَ القُـرْطِ التى حَـسَّنَتْ هَتْكِى ... على أى حالٍ كـان لا بد لى مِنْكِ
فَـإمّـا بِذُلٍّ وهـو ألْيَقُ بالهَـوَى ... وإمـا بِـعِـزٍّ وهَوْ ألْيـقُ بالمُلْك»[(٢)]

وهذا النص نفيس لأنه يدل على ما كان عليه سلاطين المسلمين وأمراؤهم فى العصور الخالية من حرص على الثقافة وولع بالعلم والأدب وتذوق للجمال الحسى والجمال المعنوى، وتَمتُّعٍ بمباهج الحياة، ومشاركةِ رعاياهم فى ذلك.

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٤٢٦.
(٢) السابق نفسه: ص ٣٦٩.



٢٩- قاضى القضاة أحمد بن صصرى الثعلبى وقد أورد الصفدى له بيتا واحدا وذكر أنه سمعه ضمن أبيات له أنشده إياها بعض الأفاضل يقول: «وأنشدنى بعض الأفاضل لقاضى القضاة نجم الدين أحمد بن صصرى الثعلبى أبياتا منها:

وما لِيَ أنصارٌ سِوَى فيضِ أدْمُعِي ... إذا بَاتَ مَنْ أهواهُ وهَوْ مُهَاجِرٌ»[1]

فهذه قائمة بأسماء تسعة وعشرين عَلَما شكل نتاجهم الفنى جزءا غير يسير من مصادر الشرح، وكان السماع عن شيوخ الأدب والعلم هو الطريق الذى وصل به هذا التاج الفنى إلى الصفدى، فإذا أضيف إليه ما سمعه من شعر شيوخه وما حكوه له من أخبار، تبين إلى أى مدى كان اعتماد الصفدى على النقل الشفهى فى إقامة صرح موسوعته الأدبية الفريدة.

وغنىٌّ عن البيان فى مثل هذا المقام أن نذكر أن مثل هذه الأخبار والأشعار قلما يقع الإنسان عليها مجموعةً فى كتاب واحد، ومِن ثَمَّ كان الكتاب وثيقةً أدبية كبرى يجب أن يستعان بها عند تحقيق الأعمال الفنية والأدبية لأهل هذا العصر.

*****

## ثانياً: المصادر المكتوبة:

أ- وقد رجع الصفدى إلى عدد كبير من المصادر المكتوبة، بيد أنى أحب أن أبدأ الحديث عن هذه المصادر بما اعتمد عليه الصفدى من مؤلفاته هو، حيث ألف الغيث فى أخريات عمره وبعد أن قطع رحلة طويلة فى العلم استفاد فيها وأفاد، وحصَّل وقرأ، وقيّد وألف، ولا بد لى هنا أن أحدد - ما أمكن - زمان تأليف الكتاب حتى أستطيع أن أسير فى بحثى على هدى وبصيرة، وحتى أدلل على صدق ما زعمته؛ فقد وجدت الصفدى يتحدث عن خلفاء المسلمين وحكامهم منذ أول الإسلام، ونقل عن الصولى قوله: «الناس يرون أن

---

(١) الغيث المسجم جـ٢، ص ٣٩٥.





كل سادس يقوم بأمر الناس منذ أول الإسلام لا بد أن يُخلع»[1] ومضى الصفدى يدلل على ذلك بتتبع الخلفاء، يعدُّد خمسة ثم يشير إلى خلع السادس أو موته أو قتله إلى أن قال: «ثم ولى الصالح إسماعيل، ثم الكامل شعبان، ثم المظفر حاجى، ثم الناصر حسن، ثم الصالح صالح، ثم عاد الناصر حسن أدام الله أيامه»[2].

إذن الصفدى قد ألف كتابه فى عهد الناصر حسن بعد أن تولى السلطنة للمرة الثانية، ولما كانت سلطنة الناصر حسن الثانية تقع فى المدة من عام ٧٥٥هـ إلى عام ٧٦٢هـ، فلنا أن نزعم إذن أن الصفدى قد ألف كتابه فى هذه الفترة أى فى أواخر العقد السادس وأوائل العقد السابع من عمره، ولما لم يتم الصفدى عقده السابع حيث توفى عن ثمانية وستين عاما عام ٧٦٤هـ، فقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الصفدى قد ألف الغيث فى آخر عمره.

وقد جرى الصفدى فى تأليف الكتاب على ما تجرى عليه سنة الكتّاب والمؤلفين قديمًا حيث يستعين الكاتب عادةً فى آخر عمره عند تأليف كتاب أو إخراج عمل علمى بما سبق له فى هذا الميدان مِن بحوث ودراسات ومؤلفات، وقد أشار الصفدى إلى عدد من أعماله فى ثنايا الغيث المسجم، وأحال القارئ عليها، وطلب منه الرجوع إليها، وهذه الأعمال هى:

١- التنبيه على التشبيه: فقد عقد فى أول الغيث فصلاً عن الهلال فى إبداع الشعراء، وازن فيه بين ما قال الطغرائى وابن طباطبا العلوى وابن المعتز العباسى وغيرهم فى وصف الهلال، ثم دلف إلى الحديث عن تشبيه الهلال، فذكر أن المقدم فيه تشبيه القرآن العظيم؛ حيث شبهه بالعرجون القديم، ثم أخذ يعدد ما شبهه به الشعراء؛ حيث «شبه بحاجب النوبى الشائب، وبقلامة الظفر، وبضلع ملقاة فى فلاة، وبالصدع فى الزجاج، وبالزورق، وبحرف النون، وبشفرة السكين، وبالنؤى، وبالسرج، وبمخلب الطائر، وبناب الفيل، وبالخلخال، ....»[3].

---

(١) الغيث المسجم ج ٢ ص ١١٢

(٢) السابق نفسه ٢/ ١١٣.

(٣) الغيث جـ٢، ص ٥٢.



ثم أحال قارئه على كتاب «التنبيه» إذا أراد أن يقف على الشواهد على هذه التشبيهات فقال: «وقد ذكرت الشواهد على هذه التشبيهات فى مقتضب لى مسمى بالتنبيه على التشبيه»[1].

٢- التذكرة الصفدية: ويبدو لى أن الصفدى قد أتم تذكرته هذه قبل شروعه فى تأليف الغيث، ودليلى على ذلك أنه أحال القارىء على كثير من أجزائها ولا سيما الجزء الأخير؛ فقد أحال القارئ على جزئها الأول مرة، ثم أحاله على جزئها السابع مرة ثانية، و أحاله على جزئها الثانى عشر مرة ثالثة، ثم فى المرة الرابعة أحال القارىء على جزئها الأخير وهو الجزء الرابع عشر.

وقد أتى حديثه عن الجزء الأول من التذكرة فى معرض الحديث عن بائية ابن الخيمى التى مطلعها:

«يا مطلبا ليس لى فى غيره أربُ»[2].

حيث يقول: «وقد جمعت ما اتفق لابن الخيمى ، وابن إسرائيل، والشهاب محمود، والعفيف التلمسانى، وصدر الدين بن الوكيل، ولى أنا فى معارضة هذه القصيدة، وأودعته فى الجزء الأول من التذكرة التى جمعتها»[3].

وقد أتى حديثه عن الجزء السابع من التذكرة فى معرض الحديث عن قصيدة عمارة اليمنى فى رثاء أهل القصرين التى أولها:

رميتَ يا دهرُ كفَّ المَجْدِ بالشلَلِ وجِيدَهُ بعدَ حُسْنِ الحلى بالعَطَلِ

حيث أورد منها بعد هذا المطلع ستة أبيات ثم قال: «وهى طويلة فى غاية الحسن مثبتة فى الجزء السابع من التذكرة»[4].

ثم يأتى بعد ذلك الموضع الثالث الذى أحال فيه الصفدى قارئه على الجزء الثانى عشر من التذكرة، وقد كان فى معرض الحديث عن كتاب جمال الدين إبراهيم

(١) الغيث المسجم جـ١، ص ٥٢.
(٢) والشطرة الثانية من البيت هى: «إليك آلَ التقصى وانتهى الطلب».
(٣) الغيث المسجم ج ١ ص ١٩٤.
(٤) السابق ج ٢ ص ٣٠٦.







الوطواط المسمى «فتوى الفتوة ومرآة المروة» حيث قال: «وقد وقفت أنا على ذلك الكتاب، و نقلته بخطى وهو فى الجزء الثانى عشر من التذكرة»(١).

ثم نأتى بعد ذلك إلى الموضع الأخير الذى أشار فيه الصفدى إلى آخر أجزاء هذه التذكرة، وهو الجزء الرابع عشر كما قدَّمنا، وقد كان ذلك فى معرض الحديث عن الألغاز حيث قال: «وكنت قد وقفت على لغز أنشأه المولى الفاضل شرف الدين حسين بن ريان فى المئذنة وهو نثر أتى فيه بأشياء مليحة، وكُلِّفت الجواب عنه، فأجبت عن ذلك، ومن جملة الجواب:

شهادته ما ردَّهَا غيرُ كافرٍ ويقضى بها مَن كان بالحق قاضيا

يقول مُعانى الطب: يا عجبًا لَهُ يَصِحُّ وقد ضمَّتْ حَشاهُ المراقيا

وهذا اللغز والجواب أثبتهما فى الجزء الرابع عشر من التذكرة التى جمعتها»(٢).

هذه هى كل المواضع التى نص الصفدى فيها على اسم هذا الكتاب وإفادته منه، إلا أنى أرى أن استفادة الصفدى من هذا الكتاب فى تأليف الغيث أكبر من ذلك بكثير، وأنه حين أشار إلى هذا الكتاب فى هذه المواطن الأربعة قد أغفل الإشارة إليه فى كثير من النقول، وربما كان هذا سهواً، وربما كان هذا عمداً لأن صاحبنا ذكى ولَمّاح، وهو لا يعنيه أن يشير إلى المصدر فى كل مرة يعتمد عليه فيها، فحسبه أن يدل قارئه على المصدر مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على أكثر تقدير، ثم على القارىء أن يفطن إلى المصدر كلما تكرر الأخذ منه.

وأستطيع أن أقرر هادىء البال أن الصفدى قد اعتمد فى الغيث على الجزء الرابع عشر من التذكرة، ونقل عنه كل النصوص الشعرية التى أوردها لشمس الدين محمد بن دانيال الكحال، حيث انتخب ديوان هذا الشاعر وأثبت مختاراته منه فى هذا الجزء الأخير من التذكرة.

ولعل سائلاً يسأل: ولم هذا الجزم؟ أليس يحتمل أن الصفدى نقل هذه النصوص عن الديوان الذى انتقى منه المختارات التى وضعها فى التذكرة؟

والإجابة عن هذا السؤال سهلة ميسورة، فمن الممكن أن يكون لهذا الاحتمال نصيب من الصحة لو أورد الصفدى فى الغيث أبياتا ليست فى المختارات الموجودة

(١) السابق نفسه جـ٢، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) السابق نفسه جـ٢، ص ٢١٩.



فى التذكرة، ولقد طابقت كثيرا من النصوص الموجودة فى الغيث على ما انتقاه وضمنه هذا الجزء الرابع عشر من التذكرة ووجدتها فيها بتمامها، وإن وجدت بطبيعة الحال فروقا فى بعض الألفاظ ترجع إلى تصحيف النساخ وتحريفهم عند تحرير النسخة وكتابتها، وأستطيع أن أضرب أمثلة على ذلك.

**أ- فقد أورد لابن دانيال فى الغيث قوله:**

مَا عَايَنَتْ عَيْنَايَ فِي عُطْلَتِي ... أقلَّ مِنْ حَظِّي وَمِنْ بَخْتِي[1]

قَدْ بِعْتُ عَبْدِي وَحِمَارِي وَقَدْ ... أَصْبَحْتُ لا فَوْقِي وَلاَ تَحْتِي

وهذا البيتان موجودان بالجزء الرابع عشر من التذكرة الصفدية بالورقة رقم ٥٧ من النسخة المخطوطة[2].

**ب- كما أورد له قوله:**

أنا لا أكلِّم واصباً ... إلا بإذنِ مَنْهُ يُملَكْ[3]

شَرْطِي شِفَاءُ الهالكينِ مِـ ... نَ الأذَى والشرطُ أمْلَكْ

وهذان البيتان موجودان أيضا بالجزء الرابع عشر من التذكرة وبالورقة رقم ٤٩ من النسخة المخطوطة[4].

**جـ- وكذا أورد له قوله:**

كَمْ قِيلَ لِي إذْ دُعِيتُ شمساً ... لا بُدَّ للشمسِ مِنْ طُلُوعِ[5]

فكان ذاك الطلُوعُ داءً ... يَرْقَى إلى السطحِ مِنْ ضُلُوعِي

وهذان البيتان موجودان بالورقة رقم ٧٩ من الجزء الرابع عشر من التذكرة، وذلك من النسخة المخطوطة[6].

---

(١) الغيث المسجم ج ١ ص ١٤٥ ، ص ١٤٦.

(٢) التذكرة الصفدية لصلاح الدين الصفدى الجزء الرابع عشر مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٠ أدب.

(٣) الغيث المسجم ج ١ ص ٢٠٨.

(٤) التذكرة الصفدية ورقة رقم ٤٩. ج ١٤.

(٥) الغيث المسجم ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) التذكرة الصفدية مخطوط ج ١٤ ورقة ٧٩.






وأرى أن هذه الأمثلة الثلاثة كافية لإيضاح الفكرة، وقد أضربت عن مطابقة ما تبقَّى من نصوصٍ على ما هو موجود بمخطوطة التذكرة لِما فى أكثرها من فُحش لا يستسيغه الذوق العام.

٣- فض الختام عن التورية والاستخدام: -

وهذا كتاب ثالث من كتب الصفدى التى اعتمد عليها، ونقل عنها، وأحال القارىء عليها فى الغيث المسجم، وذلك فى معرض الحديث عن نقل أبى الحسين الجزار لمعنى كلمة الراح من الخمر فى بيت أبى نواس الى جمع راحة وهى اليد حيث قال: «وقد ذكرت لهذا نظائر فى كتابى المسمى بفض الختام عن التورية والاستخدام؛ فمن أراد الوقوف على ما يهز عِطفه ويخلب لبه فليقف عليه هناك»(١).

وقد ذكره فى موضع آخر وأحال القارىء عليه فقال: «وقد وضعت كتيبا وسميته بفض الختام عن التورية والاستخدام أوضحت فيه هذين النوعين؛ فمن أراد الوقوف على ذلك فلينظره لعله يظفر منه ببعض مراده»(٢).

٤- جنان الجناس:

وقد أخذ الصفدى عن هذا الكتاب، ونصَّ على ذلك مرتين، وأخذ عنه مرة ثالثة دون أن ينصَّ على ذلك، أما أولى المرتين اللتين نص فيهما على اسم الكتاب فقد كانت فى معرِض الحديث عن قول أبى الفتح البستى:

عَوِّل على رأيِه إذا حزبتْ ... نائبةٌ مِن نوائب الزَّمَنِ
فليس فى الأرضِ مَعْقِلٌ أشِبٌ ... كرأيِه مِن كرائه المحن

حيث قال: «هذان الجناسان اللذان فى هذين المقطوعين من أنواع الجناس المرفوّ وهو أن يكون أحد ركنى الجناس مركبا من جزأين أولهما حرفٌ من حروف المعانى، وقد ذكرت ذلك مستوفًى فى كتابى المسمى جنان الجناس»(٣).

---

(١) الغيث المسجم جـ٢ ص ٥٠.

(٢) السابق نفسه جـ٢ ص ٣٠.

(٣) السابق جـ١ ص ٧٧.



وأما المرة الثانية التى نص فيها على اسم هذه الكتاب فقد كانت فى معرض الحديث عن الجناس المعنوى حيث قال: «وهذا النوع استدركه المتأخرون، وهو عندى باطل لأن هذا الباب إذا فتحناه كان غالب الشعر جناسا معنويا، وقد أشبعت القول على هذا فى مكانه من كتابى المسمى جنان الجناس»[1].

وأما الموضوع الذى نقل فيه عن جنان الجناس دون أن يشير إلى ذلك فقد كان عند الحديث عن القلب حيث أورد قول الشاعر.

رَقَّتْ شَمائِلُ قاتِلِي فلِذَاكَ روُحِي لا تَقَرْ
رَدَّ الحبيبُ جوابَهُ فكأنه فى اللَّفْظِ دُرْ

ثم قال «وسميت أنا هذا النوع مجنح القلب، وفى هذه التسمية تورية مطبوعة، وقد فكرت فى هذين البيتين فوجدت الكلمة الأولى ثلاثية والثانية ثنائية فقلت: لو اتفقت الكلمتان فى العدد لكان أكمل فى الصناعة فامتحنت الخاطر بنظم شىء فى هذا النوع كاملا ففتح الله علىَّ بالمطلوب عاجلاً فقلت فى الوزن والرَّوِىّ:

رَضَّتْ فؤادِيَ غادةٌ ما كنتُ أحْسَبُهَا تَضُر
رَدَّتْ رَسُولِي خائِبًا فَمَدَامِعِي أبداً تُدِر»[2]

وهذا الكلام مأخوذ بنصه من جنان الجناس[3] مع تصرف يسير فى العرض وكتابة الفكرة.

٥- التعليقة على الحاجبية:-

وهو كتاب من كتب الصفدى النحوية، وقد أحال قارئه على مباحثه خمس مرات فى ثنايا الشرح النحوى لأبيات اللامية.

الأولى: عند حديثه عن مسألة العامل وأقوال العلماء فى رافع المبتدأ والخبر حيث قال: «وقد استوفيت هذه المسالة فى تعليق لى على الحاجبية[4]».

---

(١) السابق نفسه جـ١، ص ٢٨٥.

(٢) السابق جـ٢، ص ٤٥٧.

(٣) جنان الجناس ص ٧٥.

(٤) الغيث المسجم ج ١ ص ٦٨.







والثانية: عند الحديث عن اختلاف آراء العلماء فى ناصب المفعول به حيث تحدث عن رأى سيبويه فى هذه المسألة، كما عرض لمذهب ابن هشام فيها ودحضه، ثم عرض رأى الفراء فى هذه القضية، و كذلك عرض رأى الأخفش ووهَّنه ثم قال: «وقد أشبعت القول على ما يتعلق بهذا فى التعليق على الحاجبية[1]».

الثالثة: عند الحديث عن الممنوع من الصرف حيث قال: «وبالجملة ففى باب ما لا ينصرف مباحث دقيقة استوفيتها فى التعليقة على الحاجبية من أول الباب إلى آخره[2]».

الرابعة: عندما تحدث عن اختصاص الفاعل بالرفع لأوَّليته وقوته وقلته، واختصاص المفعول بالنصب لتأخيره وضعفه و كثرته؛ حيث عرض هذه القضايا وضرب لها أمثلة توضحها ثم قال: «وهذه المباحث ملخصة مما ذكرته فى التعليقة على الحاجبية[3]».

الخامسة: وذلك فى معرض الحديث عن حروف النداء حيث ذكرها وبين استخداماتها المختلفة ثم تحدث عن قول النحاة «إن الكلام لا يتركب من اسم وحرف» واعترض على ذلك لأن قولنا يا زيد كلامٌ بإجماعهم وهو يتركب من اسم وحرف، وأخذ يورد آراءهم فى هذه المسألة ثم قال: «وقد استوفيت البحث فيه فى أول التعليقة على الحاجبية[4]».

٦- مباحث فى الواو: -

وهى عبارة عن عدد من البحوث فى حرف الواو واستخداماته المختلفة فى العربية، قد جمعها المؤلف ورتبها وبوّبها ونقل منها فقرات فى الغيث ولم يثبتها كاملة وذلك حتى لا يطيل حبل الكلام وقد قال عنها: «ففى الواو مباحث جليلة جمعتها فى كراسة أضربت عن إثباتها هنا خوفًا من الإطالة[5]».

---

(١) السابق نفسه جـ١، ص ٢٣٣.
(٢) السابق نفسه جـ١، ص ٣٠٦.
(٣) السابق ج ٢ ص ١١.
(٤) السابق ج ٢ ص ٣٨٠.
(٥) السابق ج ١ ص ٧١.



ولنا أن نزعم أن الصفدى وقد أشار إلى هذه الكراسة قد فعل الشىء الذى يفعله أساتذتنا وباحثونا الآن حين يؤلفون بحوثهم وكتبهم؛ فقد يكون لأحدهم بحث أو مقالة فى موضوع الكتاب المؤلف أو بعض أجزائه ومن ثم فهم يشيرون إليها ويحيلون القارىء عليها.

٧- رسالته فى البشارة بالنيل: -

وكما كانت مؤلفات الصفدى مصادر استعان بها فى تأليف الغيث، كانت رسائله الأدبية أيضا من أهم هاتيك المصادر، ونستطيع أن ندلل على ذلك بهذا النص الذى أورده فى ثنايا شرحه لمعنى قول الطغرائى «رضى الذليل بخفض العيش مَسْكَنَةٌ» البيت من رسالته التى كتبها فى البشارة بالنيل حيث يقول: «وكتبت أنا فى البشارة بالنيل كتابا جاء منه: «فلو خاصم النيلُ مِياهَ الأرض لقال: عندى قبالة كل عين إصبع، ولو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل، وأنا بالملق أطبع، والنيل له الآياتُ الكبر، وفيه العجائبُ والعبر، منها وجودُ الوفاء عند عدم الصفاء، وبلوغ الهَرم إذا احتدَّ واضطرم، وأمنُ كل فريق إذا قُطع الطريق، وفرح قُطّان الأوطان إذا كسروا الماء كما يقال سلطان، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه، وهو أنه فى هذا العام المبارك جذب البلاد من الجدب، وخلصها بذراعه وعصمها بخنادقه التى لا تراع من تراعه، وحصنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه، وما هى إلا عمد تحت قلاعه، وراعَى الأدب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا فى كل يوم بخبر قاعه فى رقاعه، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعا، وأقبلت سوابق الخيرات سِراعًا، وفتح أبواب الرحمة بتغليقه، وجَدَّ فى طلب تحليقه، تضرَّع بمد ذراعه إلينا، وسلَّم عند الوفاء بأصابعه علينا، ونشر علمَ سيره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره، فرسمنا بأن يحلق، ويعلم تاريخ هنائه ويعلق، فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوجُ موجه، ويُهِيلُ كثيبَ سدهُ هولُ هَيْجِه، ودخل يدوس زرابِى الدور المبثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسى قناطره المنكوسة، وعلاه زبد حركته ولولاه لظهرت فى باطنه مِن بدور أناسه أشعتها المعكوسة، وبشّر بِركةَ الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المنحدر فى السلاسل والأغلال، وازدحمت فى عبارة شكره أفواج الأفواه، وملأ أكف الرجاء بأموال الأمواه، وأعلمَ الأقلامَ بعجزها

عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طلائعه بالطلائع التى نزلت بركاتها من الله تعالى على العباد[1]».

هذا هو الجزء الذى أورده الصفدى فى ثنايا شرحه لبيت الطغرائى «رضى الذليل بخفض العيش مَسْكَنَةٌ» من رسالته فى البشارة بالنيل ولعله لطوله يدل على أن رسائل الصفدى كانت من أهم المصادر التى اعتمد عليها فى تأليف الغيث.

**٨- نصرة الثائر على المثل السائر:-**

وهذا كتاب من كتب الصفدى النقدية التى رجع إليها فى أثناء تأليفه للغيث، وأخذ عنه وأحال القارىء عليه، وهو كما يدل عليه عنوانه فى الانتصار لابن أبى الحديد والرد على ضياء الدين ابن الأثير، وتفنيد ما ذهب إليه فى كتابه «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» من آراء.

وما نقله الصفدى من نصوص هذا الكتاب وأورده فى تضاعيف الغيث فيه تحاملٌ شديد على ابن الأثير، بل فيه سبٌ صريح له، وقد وقف الصفدى معارضا لآرائه ومخالفا لها، وما عاب ضياء الدين رسالة إلا حسنها الصفدى ومثال ذلك حيث أورد الصفدى قول القاضى الفاضل من رسالة «ووصلنا حصن كوكب، وهو نجم فى سحاب، وعقاب فى عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة[2]» حيث عقب الصفدى على هذا الكلام بقوله: «قلت: ما أحسن هذا التخيل، وألطف هذه الاستعارات[3]» ثم ذكر موقف ابن الأثير منها وردَّه عليه فقال: «وقد عاب ضياء الدين بن الأثير هذا الفصل فى المثل السائر وأجبتُ عنه فى كتابى المسمى بنصرة الثائر على المثل السائر[4]».

وفى الجزء الثانى من الغيث أنكر الصفدى على ابن الأثير الكثير، واتهمه بأنه «تصور الخطأ صوابا ثم أخذ يتبجح[5]» وكان ذلك فى معرض الحديث عن (أنْ)

(١) الغيث المسجم ج ٢ ص ٧٥، ٧٦.

(٢) السابق ج ١ ص ٢٩٥.

(٣) السابق نفسه ص ٢٩٥.

(٤) السابق نفسه ص ٢٩٥.

(٥) السابق ج٢ ص ١٨٦.

وأنها قد تكون مفسِّرة، وقد تكون زائدة، وقد تكون مصدرية؛ حيث تطرق الحديث لتفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ [يوسف:٩٦] وأورد رأى ابن الأثير فى فهم الآية وكيف أنه أخطأ فى فهم معنى (أن)، وأورد كلامه فى الفخر بنفسه والاعتداد بها وكيف أنه استطاع أن يصل إلى ما لم يصل النحاة إليه، وعقَّب الصفدى على ذلك كله بقوله: «ولابن الأثير من هذه الشناعات على النحاة وغيرهم أشياء أجبت عنها فى كتاب نصرة الثائر على المثل السائر[1]».

* * *

هذا ما اعتمد عليه الصفدى فى تحرير الغيث من كتبه ومؤلفاته، وبقى أن أشير إلى أنه كما كانت كتب الصفدى السابقة على الغيث مصدرا من مصادر الغيث كان الغيث نفسه منطلقا انطلق منه الصفدى لتأليف نكت الهميان حيث قال فى خطبة هذا الكتاب: «وجرى يوما فى بعض اجتماعاتى بجماعة من الأفاضل ذكر فصل استطردت بذكره فى شرح لامية العجم ذكرت فيه جماعة من أشراف العميان فقال لى بعض من كان حاضرا: لو أفردتَ للعميان تصنيفا تخصهم فيه بالذكر لكان ذلك حسنا، فحدانى ذلك الكلام، وهزت عطفى نشوة هذه المدام، على أن عزمت على جمع هذه الأوراق فى ذكر من أمكن ذكره، أو وقع إلىَّ خبره، وسميته نكت الهميان فى نكت العميان[2]».

ب- **وقد كان من جملة مصادر الصفدى فى تحرير الغيث وتأليفه عدد من الكتب التى ذكر أسماء مؤلفيها ولم يذكر أسماءها،** وعدد آخر من الكتب أغفل الإشارة إلى أسماء مؤلفيها مثلما أغفل الإشارة إلى ذكر أسمائها ومن هذه الكتب جميعها ما نقل الصفدى عنه فى الشرح، ومنها ما استفاد منه وأرشد إليه دون أن ينقل عنه.

أما تلك الكتب التى ذكر الصفدى أسماء مؤلفيها ولم يذكر أسماءها ونقل عنها فكثيرة ومتنوعة فى موضوعاتها فمنها ما كان فى **علوم الأوائل كالكيمياء والفلسفة الأرسطية** فعند الحديث فى أول الغيث عن الكيمياء نقل نصا عن ابن باجه الأندلسى دون أن يذكر اسم الكتاب الذى نقل عنه وذلك حيث يقول: «وحكم أبو بكر بن

(١) الغيث المسجم ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) نكت الهميان ص ٥ خطبة الكتاب.



الصائغ المعروف بابن باجة الأندلسى فى بعض تعاليقه عن الشيخ أبى نصر الفارابى أنه قال: قد بين أرسطوطاليس فى كتبه فى المعادن أن صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان إلا أنها من الممكن الذى يعسر وجوده بالفعل اللهم إلا أن تتفق قرائن يسهل بها الوجود[1]».

ومنها ما كان فى الأدب؛ فقد نقل نصا من كتاب أنشأه شهاب الدين محمود فى وصف الخيل دون أن يذكر اسم الكتاب كاملاً يقول: «وقرأت على الشيخ الإمام القاضى شهاب الدين أبى الثناء محمود الكاتب كتابا أنشأه فى وصف الخيل جاء منه: لا يستمن داحس فى مضماره، ولا تطمع الغبراء فى شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرامى طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانيًا مِن عِطفه[2]».

ونقل نصًا آخر عن ابن خلكان دون أن يشير إلى اسم الكتاب الذى نقل عنه يقول «نقلت عن بعض مجاميع القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان قال: أنشدنى بعض الأدباء بيتا فى الجمَّال أبى الحسين الجزار وما عرفت قائله ولا بقية الأبيات المضافة إليه، فقلت لأبى الحسين ذلك، وقلت إن كنت تعرف ذلك فأنشدنى إيا وعرّفنى قائله فقال: وما البيت ؟ فأنشدته:

فليس يرجوهُ غيرُ كلبٍ ... وليس يخشاهُ غير تَيْسِ

فاستحسن ذلك، وجاءنى ثانى يوم فقال: قد عملتُ فى ذلك المعنى أبياتا وأنشد:

ألاَ قُلْ لِلَّذى يَسْأ ... لُ عَنْ قَومِى وَعَنْ أَهْلِى
لَقَدْ تَسْأَلُ عَنْ قومٍ ... كرامِ الفرعِ والأصلِ
يُرِيقُونَ دمَ الأنعَا ... مِ فى حَزنٍ وفى سَهلِ
وما زالوا لِما يُبْدُو ... نَ مِن بَأسٍ وَمِنْ بَذلِ
يُرَجّيهِم بنو كلبٍ ... ويخشاهم بنو عِجلِ[3]»

(١) الغيث المسجم جـ١، ص ٢١.
(٢) السابق نفسه جـ١، ص ٤١ - ٤٢.
(٣) الغيث المسجم جـ١، ص ١٠١.



ولقد نص الصفدى على انتهاء ما نقل من ابن خلكان بقوله: «انتهى ما نقلت[1]».

ومنها ما كان فى الدين فقد نقل نصا فى تفسير معنى الروح عن مصنف لكمال الدين بن الزملكانى حيث يقول: قال الشيخ الإمام العالم العلامة كمال الدين محمد بن الزملكانى فى مصنف له: قال القاضى عياض ما معناه: اختلف الناس فى الروح اختلافاً كثيراً لا يكاد ينحصر[2]».

وإذا كنا قد رأينا الصفدى يحدد نوع مصدره بقوله: «فى بعض تعاليقه» أو بقوله: «فى مصنف له» فإنه فى بعض المواضع يذكر المؤلف والمعلومة دون أن يحدد مصدرها ودون أن يبين نوعه أو حتى يشير إليه، كأن يقول مثلاً: «وقد رأيت للشيخ جمال الدين بن واصل كلاما على قول البهاء زهير:

يا مَن لَعِبَتْ به شَمولٌ ... ما ألطف هذه الشمائل

فقال فيها: إنها غير داخلة فى أبحُرِ العروض، وتابعه جماعة؛ والصحيح أنها من بحر الوافر[3]»

فهو هنا قد نقل كلاما تحدث به الشيخ جمال الدين بن و اصل، وزعم أنه رأى هذا الكلام مكتوباً فأين وجده ورآه؟ والأغرب من هذا والأعجب أنه ينقل عن مصادر أدبية فيما يزعم دون أن يذكر أسماءها ودون أن يذكر أسماء أصحابها كأن يقول مثلاً: «رأيت فى بعض المجاميع الأدبية أن السلطان صلاح الدين قال يوما للقاضى الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف، امض إليه وتفقد أحواله. فلما دخل القاضى الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها فى نفسه مثل آثار مجلس أنس وطيبة ورائحة خمر وآلات طرب، فأنشده:

ما ناصَحَتْكَ خبَايا الوُدِّ مِنْ رَجُلٍ ... ما لم يَنَلْكَ بمكروهٍ مِنَ العَذَلِ

مَحَبَّتِي فيك تأبَى أن تُسَامِحَنِي ... بأنْ أراكَ على شيءٍ مِنَ الزَّلَلِ

---

(١) الغيث جـ١، ص ١٠١.

(٢) السابق جـ٢، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٣) السابق جـ١، ص ٥٦، ٥٧.



فلما قام من عنده خرج العمادُ عن كل ما كان فيه ولم يَعُدْ إلى ذلك البتة[1]».

وفى موضع ثان يأتى الحديث أكثر تحديدا فيقول: «رأيت فى بعض المجاميع لبعض المغاربة:-

لستُ وجيهًا لدَى إلهى | هذا مَدَى دَهْرى اعتقادى
لو كنتُ وجيهًا لمَا بَرانى | فى عالَمِ الكَوْنِ والفَسادِ»[2]

جـ- والكتب التى أشار إليها واستفاد منها ولم يذكر أنه نقل عنها مباشرة كثيرة أيضا ومتعددة فى موضوعاتها وفنونها، ومنها ما أشار إلى أسماء مؤلفيها، ومنها ما أغفل الإشارة إلى أسماء مؤلفيها. وأول هذه الكتب رسالة يعقوب الكندى فى إبطال دعوى الذين يدعون صنعة الذهب و الفضة، وقد ذكر الصفدى هذه الرسالة فى أول الغيث، وقد وصفها بقوله: «جعلها مقالتين يذكر فيهما تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخدع أهل هذه الصناعة وجهلهم[3]» ووصف الصفدى الآثار التى أحدثَتها هذه الرسالة فى الأوساط العلمية وقتذاك فقال: «ورد عليه أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ردًا غير طائل[4]» . ولعل فى هذا الكلام ما يشير إلى قراءة الصفدى لهذه الرسالة ولِرَدِّ الرازى عليها.

وثانى هذه الكتب كان فى شرح لامية العرب للشنفرى الشاعر الجاهلى الصعلوك فقد عقد الصفدى فى أول الغيث فصلاً عن لامية الطغرائى وسبب تسميتها بلامية العجم وهو مضاهاتها للامية الشنفرى المسماة بلامية العرب ثم قال: «ورأيت لها شرحا حسنا تام المقاصد كثير الفوائد، وهو مجلد جيد[5]».

ولا شك عندى أن الصفدى قد قرأ هذا الشرح ووقف على ما به من علم وفن وأعجب بما جمع فيه مؤلفه من أخبار وأشعار وذلك لأنه وصفه بالحسن وكثرة الفوائد، ولقد أذهبُ إلى أبعد من ذلك فأزعم أنه من الممكن أن يكون الصفدى قد تأثر بهذا الكتاب وهو يؤلف الغيث.

---

(١) الغيث المسجم جـ١، ص ١٥٥.

(٢) الغيث المسجم جـ١، ص ٢٣٩.

(٣) السابق نفسه جـ١، ص ٢٢.

(٤) السابق نفسه جـ١، ص ٢٢.

(٥) السابق نفسه جـ١، ص٢٧.



ولم يعطنا الصفدى أية إشارة نتعرف بها على هذا الكتاب وصاحبه، وليس من جملة مصادر شرحه الأدبية أى كتاب فى لامية العرب أو شرحها الأمر الذى يجعل من محاولة التكهن بهذا الكتاب، والتعرف عليه ضربا من البحث عن المستحيل.

**وثالث هذه الكتب كان موضوعه ذكاء إياس بن معاوية،** فقد عقد فصلا فى أول الغيث تحدث فيه عن إياس وعن توليه قضاء البصرة فى عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز وعن ذكائه وفطنته ثم قال: «وقد جمع بعضهم مجلدا فى ذكاء إياس بن معاوية[1]».

ويبدو لى أن الصفدى لم ير هذا المجلد وبالتالى لم يأخذ عنه شيئا، وإنما دل القارىء عليه فحسب لأن الصفدى عودنا على منهج واضح وثابت يلتزمه من أول الكتاب إلى آخره فعندما يرى كتابا يقول: (ورأيت)، وعندما ينقل عن كتاب يقول (ونقلت)، وعندما يسمع اسم كتاب يقول (وسمعت)، وهو هنا لم يقل شيئا من هذا القبيل، وما حكاه لا يعدو أن يكون روايةً لخبر مشهور، فقد كانت العرب تضرب المثل بذكاء إياس وفطنته، وقطعًا كان هذا الذكاء وكانت هذه الفطنة ينبوعا ثرا لمن يريد أن يجمع نوادره، وقد عقد كثير من العلماء فصولا لذكاء إياس ضمنوها كتبهم المشهورة كما فعل الجاحظ فى الجزء الأول من البيان والتبيين[2] على سبيل المثال، وما رواه الصفدى فى الغيث عن إياس وذكائه إنما هو من قبيل رواية الأمور المشهورة بين الناس.

**ورابع هذه الكتب كان معجما لغويا جمع فيه صاحبه أسماء أعضاء الرجال والنساء على حروف المعجم** وقد كان معرض الحديث عن هذا الكتاب عند الشرح اللغوى لمعنى كلمة الكف فى قول الطغرائى «صفر الكف منفرد» حيث استطرد الصفدى لذكر أسماء أعضاء الإنسان التى يبدأ كل واحد منها بحرف الكاف ثم قال: «وقد

---

(1) السابق نفسه جـ1، ص ٨٤.

(2) البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هارون الجزء الأول مكتبة الخانجى بمصر الطبعة الرابعة سنة ٧٥ من ص ٩٨ إلى ص ١٠١.



رأيت أنا مجلدًا لم أعرف اسم مصنفه قد جمع فيه أسماء أعضاء الرجال والنساء على حروف المعجم[1]».

وفى هذا الموضوع دل على كتابين آخرين فى هذا المجال أحدهما لابن خالويه حيث قال: «ويقال إن ابن خالويه وضع مسألة سماها الأنطاكية اشتملت على ثلاثمائة عضو من أعضاء الإنسان أول كل كلمة منها كاف[2]» وثانيهما لم يذكر اسم مؤلفه حيث قال: «وأذكر أنى وقفت على فصل فيه تسمية أعضاء الإنسان بأسماء وحروف المعجم من أولها إلى آخرها[3]».

ولا أستبعد أن يكون الصفدى قد استفاد من هذين الكتابين اللذين رآهما ونقل عنهما شيئا مما ذكره فى هذا الباب، ولم يُعطنا الصفدى أية إشارة نتعرف بها على هذين الكتابين وصاحبيهما مما يجعل التكهن بهما أمرًا صعبا.

وخامس هذه الكتب كان فى علم المناظر وهو كتاب ابن الهيثم يقول الصفدى: «ولابن الهيثم فيه كتاب جليل رأيته فى سبع مجلدات[4]» وقد ذكر الصفدى هذا الكتاب فى معرض حديثه عن كذب الحس وغلطه، ولعلى لا أعدو الصواب إذا ادعيت أنَّ الصفدى قد أُتيحت له الفرصة لقراءة هذا الكتاب والوقوف على ما به من بحوث لأنه وصفه بأنه جليل.

وسادس هذه الكتب كان فى موضوع من أطرف موضوعات الموازنات الأدبية وهو المفاضلة بين الورد والنرجس فقد تحدث عن ابن الرومى ومخالفته للقياس، وتقبيحه للحَسَن وتحسينه للقبيح، وقد جره هذا للحديث عن تفضيله للنرجس على الورد ثم نقل كثيرًا من شعر الفحول فى تفضيل الورد على النرجس ثم قال: «وقد وضع بعضهم كتابا فى المفاضلة بين الورد والنرجس لأن الشعراء أولعوا بذلك فأطالوا وأطابوا، والمفاضلة بينهما ممكنة[5]»، ثم دلف من الحديث عن المفاضلة بين الورد والنرجس إلى الحديث عن مصنفات الأدباء فى المفاخرة بين السيف والقلم،

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١٢٧.
(٢) السابق نفسه جـ١، ص ١٢٧.
(٣) السابق نفسه جـ١، ص ١٢٨.
(٤) السابق نفسه جـ١، ص ١٤٣.
(٥) السابق جـ٢ ص ٢٦٨.



والدرهم والدينار وغيرها فقال: «كما صنف الفضلاء مفاخرة السيف والقلم، ومفاخرة الدرهم والدينار، ومفاخرة البخل و الكرم، ومفاخرة مصر والشام، ومفاخرة الشرق والغرب، ومفاخرة العرب والعجم، ومفاخرة النظم والنثر، ومفاخرة الجوارى والمردان، إذ كل ذلك يمكن فيه الإتيان بالحجة للجانبين، وأما مفاخرة المسك والرماد فما للعقل فى ذلك مجال، وما عسى البليغ أن يقول فى الرماد إذا فاخر المسك، وللجاحظ فى ذلك رسالة بديعة[1]».

ولا أعتقد أن الصفدى قد فاتته قراءة هذه المصنفات التى تحدث عنها؛ فهذا الحصر الدقيق لموضوعات المفاخرات فى الأدب العربى من جهة ووصفه لرسالة الجاحظ بالجمال والروعة الفنية من جهة أخرى دليلان يرجحان قراءة الصفدى لرسالة الجاحظ خاصة وسائر الرسائل الأخرى عامة.

وسابع هذه الكتب فى موضوع عجيب حقا، فقد كان يتحدث عن المشهور بين الأدباء فقال: «ومما اشتهر بين الأدباء قولهم: أخف من دينار يحيى.. وضرطة وهب[2]» وذكر نصين شعريين أحدهما لابن الرومى وثانيهما لابن قلاقس فى ضرطة وهب ثم قال: «**ولأحمد بن أبى طاهر مصنف فى الاعتذار عن ضرطة** وهب[3]» وامتد الحديث عن ضرطة وهب بعد أن دلنا على هذا المصنف صفحتين كاملتين مما يدل على أنه من الممكن أن يكون الصفدى قد استفاد شيئا من هذا الكتاب ضمنه هذا الحديث الطويل.

وأرانى فى هذا المقام أشير إلى اطلاع الصفدى الواسع على ما كتبه العلماء فى السيرة النبوية الشريفة، وفى شمائله «ﷺ»، وعلمه بمناهجهم فى تناول هذه الموضوعات وإشاراته إلى بعض الكتب التى تعد من أجود ما صنف فى هذا الباب وهذا كله أوحاه إلىَّ قوله بعد أن تحدث عن بعض صفاته «ﷺ» حيث قال: «قد دوَّن الناس جملة من صفاته وشمائله، ووضعوا كتبا كأنها رياض تتأرج بنسمات سماته، وأودعوها نكتا بُدُورُها فى التمام، ورصعوها جواهر تروق فى التأليف والانتظام، ......، وبوبوا ورتَّبوا ، وهذَّبوا وذهَّبوا، وذكروا ونصُّوا،

(1) الغيث المسجم جـ٢، ص ٢٦٨.

(2) السابق نفسه جـ٢، ص ١٠٥.

(3) السابق نفسه جـ٢، ص ١٠٦.






وخبروا وقصوا، وحبروا ودبجوا، وحكوا الصحيح وماروجوا، . . . . ، فما كتاب القاضى عياض إلا رياض، ولا الشمائل إلا خمائل ، ولا كتاب الدلائل، إلا فوائد جلائل، ولا الشهاب إلا مطفئ التهاب»[1].

وكل هذا التقريظ والثناء على هذه الكتب ومناهجها يدل دلالة ظاهرة على قراءة الصفدى لها وتأثره بها واستفادته منها فى كل ما أورده عن النبى ﷺ وحياته وغزواته وأخلاقه ومعاملاته فى الغيث.

وتفرض الأمانة العلمية على الصفدى أن يشير إلى مؤلفات الآخرين حتى ولو لم يرها، و قد فعل الصفدى ذلك مرتين الأولى عندما ذكر بيتى شهاب الدين أبى جلنك:

لِلَّهِ بستانٌ حَلَلْنَا دَوْحَهُ ... فى جَنَّةٍ قَدْ فَتَّحَتْ أبوابَهَا
والبانُ تحسَبُهُ سنانيراً رأت ... قاضى القضاة فنفشَتْ أذنابَها

ثم قال: «قيل إن الشيخ بدر الدين بن مالك أملى عليهما كراسة فى البديع ولم أرها»[2].

والثانية عند الحديث عن المعتزلة ومبادئهم حيث أورد أبيات الشافعى:

ما شِئْتَ كانَ وإنْ لم أشا ... وما شِئْتُ إن لم تَشَأْ لم يكُنْ
خَلَقْتَ العبادَ لِمَا قَدْ عَلِمْتَ ... ففى العلمِ يَجْرِى الفتى والمُسِنْ
فمنهم شقِىٌّ ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسَنْ
على ذا مَنَنْتَ وهذا خَذَلْتَ ... وهذا أعَنْتَ وذا لم تُعِنْ

ثم قال: «ويلغنى أن الإمام فخر الدين شرح هذه الأبيات فى مجلدة ولم أرها إلى الآن[3]».

د- الكتب والرسائل المكتوبة بأيدي أصحابها وخطوطهم:

وقد أثرى الصفدى الغيث بكثير من النصوص التى أخذها عن مصادر مكتوبة

---

(١) الغيث جـ١، ص ٢٧٤.
(٢) السابق نفسه ص ٤٧.
(٣) السابق جـ٢، ص ٥٣.



بأيدى أصحابها، وحينما نظرت فى هذه المصادر وجدت أكثرها مخطوطا لم ينشر إلى الآن، وتتنوع هذه المصادر تنوعا كبيرا؛ فمنها الديوان الشعرى كديوان السراج الوراق، وديوان مجير الدين محمد بن تميم، وديوان شمس الدين محمد بن العفيف التلمسانى، وديوان عبدالصمد بن بابك، ومنها الكتاب التاريخى كمجاميع شمس الدين بن خلكان، ومنها رسائل تبادلها علماء العصر وكتابه بعضهم مع بعض؛ كالرسائل التى تبادلها الصفدى مع أستاذه وشيخه جمال الدين بن نباتة.

**قائمة بأسماء العلماء والأدباء الذين نقل الصفدى عن أصول كتبهم المكتوبة بأيديهم فى الشرح:-**

١- سراج الدين الوراق[١].

٢- مجير الدين محمد بن تميم[٢].

٣- شمس الدين محمد بن العفيف التلمسانى[٣].

٤- القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر[٤].

٥- علاء الدين الكندى الوادعى [٥].

٦- القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان[٦].

٧- عماد الدين بن القيسرانى[٧].

٨- ناصر الدين حسن بن النقيب[٨].

(١) الغيث المسجم ج ١ ص ٤٦، ص ٥٨، ص ٦٣، ص ٧٢، ص ٧٣، ص ١٢٢، ص ١٤٥، ص ١٤٦، ص ١٥٠، ص ١٥٩، ص ١٦٠، ص ١٩٦، ص ٢٤٨، ص ٢٦٤، ص ٢٦٥، ص ٣٦٣، ج٢ ص ١٢٧، ص ١٤٦، ص ٢٠٦، ص ٢٢٠، ص ٢٣٩، ص ٢٤١، ص ٢٦٦، ص ٣٥١، ص ٣٥٢.

(٢) السابق نفسه ج ١ ص ٤٨، ص ١٢٢، ص ١٩٤، ص ٢٠٢، ص ٢٩٨، ج٢ ص ٤٠، ص ٧٠ ، ص ٢٦٨، ص ٤١١.

(٣) السابق نفسه ج١ ص ١١٩، ص ١٣٧، ص ٢٠٣، ص ٢٦٥، ص ٢٨٩، ص ٣٢٥، ج٢ ص ٢٢ ، ص ١٦٢، ص ٢١٧، ص ٤٣٢.

(٤) السابق نفسه ج ١ ص ٢٤٣، ص ٢٧٥، ص ٣٠٢، ص ٣٩٥، ص ٤٣٩، ج٢ ص ٢١، ص ١٣٩، ص ٢٠٣، ص ٢٠٦، ص ٣٧٦، ص ٣٨٧، ص ٤٥٥.

(٥) السابق نفسه ج١ ص ١٣٣، ص ٤٣٢، ج٢ ص ٧٤، ص ٢٠٨، ص ٣٣٩، ص ٤٥٦.

(٦) السابق نفسه ج٢ ص ٢٦، ص ١١٨، ص ١٣٤، ص ١٤٤، ص ٢١٨، ص ٤٣١.

(٧) السابق نفسه ج١ ص ١٦٩، ص ٣٨٥، ج٢ ص ٤١، ص ٩٤.

(٨) السابق نفسه ج ١ ص ٢٤٩، ج٢ ص ١٢٩، ص ١٣٠، ص ٢٣٨.






٩- المولى جمال الدين محمد بن نباتة[١].

١٠- الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن سليمان بن إبراهيم الطوخى الشافعى[٢].

١١- ابن خروف النحوى[٣].

١٢- القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود[٤].

١٣- القاضى زين الدين عمر بن الوردى[٥].

١٤- المولى بهاء الدين أبو بكر بن غانم[٦].

١٥- على بن ظافر[٧].

١٦- المولى صفى الدين الحلى[٨].

١٧- الإمام فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى[٩].

وإذا كان الصفدى قد نص على أنه أخذ ما روى فى الغيث عن خط هؤلاء العلماء فإنه أحيانا يخالف هذا النظام، وينقل نصوصا ولا يذكر اسم العالم أو الأديب الذى نقلها من خطه؛ كأن يقول «وما أحسن ما نقلت من خط بعض الفضلاء»:

بدا لى فى حلق الحواجبِ فتنة ... فقلتُ بعقلٍ ذاهلٍ فيه ذاهبِ
حبيبى بحقِ الله قُلْ لِى ما الذى ... دعاكَ إلى هذا فقال مجاوبى
وَعَدْتُ بِوَصْلِى للعاشقِينَ تعطفاً ... فلم يثقوا واسْتَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِى»[١٠]

وهو هنا لم يحدد الأديب الذى نقل من خطه هذا النص أو هذه الأبيات ومن ثم

---

(١) السابق نفسه ج٢ ص ٤٠٧، ص ٤٢٩، ص ٤٦١.

(٢) السابق ج١ ص ٦٢.

(٣) الغيث المسجم ج١ ص ٢٨٧، ج٢ ص ٣٩٤.

(٤) السابق ج١ ص ٣٢٨، ص ٣٨٧.

(٥) السابق ج ١ ص ٣٨٢، ج٢ ص ١٢٠.

(٦) السابق ج ٢ ص ١٧٦.

(٧) السابق نفسه ج٢ ص ١٩٠.

(٨) السابق ج ٢ ص ٢٠.

(٩) السابق نفسه ج٢ ص ١٧٠.

(١٠) السابق نفسه ج٢ ص ٣٤٧.



فقد أصبحت هذه الأبيات مجهولة النسبة مثلها فى هذا مثل عدد كثير جدا من الأشعار التى أوردها فى الغيث دون أن ينسبها الى أصحابها، فقد تعوّد الصفدى أن يقول: «وأنشدت.. قول القائل»[1] وكثيرا ما يقول: «وما أحسن قول القائل»[2] ويقول: «وقال الآخر»[3] أو «وقال آخر»[4] دون أن يحدد القائل، ومن ثَمَّ تبقى الآثار الشعرية دون نسبة إلى أصحابها، وهو فى هذا يجرى على نمط أهل عصره فى التأليف والكتابة وجمع الآثار الأدبية؛ إذ كانوا كثيرا ما يستخدمون مثل هذه التعبيرات المبهمة التى لا تشير إلى صاحب النص الأدبى، ولقد قمت بعمل إحصاء للنصوص الشعرية التى وردت فى الغيث بجزأيه دون أن ينسبها إلى أصحابها فكان مجموعها ٦٢٧نصا كان نصيب الجزء الأول منها ٣٠٨ ونصيب الجزء الثانى ٣١٩ نصا.

## الكتب المشهورة (*):

وقد اعتمد الصفدى على عدد كبير من الكتب المشهورة، وقد بلغ عدد هذه الكتب ثمانية وتسعين كتابا وتنوعت تنوعا كبيرا فى موضوعاتها؛ حيث كان منها الكتاب الأدبى ، والكتاب اللغوى والكتاب التاريخى، والكتاب النحوى، والكتاب الدينى، والكتاب النقدى، والكتاب البلاغى، وسوف أورد فى الصفحات الآتية قوائم بأسماء هذه الكتب، وسأحيل فى الهوامش إلى أرقام الصفحات التى استعان فيها الصفدى بهذه الكتب[5].

### أ- مصادر الشرح الأدبية:-

١- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى الكاتب[6].

٢- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى[7].

---

(١) الغيث المسجم ج ١ ص ٢٤ على سبيل المثال.

(٢) السابق نفسه ج١ ص ٣٨ على سبيل المثال.

(٣) يراجع على سبيل المثال السابق نفسه ج١ ص ٩٩، ٢٨.

(٤) يراجع على سبيل المثال السابق نفسه ج١ ص ١٢٩.

(*) أعنى بكلمة «المشهورة» المعروفة ذائعة الشهرة بين يدى الأدباء وبعض هذه الكتب نشر حديثا نشرات محققة وأخرى غير محققة وبعضها لا يزال مخطوطا.

(٥) لقد رتبت الكتب فى هذه القائمة وما يليها من قوائم حسب ورودها فى الغيث واستفادة الصفدى منها.

(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث المسجم ج ١ ص ١٧.

(٧) يراجع على سبيل المثال السابق ج١ ص ٢٥، ص ٩٩، ص ٢٣٥، ص ٣٣٣، ص ٣٩٠، ص ٤٤٨ ج ٢ ص ١٧٩، ص ٢١٥، ص ٢٢١، ص ٤٠٢، ص ٣٦٧.



٣- رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى[١].

٤- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام[٢].

٥- أسنى المنائح فى أهنى المدائح لشهاب الدين أبى الثناء محمود[٣].

٦- اختيار شعر مسلم بن الوليد للخالديين[٤].

٧- التذكرة لابن حمدون البغدادى[٥].

٨- منح المدح لابن سيد الناس اليعمرى[٦].

٩- بشرى اللبيب بذكرى الحبيب لابن سيد الناس اليعمرى[٧].

١٠- الألفية فى الألغاز المخفية لغرس الدين أبى بكر الإربلى[٨].

١١- كتاب الأذكياء لابن الجوزى[٩].

١٢- كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى[١٠].

١٣- مصارع العشاق لأبى محمد جعفر بن أحمد بن السراج[١١].

١٤- الجليس والأنيس لأبى الفرج المعافى بن زكريا[١٢].

١٥- شرح المقامات للمسعودى[١٣].

١٦- كتاب الأزمنة للمبرد[١٤].

١٧- ديوان ابن الفارض[١٥].

١٨- مقامات بديع الزمان[١٦].

١٩- رسالة ابن عبدالظاهر فى بشارة النيل[١٧].

٢٠- المطارحة لابن اياز النحوى المتوفى ٦٨١هـ[١٨].

---

(١) يراجع على سبيل المثال السابق نفسه ج ١ ص ٢٩.

(٢) يراجع السابق ج ١ ص ١١٣.

(٣) يراجع السابق ١/ ١١٤.

(٤) السابق نفسه ج ١ ص ٢٣٥، ج ٢ ص ٢٧٨، ص ٣١٨.

(٥) السابق جـ١ ص ٢٤٥.

(٦) السابق جـ١ ص ٢٧٦.

(٧) السابق جـ١ ص ٢٧٦.

(٨) السابق جـ١ ص ٢٨٤.

(٩) السابق جـ١ ص ٣٩٠، جـ٢ ص ٤٠٤.

(١٠) السابق جـ١ ص ٤٣٠.

(١١) الغيث المسجم جـ١ ص ٤٣٠.

(١٢) السابق جـ١ ص ٣٤، جـ٢ ص ١٢٣، ص١٣٣، ص١٦٥.

(١٣) السابق جـ١ ص ٨٣، ص٨٤، جـ٢ ص٢٠١.

(١٤) السابق جـ٢ ص ٥٩.

(١٥) السابق جـ٢ ص٦٤.

(١٦) السابق جـ٢ ص ٦٨.

(١٧) السابق جـ٢ ص ٧٥.

(١٨) السابق جـ١ ص٨٧، وراجع كشف الظنون ٢/ ١٧١٤.



٢١- العقد الفريد لأبى عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى[١].

٢٢- روائع الوقائع لأسعد بن مماتى[٢].

٢٣- رسالة ابن سينا فى العشق[٣].

٢٤- كتاب الحلى للأصمعى[٤].

٢٥- الأجوبة المسكتة لابن عبد ربه[٥].

٢٦- مقامات الحريرى[٦].

٢٧- نظم السلوك فى وعظ الملوك لأبى بكر بن اللبانة[٧].

٢٨- مجانى العصر لأثير الدين أبى حيان الغرناطى[٨].

٢٩- فتوى الفتوة ومرآة المروة لجمال الدين الوطواط[٩].

٣٠- آمالى ابن الشجرى[١٠].

٣١- ديوان الأسعردى[١١].

٣٢- المستقصى فى أمثال العرب لجار الله الزمخشرى[١٢].

٣٣- المهذب لأبى اسحاق[١٣].

٣٤- كتاب الفرج بعد الشدة للقاضى أبى على التنوخى[١٤].

---

(١) الغيث المسجم جـ٢ ص ٢٠١.

(٢) السابق جـ٢ صـ١٩٥.

(٣) الغيث ١/٤٢٧.

(٤) السابق جـ٣ صـ٢٣٥.

(٥) السابق جـ٢ صـ٢٣٦.

(٦) السابق جـ٢ صـ٢٦٦، صـ٤٥٦.

(٧) السابق نفسه جـ٢ صـ ٢٩٧ وما بعدها.

(٨) السابق نفسه جـ٢ صـ ٣٥٣.

(٩) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٣٥٣

(١٠) السابق نفسه جـ٢ صـ ٤١٧.

(١١) السابق جـ١ صـ٣٣٥ على سبيل المثال.

(١٢) السابق جـ٢ صـ٤٣٨.

(١٣) السابق جـ٢ صـ٨٩.

(١٤) السابق ٢/٤١٣.






ب- مصادر الشرح النقدية والبلاغية:

١- البيان والتبين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[١].

٢- المثل السائر فى أدب الكاتب الشاعر لابن الأثير الجزرى[٢].

٣- المنصف لابن وكيع التنيسى[٣].

٤- تعليقة ابن جبارة على شعر ابن سناء الملك[٤].

٥- حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين أبى الثناء محمود[٥].

٦- الأنموذج لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى[٦].

٧- أسفار الصباح لبدر الدين بن النحوى[٧].

٨- أجناس التجنيس لأبى الوفا صادق بن كامل[٨].

٩- الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد[٩].

١٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى[١٠].

جـ- مصادر الشرح اللغوى والنحوية:

١- كتاب الصحاح للجوهرى[١١].

---

(١) السابق جـ١ صـ٧٤.

(٢) السابق جـ١ صـ ١٥٧، صـ ١٨٥، ـ٢٤٥،صـ٢٤٩، صـ ٣٠٥، صـ٣٨٦، صـ ٣٨٦، صـ ١٨٦، صـ ١٨٧ على سبيل المثال.

(٣) السابق جـ١ صـ١٨٦، جـ٢ صـ١٩ على سبيل المثال، صـ١٣٩.

(٤) السابق جـ١ ص ـ٢٠٩، صـ٤٠١، صـ٤٣٨، جـ٢ صـ١٨،صـ٣٠٩، صـ٣٧١ على سبيل المثال.

(٥) السابق جـ١ ص ٢٦٢، صـ٢٨٣ على سبيل المثال.

(٦) السابق جـ١صـ ٣٨١.

(٧) السابق جـ٢ صـ ٢٩.

(٨) السابق جـ٢صـ ٣٠٢.

(٩) السابق جـ١ صـ٣٠٤، صـ٣١٩ على سبيل المثال.

(١٠) السابق نفسه جـ١ صـ٣٥٦ ويسميه الصفدى كتاب طبقات الشعراء.

(١١) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١صـ٩١، صـ٢٣٤،صـ٣٦٦.



٢- المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها لابن جنى[١].

٣- درة الغواص فى أوهام الخواص لأبى محمد القاسم بن على الحريرى[٢].

٤- التنبيه على حدوث التصحيف للأصفهانى[٣].

٥- شرح اللمع للأصفهانى[٤].

٦- أسرار العربية لابن الأنبارى[٥].

٧- المحكم فى اللغة لأبى الحسن بن سيدة[٦].

٨- إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى[٧].

٩- الخلاصة لجمال الدين بن مالك[٨].

١٠- المقدمة لجمال الدين بن الحاجب[٩].

١١- شرح التسهيل لجمال الدين بن مالك[١٠].

١٢- شرح الخلاصة لبدر الدين بن مالك[١١].

١٣- التعليقة على المقرب لابن النحاس[١٢].

١٤- الكتاب لسيبويه[١٣].

١٥- كتاب الأزمنة للمبرِّد[١٤].

---

(١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٠٩، صـ٢٣٨.
(٢) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٣٣٢، جـ٢صـ٧٢، صـ٨٠، صـ١٣٨، صـ١٤٢.
(٣) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ١٤٦.
(٤) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٤٠٩.
(٥) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ٢٠١.
(٦) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ٣٨٩.
(٧) يراجع على سبيل المثال جـ١صـ١١٠، جـ٢ صـ٢٠٢.
(٨) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٤٩، صـ٤٣٤.
(٩) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٨٠.
(١٠) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٢١٣، صـ٤٣٤.
(١١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٢٧٠، وجـ٢ ٤٣٤.
(١٢) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٣٧١.
(١٣) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ٣١٠.
(١٤) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ٥٩.



١٦- المذكر والمؤنث لابن السكيت[١].

١٧- شرح الجمل لابن عصفور[٢].

١٨- سفر السعادة لعلم الدين السخاوى[٣].

١٩- المحرر لفخر الدين الرازى[٤].

د- مصادر الشرح التاريخية:

١- وفيات الأعيان للقاضى شمس الدين أحمد بن خلكان[٥].

٢- نصرة الفطرة وعصرة القطرة للعماد الأصفهانى الكاتب[٦].

٣- كتاب الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير[٧].

٤- المستوفى تاريخ إربل لأبى البركات[٨].

٥- التاريخ الكبير لشمس الدين الذهبى[٩].

٦- كتاب المغازى لشمس الدين الذهبى[١٠].

٧- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى[١١].

٨- مروج الذهب للمسعودى[١٢].

٩- تاريخ حلب لابن أبى طى[١٣].

١٠- مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب لجمال الدين بن واصل[١٤].

---

(١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٤١٠.

(٢) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ٣٧.

(٣) يراجع على سبيل المثال ١/ ٣٧١.

(٤) يراجع على سبيل المثال ١/ ١٥١.

(٥) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ١٦، جـ٢ صـ١٢٤، صـ٢٩٦، صـ٤١١.

(٦) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٦.

(٧) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ١٧.

(٨) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ١٦.

(٩) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٨٤، صـ١٠٨، صـ ٥٧٣، صـ ٣٣٩، جـ٢ صـ١٩٤.

(١٠) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٤٣.

(١١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٨٤.

(١٢) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ٩٤.

(١٣) يراجع بالغيث على سبيل المثال جـ٢ صـ ١٢٣.

(١٤) يراجع على سبيل المثال جـ٢ صـ ١٣٤، صـ ٣٠٧.



هـ- مصادر الشرح الدينية:

١- الموطأ للإمام مالك بن أنس[١].

٢- طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار[٢].

٣- مراتب الإجماع للإمام ابن حزم[٣].

٤- الروضة للإمام محى الدين النووى[٤].

٥- أنوار البروق لشهاب الدين القرافى[٥].

٦- تأسيس التقديس لفخر الدين الرازى[٦].

٧- الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى[٧].

٨- مغيث الخلق فى اختيار الأحق للإمام الجوينى[٨].

٩- الكشاف لجار الله الزمخشرى[٩].

١٠- صحيح الإمام مسلم[١٠].

١١- سنن ابن ماجه[١١].

١٢- سنن الدارقطنى[١٢].

١٣- المهذب لأبى إسحاق الشيزارى[١٣].

١٤- مفاتيح الغيب للرازى[١٤].

---

(١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٦٧.

(٢) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ٨٠.

(٣) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ١٣٧.

(٤) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ١٦٦.

(٥) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ١٧٥، صـ ٣٥٤، جـ٢ صـ ١٣٤.

(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٢١٩.

(٧) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٢٤٧.

(٨) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ١٢٤.

(٩) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٣٢٤، ٣٩٩.

(١٠) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ١٦٦، صـ ٣٦٥.

(١١) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٣٦٥.

(١٢) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ١٦٦.

(١٣) الغيث ٢/٨٩. (١٤) الغيث ٢/٢٦.






و- مصادر الشرح العلمية:

١- المباحث المشرقية لفخر الدين الرازى [١].

٢- نخب الذخائر فى أحوال الجواهر لابن ساعد الأنصارى[٢].

٣- الشفاء للشيخ الرئيس أبى على بن سينا[٣].

٤- حلية البرء لجالينوس[٤].

٥- الطب الكبير لفخر الدين الرازى[٥].

٦- الاستبصار فيما تدركه الأبصار لشهاب الدين القرافى[٦].

٧- التذكرة فى الهيئة لنصير الدين الطوسى[٧].

٨- رسالة ما ذكره فاضل بن ناطق عن الرجل المسمى بكامل لعلاء الدين بن النفيس[٨].

٩- السِّر المكتوم للرازى[٩].

١٠- رسائل إخوان الصفا [١٠].

١١- كشف الحقائق لأثير الدين الأبهرى[١١].

هذا عدا ما رجع إليه من:

١- **دواوين الشعراء على اختلاف عصورهم وتباين اتجاهاتهم الفنية**، ولقد قمت بعمل إحصاء للنصوص الشعرية الواردة فى الغيث فكانت فى جملتها ٢٥٨٣ نصا، وكان جملة المنسوب فيها إلى أصحابه ١٩٥٦ نصا ينتظم الجزء الأول منها ٩٤٥ نصا وينتظم الجزء الثانى بقية هذه النصوص وعددها ١٠١١ نصا، وهو عدد كبير بلا ريب، ولا يمكن أن يكون الصفدى قد رجع فى كتابة كل هذا الكم

(١) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ ١ صـ ٢٠، ١٤٠.
(٢) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٩٤.
(٣) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٢٤٨.
(٤) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٢٤٦.
(٥) يراجع على سبيل المثال جـ١ صـ ٢٧٧، ٣٢٠.
(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٣٤٠.
(٧) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢/ ٢٥٧.
(٨) يراجع على سبيل المثال الغيث ٢/ ٤١٤.
(٩) يراجع على سبيل المثال الغيث ٢/ ٢١٢
(١٠) يراجع الغيث ٢/ ٢٥٧.
(١١) يراجع الغيث ١/ ٢٥٠.






الشعرى وتسجيله فى الغيث إلى الذاكرة وحدها، أو إلى كتب الأدب الجامعة وحدها، والمعقول المقبول هنا أن يكون الصفدى قد رجع إلى ذاكرته، وإلى كتب الأدب الجامعة، وإلى دواوين هؤلاء الشعراء جميعا؛ لأننى باستعراضى لقائمة مصادره الأدبية وجدت أن معظم كتب الأدب الجامعة التى رجع إليها تنحو منحى متخصصا بعض التخصص، وحقا منها ما يهتم بالأدب فى العصور الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية؛ ككتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، ومنها ما يهتم بالأندلس وآثار الأندلسيين؛ ككتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ومنها ما يهتم بأدب العصور الوسطى الإسلامية فى بيئات متعددة كإيران ومصر والشام وغيرها؛ ككتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى الكاتب، على حين قد روى الصفدى لشعراء كثيرين فى العصور الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية ولشعراء الأندلس وغيرهم من مثل امرئ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبى سلمى والأعشى والشنفرى من شعراء العصر الجاهلى، والخنساء، وحسان بن ثابت من المخضرمين، وذى الرمة وبشار وأبى نواس وابن المعتز وأبى دلامة وأبى تمام والبحترى وأبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى من الأمويين والعباسيين، وابن خفاجة وابن عمار وابن اللبانة والمعتمد بن عباد وابن زيدون وابن هانئ وابن حمديس الصقلى من الأندلسيين والمغاربة، وابن حيوس وابن التعاويذى وابن قلاقس وابن مطروح وابن سناء الملك وأبى الحسين الجزار وغيرهم من شعراء الفاطميين الأيوبيين والمماليك.. إلخ.

وطبيعى أن كتب الأدب الجامعة لا تستقصى كل ما للشعراء من شعر؛ وإنما تمثل لمتجهاتهم الفنية ببعض النماذج التى تدل عليها فحسب ومن ثم فلا استبعد أن يكون الصفدى قد رجع إلى كثير من دواوين هؤلاء عند تأليفه للغيث وتسجيله لشعرهم فى ثنايا شرحه لأبيات اللامية وأخذ بعضها من كتب الأدب.

٢- **رسائل الكتاب**: على اختلاف عصورهم وتباين منازعهم ومتجهاتهم الفنية أيضا، فقد اكتظ الغيث بعدد كبير من نصوص هذه الرسائل الأدبية بشقيها الديوانى والإخوانى، فقد أشار الصفدى فى أكثر من موضع إلى رسائل الجاحظ، ونقل نصوصا من رسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب، وبديع الزمان الهمذانى، والصاحب بن عباد، وأبى العلاء المعرى، والقاضى الفاضل، وابن سناء الملك، ومحيى الدين بن عبد الظاهر، وجمال الدين محمد بن نباته وغيرهم.



فمن الرسائل الديوانية تلك الفقرة التى أوردها الصفدى من رسالة كتبها القاضى الفاضل لصلاح الدين الأيوبى يصف حصنا للفرنجة(١) أشعل فيه الجيش الإسلامى النيران حيث يقول: «وبات الناس(٢) مطيفين بالحصن والنيران به(٣) وعليهم مشتملة، وعذبات ألسنتها على وجهه مندلة(٤)، ومن خلفه مسبلة(٥)، ولفحاتها جهنمية(٦) وقودها الناس والحجارة، والبلاء ينادى طبرية بلسان مصابها: إياك أعنى واسمعى يا جارة(٧)، فولجت النار موالج تضيق عنها الفكر(٨)، وتعجز عنها الإبر، وخولف المثل فى أن السعادة تلحظ(٩) الحجر، وأغنى ضوء نهارها سواد كل بقعة أن يسأل هذا أو ذا ما الخبر(١٠)، إلى أن(١١) بدا الصباح وكأنه منها أمتار(١٢)، وانشق الشرق وكأنه من عصفرها صبغ الإزار، وسرى داء النقوب إلى المعاقل، ودب سكرها بين المفاصل، وغدت الجدران قائمة، والبلى سار فى أعقابها متجلدة، والنار تحت ثيابها(١٣)» (١٤).

---

(١) يراجع القاضى الفاضل دراسة ونماذج صـ ١٠٦ للدكتور أحمد أحمد بدوى مكتبة نهضة مصر القاهرة د.ت، وقد أورد الدكتور بدوى هذا الجزء من رسالة القاضى الفاضل محققا ومشروح المعانى، وسوف أعتمد على تحقيقه فى إقامة نص الرسالة، وذلك لأن الغيث المسجم غير محقق.

(٢) عند الدكتور بدوى «وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيفين.. » صـ١٠٦.

(٣) عند الدكتور بدوى «والنار به مطيفة وعليه مشتملة» صـ ١٠٦.

(٤) عند الدكتور بدوى «عذبات ألسنتها على تاجه مسدلة» صـ١٠٦.

(٥) سقط من النص الذى أورده الصفدى تلك الجمل «ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة، وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا، والشفق قد عمم الليلة فلم يختص آصالا ولا أسحارا».

(٦) عند الدكتور بدوى «ولفحاتها حميمة».

(٧) هذه الجملة ليست موجودة عند الدكتور بدوى.

(٨) عند الدكتور بدوى «يضيق منها الفكر».

(٩) عند الدكتور بدوى «التلحظ».

(١٠) عند الدكتور بدوى «وأغنى ضوءها لسان كل إمعة أن يسأل هذا ما الخبر» صـ١٠٧.

(١١) سقطت من النص الذى أورده الصفدى تلك الجمل «وقذفت بشرر كالجمالات الصفر، وزفرت بغيظ تعفر له خدود الجبال الصغر، ويلحقها بالكتب العفر، وبات الليل والنهار يتلُه، وكلما أغمد الخمود جعل الوقود يسله».

(١٢) عند الدكتور بدوى «أمتار الأنوار».

(١٣) الجمل من أول وسرى داء النقوب ليست موجودة عند الدكتور بدوى.

(١٤) الغيث المسجم جـ١ صـ ٤٢٥.



وتنوع موضوعات الرسائل الإخوانية التى أوردها الصفدى فى الغيث تنوعا كبيرا فمنها ما كان فى المجون كتلك الرسالة التى كتبها أبو يعلى بن الهبارية إلى الخطيرى ابن منصور وقد أورد الصفدى بعضا منها ويبدو أنها كانت طويلة جدا؛ لأن الصفدى لم يذكرها كاملة وإنما ذكر جزءا منها فقط ومع هذا جاء هذا الجزء فى أربع صفحات كاملة ومنها قوله «أسعد الله سيدنا الأستاذ الخطيرى الرئيس الأثير النفيس بهذا اليوم السعيد، وعرفه بركات هذا الشهر الجديد، نعم أسعده الله بهذا اليوم، وعرفه بركات هذا الصوم، وحشره فى زمرة القوم، وأعاذ جده السعيد وأمره الجديد من النوم، فإن من أصعب الأمور نوم الأيور لاسيما عند مخالطة الرقيب ومخالسته، ومسامحة الحبيب ومساعدته فى دهليز مظلم، أو حمام معتم، أو طريق لهو قل سائره أو مجلس أنس نام سامره، أو ضرورة داعية إلى الدبيب، أو حاجة حاملة على خيانة الحبيب..»[1].

وهى فى غاية الفحش والإغراق فى المجون ولم أستطع أن أمثل إلا بهذا المطلع الاستفتاحى الذى به تبدأ الرسالة عادة وهو فى الأغلب الأعم يكون دعاء من المرسل إلى المرسل إليه كما فى هذا المطلع؛ حيث يدعو المرسل الله عز جل أن يشمل بسعادته الأستاذ الخطيرى وأن يعرفه فضل شهر الصوم الكريم وأهميته فى تغير سلوك الإنسان إلى الأحسن والأمثل ثم بعد ذلك يدلف المرسل إلى الحديث فى موضوع الرسالة متخلصا - فى لطف وأناة - من موضع الافتتاح كما فى هذه الرسالة أيضا حيث قال «وأعاذ جده السعيد وأمره الجديد من النوم فإن من أصعب الأمور نوم الأيور.. إلخ»

ومن هذه الرسائل ما ينطوى موضوعها على النصح والإرشاد وإسداء التوجيه والحكمة؛ كقول ابن سناء المالك: «إياك أن تغتر بخلب لسان، أو تثق بقلب إنسان، أو تركن إلى صداقة صديق، أو تأمن من شقاق شقيق، أو يروقك ملقى ملق أو بِشْرُ بَشَر أو تشيم صفو سحائب الأخلاء فإنها تهمى بكدر، أو تنخدع بنسيم أنفاس الأعداء فإنها ترمى بشرر، وعليك بالاحتراز من أبناء جنسك، والاحتراس حتى من نفسك»[2].



(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٣٢٢.
(٢) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٣٣٢.

ومنها ما كان موضوعها ذم الزمان كرسالة بديع الزمان الهمذانى التى رد فيها على أستاذه أبى الحسين بن فارس حيث يقول «نعم - أطال الله بقاء الشيخ - إنه الحمأ المسنون، وإن ظننت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، فالأستاذ يقول: فسد الزمان، ولا يقول متى كان صالحا؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها؟، أم فى الدولة المروانية وفى أخبارها لا تكسع الشول بأغيارها، أم فى السنين الحربية والسيف يغمد فى الطلا، والرمح يركز فى الكُلا، والحرتان وكربَلا[1]، أم البيعة الهاشمية والعشرة براس من بنى فراس؟، أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز، والبعوث على الأعجاز؟ أم الإمارة العدوية وصاحبها يقول وهل بعد الطلوع إلا النزول؟ أم فى الخلافة التيمية وهو يقول طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل اسكتى يا فلانة فقد ذهبت الأمانة؟ أم فى الجاهلية؟ ولبيد يقول:

ذَهَبَ الذين يُعَاشُ فى أكنافِهم    وبَقِيْتُ فى خَلَفٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ

أم قبل ذلك؟ وأخو عاد يقول:

بلادٌ بها كنَّا ونحن من أهلها    إذِ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمانُ

أم قبل ذلك؟ ويروى عن آدم عليه السلام:

تَغَيَّرَتِ البلادُ وَمَنْ عَلَيْهَا    فَوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيْحُ

أم قبل ذلك؟ وقد قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ما فسد الناس وإنما اطرد القياس، ولا أظلمت الأيام وإنما امتد الظلام، وهل يفسد الشىء إلا عن صلاح؟ ويمسى المرء إلا عن صباح؟»[2].

ومنها ما كان موضوعها فى السؤال عن الأحوال، وتحسس الأخبار؛ كتلك الرسالة التى بعثها جمال الدين بن نباتة إلى صلاح الدين الصفدى يسأله فيها عن حاله حيث يقول: «وما حال مولانا مع من استجده من صاحب وخدين، وأهل رفاء وبنين؟، وما هذه المدامجة لأخباره التى لا يزال فعل وعدها يستصحب السنين؟»[3].

---

(١) يشير إلى موقعة كربلاء وقد ألجأه الحرص على السجع إلى حذف الهمزة.

(٢) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٣٣٩، صـ ٣٤٠.

(٣) السابق نفسه جـ٢ صـ ٤٠٧.



ومنها ما كان موضوعها يدور حول نقد الأشعار فقد أعجب القاضى الفاضل بقصيدة ابن سناء الملك التى فيها قوله:

تزخرف منها وجهُها وهى جنة ... ويخضرُّ منها نضرةً فهو سُنْدُسُ
صِلينِى وهذا الحُسْنُ باقٍ فربما ... يُعزَلُ بيتُ الحسنِ مِنْهُ ويُكْنَسُ

فكتب إليه يقول من جملة رسالة: «وما قلت هذه الغاية إلا وتُعلمنى أنها البداية، ولا قلت هذا البيت إنه القصيدة إلا تلا ما بعده وما نريهم من آية، أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لهج الناس بما تحتها، ودونوا ما دونها، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لا يقاربها، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مدها لا نصيفه، والقصيدة فائقة فى حسنها، بديعة فى فنها، وقد ذلت السين فيها وانقادت، فلو أنها الراء لما زادت، وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة؛ فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها»(١).

ومنها ما كان فى الشكر على الإهداء كتلك الرسالة التى بعث بها جمال الدين بن نباتة إلى صلاح الدين الصفدى يشكره فيه على السمك الفراتى الذى بعث به إليه من رحبة مالك بن طوق حيث يقول: «فأهله رفدا لم يكن فيه عيبٌ غيرُ السرف، وَجودًا لو تمكَّنَ المملوكُ منه لوَصلَ فيه القولَ ووصَفْ، ولكن أشار مولانا إلى مصلحة كتمه، وجرى فى امتثال الإشارة على رسمه، وخشى أن يجرى له فى هذه المطالعة ذكرا يحكمه، ويأخذ من أقمصته اللؤلؤية معنى ينشره أو ينظمه، فيتوهم مولانا أن المملوك يشيع أمره طلبًا لإشاعة كلامه، وإذاعة نثاره ونظامه، فسكت والأقوال تعتلج، وصمت وألفاظ الآثار تكاد فى مسامع العين تلج، ومنه على أن المملوك إن سكت مقاله فقد تكلمت مقلاته، وجاش غليانها بشكر ماهبت به مِنَن مولانا وهِباتُه، وليست واللهِ كما قال بعض العرب مقلاة نزور، ولكن ذات نتاج تُ اودُ منها القِرى ونزور:

هباتٌ عَن البحرِ الفراتِ تَحَدَّثَتْ ... فقد عَظُمَتْ عن قولِىَ المتغالى
وَقَدْ أفصَحَتْ عندى المقالى بِشُكْرِه ... فلم تَخْلُ عِنْدِى مِنْ ثَنَاءِ مَقَالِى»(٢)

(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٤٢١.
(٢) السابق نفسه صـ ٤٢٩، والمقالى الأولى: جمع مقلاة، وهى وعاء للقَلْيِ، ومقالى الثانية: بمعنى كلامى أو قولى.



وكل هذه الرسائل وغيرها بما احتوت عليه من هاتيك الفنون والأغراض تعبر لقارئها عن أصالة المصادر التى اعتمد عليها الصفدى فى تحرير موسوعته هذه الأدبية التى أدارها حول شرح أبيات لامية الطغرائى.

**٣- المؤلفات التى لم يشر إليها:** وقد رجع الصفدى إلى آراء عدد من اللغويين والنحويين والأدباء والعلماء فى عصره وما سبقه من عصور، واستشهد بها فى الغيث ونقلها عنهم دون أن يشير إلى المصدر الذى أخذ عنه هذه الآراء، وهذا يجعلنا وقوفا إزاءها حائرين لا ندرى هل أخذها الصفدى عن كتبهم أم نقلها عن كتب أخرى أوردتها؟ فقد تعود الصفدى أن يقول: «قال ابن الأعرابى..»[(١)]، وأن يقول: «قال أبو عبيدة..»[(٢)]، وأن يقول: «وقال الحارث بن أسد المحاسبى..»[(٣)]، ثم يذكر آراءهم ومقولاتهم دون أن يحدد المصدر الذى نقل عنه هذه الآراء والمقولات وثمة أمر تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام، وهو أن مما يدل على أصالة المصادر التى اعتمد عليها الصفدى فى تأليف الغيث رجوعه بكثرة إلى آراء اللغويين والنحاة المتقدمين؛ كسيبويه، والفراء، وابن الأعرابى وغيرهم.

قائمة بأسماء العلماء الذين استشهد بآرائهم دون أن يذكر مصادرها التى نقلها عنها:

١- الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه[(٤)].

٢- الإمام عبد الله بن عباس رضى الله عنه[(٥)].

٣- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[(٦)].

٤- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد[(٧)].

٥- أبو على إسماعيل بن القاسم البغدادى[(٨)].

---

(١) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٣٠٤.

(٢) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٣١٧.

(٣) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ٢٩٢.

(٤) استشهد الصفدى فى الغيث بكثير من حكم وأقوال الإمام على بن أبى طالب دون أن يحدد هل أخذها عن نهج البلاغة أم عن كتب أخرى، يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٧٤، صـ ٣٢٨ جـ٢ صـ ١٦٩، صـ ٢٩٢.

(٥) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ١٦.

(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ١٢، صـ ٥٤، جـ٢ صـ١٨٢.

(٧) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ١٧١.

(٨) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٣٥٠.



٦- الأصمعى عبد الملك بن قريب الباهلى[١].

٧- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى[٢].

٨- أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت[٣].

٩- يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الفراء[٤].

١٠- أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى[٥].

١١- الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى[٦].

١٢- شيخ الإسلام الإمام العز بن عبد السلام[٧].

١٣- الحارث بن أسد المحاسبى[٨].

١٤- أبو عمرو بن العلاء[٩].

١٥- ابن أبى الإصبع المصرى[١٠].

## رابعا - تعامل الصفدى مع النص المنقول من المصدر:

والآن، وبعد هذا التطواف مع الصفدى فى مصادره بأنواعها المختلفة نتساءل: كيف تعامل الصفدى مع مصادره؟ كيف نقل عنها؟ وكيف استخدم النص المنقول فى ثنايا شرحه؟ ما موقفه منه؟ أيوافقه؟ أم يخالفه؟ أم يمزج بين الموافقة والمعارضة؟.

(١) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٢٦٩، صـ ٣٤٨، جـ٢ صـ١٢، صـ ١٣، صـ ٧٩، صـ ١٥٥ صـ١٨٣، صـ ٢٢٢، صـ ٤٣٨.

(٢) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٣١٧، جـ٢ صـ ٧١، صـ ١٧١.

(٣) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٨٧، صـ ٣٨١، صـ ٣٨٢.

(٤) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١صـ ٤٠٧، جـ٢ صـ ٤٥، صـ ٤٢٥.

(٥) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ٣٠٤

(٦) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ ١٦٤.

(٧) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ٣٧.

(٨) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ٢ صـ ٢٩٢.

(٩) يراجع على سبيل المثال الغيث جـ١ صـ٩١

(١٠) يراجع الغيث ١/ ٢٦٠.






ويحسن أن نعرض الإجابة عن كل هذه الأسئلة فى نقاط مرقمة يأخذ بعضها برقاب بعض حتى نصل فى نهاية الحديث إلى الإجابة المسبوقة بالأدلة عليها، أو حتى نصل فى نهاية الحديث إلى نتيجة تضافرت عدة مقدمات معروضة فى نقاط على برهنتها وإثباتها.

١- إن النص الذى ينقله الصفدى - فى الأعم الأغلب - ليس بالطويل المسرف الطول، ولا بالقصير المخل بمعالجة القضية وهذا يدل على أمرين:

**أولهما:** أن الصفدى يعمد عمدا إلى نقل ما يفيده مباشرة من المصدر بمعنى أنه يعرف ما يريد ويأخذه دون أن يزيد عليه أو ينقص منه.

**وثانيهما:** أن الصفدى يعرف جيدا وظيفة النص المتقبس؛ وهى إيضاح الفكرة أو دعمها بما يقويها من الحجج أو نقضها بما يوهيها من البراهين، فمتى وضحت الفكرة وقويت بما أسعفها النص المنقول من الحجة، أو وهيت وانتقضت بما يحمل النص المنقول من البراهين رفع الصفدى يده عن مصدره فلم يعد عندئذ للنقل مكان، ولا للاقتباس موضع.

وليس معنى هذا الكلام أن كل نقول الصفدى تتميز بالتوسط والاعتدال؛ فقد يطول النص المنقول طولا مسرفا حتى يعتذر الصفدى عن ذلك ويحاول أن يبرر موقفه لقارئه، مثلما فعل عند الحديث عن أحرف المضارعة حيث قال «والقاعدة فى حرف المضارعة أنه إذا دخل على رباعى كان مضموما تقول: تريد، تحسن، تقيم؛ لأن الماضى أراد، أحسن، أقام، وإن كان الفعل ثلاثيا مثل ضرب وذهب، أو خماسيا مثل انطلق واقتتل، أو سداسيا مثل استخرج واحرنجم، فإن حرف المضارعة يكون مفتوحًا فى ذلك كله تقول يضرب، ويذهب، وينطلق، ويقتتل، ويستخرج، ويحرنجم؛ وإنما أعرب الفعل المضارع دون الأمر والماضى؛ لأن المضارع شابه الاسم بجواز شبه ما وجب له»[1] ثم نقل بعد ذلك من الشيخ جمال الدين محمد ابن مالك نصا من شرح التسهيل استغرق صفحتين كاملتين[2] ثم قال: «**قلت:** إنما أثبت هذا الفصل بطوله من كلام الشيخ جمال الدين لما فيه من الفوائد[3]».

---

(١) الغيث ١/ ٢١٣.

(٢) هما صفحتى ٢١٣، ٢١٤ من الجزء الأول من الغيث.

(٣) السابق نفسه صـ ٢١٥.



وقد يقصر النص المنقول - أيضا - لأن الصفدى قد تخلص من الاستطراد ونفذ إلى المراد وذلك مثل قوله: «قال الشيخ بدر الدين بن مالك: اعلم أن اسم المعنى الصادر عن الفاعل كالضرب أو القائم بذاته كالعلم ينقسم إلى مصدر وإلى اسم مصدر، فإن كان أوله ميمًا مزيدة لغير مفاعلة كالمضربة والمحمدة أو كان لغير ثلاثى كالغسل والوضوء فهو اسم لمصدر وإلا فهو المصدر[1]».

٢- وقد ينقل الصفدى نصا، ويقطع فيه شوطا، ثم يختمه قبل أن يتمه ليضيف إليه شيئا، أو يكمل فى كلام المصنف نقصا ثم يصل ما انقطع بعد ذلك من حبل الكلام، ومثال ذلك قوله: «قال الشيخ بهاء الدين بن النحاس: اعلم أن حتى فى الكلام على أربعة أضرب: تكون لانتهاء الغاية فتجر الأسماء على معنى إلى، وتكون عاطفة كالواو، ويبتدأ بعدها الكلام، وتضمَر بعدها «أن» فتنصب. أما إن كانت عاطفة فشرطها يكون ما بعدها آخِرَ جزءٍ مما قبلها نحو: أكلت السمكة حتى رأسها، أو يكون فيه معنى التعظيم كقولك: مات الناس حتى الأنبياء، أو التحقير كاجترأ علىَّ السفلة حتى الزبالون». قلت ينبغى أن يزاد هنا: أو التعجب ليدخل فيه مثل قول أبى الطيب:

ويا قلب حتى أنت ممن أفارقُ

رَجْعٌ إلى كلام بهاء الدين: قال وإن كانت جارةً فلا بد أيضا أن يكون ما بعدها آخر جزء مما قبلها نحو: أكلت السمكة حتى رأسها، أو ملاقى آخر جزء: كـ«قمت البارحة حتى الصباح..[2]».

فهو هنا قد تدخَّل فى النص وقطع حبل الكلام ليزيد فى شروط حتى العاطفة شرطا؛ وهو أن يكون فيه معنى التعجب، وقد أتى بقوله قلت ليفرق بها بين كلامه وكلام بهاء الدين، ولما أنهى كلامه عاد إلى حديث بهاء الدين، ودل القارئ عليه

(١) السابق جـ٢ صـ ٣٣٥.

(٢) الغيث المسجم جـ ١ صـ ١٦٢.







بقولـه: رجع إلى كلام بهـاء الدين أى عودة إليـه؛ لأن النص لم يكمل ولأنه لم يأخذ بعد كل ما يريده منه.

٣- وقد يختصر الصفدى النص المنقول ويلخصه ويكثفه مثلما فعل فى النص الذى نقله من كتاب الأزمنة للمبرد فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. حيث قال «قال المبرد فى كتاب الأزمنة: قول المتكلفين للتفسير بغير معرفة إن معنى ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾: بل يزيدون يقال لهم: بل للإضراب، والإضراب إما للغلط أو للنسيان، ولكن يجوز أن يكون ذلك النبى صلوات الله عليه افترضَ عليه ربه وألزمه الرسالة إلى مائة ألف وأباحه ما بعد ذلك، فيكون إلى مائة ألف معدودين معلومين عنده لا بد منهم أو يزيدون إن شاء ذلك النبى وهذا كلام بيِّنٌ صحيحٌ، أو يجوز أن يكون أرسله إلى عالم لم يقع عليهم عددُ عادٍّ إلا الذى خلقهم، فقال: إلى مائة ألف أو يزيدون عندكم، هذا ملخص كلام المبرد[1]».

٤- والصفدى أحيانا لا ينقل النص من المصدر بلفظه، وإنما ينقله بمعناه بعد اختصاره، مثلما فعل فى النص الذى أورده من رسالة علاء الدين بن النفيس، المسماة برسالة ما ذكره فاضل بن ناطق عن الرجل المسمى بكامل فى خراب العالم وسببه حيث قال: «فقال ما معناه ملخصا: وإذ قد ثبت أن ميل الشمس إلى الشمال والجنوب يتناقص دائما، فإذا بطل هذا الميل أو قرب منه صارت الشمس دائمة المسامتة لخط الاستواء أو ما يقرب منه، فلذلك تحدث حرارة شديدة جدا، ويحدث فى البقاع التى لها عرض بعيد برد مفرط فتفسد الأمزجة، وتضعف القلوب، ويكثر موت الفجاءة، وتسوء الأخلاق، فتفسد المعاملات، وتكثر الشرور والمخاصمات، وتكثر الحروب والفتن، ويتقدم الأشرار وتفسد الأذهان، وبفسادها تبعد الناس عن قبول العلوم والحكمة، فلذلك يقبض العلم، ثم إذا بطل ميل

(١) الغيث المسجم جـ ٢ صـ ٥٩.



الشمس جداً اشتد الحر فى البقاع القريبة من خط الاستواء، وكثرت النيران واللهيب خاصة فى البلاد الغورية والكبريتية، فلذلك تحدث نار بأرض اليمن، وتمتد حتى تعم الأرض التى عند خط الاستواء، فحينئذ تكثر الأدخنة، وتتولد الصواعق والبروق الهائلة، والرياح الرديئة ويظلم الجو ويكدر، ويلزم من ارتفاع ذلك عن أرض خط الاستواء وما يقرب منه أن يقل جرم الأرض هناك، ويثقل ما يقابل القطبين من الأرض، فلا جرم يلزم من ذلك سقوط الجبال ويقل الماء جدا لأجل سيلانه إلى قرب خط الاستواء، بسبب الخسف ثم يبخره بقوة الحرارة التى هناك فيجف كثير من البحار، ولذلك تقل مياه الأرض جدا لكثرة ما يتصاعد منها متدخنا، فكذلك تظهر الكنوز وما يكون فى باطن الأرض، وإذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط الخروج عن الاعتدال حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية وكان من ذلك القيامة انتهى[(١)]».

٥- قد يمزج الصفدى بين نصين، وقد يكون هذان النصان لعالم واحد، وقد يكونان لعالمين مختلفين فمثال مزجه لنصين لعالم واحد قوله: «قال الشيخ بدر الدين محمد بن مالك: رُبَّ: حرف تقليل وتستعمل فى التكثير كما قال الشاعر:

رُبَّ رِفْدٍ هرقته ذلك اليو م وأسرى من معشر أقيال

وقال تعالى ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]. فرب هنا معناها التكثير كما جاء فى كلامهم وهو كثير، نحو رب ساع لقاعد، ورب غافل ينتظره الموت ا. هـ ثم قال بدر الدين وتختص بالنكرات نحو: رب رجل لقيته»[(٢)].

فهو هنا قد مزج بين نصين لعالم واحد، وقد حدد الصفدى نهاية النص الأول بكتابته ا. هـ وهو رمز يدل على انتهاء الفقرة المنقولة شاع استخدامه فى كتابات علمائنا الأقدمين، ثم وطأ فى الوقت نفسه للنص الثانى بقوله «ثم قال بدر الدين».

ومثال مزجه لنصين لعالمين مختلفين قوله عند الحديث عن الإضافة اللفظية: «فإن كان المضاف بعض ما أضيف إليه، وصالحا لحمله عليه؛ كما فى خاتم فضة،

---

(١) الغيث جـ٢ صـ ٤١٤.

(٢) الغيث جـ١ صـ ٢٥٣.






وثوب خز، وباب ساج، وخمسة دراهم فالإضافة بمعنى من، وإن لم يكن كذلك كما فى غلام زيد، ولجام فرس، وبعض القوم، ورأس الشاة؛ فالإضافة بمعنى اللام، ومن النحاة من ذهب إلى أنها تكون بمعنى فى كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. وقوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ..﴾ [يوسف: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا اختيار الشيخ جمال الدين محمد بن مالك، قال ولده بدر الدين فى شرح الخلاصة: يعنى أن الإضافة على ثلاثة أنواع، والضابط فيها إن تعين تقديرها بمن لكون المضاف إليه؛ إما للجنس الذى منه المضاف فهى بمعنى من، أو تقديرها بفى لكون المضاف إليه ظرفا وقع فيه المضاف فهى بمعنى فى، وإن لم يتعين تقديرها بهما فهى بمعنى اللام[1]». وهو هنا قد مزج بين نصين أو رأيين أحدهما لجمال الدين بن مالك، والثانى لولده بدر الدين وغنى عن البيان أنه أورد النص الأول بمعناه والثانى بلفظه.

فهذه خمس نقاط يظهر منها كيف يتعامل الصفدى مع مصدره من حيث الأخذ والنقل، وتبقى نقاط ثلاث تبين تعامل الصفدى مع المادة العلمية الموجودة بالنص.

٦- وقد يوافق الصفدى على ما بالنص المنقول من الآراء، ومن هنا يؤيده، ولا يكتفى بذلك وحسب؛ وإنما يتعقب كل ما يثار حوله من جدل وكلام يرد عليه ويجيب عنه مثال ذلك قوله: «قال الشيخ جمال الدين بن الحاجب فى مقدمته المفعول له هو ما فعل لأجله فعل مذكور ثم قال: وشرط نصبه تقدير اللام؛ وإنما يجوز حذفها إذاكان فعلا لفاعل الفعل المعلل ا.هـ قلت: وقد نقضوه بمثل قعدت عن الحركة جبنا؛ فإن الجبن ليس فعلا لفاعل الفعل والجواب أن المراد بالفعل هنا أعم من أن يكن بالحواس الباطنة أو الظاهرة، والجبن من فعل الحواس الباطنة، ونقضوه أيضا بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] أجمعوا على أنه منصوب بكونه مفعولاً لأجله وليس فعلا لفاعل الفعل؛ إذ الخوف والطمع مستحيلان فى حق الله عز وجل، والجواب أنه محمول على باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكان كأنه قال تعالى هو الذى يريكم البرق لإرادة خوفكم وطمعكم»[2].

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٢٧٠.

(٢) الغيث المسجم جـ١ صـ ١٨٠، صـ ١٨١.

٧- وقد يخالف الصفدى ما بالنص المنقول من الآراء وهنا يعقب عليه لا ببيان رأيه فيما ورد فيه فحسب؛ وإنما يعقب عليه ببيان رأيه المخالف، ثم يبرهن على صحة رأيه هو، ويأتى بالأدلة الكافية لدحض ما ورد بالنص من الآراء. قد حدث هذا - على سبيل المثال- عندما تحدث عن التصحيف حيث أورد نصا من كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لأبى عبد الرحمن حمزة الأصفهانى، حكى فيه عن ابن دريد وقوع الجاحظ فى التصحيف، والصفدى يرفض هذا الكلام ورأيه يخالف ما بالنص فماذا يفعل؟ أورد أولا كلام الأصفهانى كاملا، وحين انتهى نبه على ذلك ثم أخذ يناقش هذا الكلام ويدحضه بحجج قوية مقنعة تقوى رأيه وتؤكده فهو يقول: «وقال أبو عبد الرحمن حمزة الأصفهانى فى كتاب التنبيه على حدوث التصحيف سمعت ابن دريد يقول: وجدت للجاحظ فى كتاب البيان تصحيفا شنيعا فى الموضع الذى يقول فيه: حدثنى محمد بن سلام الجمحى، قال سمعت يونس يقول: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن النبى ﷺ، وإنما هو البتى فأما النبى ﷺ فلاشك عند المسلم والذمّى أنه أفصح الخلق. انتهى كلام حمزة[1]».

هكذا أورد الصفدى كلام حمزة كاملا ثم ها هو ذا يرد عليه قائلا: «وهذا فيه بعد كبير على الجاحظ وهو ماهر فى الأدب وغيره، ولا يجوز أن يقع الجاحظ فى مثل ذلك لوجوه: الأول أنه لا يخفى هذا على من هو دونه. الثانى: لعله قال البتى بالباء والتاء، وإنما الناسخ هو الذى حرف ذلك وصحفه بالنبى بالنون والباء؛ وما رأى ذكر النبى دون أن يقول ﷺ على عادة النساخ، الثالث: أن الجاحظ قال: سمعت يونس يقول فهو نقله عنه سماعا من لفظه، والسماع لا يقع فيه التصحيف[2]».

هكذا انتهى رد الصفدى، نفى عن صاحبه الشبهة، ودفع عنه ما اتهم به من الوقوع فى التصحيف بهذه الأدلة الثلاثة التى أوردها، وقد تدرج فيها وتلطف حيث اتخذ من مكانة الجاحظ الأدبية سبيلا إلى نفى الشبهة عنه حيث جعلها عاصما له من الوقوع فى التصحيف، ثم ألصق التهمة بعد ذلك بالنساخ ثم جاء أقوى أدلته فى النهاية؛ وهو أن الجاحظ نقل هذا الكلام سماعا ولا يقع فى السماع تصحيف.



(١) الغيث المسجم جـ٢ صـ ١٤٦.

(٢) الغيث المسجم جـ١ صـ ١٤٦.




٨- قد يتأرجح الصفدى بين الموافقة على ما بالنص من الآراء ومخالفة هذه الآراء فينقل النص ثم يأتى له بما يؤيده ويدعمه ثم يعرض وجهة نظره الثانية فى فهم الكلام، تلك الوجهة التى يخالف فيها ما بالنص من الآراء ثم يأتى لها بما يدعمها ويرجحها، ثم يدع الرأيين بعد ذلك للقارئ يحكم عليهما، ويوازن بينهما، ويختار لنفسه أيهما بعد ذلك إن شاء.

ومن هذه المواقف التى تذبذب فيها الصفدى بين الموافقة على ما بالنص المنقول من الآراء والمخالفة لهذه الآراء؛ ما كان منه عند شرح معنى كلمة المجد فى قول الطغرائى: «مجدى أخيرا..» فقد نقل عن ابن السكيت قوله: «الشرف والمجد إنما يكونان بالآباء، يقال: رجل شريف ماجد له آباء متقدمون فى الشرف، قال: والحسب والكرم يكونان فى الرجل وإن لم يكن لآبائه شرف ا.هـ[1]». ثم أتى له بما يدعمه ويقويه فقال، «قلت: قول امرئ القيس:

لو أن ما أسعَى لأدنى معيشةٍ ... كفانى ولم أطْلُبْ قليل مِن المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثَّلٍ ... وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمْثَالِى

يؤيد ما ذهب إليه ابن السكيت؛ لأن المجد المؤثل هو الموروث[2]».

وإلى هنا يبدو أنه يوافق على رأى ابن السكيت؛ لأنه أقام قول امرئ القيس شاهدا يدعمه، إلا أنه سرعان ما يخالفه عندما يعرض وجهة النظر الثانية فى تفسير البيت فيقول: «ويحتمل أن يكون المجد مما يكتسبه الرجل بنفسه بدليل قوله: أسعى، والسعى إنما يكون لتحصيل ما لم يكن للإنسان، والوراثة لا يسعى لها لأنها حاصلة[3]».

حقا لقد اشترط لقبول هذا الرأى شرطا هو«هذا إن قلنا إن اللام هنا للتعليل[4]» إلا أنه رجع وقال: «وإن قلنا إنها لشبه الملك فيترجح قول ابن السكيت[5]».

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٨٧.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



هو إذن قد وصف الحالة التى يقبل فيها كلام ابن السكيت، ووصف الحالة التى يرفضه فيها، وترك القارئ يختار الرأى الذى يقبله ويرجحه، ولم يستقر هو على رأى فى هذه المسألة.

ومن هذا العرض لهذه النقاط جميعها يتبين لنا أن الصفدى كان فى تعامله مع مصادره ذكيا ولماحا، كما تبين لنا إلى أى مدى كان الصفدى يتصرف فى النص المنقول من المصدر بالحذف منه واختصاره مرة، وبإيراده بمعناه أخرى، بالموافقة على ما به من الآراء تارة وبالمخالفة أخرى، وهذا كله يعطينا صورة لما كان عليه الصفدى من الوعى بوظيفة المصدر من ناحية، وبأهمية موقفه من النص المنقول من المصدر من ناحية ثانية؛ ذلك لأن طريقة استخدام المؤلف للمصدر هى التى تبلور فهمه له، وتبين ماذا يريد منه.

## خامسا: الملاحظات والمشاهدات الشخصية كمصدر من مصادر الشرح:

نادرا ما كان الصفدى يعتمد فى شرحه وتوثيق معلومته داخل الشرح بذكر حكايات جرت له أو شاهدها، ومع هذا وجدت لزاما علىَّ -وفاء بحق العلم - أن أشير إلى المواقف التى استخدم الصفدى فيها الملاحظة أو المشاهدة الشخصية بوصفها من مصادر الشرح، أو وسيلة توثيق للمعلومة داخل الشرح على الرغم - كما قلت - من ندرتها وعدم تمثيلها لظاهرة تستحق الدراسة.

وأول هذه المواقف كان عند شرحه لقول المناطقة: لكل نوع حصة من جنسه فقد تحدث عن هذه المسألة ثم قال: «وقد رأيت الشيخ الإمام الفاضل ركن الدين محمد بن القريع غير مرة ينكر على من ضرب كلبا أو بهيمة، ويقول له بحنق: لأى شىء تفعل به هذا وهو شريكك فى الحيوانية[1]».

فهذا النص يدل على رؤية الصفدى للشيخ ركن الدين وهو ينهر الضاربين للكلاب والبهائم ويزجرهم ويوبخهم، ولا شك أن إيراد هذا النص يوثق المعلومة المنطقية من طريق غير مباشر؛ لأن القارئ الذى لا يعتقد فى هذه المقولة عندما يقرأ أن شيخا وإماما فاضلا يعتنقها ويطبقها فى نفسه أولا وفى غيره ثانيا قد يتخذ من سلوك هذا الشيخ سبيلا إلى الاقتناع بها.

---

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٩٢.



وثانى هذه المواقف كان عند الحديث عن لعبة الشطرنج؛ حيث أورد لابن الرومى أبياتا فيمن يلعب بالشطرنج غائبا ثم قال: «وقد رأيت أنا غير مرة بالديار المصرية شخصا متجندا يعرف بعلاء الدين بن قيران هو أعمى يلعب بالشطرنج مع العوام يحطهم ويغلبهم، وما راعنى فيه إلا أنه يقعد ويتحدث، ينشد لنا الأشعار، ويحكى كل منا حكاية فى شأنه وهو يشاركنا فيما نحن فيه. ويدع اللعب ويقوم إلى الخلاء ويحضر ولم يغب عنه شىء مما هو فيه، وهذا غريب، وهو مشهور بالقاهرة لا يكاد يجهله من يلعب بالشطرنج إلا أناسا قلائل[1]».

ولا شك أن هذا النص نفيس غاية النفاسة، لا لأنه يوثق كلام ابن الرومى فحسب؛ وإنما لهذا ولأنه يحمل كثيرا من المؤكدات التى تدفع قارئه إلى تصديقه؛ أولها: ما صرح به الصفدى من أن هذه المشاهدة لم تكن عابرة وإنما تكررت أو رآها مرات، بل وجالس القوم وهم يلعبون، وثانيها: تعجبه من هذا الأعمى، وثالثها: نصه على شهرته بالقاهرة حيث لا يكاد يجهله من لاعبى الشطرنج إلا القليل.

ولما كانت هذه الحكاية غريبة فى بابها، وتوهم الصفدى أن القارئ لا يمكنه قبولها أو تصديقها شفعها بثانية توثقها وتؤكدها فقال: «ورأيت غير مرة أيضا بدمشق سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة شخصا يعرف بالنظام العجمى، وهو يلعب الشطرنج غائبا فى مجلس الصاحب شمس الدين أول ما رأيته يلعب مع الشيخ أمير الدين سليمان رئيس الأطباء[2]».

ولما تعجب الصفدى من ذلك حكى له النظام «أنه كان يلعب غائبا على رقعتين[3]». وحكى له المولى بدر الدين الغزى «أنه رآه يلعب على رقعتين غائبا وقدامه رقعة يلعب فيها حاضرا وغلب فى الثلاث[4]».

ولما توهم الصفدى أن قارئه لن يصدق هنا الكلام أخلى نفسه من التبعة ووضعها على عاتق الغزى قائلا: «والعهدة فى ذلك عليه[5]».

---

(١) السابق جـ٢ صـ ٨٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) الغيث المسجم جـ٢ صـ ٨٩.



الفصل الرابع

## منهج الشرح

محتويات الفصل:

أولاً: أسباب تأليف الكتاب.

ثانياً: ظروف تأليف الكتاب.

ثالثاً: منهج الشرح كما رسمه الصفدى فى المقدمة.

رابعاً: مدى التزام الصفدى بأسس منهجه فى الشرح.

خامساً: ملاحظات أبرزتها قراءتى للغيث.

سادساً: الشرح اللغوى لأبيات اللامية.

سابعاً: مظاهر غلبة النزعة التعليمية على الشرح.

ثامناً: الفكاهات والنوادر فى الشرح.

تاسعاً: لامية الطغرائى كما وردت فى الغيث مع ترقيم أبياتها.

عاشراً: لامية الصفدى التى عارض بها لامية الطغرائى.






## لاً : أسباب تأليف الكتاب:

أوضح الصفدى فى مقدمة الكتاب الأسباب التى دعته إلى تأليفه ، والقصد لذى يهدف إليه من وراء هذا التأليف ، وأرجع هذه الأسباب إلى ثلاثة أمور :

**أولها : ما تمتاز به لامية الطغرائى** من كريم المعانى ، وروائع الألفاظ؛ إذ تدور حول شكوى الزمان ، وتأديب النفس بالاستفادة من تجارب الآخرين ، والاعتبار بما وقع لهم من خطوب ، والدعوة إلى التجمل بالصبر والتعلق بأهدابه إذا نابت النوائب ، وقد عبر الطغرائى عن هذه المعانى فى ألفاظ جزلة ، فيها فخامة ، وفيها ضخامة ، ثم فيها بعد ذلك بيانٌ آسر ، وجمالٌ فنى ساحر؛ مما جعل الناس يتعلقون بها ويحفظونها وتجرى أبياتها على ألسنتهم ، وهذا كله دفع الصفدى دفعاً إلى وضع شرح عليها فهو يقول: « فإن القصيدة الموسومة بلامية العجم - رحم الله ناظم عقدها وراقم بردها - مما تعاطى الناس مدام أكوابه ، وتجاذبوا هُدّاب أهدابه، وتداولوا ضرب مثله الذى علا عن أضرابه ، واقتطفوا ثمر معانيه متشابهاً وغير متشابه . . . . وقد أحببت أن أضع عليها شرحاً يزيد جيدها فرائداً ، وقصيدتها فوائدا» [(١)] .

**وثانيها: أن مثيلتها المسماة بلامية العرب للشنفرى قد نالت من اهتمام العلماء والشراح ما لم تنله لامية العجم** ولما رأى الصفدى للامية العرب «شرحاً حسناً تام المقاصد كثير الفوائد» [(٢)] .حداه الشوق إلى أن يضع على لامية العجم شرحاً يناظره ويماثله، ويقاربه روعة وحسناً وكثرة فوائد .

**وثالثها: أن الصفدى أراد أن يضع كتاباً جامعاً** لأحسن ما أثر عن العرب من علوم وفنون وآداب ليكون ذلك «عنواناً على الفضيلة التى امتاز بها لسان العرب» [(٣)] فاتخذ من شرح أبيات لامية الطغرائى سبيلاً إلى تصنيف هذا الكتاب الجامع .

## ثانياً : ظروف تأليف الكتاب :

وقد ألف الصفدى هذا الكتاب فى ظروف صعبة لسنا ندرى ما هى على وجه

---

(١) الغيث المسجم ح١ ، ص١٠ .

(٢) السابق نفسه ص٢٧ .

(٣) السابق نفسه ص١٠ .

التحديد؛ إذ لم يفصح عن شيء منها ،وإنما ألمح إليها بقوله: «وقد علقت هذا الشرح وأنا في هموم قد علم الله ترادف بعوثها، وانسكاب غمائم غمومها وغيوثها، وافتراس فوارسها،وأذهلني الجناس عن ذكر ليوثها. . أتجرع كؤوسا علق بها العلقم، وأساور على الأرق منها ما هو أنفث سُمًا من الأرقم، وأتلقى بصدري كل صدع قد يئس من الجبر، والتزم بحملها التزام واصل بن عطاء بالقدر، أو جهم ابن صفوان بالجبر، وأعالج منها كل جراحة بَعُدَ غورها عن السَّبْر، وأتطلب رضى الأيام وهي عليّ أشدُّ حقداً من سلامة بنت سعد على عاصم حمى الدبر،وألقى جيوش الخطوب وأنا عار،ونعم ذكرتُ بالسجع أن لي درعاً من الصبر، وأُعَدُّ في الأحياء وأنا من الأموات ولكنْ ما ضمّتني جوانحُ القبر»(١) .

وقد جعل الصفدي من بيان هذه الظروف الصعبة سبيلاً إلى الاعتذار للقارئ عن الخطأ والزلل حيث يقول: «اعترضت بهذا الفصل، وقطعت به لذة ذلك الوصل، ليعذر الواقف على الخطا، ويتحقق السبب في عدم نوم القطا؛ لأن هذه الأوراق ما فيها غير هذه القصيدة ثمر، ولو عاين الطغرائي - رحمه الله - هذا الشرح لقال: «أراني السُّها لما أريتُه القمر» ، وما أولاني بقول العماد الكاتب:

هي كُتبِي فَلَيْسَ تَصْلُحُ بَعْدِي لِغَيْـــرِ العطَّارِ والإسْكَافِ
هِيَ إمَّــا مزاودُ للعـقــاقيــرِ وإمــا بَطائِنُ لِلْخِـفَــافِ»(٢)

وإذا كان الصفدي قد ألَّف هذا الكتاب المهم من كتب الشروح الأدبية في هذا العصر في مثل هذه الظروف والأحوال البالغة الصعوبة، فماذا عساه كان يصنع لو ألفه في ظروف أحسن وأفضل؟ وعلى أية صورة كان سيأتي هذا الكتاب؟ وإذا كان هذا رأى الصفدي في كتابه فإني أرى أنه قد ظلم نفسه ، وبخس الكتاب حقه بهذا الحكم الجائر؛ لأن هذا الكتاب قد أحدث ردود فعل واسعة، وكان مصدراً لكثير من كتب الشروح التي تناولت هذه اللامية من بعده بالشرح والتفسير، وها هو ذا الشيخ جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي يضع شرحاً على هذه اللامية يقول في مقدمته: «جردتُ أكثرهَ من شرحها للأديب الفاضل المتفنن خليل

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص١٤ .

(٢) الغيث المسجم ج١ ، ص١٥ .



بن أيبك الصفدى رحمه الله تعالى»(1). ويصفه بأنه «أبلغ فيه وأوعب، وأطنب وأسهب، وأعجب وأغرب، وأطال داعية الأقلام، وجر أذيال فضول الكلام، وأسهلَ وأوعرَ، وأنجدَ وأغور، واستطرد من فن إلى فنون..»(2).

ولم يأخذ جمال الدين الحضرمى على الصفدى وكتابه إلا أنه «استرسل فى شجون الجد والمجون حتى صار ذلك التطويل سبباً للعجز عن التحصيل، هذا مع ما خرج فيه عن الحد، وطغى الماء به فى المد، من مستهجنات هزلة، لا تليق بعلمه وفضله، مما لا يحل ذكره وإيداعه، بل يخل بالعدالة روايته وسماعه»(3).

وها هو ذا الشيخ عبد الرحمن الشافعى العلوانى الطبيب يضع شرحًا عليها يقول فى مقدمته: «وقد شرحها أوحد زمانه، وفريد أوانه، الشيخ صلاح الدين الصفدى - سقى الله ثراه وجعل الجنة مأواه - شرحًا تضرب آباط الإبل فيما دونه، وتقف فحول الرجال عنده ولا يعْدونه، والتزم أن يذكر فيه ما سمع فوعى، وما جمع فأوعى، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فوائده وفرائده إلا أظهرها، ولا نكتة بديعة من لطائف معناه إلا وفى الكتاب سطرها»(4).

ثم يصف شغفه بالغيث، وإفراغه الوُسْعَ فى الحصول على نسخة منه فيقول: «وكنت حين سمعت بهذا الكتاب أتطلبه من أولى الألباب، وأحث إلى الوصول إليه عزم الركاب، إلى أن وجدته؛ فإذا هو كبحر عجاج متلاطم الأمواج، ريحه عاصف ووابله واكف، وجواهره منضودة، وفرائده معقودة، لم يُنْسَجْ فى فنه على منواله، ولا سمحتْ قريحةٌ بمثاله»(5).

ولعلى لا أعدو الصواب إذا قلت : إن الصفدى قد ناقض نفسه فى حكمه على عمله؛ لأنه اعترف فى أول المقدمة بأهمية كتابه ، واحتوائه على فوائد وقواعد

---

(1) نشر العلمَ فى شرح لامية العجم: لجمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمى ص3، طبع بمصر عام 1283 هـ .

(2) السابق نفسه ص3 .      (3) السابق نفسه ص3 .

(4) قطر الغيث المسجم فى شرح لامية العجم لعبد الرحمن الشافعى العلواني الطبيب. طبع على هامش نفحات الأزهار على نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار للشيخ عبد الغنى النابلسى ص3، الناشر عالم الكتب بيروت - مكتبة المتنبى القاهرة د.ت.

(5) السابق نفسه ص5.





وشواهد على درجة عالية من القيمة العلمية حيث قال : «فقد أودعتُ فيه فوائد جَمَّة، وقواعد مهمَّة، وشواهد هى لجامحات المعانى أزِمَّة» [١] .

هو إذن يشعر بأهمية الكتاب وقيمته ، كما يشعر بقيمة ما أودعه فيه من العلوم والفنون ، فكيف نوفق إذن بين هذا الشعور وقوله : «وما أولانى بقول العماد الكاتب :

هِيَ كُتبِى فَلَيْسَ تَصلُحُ بَعْدِى ... لِغَيْرِ العَطَّارِ والإسْكَافِ

هى إما مزاودٌ للعقاقيرِ ... وإما بَطَائِنٌ لِلْخِفَافِ

وقول مجير الدين محمد بن تميم الأسعردى :

عَرَضتَ كِتَابِى كَىْ يُبَاع بِدِرْهَمٍ ... على مُشْتَرٍ عِنْدَ الوفاءِ شحيح

رَأَى خَطَّهُ ذا عِلةٍ فَأَعَادَهُ ... وَمَنْ يَشْتَرِى ذَا عِلَةٍ بِصَحِيحِ» [٢]

وأرى أن التوفيق بينهما ليس بالأمر العسير؛ لأن تناقضه فى تصورى مرده إلى الحالة النفسية التى كان عليها عند كتابة الرأيين، فعندما شرع فى كتابة المقدمة كان مستريح النفس، هادئ الأعصاب، فأثنى على ما فى الكتاب من فكر وفن، ولما أخذ فى شرح الظروف والأحوال التى عاناها أثناء تأليفه انتابته حالة من اليأس والإحباط فأثرت هذه الحالة عليه، فجرى قلمه بما كتب من رأى .

## ثالثاً : منهج الشرح كما رسمه الصفدى فى المقدمة :

وقد وضح الصفدى فى المقدمة الخطوط العامة لمنهجه الذى سيسير عليه فى شرحه أبيات اللامية، وهو منهج يتسم بما تتسم به مناهج العرب القدماء فى التأليف والكتابة العلمية من الموسوعية والشمول[٣]، ويقوم هذا المنهج على تسع دعائم أساسية هى:

١- التناول اللغوى لألفاظ الأبيات بالشرح والتحليل ، والإيضاح والتفسير،

(١) الغيث المسجم ج١ ، ص١٠ .

(٢) السابق نفسه ج١، ص١٥ .

(٣) يراجع فى هذه القضية كتاب مناهج العرب فى التأليف للدكتور/ مصطفى الشكعة . دار العلم للملايين . بيروت د.ت .

وقد نص على ذلك حيث يقول «وقد أحببت أن أضع عليها شرحا يزيد جيدها قرائداً وقصيدتها فوائداً . . ولاأغادر فيها لغة ولا إعراباً» (١) .

٢- **إعراب جميع ألفاظ أبيات اللامية**، ثم الحديث عما يتصل بإعراب ألفاظها من مسائل نحوية مختلفة وذلك نفهمه من النص السابق ذكره حيث يقول «ولا أغادر فيها لغة ولا إعراباً» (٢) .

٣- **إيضاح معاني أبيات اللامية** إيضاحاً يزيل ما بها من غموض ، ويقرب معانيها إلى الأفهام، وذلك نفهمه من النص السابق ـ أيضاً - إذ أضاف قائلاً «و لا إيضاح معنى ولا إغراباً» (٣) .

٤- **الحديث عن كل المعاني التى تقارب معانى أبيات اللامية وشرحها**،وذلك نفهمه من بقية النص حيث يقول «ولا ما يضمه إليها سلك أو يدخل معها جراباً، إلا نبهت عليه، وأشرت بحسب الإمكان إليه» (٤) .

٥- **الاستطراد فى الشرح** لذكر ما يمكن ذكره من الأمور التى تتوارد على الذهن متى ما كان فيها نفعاً، وبها فائدة، حتى يكون الكتاب نموذجاً فريداً لما ينبغى أن يكون عليه كتاب الأدب الدال على ما يمتاز به لسان العرب وذلك نفهمه من قوله : «هذا إلى ما يستطرد إليه الكلام من نكتة، وتعترض جملة ذكره بغتة، ويبديه الضمير على لسان القلم، وكم للسان فلتة، ويثبته التعمد إذا علمت أن لجيد الاطلاع إليه لفتة »(٥). وقوله «فما شامت عيونه برق علم إلا انتجعت قطره الصيِّب، وصبرتُ على ثمره الردئ حتى رأيت الطيب، ولا تطلعت أعناقه إلى مرعى بحث إلا أسمته سعدانه، وأثقلت بالفوائد إذا انصرف من مأدبته أردانه، ولا قرمت شهواته إلى نكت بديع إلا أنزلته بمن يمنحه العطا ويمنعه العطب، وتتبعت لِقراه ذوائب النيران التى وقودها المندل الرطب لا الحطب»(٦)، وقوله: «فلهذا لا

(١) الغيث المسجم ج١ ، ص١٠ .

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٤) الغيث المسجم ج١ ، ص١٠ .

(٥) السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٦) الغيث المسجم ج١، ص١٠ ، ص١١ .



تجدنى فى الشرح واقفاً مع ضيق المقام، ولا فاراً من مشق القواضب ولا رشق السهام، بل أُشرف على كل مكان فأسقط، وأتوخَّى الحَبَّ من الدرر الكبار فألقط، فمهما استطرد الكلام إليه وفيتُه حَقَّه، ومهما تعلق به ملَّكتُه رقه، فمِن غورٍ إلى نجد، ومِن ربوة إلى وهد، ومن ظهر أرض إلى بطن مهد، ومن اقتناصٍ بصقر إلى اصطياد بفهد»[1]. وقوله «فقد يتسلل الاستطراد والقلم معه، ويتشعب الكلام فلا أدعه يجد دعه، فأترك كثيراً مما طلب، وأتطلب ما يحق له الفرار والهرب، وأتذكر بالضد غيره عند الرجوع والمنقلب، وأعطف على نظائره فأفوز بالغلب»[2].

ولقد رد الصفدى على من يحاول أن ينتقده من هذه الناحية، ويتهمه بالخروج عن الشرح، وتشتيت الذهن فى مسائل كثيرة مما يؤدى إلى العجز عن التحصيل، فعلل كثرة استطراده بتشابك المعانى وارتباط بعضها ببعض فقال: «ولا بدع فالمعانى بعضها ببعض مشتبك، والمباحثُ لا يزال نافرُها فى شرك الذهن يرتبك»[3].

ثم بيَّن أنه لم يبتدع طريقة جديدة فى التأليف، وكل ما فعله هو أنه جرى على سنن السابقين من المؤلفين القدماء الذين كانوا يفرقون بين العالِم والأديب، ثم أورد قول ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنًا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتَّسعْ فى العلوم»[4]، ثم استشهد بالجاحظ ومنهجه فى تأليف كتاب الحيوان، وغيره من الكتب فقال: «من وقف على كتاب الحيوان للجاحظ وغالب تصانيفه، ورأى تلك الاستطرادات التى يستطردها، والانتقالات التى ينتقل إليها، والجمل التى يعترض بها فى غضون كلامه، ويدرجها فى أثناء عباراته بأدنى ملابسة، وأيسر مشابهة، علم ما يلزم الأديب، وما يتعين عليه من مشاركة المعارف»[5] ثم قال: إنى لم أقصد بما استطردتُ به إلا إلى أمرين: أولهما «صلة العائد من الفائدة، وبعثُ النفوس التى هى فى قبور الفتور هامدة سامدة، فإن المطالعة تتروح إليها النفوس، وتجد فى مراجعتها ما تجده فى معاطاة الكؤوس»[6].

---

(١) السابق نفسه ص١١ .

(٢) السابق نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣) الغيث المسجم ص١١ ، ص١٢ .

(٤) السابق نفسه ص١١ .

(٥) السابق نفسه ص ١٢ .

(٦) السابق نفسه ، والصفحة نفسها .



وثانيهما: «ما يتسلط به الواقف على الانتقاء والانتقاد ، ويتوصل به إلى حسن الارتياء والارتياد»[1] .

ولقد بين بعد هذا الدفاع عن موقفه فوائد الاستطراد بعامة فقال: «والخروج من فن إلى فن أقدر على البحث وأسلط ، والانتقال من نوع إلى نوع أنشط للمطالعة وأبسط ، والمشاركة أقوى على الظفر بالصواب وأقوم وأقسط»[2] .

٦- سادس هذه الدعائم التي يقوم عليها منهج الشرح **تخيُّر ما يورده أثناء الشرح** من كلام الأدباء كتّابًا وشعراء، وتوخى أن تكون النصوص المختارة ذات قيمة أدبية عالية، وذلك نفهمه من قوله: «على أننى لم أدعُ الجفلى إلى هذه المأدبة، ولا رضيتُ طفيليَّ الكلامِ أن يتصدر فى هذه المرتبة ، فكم توقف القلم فى الإذن على ما حصل فيه أدنى لبس ، وكم ضاق بواحد من غسان ولم يسع جميع بنى عبس، وكم دفع عن صدر كثير من المحاسن ، وأعرض عن منهل كان ماؤه العذب غير آسن[3]» .

٧- **الاختصار والإيجاز** كلما وجد إلى ذلك سبيلاً حتى لا يكون تطويله سبباً فى ملل أو دافعاً إلى ضيق؛ يقول:«نعم خشيتُ الإطالة، واجتنبتُ العثرة خوفاً من عدم الإقالة، وفررت من الزيادة حتى لا يكون ضغثا على إبالة، وقلت: مع ضوء الشمس لا يظهر فضل الذبالة، فأضربت عن التحمل بالأثيل الأثير، وعلمت أن من الناس من يقرأ لنافع ولا يقرأ لابن كثير، فاقتصرتُ على الزبد واختصرت»[4] .

فكثيراً ما كان الصفدى يمتنع عن الاستطراد والاسترسال فى الحديث مع ما فيه من متعة وفكر، فقد قال مرة عند الحديث عن حرف الواو:«ففى الواو مباحث جليلة،جمعتها فى كراسة أضربت عن إثباتها هنا خوفاً من الإطالة[5]» . وقال فى موضع ثان: «وفى المفعول به كلام طويل، وبحث حسن، ادخرتهما لغير هذا

---

(١) السابق نفسه ، والصفحة نفسها .

(٢) السابق نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣) الغيث المسجم ج١ ، ص١٣ .

(٤) السابق نفسه،والصفحة نفسها.

(٥) السابق نفسه ص٧١ .



المكان»[١]، وقال في موضع ثالث عند الحديث عن القصائد ذات الألفاظ الفخمة التي فيها حث على القوة «وأبيات بشر بن أبي عوانة[٢] في وصف الأسد، وأبيات البحتري، وأبيات أبي الطيب، الجميع مشهور فلا فائدة في التطويل بذكر ذلك»[٣].

٨- **تأييد مواقف المتأخرين من العلماء**، والانتصار لهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً وهذا نفهمه من قوله: «وملت في المباحث إلى قول المتأخرين وانتصرت ، اللهم إلا فيما ندر ، وخان هذا الشرط وغدر [٤]» .

٩- **التوطئة بالحديث عن الطغرائي وحياته وشعره، ثم الحديث عن اللامية وقيمتها** يقول: «ومن هنا أشرع في ذكر الطغرائي - رحمه الله - وتاريخ مولده ووفاته وسبب قتله، وما اتفق له في ذلك، ثم أتلوه بشيء من شعره المقاطيع التي له ثم أتكلم فيما بعد على عروض القصيدة وقافيتها وما يتعلق بذلك»[٥] . وبعد أن ينتهي الصفدي من هذه المقدمة يشرع في شرح الأبيات بيتاً بيتاً على الأسس الثمانية السابقة بحيث لا ينتقل من واحد إلى غيره إلا بعد أن يوفيه حقه من البحث والدرس، يقول الصفدي: «وإذا انتهى الأمر إلى ذلك أجمع، سردت القصيدة بيتاً فبيتاً، ولا أذكر الثاني حتى أفرغ من الأول، وأسوق فيه ما له به علاقة لا يستغني الأديب عنها»[٦] .

الصفدي إذن يسير وفق منهج محدد ، وخطة مرسومة ، وهو حقاً يتسم بالموسوعية والشمول إلا أنه يدور على محور ، وله ركيزة أساسية يرجع إليها دائما

---

(١) السابق نفسه ص٢١٦ .

(٢) هكذا ورد الاسم بالغيث وتصحيحه «بشر بن عوانة» وظاهر كلام الصفدي يدل على اقتناعه بأن بشر بن عوانة شخصية حقيقية لها إنتاج شعري وليس الأمر كذلك؛ فبشر بن عوانة شخصية خيالية أوردها بديع الزمان في مقامته المسماه بالمقامة البشرية والأبيات التي قالها بشر في وصف نزاله وقتله للأسد إنما هي من تأليف البديع الذي كتبها على لسان بشر. ويمكن أن يراجع للتثبت من هذا الكلام مقامات البديع بشرح الأستاذ الإمام محمد عبده، وتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ص٤٤٩ وما بعدها.

(٣) الغيث المسجم ج٢ ، ص٧٠ ، ٧١ .

(٤) السابق ج١ ، ص١٣ .

(٥) السابق نفسه ص١٥ .

(٦) الغيث ١/ ١٥.



مهما شطح به الخيال أو سرح به القلم ، ونعنى بهذا المحور أو هذه الركيزة أبيات اللامية، فكثيراً ما قال بعد استطراد طويل: «رَجْعُ القول إلى الإعراب» [1]، أى إلى إعراب البيت، وكثيراً ما كان يقابل بين معنى الطغرائى ومعانى غيره من الشعراء وتطول هذه الموازنات الأدبية ثم يقول : «رجع وهذا المعنى الذى فى بيت الطغرائى لطيف» [2] فهو -إذن - لا ينسى أبيات اللامية ولا يتجاهلها وإنما تظل فى ذهنه ومخيلته، ولا يفتأ يبعد عنها حتى يعود إليها ثانية لأنها هى الأساس والأصل الذى يدور عليه ويرتكن إليه، ومن العجيب بعد هذا كله أن يتهم أحد الدارسين الصفدى بـ «تلفيق ما يعن له من مباحث اللغة والنحو وغيرها» [3]، ولا يجيز وصف خطته أو منهج شرحه بالمنهج إلا بحذر شديد حيث يقول فى تعليقه على استطراد الصفدى «والحق أن هذا الذى ذكره هو التعبير الحقيقى عن مضمون كتابه وسير منهجه لو جاز أن نسم عمله بالمنهج» ولست أدرى لم لا يجوز أن نسم عمله بالمنهج، وقد وضحه فى مقدمته وأقامه على هذه الدعائم التسع التى شرحتها وكنت فيها حريصاً على استنطاق نصوصه، والاستنباط منها حتى لأقرر -هادئ البال- أنى لم أقحم عليها شيئاً ولم ألو عنق نص منها ليدل على ما أريد!!

### رابعاً : مدى التزام الصفدى بأسس منهجه فى الشرح :

ونريد الآن أن نبين إلى أى مدى التزم الصفدى بمنهجه الذى وضعه فى المقدمة، وهل التزم بكل بنوده؟ أم أخل ببعض هذه البنود والتزم ببعضها الآخر ؟ ولعل خير إجابة عن هذا السؤال أن نحلل شرحه لبيت من أبيات اللامية ثم نحكم بعد ذلك على مدى التزامه حتى يكون الحكم موضوعياً ، ولنأخذ شرحه للبيت الأول على سبيل المثال فقد كتب البيت وهو :

أَصَالَةُ الرأيِ صَانتني عَنِ الْخَطَلِ          وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زانَتْنِى لدى العَطَلِ

ثم بدأ شرحه بالحديث عن لغة البيت ومعانى مفرداته فتحدث عن كلمة أصالة، وبين أنها مصدر وذكر رأى ابن الأنبارى فى تعريف الأصيل، ثم أتى إلى

---

(١) السابق نفسه ص١٣٣ على سبيل المثال .

(٢) السابق نفسه ص٤٤٧ .

(٣) شروح لامية العجم دراسة تحليلية نقدية - د/ إبراهيم محمد منصور ص٣٦ . الطبعة الأولى ١٩٩٨ م المركز المصرى العربى للصحافة والنشر والتوزيع - القاهرة .






لفظة الرأى وبين معناها لغة واصطلاحاً، وجره هذا إلى الحديث عن أصحاب الرأى كأبى حنيفة النعمان وغيره من أصحاب القياس والتأويل، وبيَّن أنهم - حين تتضارب آراؤهم فى فهم النصوص وتفسيرها - غير مخطئين، وكلهم مجتهد، وكلهم يبتغى من الله - تعالى - الأجر والمثوبة، وذكر أن آراءهم ليست ملزمة لأتباع مذاهبهم، ثم تحدث عن أهل الظاهر وهم الذين يقولون بظاهر النص واستطرد فذكر أن بين أهل الظاهر وأهل الرأى خلاف فى الوقف فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران: ٧]. وشرح أوجه الوقف المختلفة التى تتحملها تلاوة هذه الآية، وبين آراء أكابر أهل العلم بالقرآن فى هذه المسألة كابن عباس وغيره، كما بين آراء اللغويين والمتكلمين والفقهاء فى هذه المسألة، وبعد أن انتهى من هذا المبحث رجع إلى معانى الكلمات فاستوفَى الحديثَ عن بقية مفردات البيت، ثم شرع فى إعرابه، فذكر أن أصالة تعرب مبتدأ، وأخذ يورد تعاريف العلماء للمبتدأ كما تحدث عن العوامل عند النحاة وقسمها إلى قسمين: معنوية، وحقيقية، وذكر أن العامل المعنوى فى تقدير النحاة يكون فى موضعين: الابتداء، ووقوع الفعل المضارع موقع الاسم، ويبدو أن الصفدى لا يعترف بالعامل المعنوى لأنه تهكم عليه وذمه، وذم من يلجأ إليه من النحويين؛ حيث ذكر أن النحوى لا يلجأ إلى العامل المعنوى إلا عجزاً تماماً كما يعجز الفقيه عن إدراك علة الحكم فى مسألة فيعلق عدم إدراكه وفهمه وقصور باعه فى العلم على التعبُّد، وتظهر شخصية الصفدى النحوية قوية باهرة متمكنة من مادتها العلمية حين يرفض قول النحاة بأن رافع المبتدأ هو التجرد عن العوامل، وحين يرفض - أيضًا - قولهم بأن رافعه الخبر، ويردُّ كل آرائهم هذه عليهم، ويبين لهم بطلانها ، وكأنى به إذ يقف منهم هذا الموقف - وهو يقف منهم ومن غيرهم من العلماء فى كل ضروب العلم والمعرفة موقف المدقق المتفحص - يتبع كل القواعد والأصوال العلمية التى أقرها وارتضاها العلماء مناهج للبحث والدرس الأكاديمى المتخصص، ثم يكمل الصفدى إعراب البيت حتى إذا ما جاء إلى الواو فى قول الطغرائى «وحلية الفضل» تحدث عنها حديثاً مفصلاً من ناحية اللغة

واستطرد فى الحديث حتى أتى إلى قوله تعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وأخذ يورد آراء المفسرين وغيرهم من العلماء فى هذه الآية، ثم تحدث عن واو عمرو، وعن رأى الجاحظ فيها، ثم تحدث عن تشبيه الصدغ بالواو، وأورد نماذج له، وعاد إلى إعراب بقية أبيات الشطرة الثانية من البيت، ثم تحدث عن معنى البيت، وعن اعتداد العرب برأى الشيوخ الكبار الذين تمرسوا بالحياة، وحلبوا الدهر أشطره، وذاقوا حُلْوَه ومُرَّه، حتى انحنت منهم الظهور، وبطأت خطوات أقدامهم، وذهب عنهم النزق والطيش اللذان هما أظهر صفات الشباب، وأورد فى ذلك شعراً لأبى فراس وغيره، كما أورد فى ذلك أثراً عن الإمام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه، وجرَّه الحديث عن امتداح رأى العقلاء إلى امتداح المشورة وعدم الانفراد بالرأى دون الآخرين ، وروى عن أهمية المشورة الكثير من الآثار التى من أجَلّها ما أشار به الحباب بن المنذر - رضى الله عنه - على النبى ﷺ فى غزوة بدر؛ حيث ارتأى وهو الخبير بالحرب أن ينزل المسلمون على آخر ماء بدر حتى يتسنى لهم الانتفاع بالماء على خير وجه حيث يشربون ولا يشرب الأعداء، ويستفيدون بالماء ويُحرم منه الأعداء، وبيَّن الصفدى أن أخذ النبى ﷺ برأى الحباب يعطى المسلمين قدوة صالحة فى النزول على أحسن الآراء، ثم تحدث عن أولى الألباب من العرب، وذوى الرأى فيهم، ومن اشتهروا بالدهاء والحنكة، ثم أورد عدداً كبيراً من المقطوعات الشعرية الآسرة ذات القيم الفنية والجمالية العالية فى امتداح العقل وتزكيته؛ للمتنبى، والبحترى، وابن المعتز، والطغرائى، وأبى الفتح البستى، ويأبى أن ينقل هذا الشعر دون أن يعلق عليه، ويبين رأيه فيه، ويطلعنا على ما يحويه من فنون البديع، وأورد بعد ذلك قصة تدل على حنكة الإسكندر حيث كتب إلى أرسطو يأخذ رأيه فيما عزم عليه من أمر فارس لما استولى عليها، فأشار عليه أرسطو بأن يوزع عليهم مملكتهم حتى يدب الخلاف بينهم، وذكر الصفدى أن الإسكندر عمل بهذه المشورة، وتحدث بعد ذلك عن الخليفة المأمون، وانفتاح الثقافة العربية الإسلامية فى عهده على ثقافات الأمم والشعوب الأخرى مما أثرى الفكر العربى وزوده بروافد ثرة أتاحت له أن







يكون فكراً عالمياً له ثقله وأهميته ومكانه المشرق بين الأفكار والفلسفات التى بنت الحضارات وأسهمت فى تقدم العلم والمدنية، وجرَّه الحديث عن المأمون إلى الحديث عن الإمام ابن تيمية ونعيه على المأمون ترجمته لفلسفة اليونان، وإذنه للعلماء والمفكرين أن ينساحوا فى الأرض ليطَّلعوا على ثقافات الشعوب الأخرى ويترجموا أروع ما عندهم إلى العربية، ولقد دافع الصفدى عن المأمون، وبيَّن أن الإمام ابن تيمية قد جانب شاكلة الصواب فى رأيه هذا، وذكر أن النقل والترجمة لم يبتدعهما المأمون، وذلك لأن الترجمة كانت موجودة من عهد بنى أمية من قبل المأمون، ومن قبل قيام دولة بنى العباس، ثم تحدث عن الترجمة والنقل وبين أن لهما طريقتين إحداهما جيدة والأخرى رديئة؛ الجيدة طريقة إسحاق بن حنين، والرديئة طريقة يوحنا بن البطريق، وشرح الطريقتين شرحاً وافيا، ثم تحدث عن اختلاف الأمة الإسلامية وانقسامها فرقاً وشيعاً وأحزاباً، وذكر حديثا للرسول ﷺ فى ذلك، وتحدث عما فعل أهل الأهواء والبدع بالسنة المطهرة، وذكر أن السنة الشريفة ستظل أبد الدهر شامخة سامقة لا يضرها كيد الحاقدين، ولا يزحزحها عن مكانتها تربص المتربصين بها، وسفه الواثبين عليها، وتحدث عن المعتزلة والمناظرة التى جرت بين أبى الحسن الأشعرى وأبى على الجبائى فى وجوب الصلاح أو الأصلح على الله تعالى فى حق عباده، وبعد أن تحدث عن ذلك تحدث عمَّا أسماه بالإلزام وهو عنده إجابة الخصم بما يفحم خصمه، ويُلزمه السكوت التام، وأورد مقطوعات لابن الرومى وأبى العلاء المعرى فى الإلزام ثم تحدث بعد ذلك عن العلم والفضل ومكانة العلماء والفضلاء بين الناس وكيف أن الملوك والعلماء يحتفون بهم، ويتخذون منه أساتذة لأبنائهم، وتحدث عن ذكاء إياس بن معاوية، كما تحدث عن القضاء والقضاة وما ينبغى لهم أن يكونوا عليه من الاستقامة والوضوح والنزاهة والبعد عن الشبهات حتى يمكن لهم أن يَحكموا بين الناس بالعدل، وأوردَ شعراً لعدد من القضاة يبين حساسية هذا المنصب وخطره، وكيف أن الفوز والنجاة إنما يكونان فى التخلص من تبعات هذا المنصب وأعبائه الجسام؛ إذ لا شىء أحسن من حسن الأحدوثة بين الناس؛ فأصالة العرق وصراحة





النسب لا يغنيان أبداً عن حسن الأحدوثة، والسير بين الناس سير الرشد والصلاح، وبهذا الموضوع ينتهى شرح الصفدى للبيت الأول من أبيات اللامية وتنتهى معه جولاته وخواطره الفكرية التى أوحت بها المناسبات والمواقف التى كان يتعرض لها ويقع تحت تأثيرها أثناء الشرح ليبدأ فى شرحه وتعليقه على البيت الثانى، فنراه كما قال فى المقدمة يثبت البيت ثم بعد ذلك يشرع فى الشرح، وطبيعى أن المنهج هو المنهج الذى اتبعه الصفدى فى شرح جميع أبيات اللامية؛ يبدأ بالشرح اللغوى ثم الشرح النحوى ثم الشرح الأدبى الذى يمنحه الفرصة التى بها يصول ويجول فى كل ميادين العلم والفن .

ولعلنا بعد هذا العرض التحليلى لشرح البيت الأول من أبيات اللامية نستطيع أن نحكم على مدى التزام الصفدى بأسس منهجه الذى بينه فى أول الكتاب حكماً يستمد من هذا التحليل الدعائم التى تؤيده، فقد التزم الصفدى بكل ما اشترطه على نفسه فى مقدمة الكتاب التزامًا يكاد يكون حرفياً، وقد كان هذا الالتزام ديدنه فى شرحه جميع أبيات اللامية، ومع هذا فهناك عدة ملاحظات أبرزتها قراءتى للغيث، وهى فى مجموعها لا تمس أَيَّةَ دعامة من دعائم الشرح التسع التى أقام الصفدى عليها منهجه من حيث عدم الإخلال بها أو عدم توفيتها حقها من الشرح، وإن كانت بطبيعة الحال تتعلق بهذه الدعائم لأنها تدور حولها وتنبثق منها، وسيدور الحديث فى الفقرات القادمة حول هذه الملاحظات .

## خامساً : ملاحظات أبرزتها قراءتى للغيث :

١- **وأول هذه الملاحظات** : أن الصفدى قد ضمن شرحه لأبيات اللامية عدداً كبيرا من مقطوعاته الشعرية، وكان حريصاً على أن يتضمن كل بيت من أبياتها مقطوعة أو أكثر من هذه المقطوعات، وإن خانه هذا الحرص أحياناً، ولم يلتزم الصفدى بموضع ثابت لهذه المقطوعات، أى لم يجعل لها فصلاً مستقلاً داخل شرحه للبيت، وإنما كان يأتى بها حسبما يقتضى الحال ويستدعى السياق، فتارة تأتى فى أول شرحه للبيت، وتارة ثانية تأتى فى وسط شرحه للبيت، وتارة ثالثة تأتى فى آخر شرحه للبيت، وقد كان نصيب الشرح الأدبى للبيت الأول من أبيات



اللامية خمس مقطوعات من هذه المقطوعات الشعرية أثبتها الصفدى فى وسط الشرح، وكان لشرح البيت الثالث من أبيات اللامية نصيب الأسد من هذه المقطوعات الشعرية فقد ضمن الصفدى الشرح الأدبى لهذا البيت ثلاثًا وعشرين مقطوعة من مقطوعاته الشعرية، وأورد منها أربع مقطوعات فى وسط الشرح، وتسع عشرة مقطوعة فى آخره ، ومما ختم به شرحه لهذا البيت قوله:

«وكتبت على مجلد قديم قد رث :

ملكتُ كتاباً أخْلَقَ الدّهرُ جِلْدهُ ... وما أحَدٌ فى دَهْرِهِ بمُخَلَّدِ

إذا عاينتْ كُتْبى الجَدِيْدةُ حالَهُ ... يقولونَ: لا تهلك أسًى وتَجلَّدِ»(١)

وقد تأتى هذه المقطوعات الشعرية فى أول شرحه للبيت كما فى المقطوعات التى أوردها فى شرحه للبيت الرابع حيث قال : «وقلت أنا من أبيات :

عَلِقْتُها مِنْ بنات الترك قد غَنِيَتْ ... بِدَمْعِ عاشِقِهَا عَنْ منة الشَّنَفِ

يا للهوى عينُها عينٌ وحَاجِبُها ... نونٌ وتَم العنا من قَدِّهَا الألِفِ»(٢)

وقال: «وقلت :

سينُ الثنايا حَوَتْهَا مِيْمُ مبْسِمِهِ ... طُوبَى لِمَنْ ذَاقَ مِنْهَا كَاسَ تَسْنِيمِ

ومِن عجائبِ وَجْدِى أنّ بى سقماً ... ما بَرْؤهُ غيرَ تلك السينِ والميمِ»(٣)

ولقد بلغ عددُ مقطوعاته الشعرية التى بثها فى تضاعيف الغيث سبعاً وثمانين ومائة مقطوعة يبلغ عدد أبياتها سبعاً وأربعين وأربعمائة بيت، ومن هذه المقطوعات أربع وستون ومائة مقطوعة ثنائية الأبيات، وسبع مقطوعات ثلاثية، وثمانى مقطوعات رباعية، وثلاث مقطوعات خماسية، ومقطوعة سداسية، واثنتان سباعيتان، وواحدة ثمانية، هذا عدا بيت واحد مفرد مستقل فى شرحه على البيت السادس من اللامية .

ومعظم هذه المقطوعات ينضوى تحت غرض شعرى واحد هو المجون والغزل

(١) الغيث ١/١٢٦ .

(٢) السابق نفسه ص١٢٨ .

(٣) السابق نفسه ص١٢٩ .



بالذكر، وهى فى مجملها أشعار غثة باردة متكلفة يظهر فيها أثر المحاكاة والتقليد والصنعة، وحتى لا يطول حبل الكلام فى هذه الفكرة أكتفى بما أوردته من نصوص لتكون شاهداً عليها وأورد هنا أرقام الأبيات الى ضمن شرحها عدداً من مقطوعاته الشعرية مع الإحالة فى الهوامش إلى أرقام الصفحات التى وردت بها هذه المقطوعات، والأبيات هى: الأول[١]، والثالث[٢]، والرابع[٣]، والخامس[٤]، والسابع[٥]، والثامن[٦]، والتاسع[٧]، والعاشر[٨]، والحادى عشر[٩]، والثانى عشر[١٠]، والثالث عشر[١١]، والرابع عشر[١٢]، والخامس عشر[١٣]، والسادس عشر[١٤]، والثامن عشر[١٥]، والتاسع عشر[١٦]، والعشرون[١٧]، والثانى والعشرون[١٨]، والثالث والعشرون[١٩]، والرابع والعشرون[٢٠]، والخامس والعشرون[٢١]، والسادس والعشرون[٢٢]، والسابع والعشرون[٢٣]، والثامن والعشرون[٢٤]، والتاسع والعشرون[٢٥]، والثلاثون[٢٦]، والثالث والثلاثون[٢٧]، والرابع والثلاثون[٢٨]، والخامس والثلاثون[٢٩]، والسادس والثلاثون[٣٠]، والسابع والثلاثون[٣١]، والتاسع والثلاثون[٣٢]، والأربعون[٣٣]، والثالث والأربعون[٣٤]، والخامس والأربعون[٣٥]،

---

(١) يراجع الغيث : ١/ ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) الغيث : ١/ ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣) الغيث : ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٤) الغيث : ١/ ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٥) الغيث : ١/ ٢٠٣ .
(٦) الغيث : ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٧) الغيث : ١/ ٢٤٣ .
(٨) الغيث : ١/ ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٩) الغيث : ١/ ٢٨٢ ، ٢٨٨ .
(١٠) الغيث : ١/ ٣٠٠ ، ٣٠١ .
(١١) الغيث : ١/ ٣١٦ .
(١٢) الغيث : ١/ ٣٣٤ .
(١٣) الغيث : ١/ ٣٤٣ .
(١٤) الغيث : ١/ ٣٥٣ .
(١٥) الغيث : ١/ ٣٧٢ .
(١٦) الغيث : ١/ ٣٨١ .
(١٧) الغيث : ١/ ٣٩٢ ، ٣٩٥ .
(١٨) الغيث : ١/ ٤٠٨ .
(١٩) الغيث : ١/ ٤٢٥ .
(٢٠) الغيث : ١/ ٤٣١ .
(٢١) الغيث : ١/ ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ .
(٢٢) الغيث : ٢/ ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٢٣) الغيث : ٢/ ١٥ ، ٢١ .
(٢٤) الغيث : ٢/ ٣٥ .
(٢٥) الغيث : ٢/ ٤٢ ، ٤٣ .
(٢٦) الغيث : ٢/ ٥٠ ، ٥١ .
(٢٧) الغيث : ٢/ ٧٦ .
(٢٨) الغيث : ٢/ ٧٩ .
(٢٩) الغيث : ٢/ ١٠٢ .
(٣٠) الغيث : ٢/ ١١٩ .
(٣١) الغيث : ٢/ ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣٢) الغيث : ٢/ ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ .
(٣٣) الغيث : ج٢/ ١٧٧ .
(٣٤) الغيث : ٢/ ٢٠١ .
(٣٥) الغيث : ٢/ ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .






والسادس والأربعون[١]، والسابع والأربعون[٢]، والثامن والأربعون[٣]، والحادى والخمسون[٤]، والثانى والخمسون[٥]، والثالث والخمسون[٦]، والرابع والخمسون[٧]، والسادس والخمسون[٨]، والسابع والخمسون[٩]، والثامن والخمسون[١٠]، والتاسع والخمسون[١١] .

٢- **وثانى هذه الملاحظات** : حرصُ الصفدى على الاستشهاد بما للطغرائى من شعر فى ثنايا تحليله الأدبى لأبيات اللامية، وحرصه على الموازنة بين أبيات الطغرائى وغيرها من شعر الشعراء فى العصور السابقة عليه ، وهذا بطبيعة الحال بخلاف ما أورده له من شعر فى مقدمة الكتاب؛ لأن ما أورده فى المقدمة قد نص عليه فى منهج الشرح، وما أريد أن أعقب به على هذه الملاحظة هو أن الصفدى يهدف من وراء منهجه هذا فى إيراد شىء من نظم الطغرائى فى ثنايا شرحه لأبيات اللامية إلى أمرين :

أولهما: أنه يريد أن يدلل على رسوخ قدم الطغرائى فى نَظْم الشعر ، وأنه لا يقل فى إجادته له عن الفحول المبرزين فى هذا الفن القولى فى كل العصور وحتى عصره .

وثانيهما: أنه يهدف إلى تنمية الذوق الأدبى لدى قارئه ، وتدريبه على إجراء الموازنات الأدبية بين ما يقول الشعراء على اختلاف منازعهم فى الموضوع الواحد ، وبذلك تتكون لدى القارئ ملكة النقد العربى .

هذا مع ما كان يهدف إليه أساساً من إعطاء القارئ أكبر قدر ممكن من شعر الشعراء، ونثر الكتاب ليكون كتابه بمثابة موسوعة أدبية أو دائرة معارف أدبية - كما نقول بلغة عصرنا - تمد الدارس والقارئ بما يطلبان، وتغنى عن مجموعة كبيرة من الكتب فى كل فن على حده .

وإن كنت ألاحظ أن الصفدى لم يتوسع فى الاستشهاد بشعر الطغرائى وعرضه

---

(١) الغيث : ٢/٢٧٧ ، ٢٨٩ .

(٢) الغيث : ٢٩٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٣) الغيث : ٣٢١ .

(٤) الغيث : ٣٥٢ .

(٥) الغيث : ٣٦٠ .

(٦) الغيث : ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ .

(٧) الغيث : ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٨) الغيث : ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٩) الغيث : ٤٢٤ .

(١٠) الغيث : ٤٢٩ .

(١١) الغيث : ٤٦٤ .



فى ثنايا الشرح مثلما أفاض فى عرض مقطوعاته هو، مع أن شعر الطغرائى أجود وأرق من شعر الصفدى الذى تغلب عليه الصنعة، ويظهر عليه التكلف، ويفتقر إلى المعنى الشعرى فى كثير من الأحايين.

والصفدى حين يستشهد بما للطغرائى من شعر فى ثنايا الشرح الأدبى لأبيات اللامية يأتى به لا على صورة واحدة أو نمط واحد، بل على صور وأشكال مختلفة ولأغراض متعددة منها:

أ - أن يذكره وسط مقطوعات شعرية له ولغيره من الشعراء كأن يقول: «وقال مهيار الديلمى:

لا تحسَبِ الهِمَّةَ العَلْياءَ موجِبةً ... رزقاً على قِسْمَةِ الأرزاقِ لَمْ يَجِبِ
لو كان أفضَلُ ما فى الناسِ أسْعَدَهُمْ ... ما انحطت الشمسُ عَنْ عالٍ مِنَ الشُّهُبِ
أو كان أسْيَرَ ما فى الأفقِ أسلَمُهُ ... دامَ الهلالُ فلَمْ يمحَقْ ولَمْ يَغِبِ

وقال الطغرائى:

وأعظَمُ ما بى أنَّنِى بفضائلى ... حُرِمْتُ وما لى غَيْرَهُنَّ ذَرائعُ
إذا لم يَزِدْنِى موردى غَيْرَ غِلَّةٍ ... فلا صدرتْ بالواردين مَشارِعُ

وقال القاضى الفاضل:

ما ضَرَّ جهلُ الجاهلين ولا انتفعتُ أنا بحذْقى
وزيادتى فى الحذق فهى زيادةٌ فى نَقْصِ رِزْقِى»[(1)]

فهو هنا قد أتى بشعر الطغرائى وسط أبيات لمهيار الديلمى الشاعر العباسى، والقاضى الفاضل الشاعر والناثر الأيوبى، دون أن يحلله أو ينقده أو يعقب عليه بأى لون من ألوان التعقيب.

ب - ومنها أن يذكره ليستشهد به على فكرة أو معنى كأن يقول «ولا بد للزمان من انتباهة للفضلاء بعد رقاده عنهم؛ قال مؤيد الدين الطغرائى:

لا تيأسَنَّ إذا ما كُنْتَ ذَا أدبٍ .. ... على خُمولكَ أنْ تَرْقَى إلى الفلكِ
بينا يُرَى الذهبُ الإبريزُ مطرِحاً ... فى معدِنٍ إذْ غدا تاجاً على الملكِ»[(2)]



(1) الغيث المسجم: ج٢، ص١٢٦.

(2) الغيث ج٢، ص١٤١.

جـ- ومنها أن يذكره ليلتمس منه صورة لأخلاقه وسجاياه ، وخصاله وخلاله، كأن يقول: «وما يبعد أن الطغرائى كان ذا نفس شريفة سخية ، وهمةٍ عالية ، يؤثر المال لينفقه فى مصارفه ، ومن شعره - رحمه الله - وقد تقدم ذكره فى المقدمة :

سأحجبُ عنّى أسْرَتِى عِنْدَ عُسْرَتِى ... وأبرزُ فيهمْ إنْ أصَبْتُ ثَرَاءَ

ولى أُسوةٌ بالبدرِ يُنْفِقُ نُورَه ... فيخْفَى إلى أن يستجدَّ ضِيَاءَ

وهذه نفوس الأشراف تظهر عند الثروة طلباً للإنفاق ، وتخفى عند الفقر طلباً لكتمان حالها فلا تكلف الناس سؤالاً» [١] .

وحتى لا يطول حبل الكلام فى هذه الفكرة أكتفى بالنصوص السابقة لتدل عليها، وأورد هنا أرقام الأبيات التى ضمَّن شرحها عدداً من مقطوعات الطغرائى الشعرية مع الإحالة فى الهوامش إلى أرقام الصفحات التى وردت بها هذه المقطوعات، والأبيات هى: الأول [٢] والثامن[٣] والرابع عشر[٤] والسابع والثلاثون[٥] والثامن والثلاثون[٦] والتاسع والثلاثون[٧] والثانى والأربعون[٨] والسابع والأربعون[٩] والسادس والخمسون[١٠] والثامن والخمسون[١١].

**٣- وثالث هذه الملاحظات يتعلق باستطراد الصفدى فى الشرح، حيث ينقسم استطراده إلى أنواع ثلاث:**

**النوع الأول:** استطراد لذكر أشياء تخدم الفكرة التى يشرحها وترتبط معها برباط قوى، وذلك يكون عادة فى تحليله للنصوص الأدبية، ونقده إياها، وحكمه عليها، وهنا ولكى يزيد فكرته رسوخا فى الأذهان يستطرد ليأتى بنصوص شعرية أخرى لشعراء آخرين عبَّروا عن معانى النص المحلل بأساليب شعرية أكثر دقة وجمالا وتلافيا لمواطن الزلل والخطأ، ومثال هذا النوع من الاستطراد قوله فى ثنايا شرحه لبيت الطغرائى:

---

(١) الغيث ج١، ص٢٢٢ .

(٢) يراجع السابق نفسه ص٧٧ .

(٣) يراجع السابق نفسه ص٢٢٢ .

(٤) يراجع السابق نفسه ص٣٣٤.

(٥) يراجع السابق جـ٢ صـ١٢٦ .

(٦) يراجع السابق نفسه صـ١٤١ .

(٧) يراجع السابق نفسه صـ١٦٥ .

(٨) يراجع السابق نفسه صـ١٩٧ .

(٩) يراجع السابق نفسه صـ٢٦٥ .

(١٠) يراجع السابق نفسه صـ٤٠٠

(١١) يراجع السابق نفسه ٤٢٨ .

ملحوظة: لم ترد اللامية مرقمة فى الغيث، وسوف أوردها مرقمة فى نهاية الفصل.





فيم الإقامة بالزوراء لاسكنى بها ولا ناقتى فيها ولا جملى

«وما أعرف أحدا ضمن هذا المثل - أعنى لا ناقة لى فى هذا ولا جمل - أمكن ولا أحسن من قول الشهاب أبى الثناء محمود أنشدنى لنفسه إجازة من قصيدة:

أستغفرُ اللهَ أينَ الغيثُ منفصلا مِنْ بِرِّهِ وَهْوَ طُول الدهرِ مُتَّصِلُ

من حاتمٍ عَدِّ عنه واطَّرِحْ قَبَهِ فى الجُود لا بسواه يُضْرَبُ المَثَلُ

أين الذى برُّهُ الآلاف يُتْبِعُهَا كرائم الخيلِ ممن بِرُّهُ الإبلُ

لو مَثَّل الجودُ سرحاً قالَ حَاتِمُهُمْ لا ناقة لى فى هذا ولا جملُ

انظر إلى قلقه فى بيت الطغرائى لأنه عطف الناقة والجمل على السكن ولو عطف ما يناسب ذلك من أهلٍ وولدٍ لكان أحسن وأوقع فى النفس، وانظر إلى وروده فى أبيات الشهاب محمود؛ فإنه جاء فى مكانه منسجم التركيب ثابتا فى معناه حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا فى هذا المكان ولا ظهر إلا فى هذا القالب»[1].

فقد دعاه تضمين الطغرائى للمثل - لا ناقة لى في هذا ولا جمل - فى بيت اللامية إلى الحديث عن تضمين الشهاب محمود له والموازنة بين تضمين الطغرائى وتضمين الشهاب، وهذا لون من الاستطراد الذى يخدم فكرة الشرح ويدعمها.

والنوع الثانى من أنواع الاستطراد فى الشرح: هو ذلك الاستطراد الذى يقدم معلومات لا تخدم فكرة الشرح ولا ترتبط معها برباط قوى، وإنما دعت إليه الغاية التعليمية التى يحرص عليها والنزعة الموسوعية التى تهيمن عليه، وذلك واضح - كأشد ما يكون الوضوح - فى كل ما ساقه الصفدى من أبواب النحو المختلفة التى يكتظ بها الكتاب، فإعراب كلمة ما على أنها مجرورة بحرف الجر على سبيل المثال لا يوجب على معربها أن يكتب بحثا فى «إلى» واستعمالاتها في العربية، ولا أن يتبعه ببحث ثانٍ فى قوله تعالى «إلى المرافق» واختلاف الفقهاء فى غسل المرافق فى الوضوء، فهذه أشياء لا يطلبها قارئ الإعراب، فكان يكفى الصفدى - من وجهة نظرى - أن يعرب ألفاظ أبيات اللامية ذلك الإعراب العادى دون الدخول فى تفاصيل دقيقة لا تهم قارئ الكتاب الأدبى بالدرجة نفسها التى تهم الدارس المتخصص فى النحو والتصريف أو الفقه والأصول.

---

(١) الغيث جـ١ صـ ١١٨، صـ١١٩.



والنوع الثالث: من أنواع الاستطراد فى الشرح هو ذلك الاستطراد الذى يقد
معلومات لا تخدم فكرة الشرح، ولا ترتبط معها برباط قوى، ولا تحتاجه الغا
التعليمية، ولا تدعو إليه النزعة الموسوعية، ومثال ذلك حيث تحدث عن إعراب
قول الطغرائى: «فسر بنا فى ذمام الليل..» البيت؛ حيث أعرب فسر، ثم استطر
بعدها وذكر بيتين يشتملان على فعل ومصدره ليذكر أن هذا المصدر ليس مفعولا
للفعل وإنما هو مفعول به لفعل سابق حيث قال: «فَسِرْ الفاء للتعقيب أى عقب
كلامه بقوله فسر، وَسِرْ فعلُ أمرٍ من السير مجزوم لكونه أمرا، وذكرت هنا بيتين
من أبيات المعانى وهما:

سَأَلْتُ ونَحْنُ فِي البَيْدَاءِ عَمْرا عَلَى عَجَلٍ ونَحْنُ نَسِيرُ سَيْرا
فَجَادَ بِهِ ولَمْ يَبْخَلْ عَلَيْنَا فَقُلْتُ لَهُ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرا

ولا يظهر فى بادئ الرأى أنه جاد له بشىء؛ لأن الذهن يتبادر إلى أن سيرا
مفعول مثل ضربت ضربا، وإنما هو مفعول به لسألت وتقدير الكلام: وسألت
ونحن فى البيداء عمرا سيراً فجاد بالسير»[1].

ولا يمكن أن أتخيل - حقيقةً - أن هناك سببا معقولا يسوغ له الإتيان بهذين
البيتين والتعقيب عليهما، فلا النزعة الموسوعية التى تهيمن عليه، ولا الغاية
التعليمية التى يحرص عليها، ولا الفكرة التى يشرحها، ولا غير ذلك مما يمكن أن
يقال يوجب عليه أن يأتى بهذين البيتين ويعقب عليهما، فقد قطع تسلسل
الأفكار، وأوهى الروابط بين عناصر الشرح وأفكاره، وأحدث طفرة بشعة بهذا
الاستطراد الذى لا مبرر له ولا داعى إليه.

ولعل هذا النوع الأخير من أنواع الاستطراد فى الشرح قد كان السبب الرئيسى
فى كثير من الأحيان فى إيجاز الصفدى فى الحديث عن علوم وفنون كان من حقها
أن تأخذ كل هذه المساحة المكانية التى احتلتها الأفكار والآراء والخواطر التى
استطرد ليتحدث عنها، ولنقرأ على - سبيل المثال - خواطره وآراءه وتعليقاته على
البيت الأول من أبيات اللامية الذى سبق أن حللت شرحه له فماذا نرى؟ نرى أن
شرحه لهذا البيت قد أتى فى أربع وعشرين صفحة أطنب فيها وأسهب، وأعجب
وأغرب، واستطرد من فن إلى فنون، واسترسل فى شجون الجد والمجون على حد

(١) الغيث المسجم جـ١ صـ ٣٧٣، صـ ٣٧٤.

غير جمال الدين بن الحضرمى(١)، ثم قال فى معرض الحديث عن الفنون البديعية التى اشتمل عليها البيت: «وفى بيت الطغرائى من البديع نوعان وهما: الموازنة فى صانتنى وزانتنى، والنوع الثانى لزوم ما لا يلزم؛ فإنه التزم الطاء فى الخطل والعطل»(٢).

هكذا فى سطرين يوجز الصفدى الحديث عن الفنون البديعية التى يكتظ بها بيت الطغرائى، ولو أنه استطرد هنا وعرَّف بالموازنة، وضرب لها الأمثال من الشعر الجيد، ثم تحدث عن القيمة الجمالية لهذه الموازنة فى بيت الطغرائى وما أحدثت به من موسيقا داخلية، ولو أنه عرَّف التصريع ودوره فى الارتقاء بقيمة البيت الشعرى الفنية، ثم عرف لزوم ما لا يلزم وقيمته - بوصفه محسنًا بديعيًا - فى المساعدة على تجميل البيت وتحسينه من ناحية، وفى دلالته على مقدرة الشاعر اللغوية الفائقة من ناحية ثانية لكان أحسن وأليق، ولكان الشرح كتابا فريدا فى النقد والبلاغة على المستويين النظرى والتطبيقى فضلا عن كونه أحد الشروح الأدبية الهامة الموسوعية الطابع فى ذلك العصر.

ولقد كان الحديث عن هذه الفنون البديعية - دون شك - أوْلى وأجدَرَ وأحَقَّ بأن تستقل به صفحاتُ الكتاب بدلاً من الحديث عن آراء الفقهاء فى غسل الإناء سبع مرات إذا ولغ فيه الكلب، أو الحديث عن غير هذه المسألة من المسائل التى عرض لها الصفدى ولا تمت إلى الشرح الأدبى بحال من الأحوال.

وهذا الاستطراد بأنواعه الثلاثة يدل على سمة من سمات الصفدى العلمية، وهى أنه قد أوتى قوة فى اللجاج والمجادلة تمكنه من الانتصاف لرأيه، والانتصار له، وهذا يظهر جليا فى كل صفحة من صفحات الشرح، والصفدى لا يجادل فى علم أو فن واحد من العلوم أو الفنون، وإنما يتحدث فى كل علوم عصره ومعارفه، ويساجل أربابها والمبرزين فيها ويناقشهم ويحاورهم ويجادلهم ويخرج آخر الأمر إلى إقرار ما يريد، فقد دار بينه وبين الإمام ابن تيمية حوار سأله الصفدى فيه عن بعض المسائل التى أشكلت عليه فى تفسير عدد من آيات الكتاب العزيز، وأجاب عنها الإمام ابن تيمية، وكلما أجاب عن سؤال حاوره الصفدى فى الإجابة، وجادله فى آرائه وتخريجاته مبطلا إياها، ولما لم يجد الصفدى عند الشيخ ما يقتنع به من الإجابات تركه وانصرف، وقد أورد الصفدى هذا الحوار فى الجزء الثانى من الغيث، وهو حوار طويل لذا سوف أقتصر فى الاستشهاد على

---

(١) نشر العلم فى شرح لامية العجم صـ ٣.

(٢) الغيث المسجم جـ صـ٨٦، ٨٧






هذه الفكرة بالجزء الأخير منه قال الصفدى: «وسألته أيضا عن تفسير قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] إلى قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فأجاب بما قاله المفسرون فى الجواب وهو آدم وحواء، وأن حواء لما أُثقلت بالحمل أتاها إبليس فى صورة رجل وقال: أخاف من هذا الذى فى بطنك أن يخرجَ من دُبُرك أو يشقَّ بطنك وما يدريك لعله يكون بهيمة أو كلبا، فلم تزل فى هَمٍّ حتى أتاها ثانية وقال: سألت الله أن يجعله بشرا سويا، وإن كان كذلك فَسَمِّيه عبد الحارث، وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث فذلك قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما»[1]، هذه هى إجابة ابن تيمية فى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فلننظر بمَ أبطل الصفدى تفسير ابن تيمية لهاتين الآيتين الكريمتين، وكيف حاوره وجادله فى تفسيره وفهمه قال: «فقلت له: هذا فاسد من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال فى الآية الثانية «فتعالى الله عما يشركون» فهذا دليل على أن القصة فى حق جماعة.

الثانى: أنه ليس لإبليس فى الكلام ذكر.

الثالث: أن الله تعالى علَّم آدم الأسماء كلها فلا بد وأنه كان يعلم أن الحارث اسمٌ لإبليس.

الرابع: أنه تعالى قال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١] وهذا يدل على أن المراد به الأصنام لأن (ما) لما لا يعقل، ولو كان إبليس لقال (مَنْ) التى هى لمن يعقل»[2].

ولما سمع ابن تيمية هذه الأدلة الأربعة التى أبطلت تأويله تبنى رأيًا ثانيا فى تفسير الآية، فأبطله الصفدى، فأورد له تفسيرا ثالثا للآية كان سببا فى أن يترك الصفدى المناقشة مع ابن تيمية وينصرف، قال: «فقال الشيخ تقى الدين: قد ذهب

---

(١) الغيث جـ ٢ صـ ٢٤، صـ ٢٥.

(٢) الغيث جـ ٢ صـ ٢٥.



٥ - وخامس هذه الملاحظات التى أبرزتها قراءتى للغيث أن الصفدى لم يراع التوازن بين شرحه لأبيات اللامية؛ حيث أطال فى شرحه للأبيات الأولى من القصيدة، تلك الأبيات احتواها أول الجزء الأول من الغيث حتى لقد أتى شرحه للبيت الأول فى أربع وعشرين صفحة[١]، وأتى شرحه للبيت الثانى فى عشرين صفحة[٢]، وشرحه للبيت الثالث فى عشرين صفحة أيضاً[٣]، ثم بعد ذلك أخذت صفحات شرحه للأبيات الوسطى من اللامية، تلك الأبيات التى احتواها النصف الثانى من الجزء الأول من الغيث فى التناقص شيئًا فشيئًا حتى لقد أتى شرحه للبيت السادس عشر فى سبع صفحات[٤]، وأتى شرحه للبيت السابع عشر فى ثمانى صفحات[٥]. . . إلخ.

وليس معنى هذا أن عدد صفحات شرحه للأبيات أخذت فى التناقص التدريجى من أول البيت السادس عشر وحتى نهاية اللامية، وإنما معناه أن الصفدى لم يراع التوازن بين شرحه لأبيات اللامية حيث أطال فى شرح بعض الأبيات، وأوجزَ فى شرح بعضها الآخر..

٦ - كما ألاحظ أن الصفدي كان على وعى تام بما سيكتبه فى شرح أبيات اللامية من مباحث علمية وأدبية قبل شروعه فى تأليف الغيث، حتى لأستطيع أن أقرر أنه رتب هذه المباحث والمسائل على أبيات اللامية قبل التأليف، ودليلى على ذلك ما ذكره عند شرحه للبيت السابع والثلاثين من أبيات اللامية حيث عقد فصلاً عن ولوع الزمان بخمول الأدباء، والتنكر للفضلاء والعلماء والأمراء، أشار فى ثناياه إلى ما حدث للمعتمد بن عباد ثم قال «وستأتى نبذة من خبره بعد»[٦].

وظللت أقرأ فى الغيث حتى رأيت الصفدى قد عقد للمعتمد بن عباد فصلاً فى

(١) الغيث جـ١ من ص ٦٣ إلى ص ٨٧.
(٢) الغيث جـ١ من ص ٨٧ إلى ص ١٠٧.
(٣) الغيث جـ١ من ص ١٠٧ إلى ص ١٢٦.
(٤) الغيث جـ١ ص ٣٤٨ إلى ص ٣٥٥.
(٥) الغيث جـ١ من ص ٣٥٥ إلى ص ٣٦٣.
(٦) الغيث جـ٢ ص ١٣٥.



ثانيًا شرحه للبيت السابع والأربعين من أبيات اللامية استغرق أربع صفحات تحدث فيها عن مصيبته، وأثرها في الشعر، حيث أفرد لها ابن اللبانة «جزءًا سماه نظم السلوك قصره على واقعة المعتمد وأشعارِه في السجن، وأشعار أولاده»[1].

ولا نستطيع أن نزعم أن المصادفة هي التي أخرت الحديث عن المعتمد إلى هذا الموضع من الكتاب؛ لأن معنى بيت الطغرائي يدور حول الصبر وعدم الضجر من مصائب الزمان وحوادث الدهر، وقصة المعتمد تدعو إلى المعنى نفسه، ومن ثم ناسبت الموضع الذي ساقها الصفدي فيه، وكان الصفدي على وعي تام بما يقدم ويؤخر كما قلت في أول الحديث عن هذه الملاحظة.

## سادسًا: الشرح اللغوي لأبيات اللامية:

١- يجري الصفدي في شرحه اللغوي لأبيات اللامية على نهج ثابت تقريبًا؛ حيث يبدأ أولاً ببيان معنى اللفظة، ويدلل على هذا المعنى بورودها في شواهد كثيرة بالمعنى نفسه الذي استخدمه الطغرائي، ثم يتحدث عن تصريفها، وبعد ذلك يتناولها من جانب النطق أو ما يطلق عليه في العربية اللهجات، لكني رأيته في بعض الأحيان ينشغل بهذا الجانب عما سواه فلا يبين معنى الكلمة، ولا يتحدث عن تصريفها، وإنما يخوض في مباحث اللهجات مباشرة، ومثال ذلك شرحه لكلمة شغل من قول الطغرائي «والحظُّ عني بالجهال في شغل» حيث يقول «شغل فيه أربع لغات شُغْل بضم الشين وسكون الغين، وبضمهما، وشَغْل بفتح الشين وسكون الغين، وشَغَل بفتحهما»[2]، ونراه رغم انصرافه عن كل الجوانب اللغوية الأخرى لا يعمق هذا الجانب، فلم يبين لنا مثلاً القبائل العربية التي كانت تنطق اللهجة الأولى، ولا الأقوام التي كانت تنطق اللهجة الثانية، ولا مَن مِن العرب الأقدمين الذي تحدث باللهجة الثالثة، ولا لغةُ مَن الرابعة كما عوَّدنا في غير هذا الموطن حيث كان يذكر اللهجة وينسبها إلى أصحابها كما فعل عند الحديث عن كلمة (وجل) التي وردت في البيت الخمسين من اللامية حيث قال «الوجل الخوف تقول: وجل يوجل وياجل وييجل بكسر الياء؛ فمن قال ياجل جعل الواو ألفًا

---

(١) السابق نفسه ص ٢٩٧.

(٢) الغيث جـ٢ ص ١٢٠.






لفتحة ما قبلها ومن قال ييجل بكسر الياء فعلى لغة بنى أسد فإنهم يقولون أنا ايجل، ونحن نيجل، وأنت تيجل»[1].

٢- ومن المعالم المميزة لشرح الصفدى التى أكسبته قيمته اللغوية العالية تخطئته للشعراء فى استخدامهم لبعض الكلمات فى معان لا تدل الألفاظ التى استخدموها عليها، ومثال ذلك تخطئته لاستخدام أبى الفوارس سعد بن محمد بن الصفى للفظ الرؤيا بمعنى الرؤية البصرية فى قوله:

لَو نِيلَ بِالْقَوْلِ مَطْلُوبٌ لَمَا حُرِمَ الرؤيا الكليمُ وكان الحظُّ لِلْجَبَلِ

والصفدى فى مثل هذه المواقف يأتى أولاً بالفروق اللغوية بين الألفاظ المتشابهة كما تعارف عليها أهل العلم بالعربية، ثم يعمد إلى سوق شاهد من كلامهم أوموقف من مواقفهم الكثيرة من أساليب الشعراء وألفاظهم يحتج به، ثم ينتهى بهذه الحيثيات جميعا إلى تخطئة شاعره، وهو هنا قد أورد أبيات أبى الفوارس سعد بن محمد بن الصفى، ثم ذكر الفروق اللغوية بين لفظتى الرؤيا والرؤية فقال: «قلت: قد فرق أرباب العربية بين الرؤيا والرؤية فقالوا: الرؤيا مصدر رأى للحلم، والرؤية مصدر رأى للعين»[2] ثم يذكر تخطئتهم للمتنبى فى خلطه بين الاستعمال فى قوله: «ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض» «فيقول: «وغلّطوا أبا الطيب فى قوله:

مضى الليلُ والفضلُ الذى لمْ يَمْضِ ورُؤْياكَ أحلى فى العيونِ مِنَ الْغَمْضِ

قالوا: الرؤيا للحلم قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٢٤]»[3]، ثم ينتهى إلى تخطئة شاعره فيقول: «وقد وهم هذا الشاعر فى استخدام الرؤيا هنا فى قوله لما حرم الرؤيا الكليم، وإنما حرم الرؤية»[4]، ثم يسارع الصفدى بعد ذلك إلى تبرير خطأ شاعره، والتماس المعذرة له حيث يقول: «وهذا الغلط قد وقع فيه كثير من الفضلاء»[5].

---

(١) السابق نفسه ص ٣٣٤.

(٢) السابق نفسه صـ ١٢٢.

(٣) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.

(٥) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.



٣- ومن معالم الشرح اللغوى لأبيات اللامية أن الصفدى لا يشرح معنى كلمة سبق أن شرحها فى بيت سابق، وكل ما يفعله أنه يحيل القارئ إلى شرحه السابق، لكن اللافت للنظر حقا أنه فى زحمة هذه الإحالات المتابعة ينسى أن يشرح معنى كلمة من كلمات البيت لم ترد فى بيت سابق ولم يسبق له شرحها، ومثال ذلك أنه لم يفسر معنى كلمة (درجوا) فى قول الطغرائى «هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا» حيث قال: «امرئ تقدم الكلام عليه فى قوله: حب السلامة البيت، أقرانه: الأقران جمعُ قرين وهو المصاحب، من قبله: قبل نقيض بعد، فَتَمَنَّى: تمنيتُ تفعلتُ من المنية، فسحة: تقدم الكلام عليها فى قوله أعلل النفس، الأجل: مدة الشىء وغاية العمر»[1].

فهو هنا بين معنى أقرانه، ثم معانى مفردات الشطرة الثانية من البيت، وأغفل الحديث عن كلمة (درجوا) مع أنه لم تسبق الإشارة إليها؛ لأنه لو سبق وشرحها لقال تقدم الكلام عليها عند الحديث عن كذا مثلما فعل فى لفظتى (امرئ) و(فسحة).

٤ - وعندما يتناول الصفدى معانى مفردات أبيات اللامية يشرح اللفظة، ويأتى بمعانيها المختلفة ويدلل على هذه المعانى بشواهد وردت فيها هذه اللفظة بالمعنى الذى ذكره، وهو ينوِّع إلى حدٍّ كبير فى شواهده مازجاً فيها بين الشعر والنثر، فتارة يستدل على معنى اللفظة بورودها بالمعنى نفسه فى حكمة أو مثل قديم، وهو يعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف اعتمادا ظاهرا وكبيرا، ويوليهما اهتماما خاصا إيمانا منه بأن القرآن أفصح النصوص العربية على الإطلاق، ومن ثم كثرت شواهده فى شرحه لمفردات القصيدة، وإيمانا منه بأن النبى «صلى الله عليه وسلم» أفصح العرب، وأن كلامه الشريف فى أعلى درجات البيان.

إلا أنى ألاحظ أن شواهده من الحديث الشريف أقل بكثير من شواهده من القرآن العظيم، وربما يُعزى هذا إلى أن الصفدى عالم متخصص فى اللغة والنحو، واللغويون والنحاة لهم على الاستدلال بالحديث النبوى الشريف فى هذا المجال تحفظات كثيرة لأسباب معلومة منها عدم ضبط متنه وثباته مما عرّض النص الواحد لأن يأتى بأكثر من رواية، ومنها أن روايته قد تناولها أناس أعاجم[2]، إلى غير ذلك من الأسباب.

---

(١) الغيث جـ ٢ صـ ٢١٩.

(٢) الأعراب الرواة د. عبدالحميد الشلقانى صـ٧ طبع دار المعارف بمصر د. ت.






فعند شرحه لمفردات بيت الطغرائى:

لَو أَنَّ فِى شَرَفِ الْمَأْوَى بلُوغَ مُنًى ... لم تَبْرَحِ الشَّمْسُ يوماً دارة الحَمَلِ

قال: «الشرف: العلو والمكان العالى؛ قال الشاعر:

آتى الندى فلا يقرب مجلس ... وأقود للشرف الرفيع حمارى

.. المأوى: كل مكان يأوى إليه الشيء ليلا أو نهارا، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].. بلوغ: مصدر بلغت المكان إذا وصلت إلى حده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٤]،[١] أى وصلن»[٢].

وهذه الفقرة التى نقلتها من شرحه اللغوى لمفردات البيت تبين فى وضوح اعتماده على الشعر وعلى القرآن الكريم فى شرح معانى الكلمات، وبهذه الطريقة يسير الصفدى فى شرحه اللغوى لمعظم أبيات القصيدة تقريبا، فلا يكاد يخلو شرحه اللغوى من الاعتماد على الشعر والقرآن الكريم فى تفسير معانى المفردات، ونادرا كما قلت ما يعتمد على الحديث النبوى فى الشرح اللغوى، وهذه الندرة فى الاستشهاد بالحديث تنطبق أيضا على شرحه الأدبى، وعلى تناوله لقضايا النحو أثناء إعرابه للأبيات، ومن صور اعتماده على الحديث فى الشرح اللغوى ما ذكره فى تفسير كلمة إلمامة من قول الطغرائى:

لَعَلَّ إِلْمَامَةً بِالْجِزْعِ ثَانِيَةً ... يَدُبُّ مِنْهَا نَسِيمُ البُرْءِ فِى عِلَلِى

حيث قال الإلمام: النزول، وقد ألمَّ به: أى نزل، وغلام ملم: قارب البلوغ، وفى الحديث: «إن مما ينبتُ الربيعُ ما يقتل حبطا أو يُلِمّ» أى يقرب من ذلك»[٣].

وإذا ما أردنا أن نقارن بين طريقة اعتماده على القرآن الكريم وطريقة اعتماده على الحديث الشريف وجدنا وجهًا ثانيا من وجوه المقارنة يكمن فى طريقة الاستشهاد بكل منهما؛ فإذا ما كان الشاهد آيةً من القرآن الكريم قال الصفدى:

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٤، وسورة الطلاق آية ٢.
(٢) الغيث جـ ٢ صـ٣٠١.
(٣) الغيث جـ ١ صـ٥.



ومنه قوله تعالى» كما رأينا فى الفقرة السابقة، أى ومن هذا الاستخدام اللغوى جاء قوله تعالى أو جاءت اللفظة فى قوله تعالى، أما إذا كان الشاهد من الحديث النبوى الشريف فيقول الصفدى: «وفى الحديث كما فى الشاهد المتقدم» وهى كما نرى توطئة بين يدى الشاهد لا تعطى ما تعطيه لفظة (مِنْ) مِنَ القوة واليقين.

ومثال اعتماده على الحِكَم والأمثال فى شرح لغويات القصيدة ما فسر به معنى كلمة (يدب) فى البيت السابق - أيضا - لعل إمامة.. حيث قال: «دب على الأرض يدب دبيبا، وكل ماشٍ على الأرض دابة، ودبيب هذا وضع اللغة، وقولهم: «أكذب من دب ودرج» معناه أكذب الأحياء والأموات»[1].

******

(١) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.






## سابعًا: مظاهر غلبة النزعة التعليمية على الشرح:

يستطيع القارئ أن يدرك بسهولة ذلك المنزع التعليمى الذى يتجه إليه الصفدى فى الغيث، وذلك لما يبدو من مظاهره التى من أهمها:

١- **حرصه على إيراد الأشياء المتشابهة والتفريق بينها**، وعلى إيراد الأشياء المتقابلة وحصرها، وعلى حصر جميع الأسماء التى يتسمى بها الشىء الواحد، وهذا لون من ألوان الاستطرادات التى لا تخدم فكرة الشرح ولا مبرر لوجودها والإتيان بها فى ثناياه سوى ما يسيطر عليه من غلبة النزعة التعليمية كما أشرت فى غير هذا الموضع، وأستطيع أن أضرب لهذا المظهر أمثلة كثيرة منها عند شرحه لفظة المأوى من قول الطغرائى. «ولو أن فى شرف المأوى...» البيت قال: «وجنة المأوى أحد الجنات الثمانية، وقد نطق بها القرآن الكريم وهى: جنة الفردوس، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة عدن، وجنة الخلد، ودار المتقين، ودار السلام، ودار القرار»(١).

فهذه جميعًا أسماء مختلفة لمسمى واحد جمعها الصفدى ليسهل على المتعلم حفظها، ثم أورد ما يقابلها وهى أسماء النار حيث قال: «والنار سبع: وهى جهنم، والجحيم، وسَقَر، ولظى، والحُطَمة، والسعير، والهاوية»(٢).

٢- **حرصه على الإكثار من ذكر الأشياء المشهورة بين الأدباء**، المتداولة فيما بينهم، وإطالة الحديث فيها والشرح لها، وهو هنا يجرى على ما سار عليه العرب القدماء من تلقين الناشئة ما اشتهر بين الأدباء من جيد اللفظ والمعنى تدريبًا لهم على صنعة الأدب عن طريق التقليد والمحاكاة، وعن طريق حفظ الكثير من الأشعار الرائقة، والأمثال الفائقة فى الموضوع الواحد؛ إذ الكلام عندهم من الكلام، وإذ حسن عندهم حلُّ المنظوم ونظم المنثور.

وأستطيع أن أضرب على هذا المظهر أمثلة كثيرة منها قوله: «ومما اشتهر بين الأدباء قولهم: أخف من دينار يحيى بن على بن منارة بلى بالعباس بن الوليد المصيصى الخياط لما أعطاه دينارًا خفيفًا، فقال فيه عدة مقاطيع منها:

---

(١) السابق نفسه ص ١٠٣.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



دينار بيحيى زائدُ النُّقصانِ ... فيه علامةُ سكّةِ الحِرمانِ

قد رقّ منظرُه ودقّ خيالُه ... فكأنّه روحٌ بلا جُثمانِ

أهداه مكتتمًا إلى برقعة ... فوجدتُه أخفى من الكتمانِ

وضرطة وهب، وما أحسن قول ابن الرومى يعتذر له:

قد كثّر الناسُ فى وهبٍ وضرطتِهِ ... حتى لقد ملَّ ما قالوا وقد بردا

لم تعلُ ضرطةُ هاجيه كضرطته ... فى الذاكرين ولم يُحسَد كما حُسِدا

يا وهبُ لا تكترثْ بالعائبينَ لها ... فإنما أنت غيثٌ ربما رَعدا»[(١)]

ومن هذا القبيل أيضًا إيراده ما له شهرة بين الإخباريين يقول: «ومما له شهرة بين ذوى الأخبار دِرّة عمر بن الخطاب رضى الله عنه... وقميص عثمان وهو الذى ضُرج بدمه يوم قتل، وفقه العبادلة وهم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله ابن الزبير، وذكاء إياس بن معاوية القاضى، وشجة عبد الحميد بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب وكان من أجمل أهل عصره أصابته شجة فى وجهه فلم تشنه»[(٢)].

كما يدل إيراده لما له شهرة بين المحدثين على ذلك المنزع التعليمى الذى يتجه إليه حيث قال: «وممن له شهرة بين المحدثين غَسيلُ الملائكة وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى خرج يوم أُحُد فأُصيبَ فقال رسول الله ﷺ: «هذا صاحبكم قد غسلته الملائكة»، وقتيلُ الجن وهو سعد بن عبادة، ومصافح الملائكة وهو عمران بن الحصين، وحمى الدبر وهو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح حمته النحل إلى أن كان الليل فاجتحفه السيل ولم يصل عِداهُ إلى حز رأسه، وذو الشهادتين وهو خزيمة بن ثابت الأنصارى شهدَ لرسول الله ﷺ فى قضاء دَيْن اليهودى...»[(٣)].

فالصفدى إذن يهدف إلى أن يعلم الناشئة كل ما له شهرة بين الأدباء والعلماء والرواة، وليس هذا فحسب بل إنه من أجل ذلك الهدف التعليمى الذى يسيطر

---

(١) الغيث جـ٢ ص ١٠٥.

(٢) السابق نفسه ص ١٠٨.

(٣) السابق نفسه ص ١٠٧، ص ١٠٨.



عليه عقد فصلاً عدّد فيه أفاضل العميان حيث قال: «وأشراف العميان: شعيب النبى عليه السلام، ويعقوب صلوات الله عليه قبل أن يجىء إليه قميص يوسف عليه السلام، وزهرة بن كلاب بن كعب بن مرة بن عبد المطلب بن هاشم، والعباس بن عبد المطلب، والحكم بن أبى العاص، وأبو سفيان بن حرب، والحارث ابن عباس ابن عبد المطلب، ومطعم بن عَدِىّ بن نوفل بن عبد مناف...»[1].

٣- **حرصه على الإتيان بما شاع فى ذلك العصر من مسائل رياضية غايتها تنشيط الذهن،** وتدريبه على الحساب حيث يقول: «وذكرت هنا ما تمتحن به الأذهان فى الحساب قالوا: صفان من الحمام قال الأعلى للأسفل: كم عددكم؟ فقالوا: إذا طلع منا إليكم واحد كنتم مثلينا، وإذا نزل منكم إلينا واحد تساوينا، فكم عدد كل صف؟ الجواب: الصف الأعلى سبعة والصف الأسفل خمسة[2]» ولقد ذكر الصفدى بعد هذه المسألة أربع مسائل أخر ختمها بهذه المسألة قال: «مسألة أخرى: بركة تمتلىء من نهرٍ فى يومين، ومن نهر فى ثلاثة أيام، ومن نهر فى أربعة أيام، وفتحت الأنهار الثلاثة دفعة واحدة، فى كم تمتلىء؟ الجواب: فى اثنى عشر جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من يوم»[3].

ولم يكتف الصفدى فى هذه المسألة بإيراد الحل أو الجواب فحسب، بل أخذ يشرحه ويعلل له فيقول «لأنك تأخذ مخرج النصف والثلث والربع وهو اثنا عشر وتقسمه على مجموع الأجزاء وهى ثلاثة عشر جزءاً، الخارج اثنا عشر جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من يوم، لأنه ينصبُّ إليها من النهر الأعظم ستة أجزاء من ثلاثة عشر، ومن الأوسط أربعة أجزاء، ومن الأصغر ثلاثة أجزاء، وذلك مجموعها»[4].

٤- **ما يغلب عليه - أحيانًا - من ميل إلى الوعظ الدينى،** والإرشاد الخلقى، وسَوْق الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وحِكم الفضلاء، وعظات المتأدبين من أئمة الوعظ والدين عند الحديث عن الأخلاق العامة

(١) السابق نفسه ص ٣٢٧.

(٢) السابق نفسه ص ٢١٣، ٢١٤.

(٣) السابق نفسه ص ٢١٤.

(٤) الغيث جـ٢ ص ٢١٤، ٢١٥.



كالصدق، والبر، والوفاء، والصبر، والحلم، وغيرها؛ فقد تحدث عن الصبر عند شرحه لبيت الطغرائى:

فاصْبِرْ لها غير محتـالٍ ولا ضَجِرٍ　　　فى حَادِثِ الدَّهْرِ ما يُغْنِى عَنِ الْحِيَلِ

فقال: «اصبر للنوائب صبر من لا يحتال ولا يقلق لنزولها؛ فإن فى حادث الدهر ووقائعه ما يغنيك عن الحيل، ويأتيك بما لا تقدر عليه بحيلك وحولك، ولو لم يكن فى الصبر إلا ما جاء فى القرآن الكريم من الثناء على من اتصف به، ومن الوعد له بالعقبى، وما جاء عن النبى ﷺ من قوله: «انتظارُ الفرج بالصبر عبادة» لكان فى ذلك كفاية، وروى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ: إن الصبرَ نصفُ الإيمان، واليقين الإيمان كله، وقالت عائشة رضى الله عنها: لو كان الصبر رجلاً لكان كريمًا، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: أىُّ شىء أقرب إلى الكفر؟ قال: ذو فاقة لا صبر له، وقال الحارث بن أسد المحاسبى: لكل شىء جوهر، وجوهرُ الإنسان العقل، وجوهرُ العقل الصبر[1]».

٥- **تعمُّد توزيع أبواب النحو العربى على شرحه لأبيات اللامية**، وعندما نقرأ الشرح نشعر بهذا المظهر، ونحس به إحساسًا قويًا، ونرى له أدلة كثيرة تؤيده منها إحالته فى كثير من الأحيان قارئه إلى شرحه لِبيتٍ مضَى أو شرحه لبيت آت، أما إحالة القارئ إلى شرحه لبيت مضى: فمثل قوله عند إعراب لفظة رقة من البيت الحادى عشر من أبيات اللامية حيث قال «رقة: مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله لمزجت، وقد تقدم الكلام على مفعول ما لم يسم فاعله فى قوله ناء عن الأهل... البيت[2]». ومثل قوله عند إعراب لفظة يحمون من البيت الثامن عشر من أبيات اللامية حيث قال: «يحمون: فعل مضارع مِن حمى يحمى والواو ضمير الفاعلين، والنون علامة الرفع للفعل المضارع .... وقد تقدم الكلام على موجب إعراب الفعل المضارع فى قوله أريد بسطة كف[3]».

وأما إحالة القارئ على شرحه لبيت آت فمثل قوله عند إعراب لفظى (قد) و(مزجت) من البيت الحادى عشر من أبيات اللامية حيث قال: «قد: حرف

(١) السابق نفسه ص ٢٩٢.
(٢) السابق جـ١ ص ٢٧٢.
(٣) السابق نفسه ص ٣٦٣، ص ٣٦٤.



يصحب الأفعال، ويقرِّبُ الماضى من الحال، وهى هنا لتحقيق الفعل وسيأتى الكلام عليها فى قوله «نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت»[1].

وأمثال هذه الإحالات كثيرة، ويجدها القارئ مبثوثة فى ثنايا الشرح، وهى تدل على ما ذهبتُ إليه من أن حرصه على الغاية التعليمية جعله يضع نصب عينيه هذا التوزيع الدقيق لأبواب النحو على أبيات اللامية حتى يستطيع القارئ بعد قراءة الشرح أن يكون على إلمام بكل المسائل النحوية التى تجعله راسخ القدم، ثابت الجنان إذا ما تعرض للحديث عن النحو، أو حاول الخوض فى إحدى مسائله، أو تعرض لإعراب جملة، أو بيت، أو فقرة من رائع البيان.

## ثامنًا: الفكاهات والنوادر فى الشرح:

لعل من أهم المعالم التى تميز شرح الصفدى للامية العجم، وتجعله - رغم ما يحمل بين طياته من مادة لغوية وأدبية، وتاريخية ودينية لا يقوى عليها سوى نفر قليل من ذوى الدربة والتمرس بقراءة كتب الأدب القديم - محبَّبًا إلى القارئ ومفضَّلاً لديه: أن الصفدى يأتى - بين الحين والحين - ببعض النوادر الفكاهات والمداعبات التى تجرى فى مجالس السلاطين أو فى منتديات الأدباء، ولعل براعة الصفدى تظهر فى إيراد هذه النوادر أكثر من ظهورها فى أثناء عرض القضايا العلمية؛ لأن القارئ لا يشعر معها بأنه ترك الشرح أو التفسير اللغوى أو الأدبى إلى شيء آخر يبتعد عنه كثيرًا أو قليلاً، وإنما يشعر بأن الصفدى قد انتقل به - بلطف وخفة- إلى جو من المرح واللهو، والإمتاع والمؤانسة يجعله أكثر نشاطًا، وأقدر على مواصلة الاستيعاب والفهم من أى جو آخر.

فمن تلك النوادر التى جرت فى بلاط السلاطين ما حكاه فى شرحه للبيت الثالث والأربعين من أبيات اللامية حيث قال: «قيل: إن شيخ الشيوخ صدر الدين قدمَ من بغداد رسولاً إلى السلطان صلاح الدين، فحضر يومًا عنده، فلما قام قدَّم صلاح الدين مداسه، فأراد الشيخ لبسها، فقال القاضى الفاضل: هذه النعل تشرفتْ ولم تعد تصلح إلا للرؤوس، فقال الشيخ صدر الدين: باسم الله أنا فقير، ومذهبى الإيثار، فلم يَحِرْ القاضى الفاضل جوابًا[2]».

(١) السابق نفسه ص ٢٧٢.

(٢) الغيث جـ٢ ص ١٩٨، ١٩٩.



ومن نوادر الأدباء ما حكاه عن أبي نواس حيث قال: «وحُكى أن أبا نواس كان فى يوم شديد البرد وعليه فروة، فمر به بعض السؤَّال فطلب منه ما يلبسه، فقال: ما أملك غير هذه الفروة، فقال السائل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] فقال أبو نواس: هذه الآية أنزلها الله تعالى فى الحجاز فى شهر تموز فيما يؤكل، ولم يُنزلها فى شهر كانون فى الرَّهَى فيما يُلبس[١]».

ومن النوادر التى أوردها الصفدى أيضًا ما حكاه عن بعض الأثرياء حيث ألح عليه أحدُ المساكين فى الطلب، فلما يئس السائل منه صاح فيه قائلاً: أين الذين يؤثرون على أنفسهم؟ فأجابه الغنى قائلاً: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافًا[٢].

وقد روى الكثيرَ عن أشعب ونوادره وطمعه حيث قال: «وأما نوادر أشعب فكثيرة مشهورة، ومن أحسنها أنه قيل له: ما بلغ مِن طمعك؟ قال لمن قال له ذلك: ما قلتَ لى هذا الكلام إلا وقد أخبأتَ لى شيئًا تعطينى إياه. وقيل له أيضًا: ما بلغ مِن طمعك؟ قال: ما رأيت عروسًا بالمدينة تُزَفُّ قط إلا كنستُ بيتى ورششته طمعًا فى أن تُزف إلىَّ[٣]».

ومن هذه النوادر التى رواها والأخبار التى أوردها عن أشعب قوله أيضًا: «يقال: إنه مر يومًا فجعل الصبيان يعبثون به، فقال لهم: ويلكم، سالم بن عبد الله يفرق من صدقة عمر، فمر الصبيان يعدون إلى دار سالم، وغدا أشعب معهم وقال: وما يُدرينى لعله يكون حقًّا[٤]».

ومن هذا القبيل ما أورده الصفدى عند الحديث عن كذب الحس وغلطه من طرائف، وعجائب، ومواقف، ولعل أروع هذه الطرائف والمواقف ذلك الموقف الذى أضحك النبىَّ ﷺ. فقد حكى الصفدى أن عبد الله بن رواحة كانت له امرأة شرسة الطباع، وكان - رضى الله عنه- يتقيها، وكانت عنده جارية فواقَعها، ورأته امرأته وهو يأتيها، فغضبت وثارت، وحاول -رضى الله عنه- إيهامها بأنه لم

(١) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه ص ٣١٦، ص ٣١٧.

(٤) السابق نفسه ، والصفحة نفسها.



يفعل، فاشترطت لتصديقه شرطًا وهو أن يقرأ عليها شيئًا من القرآن، فأنشد ابن رواحة:

شَهِدْتُ بِإذْنِ الله أنَّ محمدًا ... رسولُ الذى فوقَ السموات مِنْ علِ
وأنَّ أبا يَحْيى ويَحْيَى كِلاهُمَا ... له عَمَلٌ مِنْ ربِّه مُتَقَبَّلِ

وأنشدها:

شَهِدْتُ بأنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ ... وأنَّ النارَ مَثْوَى الكافِرينَا
وأنَّ العَرْشَ فوقَ الماءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمينا
وتَحْمِلُه مَلائِكَةٌ كِرَامٌ ... مَلائِكَةُ الإلَهِ مُقَرَّبِينَا

فهدأت ثورة المرأة وقالت بعد أن سمعت شعر ابن رواحة -وقد حسبته قرآنا-: «آمنت بالله وكذب البصر»(١).

والكتاب يكتظ بما أورده الصفدى من أخبار البخلاء، والحمقى، والمغفلين، وهى معين لا ينضب للتسرية عن النفس، والإضحاك والإمتاع، ومما أورده الصفدى من هذا القبيل قوله: «حُكى أنَّ بعضهم كتب إلى امرأة كان يهواها: مُرِى خيالك أن يلم بى، فكتبت إليه: ابعث إلىَّ بدينار حتى أجىء إليك بنفسى فى اليقظة. ومثلُ هذا ما حكى أن بعض البخلاء كتب إلى غلام يهواه: وضعت على الثرى خدى لترضى، فكتب إليه الغلام: ابعث إلىَّ بدينار حتى أدعك تضع خدك على خدى. وقيل: إن بعض المغفلين تعب فى تحصيل من كان يهواه مدة طويلة، فلما حصل عنده وضع العاشق رأسه ونام، فقال له: لأى شىء تفعل هذا؟ قال: مِن عشقى فيك أنام لعلى أرى خيالك فى المنام(٢)».

ولا شك أن مثل هذه النوادر تخفف من حدة الجو العلمى الذى يعيشه قارئ الكتاب، وتجعله يقبل على قراءته بشغف؛ الأمر الذى أعطى هذه النوادر أهميتها فى هذا الكتاب.

---

(١) الغيث جـ١ ص ١٤٣، ص ١٤٤.



(٢) السابق نفسه ص ٢٤٨.

## تاسعاً: لامية الطغرائي كما وردت في الغيث مع ترقيم أبياتها:

| قال الطغرائي: | | الصفحة |
|---|---|---|
| ١- أَصَالَةُ الرأيِ صانتني عَنِ الْخَطَلِ | وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زانَتْني لَدَى الْعَطَلِ | ٦٣ |
| ٢- مَجْدِي أخيراً ومَجْدِي أوَّلاً شَرَعٌ | والشمسُ رأْدَ الضُّحَى كالشمسِ في الطَّفَلِ | ٨٧ |
| ٣- فِيمَ الإِقامَةُ بالزَّوْراءِ لا سَكَنِي | بِها ولا نَاقَتِي فيها ولا جَمَلِي | ١٠٧ |
| ٤- ناءٍ عَنِ الأهلِ صِفْرُ الكَفِّ مُنْفَرِدٌ | كالسَّيفِ عُرِّيَ مَتْناهُ عَنِ الْخَلَلِ | ١٢٦ |
| ٥- فلا صديقٌ إليهِ مُشْتَكَى حَزَنِي | ولا أنيسٌ إليه مُنْتَهى جَذَلِي | ١٤٧ |
| ٦- طالَ اغْتِرَابِيَ حَتَّى حَنَّ رَاحِلَتِي | ورَحْلُهَا وقَرَى العَسَّالَةِ الذُّبُلِ | ١٦١ |
| ٧- وضَجَّ مِنْ لَغَبٍ نِضْوِي وعَجَّ لِمَا | أَلْقَى رِكَابِي ولَجَّ الرَّكْبُ في عَذَلِي | ١٧٩ |
| ٨- أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أَسْتَعِينُ بِهَا | عَلَى قَضَاءِ حُقُوقٍ لِلْعُلَى قِبَلِي | ٢١٢ |
| ٩- والدَّهْرُ يَعْكِسُ آمَالِي ويُقْنِعُنِي | مِنَ الْغَنِيمَةِ بَعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ | ٢٣١ |
| ١٠- وذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقِلٍ | بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيَّابٍ ولاَ وَكِلِ | ٢٥٢ |
| ١١- حلوُ الفُكاهةِ مُرُّ الجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ | بِشِدَّةِ البأسِ مِنْهُ رِقَّةُ الْغَزَلِ | ٢٦٨ |
| ١٢- طَرَدْتُ سَرْحَ الكَرَى عَنْ وِرْدِ مُقْلَتِهِ | والليلُ أغرى سَوَامَ النَّوْمِ بِالْمُقَلِ | ٢٨٩ |
| ١٣- والرَّكْبُ مِيلٌ على الأكوارِ مِنْ طَرَبٍ | صاحٍ وآخَرُ مِنْ خَمْرِ الْكَرَى ثَمِلِ | ٣٠٣ |
| ١٤- فَقُلْتُ أدعوكَ لِلْجُلَّى لِتَنصُرَنِي | وأَنْتَ تَخْذُلُنِي فِي الْحَادِثِ الْجَلَلِ | ٣١٦ |
| ١٥- تنامُ عَنِّي وعَيْنُ النَّجْمِ سَاهِرَةٌ | وتَسْتَحِيلُ وصِبْغُ اللَّيْلِ لَمْ يَحُلِ | ٣٣٨ |
| ١٦- فَهَلْ تُعِينُ عَلَى غَيٍّ هَمَمْتُ بِهِ | والغَيُّ يَزْجُرُ أحياناً عَنِ الْفَشَلِ | ٣٤٨ |
| ١٧- إني أُرِيدُ طُرُوقَ الحَيِّ مِنْ إِضَمٍ | وقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ بَنِي ثُعَلِ | ٣٥٥ |
| ١٨- يَحْمُونَ بالبِيضِ والسُّمْرِ اللِّدَانِ بِهِ | سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحَلْيِ والحُلَلِ | ٣٦٣ |
| ١٩- فَسِرْ بِنَا في ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفاً | فَنَفْحَةُ الطِّيبِ تَهْدِينا إلى الحِلَلِ | ٣٧٣ |
| ٢٠- فالحِبُّ حيثُ العِدَا والأُسْدُ رَابِضَةٌ | حولَ الكِنَاسِ لها غابٌ مِنَ الأَسَلِ | ٣٨١ |



٢١- نَوْمُ نَاشِئَةً بِالْجِزْعِ قَدْ سُقِيَتْ    نِصَالُهَا بِمِيَاهِ الْغُنْجِ وَالْكَحَلِ ٣٩٥

٢٢- قَدْ زَادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الكِرَامِ بِهَا    مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخَلِ ٤٠٧

٢٣- تَبِيتُ نَارُ الْهَوَى مِنْهُنَّ فِي كَبِدٍ    حَرَّى ونارُ القِرَى مِنْهُمْ على القُلَلِ ٤١٤

٢٤- يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لاحِرَاكَ بِهِمْ    وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ ٤٢٦

٢٥- يُشْفَى لَدِيغُ العَوَالِي في بيوتهمُ    بِنَهْلَةٍ مِنْ غَدِيرِ الْخَمْرِ وَالْعَسَلِ ٤٤١

٢٦- لَعَلَّ إِلْمَامَةً بِالْجِزْعِ ثَانِيَةً    يَدِبُّ مِنْهَا نَسِيمُ الْبُرْءِ فِي عِلَلِي ٥جـ٢

٢٧- لا أَكْرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ قَدْ شُفِعَتْ    بِرَشْقَةٍ من نِبَالِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ ١٤

٢٨- ولا أَهَابُ الصِّفَاحَ البِيضَ تُسْعِدُنِي    باللَّمْحِ مِنْ خَلَلِ الأَسْتَارِ وَالْكِلَلِ ٢٢

٢٩- ولا أُخِلُّ بغِزْلانٍ أُغَازِلُهَا    وَلَوْ دَهَتْنِي أُسُودُ الغِيلِ بالغِيَلِ ٣٥

٣٠- حُبُّ السَّلامَةِ يَثْنِي هَمَّ صَاحِبِهِ    عَنِ المَعَالِي وَيُغْرِي الْمَرْءَ بِالْكَسَلِ ٤٥

٣١- فَإِنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا    فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي الْجَوِّ فَاعْتَزِلِ ٥١

٣٢- وَدَعْ غِمَارَ العُلَى لِلْمُقْدِمِينَ عَلَى    رُكُوبِهَا وَاقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِالْبَلَلِ ٦٢

٣٣- رِضَا الذَّلِيلِ بِخَفْضِ العَيْشِ مَسْكَنَةٌ    والعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ ٧١

٣٤- فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ الْبِيدِ جَافِلَةً    مُعَارِضَاتٍ مَثَانِي اللُّجْمِ بِالجُدُلِ ٧٩

٣٥- إنَّ العُلا حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ    فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ الْعِزَّ فِي النُّقَلِ ٨٥

٣٦- لَوْ أَنَّ فِي شَرَفِ الْمَأْوَى بُلُوغَ مُنًى    لَمْ تَبْرَحِ الشمسُ يومًا دارةَ الحَمَلِ ١٠٣

٣٧- أَهَبْتُ بِالْحَظِّ لَوْ نَادَيْتُ مستمعًا    والحظُّ عَنِّي بِالْجُهَّالِ فِي شُغُلِ ١١٩

٣٨- لَعَلَّهُ إِنْ بَدَا فَضْلِي وَنَقْصُهُمُ    بِعَيْنِهِ نَامَ عَنْهُمْ أَوْ تَنَبَّهَ لِي ١٣٨

٣٩- أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمالِ أَرْقُبُهَا    ما أَضْيَقَ الدَّهْرَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ ١٤٧

٤٠- لَمْ أَرْتَضِ الْعَيْشَ وَالأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ    فَكَيْفَ أَرْضَى وَقَدْ وَلَّتْ عَلَى عَجَلِ ١٧١

٤١- غَالَى بِنَفْسِي عِرْفَانِي بِقِيمَتِهَا    فَصُنْتُهَا عَنْ رَخِيصِ الْقَدْرِ مُبْتَذَلِ ١٧٨

٤٢- وَعَادَةُ النَّصْلِ أَنْ يَزْهَى بِجَوْهَرِهِ    وَلَيْس يَعْمَلُ إِلاَّ فِي يَدَيْ بَطَلِ ١٨٥

| | | |
|---|---|---|
| ٤٣- مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ يَمْتَدَّ بِي زَمَنِي | حَتَّى أَرَى دَوْلَةَ الأَوْغَـادِ وَالسَّفَلِ | ١٩٨ |
| ٤٤- تَقَدَّمَتْنِي أُنَاسٌ كَانَ شَـوْطُهُمُ | وَرَاءَ خَطْوِي لَوْ أَمْشِـي عَلَى مَهَلِ | ٢٠٧ |
| ٤٥- هذا جزاءُ امرىءٍ أَقْـرانُهُ دَرَجُوا | مِنْ قَـبْلِهِ فَـتَـمَنَّى فُـسْـحَـةَ الأَجَلِ | ٢١٨ |
| ٤٦- وإِنْ عَلاَنِي مَنْ دُونِي فَلاَ عَجَبٌ | لِي أُسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشمسِ عَنْ زُحَلِ | ٢٤٢ |
| ٤٧- فاصْبِرْ لَهَا غَيْرَ مُحْتَالٍ وَلاَ ضَجِرٍ | فِي حَادِثِ الدَّهْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الْحِيَلِ | ٢٨٩ |
| ٤٨- أَعْدَى عَدُوِّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِهِ | فَحَاذِرِ النَّاسَ واصْـحَـبْهُمْ عَلَى دَخَلِ | ٣١٠ |
| ٤٩- فَـإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْـيَـا وَوَاحِـدُهَا | مَنْ لاَ يُعَـوِّلُ فِي الدُّنْـيَـا عَلَى رَجُلِ | ٣٣٠ |
| ٥٠- وَحُـسْـنُ ظَنِّكَ بالأَيَامِ مَـعْجَـزَةٌ | فَظُنَّ شَـراً وَكُنْ مِنْهَـا عَلَى وَجَلِ | ٣٣٤ |
| ٥١- غَاضَ الْوَفَاءُ وَفَاضَ الْغَدْرُ وانفرجَتْ | مَسَـافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَـوْلِ والْعَمَلِ | ٣٤٣ |
| ٥٢- وَشَانَ صِدْقَكَ عِنْدَ النَّاسِ كِذْبُهُمُ | وَهَلْ يُطَابَـقُ مُـعْـوَجٌّ بِـمُـعْـتَـدِلِ | ٣٥٤ |
| ٥٣- إِنْ كَانَ يَنْجَعُ شَيءٌ فِـي ثَبَاتِهِمُ | عَلَى الْعُـهُـودِ فَسَـبْقُ السَّيْفِ لِـلْعَذَلِ | ٣٦١ |
| ٥٤- يَا وارِداً سُـؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَـدَرٌ | أَنفَقْتَ صَفْوَكَ فِي أَيَامِكَ الأُوَلِ . . | ٣٧٤ |
| ٥٥- فِيمَ اقْـتِـحَامُكَ لُجَّ الْبَحْـرِ تَرْكَبُهُ | وَأَنْتَ يَكْفِـيـكَ مِنْهُ مَـصَّـةُ الْوَشَلِ | ٣٩٠ |
| ٥٦- مُلْكُ الْقَنَاعَةِ لا يُخْشَى عَلَيْهِ ولاَ . . . | يُحْـتَـاجُ فِـيـهِ إِلَى الأَنْصَارِ وَالْـخَوَلِ | ٣٩٥ |
| ٥٧- تَرْجُو الْبَـقَـاءَ بِدَارٍ لاَ ثَبَـاتَ لَهَا | فَـهَلْ سَـمِـعْـتَ بِظِلٍّ غَـيْـرِ مُنْتَقِلِ | ٤٠٧ |
| ٥٨- وَيَا خَبِـيـراً عَلَى الأَسْرَارِ مُطَّلِعًا | اصْمُتْ فَفِي الصَّمْتِ مَنْجَاةٌ مِنَ الزَّلَلِ | ٤٢٥ |
| ٥٩- قَدْ رَشَّحُـوكَ لأَمْرٍ إِنْ فَطِنْتَ لَهُ | فَـارْبَأْ بِنَفْـسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَـمَلِ | ٤٣٨ |

******

عاشراً : لامية الصفدى التى عارض بها لامية الطغرائى :-

١- الجِدُّ فى الجِدِّ والحرمانُ فى الكَسَلِ ... فانصَبْ تُصِبْ عنْ قريبٍ غايةَ الأمَلِ

٢- وشِمْ بُروقَ المعالِي فى مخائلِها ... بناظرِ القلبِ تُكْفَى مؤنةَ العَمَلِ

٣- واصبِرْ على ما يُواتيكَ الزَّمانُ بِهِ ... صَبْرَ الحُسامِ بكفِّ الدَّارِعِ البَطَلِ

٤- لا تُمْسِيَنَّ على ما فاتَ ذا حَزَنٍ ... ولا تَظَلَّ بِما أُوتِيتَ فى جَذَلِ

٥- فالدَّهْرُ أقصَرُ مِن هذا وذا أمَداً ... وربما حَلَّ بعضُ الأمْرِ فى الوَجَلِ

٦- وجانبِ الحِرْصَ والأطماعَ تَحظَ بِما ... تَرْجُو مِنَ العِزِّ والتأييدِ فى عجلِ

٧- وصاحِبِ الحَزْمَ والعَزْمَ اللذَيْنِ هُما ... فى الحِلِّ والمَحْلِ ضِدُّ العى والخَطَلِ

٨- والبس لِكُلِّ زمانٍ ما يلائِمُهُ ... فى العُسْرِ واليُسْرِ من حِلٍّ ومرتحلِ

٩- واصمتْ ففى الصمتِ أسرارٌ تضمَّنَها ... ما نالها قَطُّ إلا سَيِّدُ الرُّسُلِ

١٠- واستشْعِرِ الحلمَ فى كُلِّ الأمورِ ولا ... تبدُرْ ببادرةٍ إلا إلى رَجُلِ

١١- وإنْ بُلِيتَ بشخصٍ لا خَلاقَ له ... فكُنْ كأنكَ لم تَسْمَعْ ولم يَقُلِ

١٢- ولا تُمارِ سَفيهًا فى مُحاورةٍ ... ولا حَليمًا لكى تنجو من الزَّلَلِ

١٣- ثم المزاحَ فَدَعْهُ ما استطعتَ ولا ... تكُنْ عبوسًا ودارِ الناس عَنْ كملِ

١٤- ولا يَغُرُّكَ مَنْ تَبْدُو بَشاشتُهُ ... منهُ إليكَ فَإنَّ السُّمَّ فى العَسَلِ

١٥- وإنْ أردْتَ نجاحًا أو بلوغَ مُنًى ... فاكتمْ امورَكَ عن حافٍ ومنتعلِ

١٦- وابكر بكورَ غرابٍ فى شذا نَمِرٍ ... فى بأسِ ليثٍ كَمِى فى دها ثُعلِ

١٧- بجُودِ حاتِمِ فى إقدامِ عنترةٍ ... فى حلْمِ أحنَفَ فى عِلْمِ الإمامِ على

١٨- وَهُنْ وَعِزَّ، وباعِدْ واقترِبْ، وأنِلْ ... وابخَلْ وجُدْ، وانتقم واصفَحْ، وصِلْ وصِلِ

---

(١) نقلاً عن كتاب نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن من ص ٣٠٤ - ص ٣٠٦، واللافت للنظر - حقًا - أن الصفدى لم يَضَعْها فى الغيث، ولم يُشِرْ أحَدٌ ممن كتبوا عنه إلى معارضته للامية الطغرائى، ولقد كان وقوفى عليها فى كتاب نفحة اليمن للشيخ الأديب أحمد بن محمد الأنصارى اليمنى الشروانى مفاجأةً لم أكن أتوقعها، فأثبتُّها هنا مكتفيًا بذلك إلى حين.

١٩- بلا غُلُوٍّ ولا جَهلٍ ولا سَرَفٍ  ولا توانٍ ولا سُخطٍ ولا مَللِ

٢٠- وكُنْ أشدَّ مِنَ الصَّخرِ الأصمِّ لدى الـ  بأسا، وأسْيَرَ فى الآفاقِ مِنْ مَثَلِ

٢١- حُلْوَ المذاقَةِ مُرًا لَيِّنًا شَرِهًا  صَعْبًا ذلولاً عظيمَ المكرِ والحِيَلِ

٢٢- مُهَذَّبًا لَوْذَعِيًّا طَيِّبًا فَكِهًا  غَشَمْشَمًا غَيْرَ هَيَّابٍ ولا وَكِلِ

٢٣- صافى الودادِ لِمَنْ أصْفَى مَوَدَّتَهُ  حَقًّا وأحْقَدَ للأعداءِ مِنْ جَمَلِ

٢٤- لا يَطْمَئِنُّ إلى ما فيه مَنْقَصَةٌ  عليهِ إلا لأمْرٍ ما على دَخَلِ

٢٥- ولا يُقيمُ بأرضٍ طابَ مَسْكَنُهَا  حتَّى يَقُدَّ أديمَ السَّهْلِ والجَبَلِ

٢٦- ولا يُصيخُ إلى داعٍ إلى طَمَعٍ  ولا يُنيخُ بِبِقَاعٍ نازحِ العِلَلِ

٢٧- ولا يُضَيِّعُ ساعاتِ الدهُورِ فَلَنْ  يعودَ ما فات مِنْ أيَّامِها الأُوَلِ

٢٨- ولا يراقبُ إلاَّ مَنْ يُرَاقِبُهُ  ولا يُصَاحِبُ إلا كُلَّ ذى نبلِ

٢٩- ولا يَعُدُّ عُيُوبَ النَّاسِ مُحْتَقِرًا  لهم ويَجْهَلُ ما فيهِ من الخَلَلِ

٣٠- ولا يَظُنُّ بِهِمْ سُوءًا ولا حَسَنًا  يُصابُ مِنْ أصْوَبِ الأمْرَيْنِ بالغِيَلِ

٣١- ولا يُؤَمِّلُ آمالاً بِصُبْحِ غَدٍ  إلا على وَجَلٍ مِنْ وَثْبَةِ الأجَلِ

٣٢- ولا ينامُ وعينُ الدَّهْرِ ساهرةٌ  فى شأنه وهو ساهٍ غَيْرُ مُحْتَفِلِ

٣٣- ولا يَصُدُّ عن التَّقْوى بَصِيرَتَهُ  لأنَّهَا للمَعَالى أوضحُ السُّبُلِ

٣٤- مَنْ لَمْ تكن حُلَلُ التَّقْوى مَلابِسَهُ  عارٍ وإن كانَ مَغْمُورًا من الحللِ

٣٥- مَنْ لم تُفِدْهُ صُرُوفُ الدَّهْرِ تجربةً  فيما يحاولُ فليرْعَى مَعَ الهَمَلِ

٣٦- مَنْ سالَمَتْهُ الليالى فليَثِقْ عَجِلاً  منها بِحَرْبِ عَدُوٍّ غيرِ ذى مَهَلِ

٣٧- مَنْ كان هِمَّتُهُ والشمسُ فى قَرَنٍ  كانت مَنِيَّتُهُ فى دارةِ الحَمَلِ

٣٨- مَنْ ضَيَّعَ الحزمَ لَمْ يَظْفَرْ بحاجتِه  ومَنْ رَمَى بِسِهَامِ العُجْبِ لَمْ يَنَلِ

٣٩- مَنْ جالسَ الغايةَ النوكى جَنَى نَدَمًا  لنفسِهِ ورُمِى بالحادثِ الجَلَلِ

٤٠- مَنْ جادَ سادَ، وأمْسَى العالَمونَ لَهُ  رقًا وَحَالَةُ أهْلِ الكَفِّ لَمْ تَحُلِ



٤١- مَنْ لَمْ يَصُنْ عِزَّهُ ساءَتْ خَلِيقَتُهُ ... بِكُلِّ طبعٍ لئيمٍ غيرِ مُنتَقِلِ

٤٢- مَنْ رامَ نَيْلَ العُلَى بالمالِ يَجْمَعُهُ ... مِنْ غَيْرِ حِلٍّ بَلَى مِنْ جَهْلِهِ وبَلِى

٤٣- من هاش عاش وَخَيْرُ العَيْشِ أشْرَفُهُ ... وَشَرُّهُ عَيْشُ أهْلِ الجُبْنِ والبخلِ

٤٤- عاجَمْتُ أيَّامَ دَهْرِي شِدَّةً ورخا ... وبُؤْتُ فيها بأثقالٍ عليّ و لِي

٤٥- وَخُضْتُ فى كُلِّ وادٍ مِنْ مَسَالِكِها ... بلا فُتُورٍ ولا عَجْزٍ ولا فَشَلِ

٤٦- طَوْرًا مُقيمًا مَقامَ الصَّيْدِ فى صَدَفٍ ... وتارةً فى ظُهورِ الأينقِ الذللِ

٤٧- بالشرقِ يومًا ويومًا فى مَغاربِهِ ... والغَوْرِ يومًا ويومًا فى ذُرَى القُلَلِ

٤٨- وتارةً عند أملاكٍ غطارفةٍ ... وتارةً أنا والغوغاء فى زُحَلِ

٤٩- هذا ولم أرتَضِ حالاً ظفرْتُ به ... إلا وثقتُ بِحَبْلٍ منه منفصلِ

٥٠- ولا أُيَمِّمُ بحرًا جاش غَارِبُهُ ... إلا وَجَدْتُ سرابًا أو صرى وَشَلِ

٥١- حتى إذا لم أدَعْ لى فى الثرَى وطنًا ... أقصَرْتُ مِن غير لا وَهنٍ ولا مَلَلِ

٥٢- فاليومَ لا أحدٌ لى عنده أرَبٌ ... ولا فتًى أبدا ذو حاجةٍ قِبَلِى

٥٣- وفى الفؤادِ أمورٌ لا أبوحُ بها ... ما قرب النأى أيدى الخيل والإبل

٥٤- وإنْ أمُتْ فَلَقَدْ أعددْتُ فى طلب ... وإن عَمَّرْتُ فلن أُصغى إلى عَذَلِ

٥٥- تمتْ برَسْمِ أخٍ ما زال يسألُنِى ... إنشاءَها أبدا فى الصُّبْحِ والطَّفَلِ

٥٦- فَقُلْتُها لأرى مفروضَ طاعته ... والقَلْبُ شغل ناهيك مِن شَغَلِ

٥٧- ولا أبالغُ فى توقيف أكثَرِها ... ولا ذكرتُ بها شيئًا من الغَزَلِ

٥٨- لكنها حِكَمٌ مملُوَّةٌ هِمَمًا ... تُغْنى اللبيب عن التفصيل بالجُمَلِ

٥٩- ثم الصلاة على أزكَى الورى حَسَبًا ... مُحَمَّدٍ وأميرِ المؤمنين عَلِى

٦٠- ما أومَضَ البَرْقُ فى الديْجُورِ مُبْتَسِمًا ... وما سفحْنَ دموعَ العارضِ الهَطِلِ

******






# الفصل الخامس

## الآراء النقدية والبلاغية فى الشرح

### محتويات الفصل

المبحث الأول: الصفدى وموسيقا الشعر.

المبحث الثانى: موقف الصفدى من شعر المتنبى.

المبحث الثالث: الصفدى وشعر ابن سناء الملك.

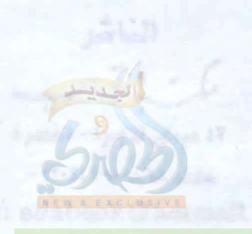
المبحث الرابع: الصفدى وسرقات الطغرائى فى لاميته.

المبحث الخامس: الفنون البديعية فى الشرح.









# المبحث الأول

## الصفدى وموسيقا الشعر

لعل من أطرف موضوعات النقد الأدبى تلك الدراسات التى تسعى جاهدة للتعرف على علاقة الشعر بالموسيقا، ودراسة الدور الذى يلعبه النغم فى إقامة بنيان العمل الشعرى.

وعلاقة الشعر بالنغم قضيةٌ من تلك القضايا الشائكة التى شغلت بال نقادنا قديمًا وحديثًا، وقد حاول كل منهم أن يدلى بدلوه فى الميدان، وأن يبيِّن لنا وجهة نظره فى تلك العلاقة، ومع هذا فقد ظلت هذه القضية - وستظل فى نظرى - دون حسم لأنها تقوم على مقاييس ذوقية تختلف من ناقد لآخر، ومن دارسٍ لآخر.

وقد تحدث الصفدى فى مقدمة الغيث المسجم عن عدد من قضايا عِلْمَىِ العَروض والقافية؛ إذ عرَّفهما لغةً واصطلاحًا، وتحدث عن الخليل بن أحمد والدوائر العروضية، إلى غير ذلك من مباحث هذين العلمين.

وقد رأينا أن نركز الحديث فى هذا المبحث على قضيتين أثارهما الصفدى وهو يتحدث فى هذين الفنين؛ إحداهما تتعلق بعربية نشأة علم العروض، والأخرى تتعلق بالدور الذى تلعبه القافية فى إقامة بنيان العمل الشعرى.

### عروض الشعر العربى وموسيقا الشعر اليونانى:

فى اعتقادى أن الصفدى قد أثار قضية من أخطر قضايا العلم حين قال «وذكر لى العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى أن الشعر اليونانى له وزن مخصوص، ولليونان عروض لبحور الشعر، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل، قال ولا يبعد أن يكون وصلَ إلى الخليل بن أحمد شىء من ذلك فأعانه على إبراز العروض إلى الوجود»[1].

ذلك لأنه فجر بهذا الكلام قضية على درجة عالية من الأهمية؛ لأنها تتعلق

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٥٤.

بأصل علم العروض وهل هو عربى النشأة أو يونانى النزعة؟ وهذه القضية رغم خطورتها مفيدة؛ لأن فى التعرض لها ما يكشف عن أصالة التفكير العلمى عند أسلافنا، ويضع كما نقول - بلغة عصرنا - نُقَطَ الحروف فى كثير من تلك القضايا المختلف فيها.

والشعر العربى يتسم بخصائص تميزه من جميع فنون الشعر التى فى اللغات الأخرى؛ لأن الشاعر العربى فى العصر الجاهلى قد «اهتدى بفطرته إلى وحدة النغم فى كلامه... واستطاع برهافة حسه أن يحدث نغمات موسيقية مختلفة»[1] هى تلك التى أطلق عليها الخليل فيما بعد اسم البحور أو بحور الشعر.

ولكن هل تأثر الخليل بن أحمد بمؤثرات يونانية أو بقواعد عروض اليونان، وهو يضع للشعر العربى أوزانه وأعاريضه؟

ولعل خير إجابة عن هذا السؤال أن نعرض بشىء من التفصيل الأسس التى أقام اليونانيون عليها شعرهم وأوزانه لنقارن بينها وبين أسس العروض العربى وطريقة بناء الخليل له، لنجعل هذه المقارنة مقدمة من عدة مقدمات أحاول أن أستخلص منها نتيجةً هى الإجابة عن هذا السؤال.

أما أوزان الشعر اليونانى فكانت تعتمد كما يقول الدكتور محمد مندور «على الكم اللغوى للمقاطع وأنواع من التنسيق الموسيقى بين تلك المقاطع المختلفة الكم، وكل مجموعة من المقاطع المختلفة الكم كانت تكوِّن ما يسميه الأوربيون قديماً FOOT ..... وذلك لأن علماء العروض عند اليونان والرومان القدماء أقاموا موسيقا الشعر على التمييز بين ما يسمونه بالمقطع الطويل، والمقطع القصير، والمقطع يتكون من حرف صامت وآخر صائت، وهم يقسمون المقاطع إلى قصيرة وطويلة، والمقطع القصير يتكون من حرف صامت وحرف صائت قصير، وأما المقطع الطويل فيتكون من حرف صامت مع حرف صائت طويل أو من ثلاثة أحرف هى صامت وصائت قصير وصامت، ويسمَّى هذا الأخير بالمقطع المغلق، وهو يساوى فى كَمِّه الزمنى المقطعَ الطويل المفتوح، والأقدام أو التفعيلات تتكون

---

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى النشأة والتطور، للدكتور محمد مصطفى هدارة، دار المعارف ١٩٨١م، ص ٩.

من تركيبة محددة من المقاطع كأن تتكون من مقطع طويل ومقطعين قصيرين، أو من مقطعين طويلين، وما إلى ذلك من التشكيلات المختلفة التى حصرها علماء العروض عند اليونان والرومان القدماء، ومن تتابع هذه الوحدات الزمنية المختلفة الكم وفقًا لأنماط محددة تتكون موسيقا الشعر عندهم[1]».

هذه هى الأسس التى أقام اليونانيون موسيقا شعرهم عليها، وهى تتشابه - إلى حد كبير - مع تلك الأسس التى قام عليها عروض الشعر العربى؛ لأن المقطع عندهم يشبه السبب عندنا، وليس هذا فحسب، بل إن للمقطع عندهم نوعين المقطع القصير والمقطع الطويل، كما أن السبب ينقسم فى عروضنا إلى قسمين: السبب الخفيف والسبب الثقيل، وعندهم ما يسمى بالمقطع المغلق الذى يتكون من حرف صامت وحرف صائت وحرف صامت، وهو يشبه الوتد المفروق عندنا؛ حيث يتكون من متحركين بينهما ساكن، ومقاطعهم تُكَوِّنُ ما يسمى عندهم بالأقدام، كما تُكَوِّنُ الأسباب والأوتاد ما يسمى عندنا بالتفعيلات، ولست أغلو حين أزعم أن وجوه التشابه هذه لا يمكن أن تتفق مصادفةً، وكان هذا وحده كفيلاً بإقناعى بتأثر الخليل بن أحمد بمؤثرات يونانية وهو يضع أصول علم العروض وقواعده لولا أنى عدت إلى ما كتبه أسلافنا لأبلو ما عندهم فى هذا الميدان، فوجدتهم يُجمعون فى جميع مروياتهم على عربية نشأة علم العروض، ولعل أخطر مروياتهم فى هذا الميدان تلك التى لا تُرجع للخليل بن أحمد فضل السبق والابتكار، وإنما تُرجع إليه فضل الإحياء بعد اندثار إذ تزعُم إحدى هذه المرويات أن العرب كان لهم سابق معرفة بعَروض الشعر قبل الخليل، بل فى زمن الجاهلية، ثم أتى على الناس حينٌ من الدهر نسوا فيه هذا العلم، فاندثر، وقلّ عارفوه، وتستدل هذه الرواية على صدق هذا الكلام بما روى عن الوليد بن المغيرة - وكان عالمًا بالسحر والشعر والكهانة - حين سُئل عن القرآن الذى ينزل على النبى ﷺ؛ إذ نفى عنه أن يكون سحراً يصنعه محمد ﷺ، أو كلامًا يُمليه عليه أحد الكهان، أو شعراً مما يقوله الشعراء؛ لأنه عرض هذا القرآن على بحور الشعر هزجه ورجزه وغيرهما فلم يوافق هذه البحور، ولم يجر على عروضها وموسيقاها، قال أحمد ابن فارس فى كتابه الصاحبى فى فقه اللغة: «فإن قال قائل فقد تواترت الروايات بأن

---

(١) الأدب وفنونه للدكتور محمد مندور، دار نهضة مصر بالقاهرة، د.ت، ص ٣٠.



أبا الأسود الدؤلى أول من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم فى العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديمًا وأتت عليهما الأيام وقلاّ فى أيدى الناس ثم جددهما هذان الإمامان. . . . وأما العَروض فمِن الدليل على أنه كان متعارفًا اتفاقُ أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا - أو قال بعض منهم- إنه شعر، فقال الوليد بن المغيرة منكرًا عليهم: لقد عرضتُ ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر هزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئًا من ذلك، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟![(1)]».

وحقًا لقد قال الوليد بن المغيرة فى القرآن الكريم قولة حق جرى بها لسانه أول الأمر ثم صُرف عنها، لكنا لا نعرف نصَّها على وجه التحقيق، ومن هنا فأنا أتساءل مع ابن فارس - إنْ صَحَّ ما نسبه إلى الوليد - أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟!

ويأتى الجواب بالنفى على هذا التساؤل بطبيعة الحال؛ لأنه لا يعقل أن يقول الوليد مثل هذا الكلام وهو لا يدرى عن بحور الشعر وأعاريضه شيئًا.

وهذه رواية من روايات عديدة تثبت عربية نشأة علم العروض، وقد قدمتها على غيرها لأهميتها البالغة، وخطرها الشديد، لأنه إن صح ما نسبه ابن فارس إلى الوليد بن المغيرة من الحديث السابق لدل ذلك دلالة جازمة على تعارف العرب - مبدعين ونقادا - على وضع موسيقِىّ للشعر العربى يقترب من ذلك الوضع الموسيقى الذى أوضح الخليل لنا معالمه وأُطُرَه، هذا إن لم يكن هو نفس الوضع الموسيقى الذى وصل إليه الخليل.

وتأتى بعد هذه الرواية روايةٌ أخرى تثبت - أيضًا - عربية نشأة علم العروض، وتنفى تأثر الخليل بمؤثرات أجنبية عند ضبطه لأصوله وقواعده؛ لأنها تصل عمل الخليل بعلم كان معروفًا عند العرب ويسمى «علم التنعيم»، وكان هذا العلم كما تقول الرواية شيئًا يتوارثه الأخلاف عن الأسلاف وهذا يعنى - بداهة - أن هذا العلمَ عِلْمُهم وقد ورثوه عن آبائهم وأجدادهم دون تأثر فيه بمؤثرات أجنبية؛ تقول

---

(1) الصاحبى فى فقه اللغة، لأبى الحسين أحمد بن فارس، ص ١٣، ص ١٤، بتحقيق السيد أحمد صقر مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة عام ١٩٧٧م.

الرواية: «يقول أبو بكر محمد القضاعى: تكاد تجزئة الخليل تكون مسموعة من العرب؛ فإن أبا الحسن الأخفش روى عن الحسن بن يزيد أنه قال: سألت الخليل بن أحمد عن العروض فقلت له: هلا عرفت لها أصلاً؟ قال نعم مررت بالمدينة حاجًا فبينا أنا فى بعض طرقاتها إذ بصرتُ بشيخ على بابٍ يُعَلِّم غلامًا وهو يقول له: قل:

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم نعم نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا

قال الخليل: فدنوتُ منه فَسَلَّمْتُ عليه وقلت له: أيها الشيخ ما الذى تقوله لهذا الصبى؟ فذكر أن هذا العلم شىء يتوارثه هؤلاء الصبية عن سلفهم، وهو علم عندهم يسمى التنعيم لقولهم فيه نعم، قال الخليل: فحججت ثم رجعت إلى المدينة فأحْكَمتها[(١)]».

فالخليل قد أجاب عن سؤال الحسن بن يزيد الذى يتعلق بأصل علم العروض، وكانت إجابته فى غاية الدقة؛ إذ بيَّن أنه استمد أصولَ علم العروض من علم التنعيم الذى تعرفه العرب.

وهو إذن قد أرجع أصل علم العروض إلى هذا الأصل العربى[(٢)]، ولم يذكر له أصلاً آخر، ولم يذكر أنه تأثر بمؤثر أجنبىٍ فى وضع هذا العلم، ولو تأثر الخليل بمؤثر أجنبى فى وضع أصول هذا العلم لنصَّ عليه، وأشار إليه.

وإذا ما ربطنا بين هذه الرواية والرواية التى تقول إن الخليل دعا الله أثناء حجه أن يلهمه وضع أصول علمٍ لم يُسبق إليه اتضحت لنا الصورة كاملة؛ حيث رأى هذا الشيخ الذى يعلم الغلام، وهو فى طريقه إلى الحج فدنا منه وسأله عما يفعل فأخبره الشيخ عن العلم الذى يعلمه الغلام فلما واصل الرحلة وتمكن من أداء المناسك، دعا الله أن يلهمه وضع أسس هذا العلم المتوارث، فاستجاب الله له، ووضع أسس علم العروض.

ثم إن الشعر العربى ينفرد دون سائر فنون الشعر عند الأمم الأخرى بخاصية

---

(١) نقلاً عن د. سيد البحراوى فى بحثه «العروض العربى فى ضوء كتاب الأخفش» مصدر سابق ص١٢٩.

(٢) من المفيد هنا أن أشير إلى أنه من (نعم) و(لا) تتكون تفعيلات الخليل فعلى سبيل المثال: نعمْ لا= فعولن، لا نعمْ= فاعلن، نعمْ لا لا= مفاعيلن، لا لا نعمْ= مستفعلن، لا نعمْ لا= فاعلاتن.. وهكذا...

تكاد تكون وقفًا عليه دون غيره؛ وهى القافية الموحدة عبر القصيدة كلها التى يرجع الأستاذ العقاد السبب الرئيسى فى وجودها فى الشعر العربى وحرص الشاعر القديم عليها إلى الحداء؛ لأن «الحداء غناء مفرد موقَّع على نغمة ثابتة، وهى حركة الجمل فى حالتى الإسراع والإبطاء. ولا بد للغناء المفرد من القافية؛ لأنها هى التى تنبه السامع إلى المقاطع والنهايات خلافًا للغناء المجتمع الذى يشترك فيه الكثيرون فيعرفون من سياقه أين يكون الوقوف، وأين يكون الاسترسال[1]».

وهذا لا شك فارقٌ جوهرى بين الشعر العربى والشعر اليونانى الذى لا يعرف هذا اللون من التقفية، وهذا الفارق الجوهرى من شأنه أن يُحدث اختلافًا جوهريًا فى النظام الموسيقى للشعر العربى عن النظام الموسيقى للشعر اليونانى، وقد أشار الصفدى نفسه إلى هذا الفارق حيث قال: «اللغة اليونانية فيها شعر . . . . . وليس عندهم ما يكون ذا وزن وقافية، ولا ذلك ركن فيه[2]».

وقد أصاب الصفدى فى هذه الفقرة وأخطأ، أما الصواب: فحين ذكر أن الشعر اليونانى لا يعتمد على هذا النوع من التقفية ولا هى ركن فيه، وأما الخطأ فحين زعم أن الشعر اليونانى يخلو من الوزن، ولا يختص به، ولا يعتمد عليه.

ثم إن الصفدى قد تناقض مع نفسه حين نفى - هنا - اختصاص الشعر اليونانى بالوزن ثم عاد بعد ذلك لينقل عن شيخه ابن ساعد الأنصارى أن الشعر اليونانى له عروض تأثر به الخليل عند وضعه للعروض العربى.

وقد تحدث الصفدى عن عروض اللامية فقال: «وأما عروض قصيدة الطغرائى هذه فإنها من الضرب الأول من البسيط[3]». وأشار إلى أن مطلع هذه القصيدة مُقَفًّى وليس مَصَرَّعًا فقال: «والبيت مقفًى لأنه فى العروض بحرف الروى وهو اللام، استعجالاً لبيان القافية للسامع، ثم فى التقفية لم يلتزم ذلك، وليس بمصرع لأن من شرط التصريع تغيير العروض عن زنتها إلى زنة الضرب، وهنا لم يتغير للعروض وزنٌ، والتصريعُ أخص من التقفية؛ لأن كلَّ مصرعٍ مقفى من غير عكس[4]».

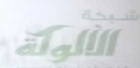
---

(١) اللغة الشاعرة للأستاذ العقاد ص ٣٤.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ٥٤.

(٣) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٥٧.

(٤) السابق نفسه والصفحة نفسها.




## قافية اللامية، وأنواع القوافي:

ثم تحدث الصفدى عن قافية القصيدة فقال «وأما القافية فإنها من المتراكب[1]». ثم أخذ يوضح ذلك فقال: «والمتراكب من القوافي ما كان في آخر البيت فاصلة صغرى وهى ثلاث حركات بعدها ساكن، وكذلك الخطل الخاء والطاء واللام متحركات، والياء ساكنة، وسمى هذا النوع متراكبًا لتراكب حركاته[2]». وبيّن الصفدى حرف الروى لهذه القصيدة فقال: «فالروى في هذه القصيدة هو اللام لأنها الحرف الذى بُنيتْ عليه القصيدة. . . . والياء التى بعد اللام فى القصيدة هى الوصل، وسُمِّىَ الوصْلُ بذلك لأنه وصل حركة المجرى، وهى حركة الروى[3]».

ويرى الصفدى أن قافية القصيدة فى غاية الحسن والتمكن بحيث لا يمكن لشاعر مهما بلغت شاعريته من الكمال والنضج الفنى أن يستبدل بها قافيةً أخرى ثم يكون لها هذا الحسن والتمكن والجمال الذى فى هذه القافية. قال الصفدى «وزعم بعضهم أن بعض الشعراء غيروا قوافى هذه القصيدة من اللام إلى حرف العين، وهذا عندى يتعذر لأن ألفاظَ هذه القصيدة فى غاية الفصاحة، وتراكيبَ كلماتها كلها منسجمة عذبة غير قلقة ولا نافرة، ومعانيها بليغة، وقوافيها فى غاية التمكن، فهى كما قال ابن عنين:-

معنًى بديعٌ وألفاظٌ مُنَقَّحَةٌ    غريبةٌ وقوافٍ كُلُّهَا نَخَبُ[4]»

والصفدى يبنى رأيه هذا على أسس منها ما يتعلق بالألفاظ، ومنها ما يتعلق بالمعانى، ومنها ما يتعلق بعملية النظم نفسها؛ فألفاظ اللامية فصيحة، وقد انتظمت هذه الألفاظ فى انسجام وعذوبة أديا إلى بلاغة معانيها، وتمكُّن قوافيها، ومن ثم تعذر تغيير هذه القوافى عنده.

---

(١) السابق نفسه صـ ٦٠.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه صـ ٦٠. صـ ٦١.

(٤) السابق نفسه صـ ٢٧.



كأن الصفدى يريد أن يقول إن القافية ليست كلمة يؤتى بها لإتمام الوزن وحسب، دونما نظر إلى حسن ورونق تضيفه إلى بقية ألفاظ البيت ومعانيه غير هذا الحسن الشكلى الذى يتمثل فى المحافظة على الجرس الموسيقى للقصيدة العربية، بل هو قد قال هذا بالفعل حين شرع يدلل على تعذر تغيير قوافى لامية الصغرائى بقوله «وليت شعرى بماذا يُغَيَّرُ قوله:

لَوْ أَنَّ فِى شَرَفِ الْمَأْوَى بُلُوغَ مُنًى ... لَمْ تَبْرَحْ الشمسُ يومًا دارةَ الحَمَلِ

وقوله أيضًا:

وإنْ عَلانى مَنْ دُونِى فلا عَجَبٌ ... لِى أُسْوَةٌ بانْحِطَاطِ الشمسِ عَنْ زُحَلِ

إلى غير ذلك من بقية القوافى المتمكنة التى هى فى البيت بمثابة القاعدة التى إذا زُحزحت أو نُقلت تهدَّم البيت وخربَ، وذهب حسنه وزال رونق تركيبه، وإذا غير مثل هاتين القافيتين فقد زال طرازها، وذهب شمسها وقمرها، ومحيت آية حسنها[(١)]».

ومضى الصفدى يقارن بين لونين من ألوان القوافى: اللون الأول القافية المتمكنة أى التى أُسس البيت عليها فلا انفصام لها، واللون الثانى القافية القلقة؛ أى التى جلبها صاحبها لإتمام الوزن، والمحافظة على بناء القصيدة وحسب؛ يقول الصفدى: «والقافية المتمكنة هى التى يبنى البيت من أوله إلى آخره عليها فإذا خُتِمَ البيت بها نزلت فى مكانها ثابتةً فيه متمكنةً فى محلها قد رسخت فى قرارها، ودُفعتْ إلى مركزها فهى لا تتزحزح ولا تتغير منه، بخلاف القافية التى اجتُلبت وجِيء بها لتمام الوزن، وهى أجنبية منه، غريبة من تركيبه، عارية من الالتحاف به، والالتحاق بحسبه، ومتى غيرت القافية المتمكنة بغيرها جاءت نافرة عن الطباع فى غاية الركة[(٢)]».

فهو هنا يركز على ضرورة أن تكون القوافى من جنس ألفاظ الأبيات، وأن تكون فى مستوى هذه الألفاظ من ناحيتى العذوبة والانسجام حتى يتحقق لها

(١) الغيث المسجم حـ ١ صـ ٢٨.

(٢) السابق نفسه صـ ٢٨.



التمكن الذى أشار إليه، وحتى يبعد بها الشاعر عن تلك الأوصاف التى ذكرها الصفدى فى نعت القافية القلقة من مثل أن تكون «أجنبية منه، غريبة من تركيبه عارية من الالتحاف به والالتحاق بحسبه».

والصفدى هنا قد عبَّر عن العمل الإبداعى أو الإبداع الفنى بالبناء، فكما تماسك أركان البيت ودعائمه ينبغى أن تتماسك وتتشابك ألفاظ البيت الشعرى وتتحد فى انسجام وتوافق يؤديان فى النهاية إلى القافية التى هى من جنس هذه الألفاظ، وحينئذ تكون هذه القافية - كما قال - «متمكنة فى محلها، وقد رسخت فى قرارها ودفعت إلى مركزها فهى لا تتزحزح ولا تتغير منه» وحينئذ - أيضًا - يصعب تغييرها؛ بحيث إذا غيرت نفرت منها الطباع السليمة وكانت ركاكتها شاهد صدق على قلقها مما يؤدى إلى نبو الذوق عنها.

والصفدى حين يدعو إلى أن يُحكم الشاعر بيته حتى يكون كالبناء المتماسك، وحين يدعو إلى أن توافق القافية ألفاظ البيت، إنما يردد ما قاله ابن طباطبا العلوى فى عيار الشعر حيث دعا هذا الناقد الشاعر إلى إحكام قصيدته عن طريق اختيار المعانى، ثم اختيار الألفاظ التى توافقها، ثم اختيار البحور والقوافى التى تناسب هذه المعانى والألفاظ؛ قال ابن طباطبا: «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخضَ المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرًا، وأعد له ما يُلبسه إياه من الألفاظ التى تطابقه والقوافى التى توافقه، والوزن الذى يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرويه أثبته وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى[1]».

ومتى حاول الشاعر جاهدًا أن تكون قافيته مؤتلفة مِن ألفاظ بيته ومن جنسها، كان من الصعب تغييرها، وحتى لو غُيرت فلن تكون القافية الجديدة أحسن منها ولا أمكنَ، ولن يتوفر لها من شروط الجمال الفنى ما توفر للقافية الأساسية. ومن هنا قال الصفدى فى حكمه للمرة الثانية على من يدعى إمكانية تغيير قوافى اللامية: «وتغيير قوافى هذه اللامية أراه متعذرًا إلا أن يتهدم جانب جيد من كل بيت، ومع ذلك فلا يكون لغير قوافيها ديباجة استأثر بها الطغرائى[2]».

(١) عيار الشعر ص ٤٣.

(٢) الغيث المسجم جـ ١ ص ٣٥.



والملاحظ أن الصفدى قد عاود التركيز على علاقة القوافى بالأبيات ألفاظًا ومعانى؛ حين أكد أن تغييرها يؤدى إلى هدم جانب جيد من كل بيت من أبياتها، وهذه الملاحظة مهمة فى هذا المكان لأنه بعد أن أعطانا هذه الإشارة إلى علاقة القوافى بألفاظ الأبيات ومعانيها ذكر الحدود التى من الممكن أن يتناول الشاعر أو الناقد فى إطارها تغيير قوافى بعض الأبيات فقال: «وتغييرُ القوافى فى البيت أو البيتين أمر يهون»(١) لأنه قد تتفق لشاعر قافية لبيت أو بيتين ثم ينظر شاعر آخر أو ناقد إليها فيجد غيرها أحسن منها فيغيرها إلى الأحسن والأمكن، أما أن تغير قوافى قصيدة بأكملها فهذا عنده يتعذر، وقد أورد ما يدل على هذا التعذر حين قال: «وأنشدت يومًا بعض الأفاضل قولَ البحترى من قصيدته المشهورة:

وأَزْرَقُ الصُّبْحِ يَبْدو قَبْلَ أَبْيَضِهِ      وأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

فقال: بدل ينسكب ينهمر، فقلت: كيف تصنع فى الأول وهو قوله:

هذى مَخَايِلُ بَرْقٍ خلفَهُ مطَرٌ      جُودٌ وَوَرى زِنَادٍ خلفَهُ لَهَبُ

فقال: بدل لهب شرر، فقلت: هذه القصيدة بائية أولها:

نَحْنُ الفِدَاءُ فَمَا جودٌ ومرتقبٌ      يَنُوبُ عَنْكَ إذَا هَمَّتْ بِكَ النُّوَبُ

فلم يُحِر جوابًا»(٢).

وهذا الدليل الذى أورده الصفدى يشير إلى أن الصفدى قد صدر في رأيه النقدى عن تجربة شخصية؛ حيث لم يستطع مناظره أن يغير من قوافى قصيدة البحترى سوى قافيتين لبيتين متتاليين، وعجز تمامًا عن تغيير قافية البيت الأول منها(٣)، ومعنى هذا أن تغيير قافية البيت الواحد أو البيتين أمر سهل، وليست فيه صعوبة على الإطلاق، أما تغيير قوافى قصيدة بأكملها فأمر فى غاية الصعوبة والعسر، أو كما قال الصفدى أمر متعذر.

ويعترف الصفدى بأن أصحاب القدرات الخاصة أو الفائقة بإمكانهم تغيير قافية

---

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه ص ٣٦، ص ٣٧.

(٣) على الرغم مِنْ أنَّ تغييره سهل فمن الممكن أن يقال بدل «النوب» «الغِيَر».



البيت أو البيتين من شعرهم أو من شعر غيرهم أكثر من مرة ثم يُظْهِرون براعة فنية فائقة مثلما «صنع أبو القاسم على بن منجب المعروف بابن الصيرفى بيتين هما:

لَمَّا غَدَوْتَ مَلِيكَ الأرضِ أفْضَلَ مَنْ ... جَلَّتْ مَفَاخِرُهُ عَنْ كُلِّ إطْرَاءِ

تَغَايَرَتْ أدَوَاتُ النُّطْقِ فِيكَ عَلَى ... مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِنْ نَظْمٍ وَإِنْشَاءِ

ثم إنه غير رَوِيَّ البيتين على جميع حروف المعجم»[1]، ومثلما صنع أبو العلاء المعرى «فى رسالة الغفران فى ذينك البيتين اللذين للنمر بن تولب وهما:

أَلَمَّ بصُحْبَتِى وَهُمُ هُجُوعُ ... خَيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنِ

لها ما تشتهى عَسَلٌ مُصَفًّى ... متى شاءتْ وحُوَّارى بِسَمْنِ»[2]

حيث «غير القوافى منها، ونزلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء»[3]، مما دل على «تمكن أبى العلاء من الأدب واطلاعه على اللغة»[4].

وإذا كانت هذه المحاولات لتغيير القافية فى نطاق البيت الواحد أو البيتين قد أصابت حظًا من النجاح والجمال، فإنه قد يتيسر للشاعر أن ينظم قصيدة كاملة على قافيتين أو أكثر «لأنه يراعى ذلك فى أصل التركيب، ويوفق بين ذلك من أول العمل»[5].

وأشار الصفدى إلى محاولتين لشاعرين مختلفين فى ذلك فشلت محاولة أولهما مع أنه نظم قصيدته على قافيتين فقط، ونجحت محاولة الثانى مع أنه نظمها على أربع وعشرين قافية.

أما المحاولة الأولى فكانت للشاعر الأيوبى سيف الدين بن المشد «فى قصيدته التى مدح بها السلطان نجم الدين أيوب، وهى مشهورة، أولها:

---

(١) السابق نفسه ص ٢٩.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٩، ص ٣٠.

(٣) السابق نفسه ص ٣٠، وتراجع رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١٥٤ وما بعدها تحقيق بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة السابعة عام ١٩٨١م. ذخائر العرب.

(٤) الغيث المسجم جـ١ ص ٣٠.

(٥) السابق نفسه ص ٢٨.



اسقِنِي الرَّاحَ قَدْ تَجَلَّى النَّهار (الظلام) وتَغَنَّى عَلَى الأَرَاكِ الْهَزَارُ (الحمام)

وَبَدَا الرَّوْضُ فِي ثِيَابٍ مِنَ الزَّهْـ ـرِ سُدَاهَا بَنَفْسَجٌ وَعَرَارُ (وثمام)

فاسقِنِيهَا مثل الخُدُودِ احْمِرَارًا وَكَثَغْرِ الْحَبِيبِ فِيهِ افْتِرَارُ (ابتسام)

قهوةٌ مُزَّةٌ رَحِيقٌ شَمُول قرقفٌ لذةٌ سُلافٌ عُقَارُ (مدام)

مِنْ يَدَيْ أوطَفِ الْجُفُونِ غَرِيرٍ زَانَهُ الْخَصْرُ وَاللَّمَى وَالْعِذَارُ (القوام)

بَدْرُ تِمٍّ يَلُوحُ فِي زِيِّ ظَبْيٍ قَصُرَتْ عَنْ صِفَاتِهِ الأَفْكَارُ (الأفهام)[1]

وأشار الصفدى إلى ما فى هذه المحاولة من ضعف فقال: «ثم سار على هذا الأنموذج إلى تمام أحد وعشرين بيتًا، ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من الانحلال والانحطاط، وما فيها من الإيراد لمن يروم النقد عليه»[2].

ولقد أصاب الصفدى فى حكمه على هذه المحاولة؛ لأن الشاعر استخدم ألفاظًا ظنها مترادفة وهى ليست مترادفة، وبالتالى فقد أعطت معانى بخلاف تلك المعانى التى يقصدها الشاعر؛ فهناك بون شاسع بين قول الشاعر «وكثغر الحبيب فيه افترار» وبين قوله «فيه ابتسام» لأن فى قوله (افترار) ما يوحى بانفراج شفتى الحبيب دون إحساس حقيقى بالفرح والسرور، ذلك الإحساس الذى نقله إلينا قوله «فيه ابتسام»، كما أن الأفكار هى الخواطر، والأفهام هى العقول، ثم إن تعبيره «فقد تجلَّى النهار» يحمل شحنةً من الجمال الفنى والانفعالات النفسية والوجدانية التى تضيع تمامًا إذا استبدلنا كلمة الظلام بكلمة النهار، كما أن الظلام لا يناسبه التجلِّى، وإنما يناسبه إرخاء السدول كما قال امرؤ القيس.

والمحاولة الثانية التى أشار إليها الصفدى هى قصيدة ابن الذروى المسماة بذات القوافى والتى مطلعها:

نُوَى أَطْلَعَتْ مِنهَا القِفَارُ الْبَسَابِسُ بِخَيْلٍ مَطِيٍّ طَلْعُهُنَّ أَوَانِسُ

وقد تحدث الصفدى عنها فقال: «وهى تزيد على العشرين بيتًا، جعل لكل بيت

---

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

أربعًا وعشرين قافية، وهذه القصيدة تنشد أربعًا وعشرين قصيدة، وهذا في غاية القدرة»[1].

وأرجع الصفدي نجاح ابن الذروي في محاولته إلى أنه هو «الذي بنى كل بيت في الأصل على ما يريد ختمه به من القوافي المتعددة»[2].

وأشار الصفدي إلى أن محاولته هذه ما كان ليتم لها هذا النجاح لو أنه تناول قصيدة من قصائد شاعر آخر وحاول تغيير قوافيها؛ لأن المعنى ما كان لينقاد له كما انقاد له معنى قصيدته؛ قال الصفدي: «ولو أخذ قصيدةً لغيره وأراد تغيير قوافيها لتَقاعسَ المعنى عليه، ولم ينقَدْ له»[3].

وإذا كان الصفدي قد رأى أن تغيير قوافي لامية الطغرائي لا يجوز إلا إذا تهدم جانب جيد من كل بيت من أبياتها، فإنه رأى أن تشطيرها يجوز، بمعنى أنه من الممكن أن يتصرف الشاعر في الشطرة بأكملها فيحذفها، ويأتي بشطرة أخرى من عنده لِيُتِمّ بها البيت، وقد أورد الصفدي محاولة من هذا القبيل، وحكم عليها بالظرف والحسن قال: «وأنشدني لنفسه مِن لفظه المولى نور الدين على بن محمد بن فرحون المالكي اليعمري المدني بدمشق المحروسة في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة هذه اللامية وقد ركَّبَ على كل صدر عَجُزًا، وعلى كل عجز صدرًا، فناسبها، وهذا قصد ظريف، ومما أنشدني قوله:

| | |
|---|---|
| أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِى عَنِ الْخَطَلِ | وَسُرْعَةُ الْحَزْمِ ذَادَتْنِى عَنِ الْمَذَلِ |
| وَحُلَّةُ الْعِلْمِ أَغْنَتْنِى مَلَابِسُهَا | وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زَانَتْنِى لَدَى الْعَطَلِ |
| مَجْدِى أَخِيرًا وَمَجْدِى أَولاً شَرَعٌ | وَسُؤْدُدِى ذَاعَ فِى حِلٍّ وَمُرْتَحَلِ |
| وَهِمَّتِى فِى الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَاحِدَةٌ | وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِى الطَّفَلِ |
| فِيمَ الإِقَامَةُ بِالزَّوْرَاءِ لا سَكَنِى | دَانٍ، وَلاَ أَنَا فِى عَيْشٍ بِهَا خَضِلِ |



(1) الغيث المسجم جـ1 ص 29.

(2) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(3) السابق نفسه والصفحة نفسها.

وَلَيْسَ لِي أرَبٌ فِيـهَا وَلاَ خَـوَلِي بِهَا، وَلاَ نَاقَتِي فِيهَا وَلاَ جَمَلِي»[1]

وابن فـرحون المالكى هـنا لم يحذف شطرةً مـن كل بيت، وإنما ركب على كل صدر عجزا، وعلى كل عجز صـدراً، بمعنى أنه استخدم شطرتى البيت الواحد فى تكوين بيـتين اثنين، ولا شك أن هذا الأمـر يسهل عـليه حـسبمـا يرى الصـفدى ويحسن؛ لأن الصـفدى يركز على أن ترتبط القـافية بالمعنى، وابن فـرحون هنا لم يغير القافية، وإنما غَيَّرَ الشطرة سواء أكانت صدراً أم عجزا وأتى بشطرة أخرى على الوزن نفسه، وعلى القافية نفسها، ومن ثم جازت المحاولة وظرفت عند الصفدى.

ومن القوافى الحسنة التى نالت إعجاب الصفدى كلمة يوافقها من قول الشاعر:

يُوشِكُ مَـنْ فَـرَّ مِنْ مَنِيَّـتِـهِ فِي بَعْضِ غِـرَّاتِهِ يُوافِـقُـهَـا

فقد قـال فيها الصفـدى: «هذه القافية وأمـثالُها نهايةُ ما يمكـن أن يجتمع فى قافية، وذلك لأنه اجتمع فيها خمسة أحرف وهى: التأسيس، والدخيل، والروى، والصلة، والخـروج، وكل واحد من هذه يلزم تكراره إلا الدخـيل، واجتمـع قبله أربع حركـات وهى: الرَّسُّ، والإشباع، والإطـلاق، والنفاد، فهـذه تسعة أشياء اجتمعت فى قافية واحدة كما ترى؛ فالألف فى الكلمة تأسيس، وحركة الواو التى قبلهـا رس، والفاء دخـيل وحركتـها إشباع، والقاف روى، وحـركتـها إطلاق، ومجرى إن شئت، والهاء صلة وحركتها انفاد، والألف خروج»[2].

وواضح من هذا النص مدى إتقـان الصفدى لأسمـاء حروف القافيـة، وأسماء حـركات هذه الحـروف، وكأن الصـفدى يريد مـن هذا الكلام أن يقول أنه كلمـا اشتـملت القافـية على عـددٍ أكبر من الحـروف وحركـاتها كلما قـويت، وتمكنت وحسنت.

**والصفدى بهذا الكلام يشترط فى القافية الحسنة شرطين هما:**

١- أن تكون القافـية من جنس ألفاظ الأبيـات فصاحـةً وعذوبةً، مع ائتلافـها مع المعنى.

---

(١) السابق نفسه ص ٣٥.

(٢) السابق نفسه ص ٦١.

٢- أن تحتوى على أكبر قدر ممكن من حروف القافية وحركاتها.

وفى معرض الحديث عن تغيير القوافى لم يفت الصفدى أن يشير إلى أنه قد يتفق الشاعران فى ألفاظ أبياتهما ويختلفان فى القافية؛ حيث قال: «وأما اتفاق الشاعرين فى الأبيات وتخالفهما فى القافية فكثير فمنه قول النابغة:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لأَشْمَطَ رَاهِبٍ ... عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا ... وَلَخَالَهُ رُشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

وقول ربيعة بن مقروم الضبى:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لأَشْمَطَ رَاهِبٍ ... عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةٍ مُتَبَتِّلِ

لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا ... وَلَهَمَّ مِنْ تَامُورِهِ بِتَنَزُّلِ

وقول الأقيشر العجلى:

جَرَيْتُ مَعَ الصِّبَا طَلْقَ العَتِيقِ ... وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ الفُسُوقِ

وَجَدْتُ أَلَذَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي ... قِرَانَ النَّغْمِ بِالْوَتَرِ الْخَفُوقِ

وَمُسْمِعَةٍ مَتَى مَا شِئْتُ غَنَّتْ ... مَتَى نَزَلَ الأَحِبَّةُ بِالْعَقِيقِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى ... وَصِلْ بِعُرَى الصَّبُوحِ عُرَى الغَبُوقِ

وقول أبى نواس:

جَرَيْتُ مَعَ الهَوَى طَلْقَ الجَمُوحِ ... وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ القَبِيحِ

وَجَدْتُ أَلَذَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي ... قِرَانَ النَّغْمِ بِالْوَتَرِ الفَصِيحِ

وَمُسْمِعَةٍ مَتَى مَا شِئْتُ غَنَّتْ ... مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحِ

تَمَتَّعْ مَنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى ... وَصِلْ بِعُرَى الغَبُوقِ عُرَى الصَّبُوحِ[1]»

ومضى الصفدى يعرض نماذج كثيرة لاتفاق الشاعرين فى الأبيات وتخالفهما فى القافية، لكنى ألاحظ أن حديثه عن هذه النقطة كان عبارة عن عرض لهذه النماذج فقط دون التعليق عليها ودون أدنى محاولة للتعليل لهذه الظاهرة، وقد كان من

---

(١) السابق ص ٣٠ وما بعدها.

الممكن أن يرجع هذه الظاهرة إلى توارد الخواطر، أو تأثر الخالف بالسالف، أو حتى إلى سرقة الشعراء لآثار سابقيهم كما قال بذلك كثير من النقاد[1]، إلا أن الصفدى لم يفعل، مع أنه أخذ يتعقب معانى كثير من الشعراء وألفاظهم، ويُرجعها إلى أصولها التى أخذوها منها، وبلغت هذه التعقيبات عددًا يفوق الحصر مما يُشكِّل صَرْحًا ضخمًا لقضية السرقات الشعرية سوف يأخذ حظه من الدرس فى مبحث مستقل من مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

وقد تحدث الصفدى فى مقدمة الغيث عن قضايا عَروضية أخرى؛ وهى عبارة عن بعض التعريفات لبعض المصطلحات العروضية؛ كتعريف الخبن[2]، والحديث عن دوائر الخليل العروضية[3] وبعض أبيات المعاياة فى العروض[4]، وقد رأيت أن أضرب عنها صفحًا لخلوها من الآراء والدلالات النقدية.

******

(١) ينظر مشكلة السرقات فى النقد العربى للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ١٥، ص ١٩ طبعة المكتب الإسلامى، د.ت.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ٥٧.

(٣) السابق نفسه ص ٥٩.

(٤) السابق نفسه ونفس الصفحة.

## المبحث الثانى

## الصفدى وشعرُ المتنبى

شهد القرن الرابع الهجرى نضوج موهبة فنية كبرى، ملأ صاحبها الدنيا، وشغل الناس، وتبوأ مكانًا عليا فى دنيا الأدب - على الرغم من اختلاف الناس فى الحكم عليه، وتفرقهم فى ذلك شيعًا وأحزابا- تلك هى شاعرية أبى الطيب المتنبى.

ولقد كان شعر المتنبى مصدرًا أساسيًا من المصادر التى اعتمد عليها الصفدى فى تأليف الغيث؛ حيث كان يستشهد به فى مواضع كثيرة، ونادرًا ما كانت تخلو هذه المواضع من تعقيبات على هذا الشعر تكشف عن موقف الصفدى - بوصفه ناقدًا متأخرًا من نقاد القرن الثامن الهجرى- من هذا الشاعر الفذ الذى اختصم النقاد حول شعره خصومة لا نظير لها فى تاريخ نقدنا القديم[1].

ونقد الصفدى شعر المتنبى يدور حول محور يرتكز عليه ويستند إليه، وهو محاولة إنصاف فن هذا الرجل ما وجد الصفدى إلى ذلك سبيلا، والإشادة بمحاسنه وفضائله، وإظهار مساوئه ومقابحه دون تجن عليه، ثم الانتصاف له من ناقدَين كبيرين؛ أحدهما لغوى، والآخر أدبى.

أما الأول فهو أبو القاسم الحريرى الذى ذكر بعض أخطاء المتنبى اللغوية فى كتابه «درة الغواص فى أوهام الخواص»، وأما الآخر فهو ابن وكيع التنيسى الذى تتبع سرقات المتنبى فى كتابه «المنصف فى السارق والمسروق منه من شعر المتنبى».

ومعنى هذا أن الصفدى يتناول شعر المتنبى بالنقد من ناحيتى اللفظ والمعنى.

**نقد الألفاظ:**

فمن ناحية اللفظ نجد الصفدى يركز على ما يتعلق أولاً بفصاحة ألفاظ أبى الطيب وعذوبتها، حيث عاب على المتنبى إخلاله - فى بعض أبياته - بتلك

---

(١) يراجع: الخصومة بين القدماء والمحدثين فى النقد العربى القديم تاريخها وقضاياها أ.د. عثمان موافى، من ص ٩١ إلى ص ١٢١، نشر دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية: ١٩٨٤م.

الشروط التى يجب أن تتوافر فى الألفاظ الفصيحة وذلك حين استخدم ألفاظًا ثقيلة، ثم كرر هذه الألفاظ دون مراعاة لما قد يحدثه تكرارها من عدم تقبل السامع للبيت، وضرب الصفدى أمثلة لاستخدام المتنبى لمثل هذه النوعية من الألفاظ وتكرارها حين قال: «ومن تكرار الألفاظ الثقيلة قول أبى الطيب أيضًا:

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مَقَامُ

وكذا قوله:

فقلقلتُ بالهمِّ الذى قَلْقَلَ الحَشَا ... قَلاقِلَ هَمٍّ[1] كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

وكذا قوله:

عَظُمْتَ فَلَمَّا لَمْ تُكَلَّمْ مَهَابَةً ... تَوَاضَعْتَ وَهْوَ العُظْمُ عظمًا على عظمِ[2]»

وقد تهكم الصفدى على هذا البيت الثالث بقوله: «ولو سمى هذا البيت جبّانة لكان لائقًا به[3]».

والصفدى لا يغالى حين يعيب على المتنبى استخدام مثل هذه الألفاظ لأن جمهور البلاغيين قد وضعوا شروطًا لفصاحة الألفاظ منها خلوها من التعقيد سواء أكانت مفردة أم مركبة[4]، ثم إن استخدام المتنبى لمثل هذه الألفاظ قد كان موضع نقد كثير من العلماء والنقاد الذين عنوا بأخباره وأشعاره قبل الصفدى وبعده من مثل القاضى الجرجانى فى وساطته[5]، وأبى منصور الثعالبى فى يتيمة الدهر[6]، والشيخ يوسف البديعى فى الصبح المنبى عن حيثية المتنبى[7].

---

(١) بالديوان «قلاقل عيس» ص ٣٣ طبعة هندية بمصر ١٩٢٣م.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٨٤.

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٤) الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ص٤ ص٥ نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ٨٢/١٩٨٣م.

(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ص ٧٣، ص٧٤ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.

(٦) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر لأبى منصور الثعالبى. تحقيق إيليا الحاوى ص ٢٦٠ الشركة الشرقية النشر والتوزيع بيروت د.ت.

(٧) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى ص ٣٧٧ تحقيق مصطفى السقا وآخرين دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

ومن هؤلاء وآخرين غيرهم من مثل ابن وكيع التنيسى، وضياء الدين بن الأثير من عاب على المتنبى قوله يمدح أبا عبد الله محمد بن الخطيب الخصيبى: -

العارضُ الهتنُ ابنُ العارضِ الهتنِ ابـ ـنِ العارضِ الهتنِ ابنِ العارضِ الهتنِ

على حين وقف الصفدى يدافع عن المتنبى، ويرد على من عابه ووسمه بالتكرار الذى لا فائدة فيه أو بثقل ألفاظه أو بفساد معناه، فقد قال فى رده على من وسمه بالتكرار الذى لا فائدة فيه[1]: «فقد عدَّه بعضهم من التكرار الذى لا فائدة فيه، وليس كذلك، بل هو من باب قوله ﷺ ذلك: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم[2]».

وبهذا يكون الصفدى قد رفع البيت إلى أعلى درجات الفصاحة والبيان، وبهذا يكون تكرار ألفاظ البيت قد أفاد التوكيد، فكأن المتنبى بتكرار لفظتى (العارض)، و(الهتن) يريد أن يبين أن الممدوح معرق فى كرمه، فليس الكرم سمةً من سماته فحسب، وإنما هى خلة ورثها عن آبائه الكرام الميامين.

وقال الصفدى عارضًا رأى ابن الأثير وراداً عليه: «وأما ابن الأثير فإنه عاب ألفاظ البيت من حيث هى، واستثقل لفظ العارض، والهتن، قال: ولو قال بدل العارض السحابَ أو ما يجرى مجراها لكان أرشق. قلت: ليس ذلك بشىء، ولفظ العارض والهتن فصحيح عذب فى السمع[3]».

فابن الأثير يعيب ألفاظ البيت من حيث هى، أى أنه يعيب اللفظ دون أن يعيب تكراره، وعلة نفوره من لفظ «العارض» هى أنه يرى به ثقلاً، على حين يرى الصفدى أن اللفظ فصيح، وأنه فوق فصاحته يستريح له السمع، والصفدى - فى رأيى - موفق فى رده على ابن الأثير؛ لأن كلمة العارض ليس بها ما يوحى بالثقل الذى ادَّعاه ابنُ الأثير؛ فلا مخارج حروفها متقاربة، ولا هى حوشية غريبة لم يألف الشعراء استخدامها، ولا هى مخالفة للقياس اللغوى.

وعرض الصفدى رأىَ ابن وكيع التنيسى فى بيت أبى الطيب فقال: «وأما ابن

---

(١) وسمه بذلك الثعالبى فى يتيمة الدهر، يراجع ص ٢٦١.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٨٥.

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.



وكيع فإنه قال: لولا انتهاء القافية لمضى فى العارض الهتن إلى آدم عليه السلام، وبانتهاء القافية أعلمنا أن نهاية عدد آبائه المستحقين للمدح ثلاثة ثم يقف الأمر! قال: وأحسنُ من هذا قول البحترى:

الفَــاعِلُونَ إِذَا لُــذْنَا بِجُــودِهِمُ ... مَا يَفْعَلُ الغَيْثُ فى شُؤْبُوبِهِ الهَتِنِ

فجاء بالمعنى عاما بغير عدد متردد، ولا لفظ مستبرد، فهو أرجح كلامًا، وأحسن نظامًا قال: وما أشبه برد[1] بيت أبى الطيب ببيتٍ قاله امرؤ القيس:

أَلاَ إِنَّنِـي بَالٍ عَلَى جَـمَلٍ بَـالِي ... يَقُودُ بِنَا بالٍ وَيَتْـبَعُنَا بَالِي[2]»

هذا رأى ابن وكيع فى بيت أبى الطيب المتنبى، فبم أجاب الصفدى عمّا يحمله من انتقادات؟ قال الصفدى «قلت: كذا ذكره فى المنصف، وقد أخطأ فى هذا الكلام من عدة وجوه: أولها أنه قال: لولا انتهاء القافية لمضى إلى آدم، ولو قال لولا انتهاء الوزن لكان أكثر تحقيقًا؛ لأن القافية حصلت فى ربع البيت من أول ذكر الهتن، وهذا كلام سبقه إليه عبد الملك بن مروان، وقد أنشد قول دريد بن الصمة:

قَـتَلْنَا بِعَـبْدِ اللهِ خَـيْـرَ لِدَاتِهِ ... ذِئَابَ بنَ أَسْمَاءَ بنِ زيدِ بنِ قارب

فقال: لولا القافية لوصل به إلى آدم[3]».

وظاهرُ هذا الكلام الذى عقب به الصفدى على أول الانتقادات التى وردت فى كلام ابن وكيع يدل دلالةً واضحةً على أن الصفدى لم يتعرض للانتقاد بالمناقشة والتفنيد، حيث لا يزال كلام ابن وكيع الذى فحواه أن انتهاء تفعيلات البحر هى التى قطعت الكلام، ولو لم تنته التفعيلات لظل المتنبى يقول ابن العارض الهتن بن العارض الهتن حتى ينتهى إلى أبينا آدم فى محله، وكل ما فعله أنه خطأه فى قوله «لولا انتهاء القافية»، وكأن ابن وكيع لا يدرك الفرق بين الوزن والقافية، وحقًا لقد أخطأ ابن وكيع حين قال: «لولا انتهاء القافية» إلا أن هذا الخطأ من الممكن أن يرد إلى أنه يقصد انتهاء البيت، كما أنى أرى أن الصفدى مبطل فى اتهام ابن وكيع

(١) فى المنصف «تردد» راجع المنصف ص ٥٨٤.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٨٥، ص ١٨٦.

(٣) السابق نفسه ص ١٨٦.

بسرقة هذا التعليق الذى علق به على بيت المتنبى من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لسببين :-

الأول: أن ابن وكيع لا يُعْجِزُه أن يصل إلى هذا الانتقاد بنفسه حتى يحتاج إلى سرقته من غيره.

والآخر: أنه لا يعيب الناقد أن يحاول الاستفادة من قراءاته المتعددة فى نقد الأعمال الأدبية معتمداً فى ذلك على منهج قياس الأشباه على النظائر.

ثم يمضى الصفدى فى حديثه ليصل إلى الوجه الثانى من وجوه الخطأ فى كلام ابن وكيع فيقول: «وثانيها أنه قال: أعلمنا أن عدد آبائه الممدوحين ثلاثة، كذا قال، والبيت يشتمل على أربعة أعداد ضرورة الوزن، وأيضًا فلا يلزم فى المديح أن يؤتى بجميع الآباء فى الذكر، ويكفى من مدحَ أصيلا أن يقول: أنت كريم ووالدك ووالده[1]».

ولقد أخطأ الصفدى - هنا - شاكلة الصواب؛ لأن ابن وكيع لم يخطئ فى عدد آباء الممدوح المذكورين فى البيت؛ لأننا إذا أخرجنا الأول من دائرة العد بوصفه الممدوح، بقى لنا عدد آبائه الممدوحين وهو ثلاثة.

أما الوجه الثالث من وجوه الخطأ التى وقع فيها ابن وكيع على ما يرى الصفدى فهو أنه وازن بين بيت أبى الطيب وقول البحترى:

الفاعلون إذا لُذْنا بجودهِمْ ما يفعلُ الغيثُ فى شؤبوبه الهتِنِ

قال الصفدى: «وثالثها أنه مثَّل ببيت البحترى وليس من هذا الباب الذى حاوله، ولفظة الفاعلون، وشؤبوبه ثقيلتان على السمع[2]».

وقد أصاب الصفدى فى اعتراضه هنا على ابن وكيع لأن ابن وكيع وازن بين بيت أبى الطيب المتنبى وبيت أبى عبادة البحترى، وخرج من موازنته بتفضيل بيت البحترى على بيت أبى الطيب مع أن المقارنة لا تجوز هنا، لأن بيت البحترى يغاير بيت المتنبى فى معناه؛ فقد أراد البحترى أن يصف الممدوح وآله بشدة الكرم فقال

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٨٧.



إنهم إذا لاذ الناس بجودهم يكرمونهم كرمًا لا مثيل له؛ فحالهم فى كرمهم يشبه الغيث فى شؤبوبه الهتن، أما المتنبى فقد أراد أن يمدح صاحبه لا بشدة الكرم وإنما بوراثته لهذا الكرم عن آبائه وأجداده.

ثم إن لفظتى (الفاعلون) و(شؤبوبه) ثقيلتان فعلاً على السمع، ومرجع ثقل الكلمة الأولى لا فى مخالفتها للقياس اللغوى ولا فى تقارب مخارج حروفها، وإنما فى ندرة استعمالها.

ومرجع ثقل الكلمة الثانية مرده إلى تكرار حرف الباء مرتين متتاليتين وإلى مجىء الكلمة على وزن فعلول وهو وزن ثقيل».

ويمضى الصفدى فى حديثه ليصل إلى آخر وجوه الخطأ التى اشتمل عليها انتقادُ ابن وكيع لبيت المتنبى فيقول: «ورابعها أنه شبهه ببرد بيت امرئ القيس وليس منه، وإنما الجامع بينهما التكرار(١)».

وقد أصاب الصفدى هنا أيضًا لأنه وإن كان قد أدرك أن الجامع بين بيت المتنبى وبيت امرئ القيس هو تكرار بعض الألفاظ حيث كرر المتنبى لفظتى العارض والهتن أربع مرات، وكرر امرؤ القيس لفظ بال أربع مرات - قد نفى أن يكون هناك جامع آخر بينهما لتغايرهما فى المعنى؛ فأبو الطيب يمدح صاحبه بأصالة كرمه، وامرؤ القيس يصف عناءه وما لاقاه فى رحلته من تعب ونصب، وهما معنيان متغايران، ومِن ثَمَّ فقد أصاب الصفدى حين قال إن برد بيت أبى الطيب ليس من برد بيت امرئ القيس.

ولكن: ما معنى هذا؟ ما معنى أن يدافع الصفدى عن المتنبى كل هذا الدفاع وهو الذى قد عاب من قبل قوله:

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِى وَمِثْلِى ... لِمِثْلِى عِنْدَ مِثْلِهِمُ مَقَامُ

وقوله:

فَقَلْقَلْتُ بِالهَمِّ الذى قَلْقَلَ الحَشَا ... قَلاقِلَ هَمٍّ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

وقوله:

عَظُمْتَ فَلَمَّا لَمْ تُكَلَّمْ مَهَابَةً تَوَاضَعْتَ وَهْوَ الْعُظْمُ عظماً عَلَى عِظَمِ

معنى هذا أن الصفدى يقف فى حكمه على المتنبى موقفا وسطا هو إلى الاعتدال أقرب منه إلى الشطط، وأبعد ما يكون عن الجور والحيف؛ فالمتنبى شاعر ككل الشعراء له حسناته كما لهم حسناتهم، وله أخطاؤه كما لهم أخطاؤهم، والصفدى الذى عاب تكرار ألفاظ بعينها فى بعض أبيات المتنبى هو الذى مدح تكرار الألفاظ فى أبيات أخرى له، ومعنى هذا - أيضًا - أن الصفدى لا يرى بأسا فى تكرارألفاظ بعينها مرات فى البيت الواحد إذا كان هذا التكرار له ما يبرره كأن يضيف جديداً إلى المعنى بتوكيده، أو يساعد على إضافة جرس أو إيقاع موسيقى إلى البيت، أما إذا فقد تكرار الألفاظ ما يبرره ويوجبه فإن الصفدى يرفضه ويعيبه.

ومن هنا ندرك أن أول المآخذ التى يأخذها الصفدى على المتنبى من ناحية ألفاظه هو تكراره لبعض الألفاظ فى البيت الواحد عدة مرات دون داع إلى ذلك، مما يؤدى إلى ضعف البيت وثقله.

ويعيب الصفدى على المتنبى استخدامَه للألفاظ الغثة، ولا يشفع له عنده أن يتألف من هذه الألفاظ معنى جميل، أو معنى غريب على حد قوله، فقد أثنى الصفدى على معنى بيت المتنبى:

إِذَا مَا ضَرَبْتَ الْقِرْنَ ثُمَّ أَجَزْتَنِي فَكِلْ ذَهَبًا لِي مَرَّةً مِنْهُ بِالْكَلْمِ

قال الصفدى: «وهذا معنى غريب لكنه غث الألفاظ[1]».

ولعل الصفدى يقصد بقوله غريب أنه عميق أو بعيد؛ لأن المتنبى يصف ممدوحه هنا بالشدة والقوة فى النزال والضرب، وحين أراد أن يصف ممدوحه بهاتين الصفتين سلك مسلكًا غريبًا حقًا غير عادى ولا مألوف لأنه عبر عن قوة ممدوحه وشدة نزاله وضربه باتساع جرح عدوه «حتى إنه لو ملأ الجرح الواقع منه على القرن ذهبًا لاستغنى من شدة اتساع الجرح[2]».

(١) الغيث المسجم جـ٢ ص ١٩.

(٢) ديوان المتنبى إحالة رقم ٤ بهامش ص ٥٨.

والصفدى قد أدرك هذا المعنى - دون شك - ومن ثم فقد وصفه بالغرابة التى قلت إنها تعنى هنا العمق أو البعد الفكرى والوصفي.

والصفدى على هذا - صادق - فى حكمه على معنى البيت كما هو صادق أيضًا فى حكمه على ألفاظه؛ ففى الألفاظ ضعف وقلق، وهذا معنى شريف - على حد تعبير الجاحظ - فكان حق هذا المعنى على المتنبى أن يتخير له اللفظ الشريف، إلا أنه لم يفعل وأتت ألفاظ الشطرة الثانية من بيته ضعيفة قلقة غثة لكثرة ما بها من التقديم والتأخير؛ حيث يقتضى سياق الكلام أن يقول: «فكِل لى مرة ذهبًا بالكلم منه».

وعندما نعيد قراءة تعليق الصفدى على هذا البيت مرة أخرى يتضح لنا أن الصفدى يفصل بين اللفظ والمعنى عند حكمه على البيت الشعرى أو العمل الفنى، وهو فى حكمه على هذا البيت بوجه خاص يقترب كثيراً من ابن طباطبا العلوى الذى عقد فصلاً فى عيار الشعر عن الشعر الصحيح المعنى الرث الصياغة[1].

ومعنى هذا أن الصفدى ينضم إلى قافلة النقاد العرب الذين يقولون بثنائية اللفظ والمعنى وينظرون بهذه الثنائية عند الحكم على الأعمال الأدبية.

وليس هذا الحكم على الصفدى بالحكم السريع المتعجل؛ لأنه كرر الفصل بين اللفظ والمعنى عند نقده لشعر الشعراء ونثر الكتاب، بل عند تعليقه على أبيات أخر للمتنبى حيث أورد بيتى أبى الطيب:-

| | |
|---|---|
| إذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ | فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ - وَذَاقَا |
| فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إلاَّ خِدَاعًا | وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إلاَّ نِفَاقَا |

ثم علق عليها بقوله: «فعطف قوله وذاقا على قوله جربهم، واعترض بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: فإني قد أكلتهم، والمعنى مليح؛ لأنه يقول إذا ما جرب الناسَ لبيبٌ وذاقهم فإنى أكلتهم، ومن أتى على الشىء أكلاً فقد عرفه أكثر ممن جربه ذواقًا[2]».

---

(١) عيار الشعر ص ١٢٤.

(٢) الغيث المسجم جـ٢ ص ٣٣٣.



فهذا التعليق ذو شقين: شقٌّ يتناول اللفظ، وشق يتناول المعنى، وهو فى هذه المرة قد تناول الألفاظ من ناحية ترتيبها ونظمها لا من ناحية فصاحتها أو عذوبتها؛ لأن سياق الكلام يقتضى أن يأتى المعطوف والمعطوف عليه بلا فاصل بينهما، والمتنبى هنا قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة اعتراضية هى «فإنى قد أكلتهم» وهذا الفصل قد أحدث - دون شك - شيئًا من الاضطراب مما جعل الصفدى يشير إلى مصدره.

هذا هو تعليق الصفدى على ترتيب المتنبى لألفاظ بيته، واللافت للنظر هنا أن الصفدى لم ينتقد هذا الترتيب، وربما كان مرد ذلك إلى ما أدته الجملة الاعتراضية من المعانى التى كشف عنها فى الشق الثانى من تعليقه على البيتين؛ حيث دلت هذه الجملة الاعتراضية على شدة اختلاط المتنبى بالناس ومعاشرتهم ومعاملتهم، وقد تَرَتَّب على هذه المعانى صدق الحكم الذى حكم به المتنبى على وداد الناس ودينهم فى البيت الثانى.

وموقف الصفدى من بيتى المتنبى هنا كموقفه السابق من بيته:

العَارِضُ الهَتِنُ ابنُ العَارِضِ الهَتِنِ ابـ ـنِ العَارِضِ الهَتِنِ ابنِ العَارِضِ الهَتِنِ

فكما تسامح الصفدى عند نقده لهذا البيت فيما سبق، تسامح فى نقده أو تعليقه على هذين البيتين، وكأن الصفدى يبيح للمتنبى وغيره أن يقدم ويؤخر كيفما شاء فى ترتيب الكلام، وأن يفصل بين الكلام بالجمل الاعتراضية شريطة أن يؤدى هذا التصرف إلى تأكيد المعنى أو تحسينه أو تعميقه.

وأحب أن أشير إلى أمر تنبه له نقادنا القدامى وهو أن كثرة أخطاء المتنبى اللغوية والنحوية، واستخدامه للألفاظ الغريبة، وما يشبه ذلك إنما يرجع إلى عنايته بالمعنى دون اللفظ؛ فالمتنبى عندهم شاعر معان لا شاعر ألفاظ منسقة أو عبارات منمقة، وقد تنبه الصفدى إلى ذلك، وهو فى معرض حديثه عن رأى الشاعر الأندلسى ابن خفاجة فى بيتى المتنبى:

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا فُؤَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلاَ لُبَّا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشى كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رُكْبَا

قال الصفدى: «قال ابن خفاجة الأندلسى: لو قال أبو الطيب:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِى كَرَامَةً ... لأَهْلِيهِ أَنْ نَغْشَى رُسُومَهُم رُكْبَا

لجاء البيت أتم جزالة، لكن أبا الطيب إنما كان يتمثل بالمعانى ولا يبالى بالألفاظ، وربما قال قائل: لفظة بان عنه تعطى معنى الرسوم؛ لأن المنزل إذا بان عنه ساكنه أقوى؛ فاللفظان متساويان، فيقال: هذا أصرح من ذلك، وأنت تجد قولك: «لقيت من ضرب زيدا» قد نزل عن قولك «الذى ضرب زيدا»، وكان ذلك إنما ينزل فى النفس عن مرتبة الجلالة فى اللفظ لا فى المعنى»[1].

وفى ضوء هذا الوعى الكامل باهتمام المتنبى بمعانى أبياته أتى حكم الصفدى على ما فعله أبو الفضل الجوهرى ببيتى المتنبى السابقين حين أنشدهما وقد شارف مدينة الرسول ﷺ حيث قال:

ولَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا ... فُؤَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ ولاَ لُبَّا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشى كرامةً ... لِمَنْ بَانَ فِيهِ أن نُلُمَّ بِهِ رُكْبَا

قال الصفدى «هدم فيه موضعين الأول (وكيف عرفنا)، والثانى (لمن بان عنه)»[2] ثم علل الصفدى - أو بمعنى آخر برر - مشروعية هدمه لهذين الموضعين بقوله «لأنه لو تركهما ما لاقا بالمقام»[3]. وذكر الصفدى أن أبا الفضل الجوهرى هدم معنى (بان) التى فى بيت المتنبى أيضًا قال: «وينهدم معنى بان أيضًا لأنه فى الأصل من البين، وهو الفراق، وفى حالة الاستشهاد يكون من البيان»[4].

وتعبير الصفدى عن التغييرات التى أدخلها أبو الفضل الجوهرى على بيتى أبى الطيب بالهدم هنا واقعٌ موقعه؛ لأنى بينتُ فى المبحث السابق أن الصفدى ينظر إلى العمل الأدبى أو البيت الذى هو وحدة القصيدة عندهم كما ينظر الإنسان إلى البناء المتكامل المتماسك؛ فالبيت الشعرى كالبناء المتكامل، وكل لفظة من ألفاظه تقابل كل لبنة من لبنات البناء، وعلى هذا فإذا ما حاول شاعر أن يغير فى ألفاظ

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١١٣.

(٢) السابق نفسه ص ١١٢.

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه ص ١١٢، ص ١١٣.



بيت لشاعر آخر فإنما يقوم فى حقيقة الأمر بهدم هذا البناء الذى بناه صاحبه، والصفدى فى ضوء تعليقه هذا على عمل أبى الفضل الجوهرى أتصور أنه لا يمانع فى مثل هذا الهدم متى ما تم الإتيان باللفظ البديل الذى يوافق المقام الجديد أو الأثر النفسى الذى يقع تحته المتمثل بالبيت أو المغيرٌ فيه.

وعندما يلتمس الصفدى لأبى الفضل الجوهرى العذر فى هدمه لبيتى أبى الطيب، ويعزو هذا التغيير إلى موافقة المقام الجديد، فإنما يرشدنا فى واقع الأمر إلى ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ لأن لكل حال من الأحوال مقامًا فى الخطاب والحديث خاصًا به ومقصوراً عليه؛ فأبو الطيب المتنبى كان يتحدث فى بيتيه عن آثار ديار الحبيب، وهذه حال تخالف الحال التى كان عليها أبو الفضل الجوهرى الذى كان على مشارف مدينة الرسول الكريم ﷺ.

ولما كان المتنبى فى موقف الحديث عن أطلال الديار، فقد ناسب هذا الموقف قوله (وكيف عرفنا)، وقوله (لمن بان عنه) أى لمن فارقه وهجره.

ولما كان أبو الفضل الجوهرى فى موقف القرب من مدينة الرسول ﷺ فقد ناسب هذا الموقف قوله (بان فيه) أى لمع فيه نجمه، وظهر فيه فضله ومجده أو طوى فيه فضله ومجده أو طوى فى ثراه ﷺ.

وعندما نقرأ التعليق مرة ثانية نرى مدى دقة الصفدى، ومدى إصابته فى الحكم؛ حيث بين أن أبا الفضل الجوهرى قد هدم ثلاثة أشياء من بيتَى أبى الطيب وهى: موضعان ويقصد بهما لفظين وهما (وكيف عرفنا)، (وعنه)، ثم هدم معنًى؛ ويقصد به معنى الفعل (بان).

ومن منطلق إدراك الصفدى لاهتمام المتنبى بمعانى أبياته أيضًا كان تعليقه على بيت أبى الطيب:

رُوحٌ تَرَدَّدِ فى مِثْلِ الخِلاَلِ إذَا ... أطَارَتْ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ

فقد أشار الصفدى فى تعليقه على هذا البيت إلى أن قوله (لم يبن) يحتمل المعنيين نفسيهما اللذين احتملهما اللفظ فى قوله «لمن بان عنه»، وهذان المعنيان هما (لم يبن) أى لم يظهر من بان بمعنى ظهر، و(لم يبن) أى لم يبعد ولم يفترق، من بان أى بعد وافترق، قال الصفدى فى تعليقه على هذا البيت «فيحتمل المعنيين

لم يبن من الظهور، ولم يبن من الفراق، أى لم يتخلف عن الطيران من السقم، بل يلزم الثوب ولم يبن عنه»[1]، ثم أشار الصفدى إلى أن هذا المعنى الثانى الذى يحتمله اللفظ أحسن من المعنى الأول بقوله: «وهذا الثانى أدق معنًى وألطفُ مِن الأول»[2].

ولكى أحكم على هذا الرأى النقدى يجدرُ بى أن أشير إلى أن هذا البيت يتوسط بيتين آخرين[3] يصف فيهما المتنبى نفسه بالنحول والضمور وضعف البنية، وهو فى هذا البيت قد شبه جسمه فى نحوله وضموره بالخلال أى الأعواد الدقيقة الرفيعة، وعلى هذا فهو يقول: إن روحى تتردد فى هذا العود النحيل الذى يغطى ضموره ونحوله ما عليه من ثياب، وإذا ما أطارت الرياح هذه الثياب لم يظهر جسدى للرائى، وبناء على هذا التفسير فإن المعنى الأول الذى يحمله قوله (لم يبن) هو الأحسن، ولكن لما كان الصفدى يعلم مدى ما كان عليه المتنبى من الاهتمام بالمعنى والإغراب فيه، فقد حمَّلَ اللفظ معنى آخر، وهو عدم الابتعاد، فكأن المتنبى أراد أن يقول إن هذا الجسد لا يفارق ما عليه من الثياب، فهو يلزمها فى جميع أحوالها حتى إنه يطير معها إذا ما طيَّرتها الرياح.

ولا شك أن هذا التفسير الثانى للبين فيه من العُمق، وقوة التعبير عن ضمور الجسد ونحافته ما فيه، وهو أدل على هذه المعانى كلها من التفسير الأول فضلاً عما يمتاز به من الدقة واللطف والإغراب، ومن ثم فقد أصاب الصفدى حين حكم عليه بقوله: «وهذا الثانى أدق معنًى وألطفُ من الأول».

### المبالغة فى شعر المتنبى:

وقد يعمد المتنبى إلى المبالغة فى القول جريًا وراء تعميق المعنى وتحسينه، فتؤدى به هذه المبالغة إلى الوقوع فى التناقض مع نفسه فيما قال، ومع هذا فإن الصفدى يحمدها، ولا يعيبها لأنها - وإن كانت تصل إلى حد الاستحالة فى أحيان كثيرة - تفيد المعنى قوة على حد قول الصفدى.

---

(1) الغيث المسجم جـ ١ صـ ١١٣.

(2) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(3) ديوان المتنبى صـ ٣.



وقد ضرب الصفدى مثالاً لهذه المبالغات التى وقع فيها المتنبى فقال: «وبالغ أبو الطيب فى قوله:

وَكُلَّمَـا لَقِيَ الدِّينَـارُ صَاحِـبَـهُ        فِي مِلْكِهِ افْتَرَقَا مِنْ قَبْلِ يَصْطَحِبَا

مَـالٌ كَـأَنَّ غُـرَابَ البَـيْنِ يَرْقُبُـهُ        فَكُلَّمَا قِيلَ هَذَا مُجْتَدٍ نَعَبَا»[1]

فأبو الطيب المتنبى يريد أن يصور سرعة ذهاب المال وعدم مكثه فى يد مالكه أو صاحبه فعمد إلى هذه المبالغة فى التعبير، حيث جعل المال يلتقى بصاحبه ثم يفترق عنه من قبل أن يأنس كلاهما بالآخر، ويصطحب كلاهما الآخر؛ فكأن هذا المال يرقبه غراب البين، وفى تعليق الصفدى على هذين البيتين يقول «هذا البيت الأول من معانى أبى الطيب التى يناقض آخرُها أولها لأنه قرر أولاً أن الدينار يلقى صاحبه، ثم قال يفترقان قبل اصطحابهما، وهذا تناقض»[2].

ومع أنى أوافق الصفدى على ما وصف به المتنبى فى هذين البيتين من المبالغة فإنى أختلف معه فى وصفه للمتنبى بالتناقض مع نفسه فى البيت الأول؛ وذلك لأن المتنبى فى الشطرة الأولى من هذا البيت قد قرر أن الدينار يلقى صاحبه كما قال الصفدى، ثم قال فى الشطرة الثانية: إنهما يفترقان من قبل أن يصطحبا، وهذا المعنى الموجود بالشطرة الثانية لا يناقض معنى الشطرة الأولى كما زعم الصفدى، لأن الصحبة لقاء طويل فيه إيناس، وهذا ما نفاه المتنبى، فالمتنبى لم ينف اللقاء حتى نقول إنه تناقض مع نفسه، وإنما نفى طول اللقاء، والأنس به، ولو قال المتنبى «فى ملكه افترقا من قبل يلتقيا» لسلَّمنا للصفدى بأن المتنبى قد تناقض مع نفسه فى هذا البيت.

وضرب الصفدى مثالاً ثانيًا لتناقض المتنبى مع نفسه حين بالغ فى التعبير جريًا وراء تعميق المعنى وتحسينه حين قال: «وكذا قوله:

أَعْـدَى الزمانَ سَـخَاؤُهُ فَـسخَـا بِهِ        وَلَقَـدْ يَـكُونُ بِهِ الزَّمَـانُ بَخِـيلاَ

فقرر أن سخاءه أعدى الزمان، فهذا دليل على وجوده، ثم قال فسخا الزمان به

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٢٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

أى أوجده، والشىءُ لا يتقدم على وجود نفسه، ولكن هذا النوع من المبالغات التى تخرج إلى حد الاستحالة فتفيد المعنى قوة لم تكن فى غيره»[1].

ولا شك أن الصفدى قد أصاب حين وصف مبالغة المتنبى فى هذا البيت بأنها وصلت إلى حد الاستحالة؛ لأن المتنبى يريد أن يصف ممدوحه بالكرم أو بشدة الكرم فقال إن الزمان بطبعه بخيل وشحيح إلا أنه قد أصابته عدوى الكرم من ممدوحه فكأن ممدوحه هو الذى علَّم الزمان الجود والكرم، وهذه مبالغة فى التعبير.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنى أوافق الصفدى حين قال بتناقض المتنبى مع نفسه فى هذا البيت، وإن كنت أختلف معه فى موضع هذا التناقض، أو بتعبير أصح أرى أن المتنبى قد تناقض مع نفسه فى هذا البيت مرتين لا مرة واحدة: المرة الأولى حين قال «أعدى الزمان سخاؤه فسخا به» وأتى التناقض فى هذا التعبير من أنه ادَّعى أن ممدوحه أعدى الزمان بجوده وكرمه ثم عاد فقال لقد سخا به الزمان.

والمرة الثانية حين قال «فسخا به ولقد يكون به الزمان بخيلا» لأنه قرر أن الزمان قد سخا بالممدوح، ومعنى هذا أن الزمان قد بذل الممدوح[2] وإذا كان قد بذله فقد فقد ملكيته له أو حقه فيه، ثم عاد فقال ولقد يكون به الزمان - أى فى المستقبل - بخيلا، وهذا المعنى الثانى هو موضع التناقض إذن، إذ كيف يبخل به وهو لا يملكه أو وقد فقده؟

## اضطراب الصنعة فى شعر المتنبى:

ويعيب الصفدى على المتنبى اضطراب الصنعة فى بعض شعره، ويقصد الصفدى باضطراب الصنعة عدمَ إحكام المتنبى للتطابق فى كلامه، فعند تعليقه على قول المتنبى:

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أو إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

قال الصفدى «وهذا البيت مضطرب الصنعة لأنه كان ينبغى له أن يقول سرور محب أو حزن عدو وهذا مما يقوله كثيرًا، وسيأتى من كلامه نظائر لهذا البيت[3]».



(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٢٩.

(٢) الصبح المنبى ص ٢٥٠.

(٣) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٣٠.

وقارئ هذا التعليق النقدى المهم على هذا البيت يجب أن يتوقف طويلاً عند قول الصفدى (مضطرب الصنعة) حتى يفهم معناه، ويقف على دلالته.

فقول الصفدى «هذا البيت مضطرب الصنعة» معناه غير محكم البناء أو مهلهل التركيب.

ولو استعمل الصفدى أحد التعبيرين اللذين فسرت بهما قوله «مضطرب الصنعة» أو استعملهما معًا، أو استعمل ما يشبههما، لكان قد أوفى بذلك على غاية ما يريد لاسيما أنى قد بينت - فى غير هذا الموضع من هذا المبحث، وفى المبحث السابق - أن الصفدى ينظر إلى البيت على أنه بناء تعبيرى لِبَناته الألفاظ والعبارات، إلا أنه عدل عن مثل هذين التعبيرين وما يشبههما إلى التعبير الذى قاله «مضطرب الصنعة» فهل لذلك من دلالة؟ والجواب نعم إن هذا التعبير الذى استخدمه الصفدى يدل على إدراكه لموقف النقاد العرب من فنى الشعر والنثر، ويدل أيضًا على تبنيه لآرائهم فى هذا المجال.

فنقادنا القدامى مثل ابن سلام، وابن طباطبا، وأبى هلال، وابن رشيق، وغيرهم يرون أن الأدب «صناعة كسائر الصناعات»[1] ويرون كذلك أن الأديب شاعرًا كان أم ناثرا إن هو إلا صانع، ومادته الخام التى يصوغ منها صنعته الجميلة أو أدبه الرفيع هى الألفاظ والعبارات، ومن ثم وجب عليه أن يوفق بينها ويستخدمها الاستخدام الذى يحقق لها أكبر قدر من الائتلاف والانسجام على أن يظل على وعى تام بأن هذه الألفاظ ليست خلوًا من المعانى، وإنما تدل على معان، ومن ثم يجب عليه أن يعتنى بها عنايتين: الأولى من حيث كونها ألفاظًا مجردة، والثانية من حيث كونها ألفاظًا تدل على معان؛ فيهتم بصحة التقسيم والمقابلة والتفسير وما إلى ذلك كما يهتم بحسن النظم وجودة الرصف والسبك.

وحين نعود إلى بيت المتنبى نجده قد اهتم بالألفاظ فأحسن اختيارها ونظمها ورصفها، إلا أنه لم يهتم بالمعانى، فأخطأ حين قابل بين السرور والإساءة، وبين المحب والمجرم، وكان حقه أن يقابل بين السرور والحزن والمحب والمبغض؛ ومن ثم فقد اضطربت صنعته.

---

(١) يراجع فى ذلك ما كتبه أستاذنا الجليل الدكتور زغلول سلام فى كتابه تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ص ١١ وما بعدها.

وحين نعيد قراءة تعليق الصفدى على بيت المتنبى مرة أخرى يتبين لنا أن الصفدى قد أصاب فى حكمه على البيت، ومع هذا فقد أخطأ هو الآخر حين قابل بين المحب والعدو؛ لأن المحب عكسه المبغض لا العدو.

والصفدى فى تعليقه على هذا البيت قد أشار إلى أن المتنبى يخطئ كثيراً فى المقابلة، ووعد القارىء أن يضع أمامه أمثلة أخرى من شعر المتنبى تدل على ذلك، وقد فعل حيث قال: «وأما عدم المطابقة فى شعر أبى الطيب فكثير جداً، ومن ذلك قوله:

وَلِكُلِّ عينٍ قُرَّةٌ فى قُربِهِ ... حتَّى كأنَّ مَغيبَهُ الأقذاءُ

القرة ضدها السخنة، والقذاء ضده الجلاء.

وقوله أيضًا:

وَلَمْ يَعظُمْ لِنَقْصٍ كانَ فيه ... وَلَمْ يَزَلِ الأميرَ وَلَنْ يَزَالا

العظم ضده الحقارة، والنقص ضد الكمال، فلو قال: «ولم يكمل لنقص كان فيه» لكان أصنع.

وكذا قوله: - وإن لم يكن من هذا الباب -:

لَمْ نَفتَقِدْ بِكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى لَثَقٍ ... وَلاَ مِنَ البَحرِ غَيْرَ الرِّيحِ والسُّفُنِ

وَلاَ مِنَ اللَّيثِ إلاَّ قُبحَ مَنظَرِهِ ... وَمِنْ سِوَاهُ سِوَى مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

كان الذى ينبغى له أن يقول «ولا من البحر غير الجزر والغرق» لأنهما من معايب البحر، والريح والسفن من محاسنه.

وكذا قوله:

وَأَنَّهُ المُشِيرَ عَلَيْكَ فِى بِضلَّةٍ(1) ... فالحُرُّ مُمتَحَنٌ بِأولادِ الزِّنَا

والحر ضد اللئيم.

---

(1) وردت هذه الكلمة فى الغيث مصحفة؛ حيث كانت «بضده» وصححتها من الديوان؛ يراجع الغيث ص ٣٦١ جـ٢، الديوان ص ١١٩.

وقوله:

كم قتيلٍ كما قتلت شهيدٍ ... بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

وكان ينبغي أن يقول: «ببياض الطلى وحمرة الخدود[1]».

ولا ينبغي أن يمضي هذا النص دون أن أعلق عليه لأناقش الصفدي فيما ذهب إليه وأتبين مدى توفيقه في حكمه ونقده، وأول تعليق يستوقفني في هذا النص تعليقه على البيت الثاني، حيث بين الصفدي أن المتنبي جانبَ الصواب في قوله «ولم يعظم لنقص» لأنه قابل بين العظم والنقص، مع أن مقابل العظم الحقارة، ومقابل النقص الكمال.

إذن الصفدي قد بين خطأ المتنبي، لكنه لم يكتف بذلك، وإنما صحح الخطأ وبين السبيل الذي كان ينبغي على المتنبي أن ينتهجها ليحسن بيته ويجمل فقال: «فلو قال (ولم يكمل لنقص كان فيه) لكان أصنع».

وتعبيره (لكان أصنع) يدل على اضطراب الصنعة في بيت أبي الطيب، ويوافق التعبير الذي عبر به منذ قليل حين تعرض لنقد البيت:

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بها ... سُرُورَ مُحِبٍّ أو إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

وأترك هذا التعليق، وأمضي في قراءة بقية النص لأتوقف عند التوطئة التي قدمها الصفدي بين يدي بيتي أبي الطيب:

لَمْ نَفْتَقِدْ بِكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى لَثَقٍ ... وَلاَ مِنَ الْبَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسُّفُنِ

وَلاَ مِنَ اللَّيْثِ إِلاَّ قُبْحَ مَنْظَرِهِ ... وَمِنْ سِوَاهُ سِوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

قال الصفدي في هذه التوطئة «وكذا قوله» أي ومن قبيل عدم المطابقة قوله، ثم قال «وإن لم يكن من هذا الباب».

وهذا احتراز حسن من الصفدي؛ لأنه فيما مضى كان يتحدث عن عدم نجاح المتنبي في إحداث المقابلة اللفظية، أما هنا فهو يتحدث عن خطأ المتنبي في ذكر

(1) الغيث المسجم جـ٢ ص ٣٦٠، ٣٦١.

معايب البحر ومساوئه؛ فالمتنبى يتحدث عن خلال الممدوح، وهو يقول له إن ما افتقدناه من خلالك لسنا فى حاجة إليه، فأنت كالمزن فى محاسنه، وأنت كالبحر فى محاسنه، وأنت كالليث فى محاسنه، وفيك من كل شىء محاسنه، فلم نفتقد بك من المزن سوى ما يحدثه من البلل الذى يصيب الأرض فيحيلها وحلا يعوق عن السير، ولم نفتقد بك من البحر سوى ما به من الرياح والسفن، ولم نفتقد بك من الليث سوى منظره القبيح.......... وهكذا.

وعلى هذا فقد اعتبر المتنبى الرياح والسفن من معايب البحر، وهذا ما انتقده الصفدى فى تعليقه على البيتين بعد ذلك حيث قال: «كان الذى ينبغى له أن يقول (ولا من البحر غير الجزر والغرق) لأنهما من معايب البحر، والريح والسفن من محاسنه».

والصفدى محق ومبطل فى آن واحد هنا؛ لأنَّا نسلم له بأن السفن من محاسن البحر، لكنَّا لا نسلم له بأن الريح من محاسنه أيضًا؛ لأنها قد تكون من محاسنه حين تكون هادئة ورقيقة وناعمة، وقد تكون من معايبه لا سيما إذا كانت عاصفة عاتية شديدة الهبوب.

ومع هذا فلو قال المتنبى (ولا من البحر غير الجزر والمد) أو (غير الجزر والغرق) كما قال الصفدى لكان أحسن؛ لأن الجزر والمد من معايب البحر التى لا ينكرها أحد.

وأشار الصفدى إلى الخطأ الذى وقع فيه المتنبى حين قابل بين الحر وأولاد الزنا فى قوله:

وَأَنَهُ المُشِيـرَ عَلَيْكَ فِيَّ بِضِلَّةٍ فَالحُـرُّ مُمْتَحَنٌ بِأَوْلَادِ الزِّنَا

وإذا كان المتنبى قد أخطأ فى المقابلة بين الحر وأولاد الزنا، فإن الصفدى قد أخطأ حين أراد أن يصحح له الخطأ؛ لأنه قابل بين الحر واللئيم فقال: «والحر ضد اللئيم» والصواب أن الحر ضد العبد، وكان على المتنبى إذن أن يقول فالحر ممتحن بالعبد أو بأولاد العبيد.

وبيَّن الصفدى أن المتنبى قد أخطأ - أيضًا - فى المقابلة حين قابل بين بياض الطلى وورد الخدود؛ حيث كان من الواجب على المتنبى أن يقول (ببياض الطلى وحمرة الخدود).

الصفدى هنا ذكى وملاح؛ لأن البياض صفة للون، وكان ينبغى على المتنبى حين أراد أن يأتى بالمقابل أن يكون صفةً للونِ أيضًا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالوردُ له ألوانٌ كثيرة؛، فمنه الأبيض، ومنه الأصفر، ومنه الأحمر ومنه غير ذلك. وكلمة (ورد الخدود) التى وردت فى بيت أبى الطيب قد يفهم منها «حمرة الخدود» لأن لكلمة ورد كما قلت دلالات لونية كثيرة، ومن ثم فكان يجب على المتنبى أن يكون أكثر تحديدًا فى كلامه لتكون المقابلة أكثر دقة.

ويحسن بى بعد أن قطعت هذا الشوط أن أقف لأذكر **المآخذ التى أخذها الصفدى على المتنبى مجتمعةً** وهى:-

١ - يعيب الصفدى على المتنبى تكراره للألفاظ الثقيلة فى بعض شعره، مما يؤدى إلى ضعفه وقلقه.

٢ - يعيب الصفدى على المتنبى استخدامه للألفاظ الغثة فى بعض شعره ولا يشفع له أن تتألف من هذه الألفاظ معان غريبة أو جميلة.

٣ - يعيب الصفدى على المتنبى اهتمامه بالمعنى دون اللفظ.

٤ - يرى الصفدى أن بعض أبيات المتنبى مضطرب الصنعة، ويأتى هذا الاضطراب من عدم إحكام المتنبى للمقابلات التى يعقدها فى شعره.

وحقًا لقد تنبه كثير من نقادنا القدامى إلى هذه المآخذ قبل الصفدى ودلُّلوا عليها من شعره مثلما فعل الصفدى، وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز - بعدئذ - أن أقول هذه المآخذ التى أخذها الصفدى على المتنبى؟

والجواب نعم يجوز أن ننسب هذه المآخذ إلى الصفدى، رغم أن أكثرها كما قلت بل جميعها قد تنبه له نقادنا القدامى؛ لأن الصفدى قد بذل جهدًا واضحًا فى فهم شعر المتنبى وتحليله لفظًا ومعنى، كما ناقش آراء بعض النقاد كابن الأثير، وابن وكيع، ولم يقف من هذه الآراء موقف التابع الذى ليس له من فضل سوى النقل والجمع، بل وقف موقف المتفحص المدقق الذى ينظر فى الآراء ويناقشها، ويؤيدها أو يعارضها، وقد يصيب مرة، وقد يخطىء أخرى، إلا أن له فى النهاية شخصيته، وفكرته، ورأيه، كما أن له حججه وبراهينه، وأدلة إثباته ونفيه، وهذا وحده يكفى.

وقد سبق فيما مضى ما يدل على وضوح رؤيته، وظهور شخصيته فى تحليله وفهمه لشعر أبى الطيب عندما تحدثت عن موقفه من ابن الأثير، وابن وكيع التنيسى اللذين عارضا قول المتنبى:

العَارِضُ الهَتِنُ ابنُ العَارِضِ الهَتِنِ ابـ ـنِ العَارِضِ الهَتِنِ ابنِ العَارِضِ الهَتِنِ

## بين الصفدى وأبى القاسم الحريرى:

وهذا موقف آخر يدل على وضوح رؤيته وظهور شخصيته فى تعليقه على آراء الآخرين فيما يتعلق بشعر أبى الطيب المتنبى؛ فقد نقل عن الحريرى نصا من درة الغواص وجَّه فيه الحريرى سهام نقده إلى بيت أبى الطيب:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِى أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المنوطَةُ بالتَّنَادِ

قال الصفدى: «وقال الحريرى فى هذا الكتاب بعد ما أورد قول أبى الطيب:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِى أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المنوطَةُ بالتَّنَادِ

غلط أبو الطيب هنا فى عدة مواضع من هذا البيت: **الأول**: أنه قال أحاد وسداس ولم يسمع فى الفصيح إلا مثنى وثلاث ورباع، والخلاف فى خماس وما بعده إلى عشار. **الثانى**: أنه صغر ليلة على لييلة وإنما تصغر على لييلية. **الثالث**: أنه صغرها والتصغير دليل القلة فكأنها قصيرة ثم قال المنوطة بالتناد ولا يكون شىء أطول منها حينئذ فناقض آخرُ كلامه أولَه[1]».

هذه هى الأخطاء التى رأى الحريرى أن أبا الطيب المتنبى قد وقع فيها فى هذا البيت، فما موقف الصفدى منها؟ لقد حاول الصفدى أن يرد على هذه الانتقادات فقال: «قلت ليس فى هذا تناقض؛ لأن التصغير فى كلام العرب على أربعة أنواع الأول تصغير التحقير كفليس ورجيل، والثانى تصغير التقريب كفويق وبعيد ودُوَيْن، والثالث تصغير التحبيب كقولك ما أميلحه وما أحيسنه، والرابع تصغير التعظيم كقولك أنا جُذَيْلها المحكك وعذيقها المرجب وقال الشاعر:

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

---

(١) الغيث المجسم جـ ٢ صـ ٨٠، صـ ٨١.

فأبو الطيب صغّر الليلة هنا للتعظيم؛ لأنه استطالها حتى جعلها منوطة بالتناد»[1].



هذا هو ردُّ الصفدى على انتقاد الحريرى، ولعل الصفدى لم يوفق هنا فى الرد على الحريرىّ فيما انتقد به المتنبى لسببين:-

**أولهما:** أن الصفدى لم يعلق إلا على الغلط الثالث فقط، وتحاشى التعليق على الغلطين الأول والثانى، وفى هذا - من وجهة نظرى - إشعار بموافقة الصفدى على ما ذهب الحريرى إليه فى هذين الغلطين.

**ثانيهما:** أنه فى تعليقه عدّد أغراض التصغير فى العربية، ثم أوّلَ تصغيرَ الكلمة على التعظيم، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون الحريرى على صواب فيما ادّعاه.

وأغلب انتقادات الحريرى على بيت أبى الطيب انتقاداتٌ لغوية تتمثل فى مخالفة المتنبى للقياس اللغوى فى قوله سداس، وفى تصغير ليلة على لييلة.

وقد كان الصفدى يتعقب أحيانًا أخطاء المتنبى اللغوية ويرشد إليها، وذلك فى تعليقه على ما يورده من أبياته، وإن كان فى الوقت نفسه يدافع عن المتنبى ويلتمس له العذر فى خطئه، ومثال ذلك تعليقه على قول أبى الطيب:

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بعضًا ويَمْشِى ... أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِى

قال الصفدى «قلت يريد بالأوالى الأوائل وهو كثير فى كلامهم؛ قال امرؤ القيس:

«وأَمْنَعُ عُرْسِى أن يزن بِهَا الخَالِى»

أى الخائل»[2].

فالصفدى هنا قد أرشد إلى موضع الخطأ فى بيت أبى الطيب ثم اعتذر عنه بشيوع مثل هذا القياس فى كلام الشعراء، واستدل على ذلك بشطرة بيت لامرئ القيس.



(١) السابق نفسه صـ ٨١.

(٢) السابق نفسه صـ ٤١٩.

وفى تعليق الصفدى على بيت المتنبى:-

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ... وَلَكِنْ لاَ سَبِيلَ إِلَى الوِصَالِ

أشار إلى أن المتنبى فى الشطرة الثانية من البيت قد حذف المضاف وأقام المضاف إليه مكانه دون أن يختل المعنى أو يفسد، قال الصفدى: «وقوله ولكن لا سبيل إلى الوصال فيه محذوف؛ فإنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تقديره: ولكن لا سبيل إلى دوام الوصال، والمعنى عليه؛ لأن الوصال حصل ولكن دوام الوصال لا سبيل إليه[1]».

## سرقات المتنبى:

ويرتبط اسم المتنبى فى ذهن كثيرين من المشتغلين بالأدب بتلك الحركة النقدية الكبرى التى واكبت شعره وسارت معه أينما سار تحاول جاهدة التعرف على أصوله ومصادر ألفاظه ومعانيه، وسرقاته ممن سبقه من الشعراء والحكماء.

وقد أدلى كثير من نقادنا القدامى بدلوهم فى هذا المجال، ومنهم من ألف كتبا لدراسة هذا الموضوع النقدى دون سواه، وشغلت سرقات المتنبى بالهم وفكرهم، فما موقف الصفدى من هذه القضية النقدية؟ وهل نرى فى الغيث جهداً يتميز به الصفدى فى معالجتها ومناقشتها؟

فى الحقيقة أننا لا نلمح فى الغيث جهداً للصفدى فى دراسة سرقات المتنبى، وإن كان قد أشار فى ثنايا تعليقه على بعض أبياته إلى أخذه لمعنى البيت من هذا أو من ذاك.

ومن هذه الإشارات قوله: «وقال أبو الطيب:

وإِذَا خَامَرَ الهَوَى قَلْبَ صَبٍّ ... فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

وهو مأخوذ من قول زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ»[2]

(١) الغيث المسجم حـ ٢ ص ٤١٩.

(٢) السابق نفسه صـ ٤٤٨، صـ ٤٤٩.

وقوله «وقال أبو الطيب في وصف الخيل:



مِن بنات الجَـديلِ تَمشِـى بِنا ... في البِيدِ مَشْىَ الأيامِ في الآجالِ

وهو مأخوذ من قول مسلم بن الوليد:

مُوفٍ عَلَى مُـهَجٍ فِى يَوْمِ ذِى رَهَجٍ ... كَـأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْـعَى إِلى أَمَلِ[1]

وقوله:

كالشمسِ فِى كَبِدِ السماءِ وَضَوْؤُهَا ... يَغْشَى البِلادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا

البيت لأبي الطيب وهو مأخوذ من قول ابن الرومي:

كالشَّمْسِ فِى كَبِدِ السماءِ مَحَلُّهَا ... وَشُعَاعُهَا فِى سَائِرِ الآفَاقِ[2]

والصفدى فى هذه النصوص جميعها يكرر لفظ (مأخوذ) الذى يدل على السرقة، وجميع الأحكام النقدية التى اشتملت عليها النصوص السابقة أعتبرها من آراء الصفدى النقدية، حتى وإن اتفق مع غيره من نقاد الأدب فيها؛ لأنه أولاً لم ينسبها إلى أى منهم، ثم لأنه فى نصوص أخرى مماثلة قد استخدم تعبيرات تدل على أن الأحكام النقدية التى أوردها ويوردها ليست له وإنما هى لغيره ففى تعقيبه على قول أبى الطيب:

أزورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيـلِ يَشْفَعُ لِى ... وَأَنْثَنِى وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى

قال الصفدى: «وقال علماء الأدب: إن معنى بيت أبى الطيب مأخوذ من قول ابن المعتز:

لا تَلْقَ إلا بِلَيلٍ مَنْ تُواصِلُهُ ... فالشَّمْسُ نَمَّامَةٌ واللَّيلُ قَوَّادُ»[3]

فهناك فرق واضح بين قوله «وقال علماء الأدب إن معنى بيت أبى الطيب مأخوذ..» وقوله «وهو مأخوذ»، وهذا الفرق يكمن فى أن التعبير الأول يدل على أن الرأى لغيره، والتعبير الثانى يدل على أن الرأى له حتى وإن أخذه من غيره ما دام لم يشر إلى ذلك.

---

(١) السابق نفسه: ص ١٤.

(٢) السابق: جـ١، ص ٢٤٤.

(٣) الغيث المسجم: جـ١، ص ٢٨٤.



وألاحظ من هذه النصوص جميعها أن الصفدى قد اكتفى بالإشارة إلى سرقة المتنبى أو أخذ المتنبى بيته من بيت لغيره دون أن يبين إذا كان الأخذ حسنًا أم قبيحًا، ودون أن يوازن بين النصين: المسروق، والمسروق منه ليفضل أحدهما على الآخر، أو ليتحدث عما بينهما من وجوه التقارب فى المعنى أو التشابه فى اللفظ، فهل كان هذا ديدن الصفدى فى كل إشاراته إلى سرقات المتنبى؟

لا، لم يكن هذا ديدن الصفدى فى كل إشاراته إلى سرقات المتنبى، بل كان يوازن أحيانًا بين المسروق والمسروق منه ويفاضل بينهما؛ فقد أورد الصفدى قول البحترى:

لَوْ أنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِى وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ[(1)]

ثم أشار إلى أن المتنبى قد أخذ هذا المعنى فقال: «ومن هذا المعنى أخذ المتنبى قوله:

لَوْ تَعْقِلُ الشَّجَرُ التى قَابَلْتَهَا مَدَّتْ مُحَيِّيَةً[(2)] إِلَيْكَ الأَغْصُنَا»[(3)]

ولم يكتف الصفدى بهذا فى هذه المرة، بل حكم للبحترى وفضل بيته على بيت أبى الطيب فقال: «ولكن ديباجة البحترى أحسن وأمكن وأمتن»[(4)].

والصفدى قد أشار إلى أن المتنبى إنما سرق المعنى من البحترى، وهذاواضح، فبيت البحترى مبالغة فى مدح المتوكل، وبيت المتنبى مبالغة فى مدح أبى الحسين بدر ابن عمار الطبرستانى، إذن فالفن الشعرى واحد وهو المدح، وانتهج البحترى فى مدحه سبيل المبالغة، وقد بالغ المتنبى أيضًا، فالبحترى يقول للمتوكل: لو أن

---

(١) ورد هذا البيت بالديوان هكذا:

فلو أن مشتاقًا تكلف غير ما فى وسعه لمشى إليك المنبر

وأشار المحقق فى هوامشه أنه ورد بالصيغة التى ذكرها الصفدى فى الوساطة وبديع القرآن والصبح المنبى. الديوان جـ ٢، ص ١٠٧٣ بتحقيق حسن كامل الصيرفى، طبع دار المعارف عام ١٩٧٧م.

(٢) لقد أثبت هذه الكلمة بعد أن صححتها من الديوان حيث وردت بالغيث (محببة) يراجع الديوان ص ١١٨، الغيث المسجم جـ ١، ص ٤٤.

(٣) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٤٤.

(٤) السابق نفسه، الصفحة نفسها.



مشتاقًا لرؤيتك تكلف فوق ما فى وسعه ليحظى بشرف هذه الرؤية ما كان من المنبر إلا أن يسعى إليك ويجثو بين يديك، والمتنبى يقول لأبى الحسين: لو أن الشجر الذى قابلته فى طريق عودتك منح عقل العقلاء لمدَّ إليك غصونه وأفرعه مقدمة التحية، وهذان المعنيان قريبان من بعضهما، ومن ثم فالصفدى صادق فى حكمه حين قال إن أبا الطيب قد أخذ معنى بيته من أبى عبادة البحترى.

ولكن هل أصاب الصفدى حين وازن بين بيتى البحترى والمتنبى وفضَّل بيت الأول على بيت الثانى؟.

نعم؛ فبيت أبى عبادة البحترى يفضل بيت أبى الطيب المتنبى فى حسن ديباجته، وتمكنها، ومكانتها، ويرجع ذلك إلى أمور:

أولها: أن التقديم والتأخير فى بيت أبى الطيب قد أصاب البيت بالضعف والقلق حيث قال فى الشطرة الثانية (مدت محيية إليك الأغصنا)، وكان ترتيب الكلام يقتضى أن يقول مدت إليك الأغصن محيية، فتقديم محيية قد عقَّد المعنى وأبهمه، وأحدث اضطرابًا فى صنعة البيت، وهذا كله لا يوجد بطبيعة الحال فى بيت البحترى.

وثانيها: أن ألفاظ بيت البحترى سهلة عذبة، فيها رقة، وفيها جمال، وتدل على مدى ما يحظى به الممدوح من الإجلال والإكبار، وما تمتلئ به قلوب الرعية من الحب، والاشتياق إليه، وعلى العكس تمامًا ألفاظ بيت أبى الطيب؛ حيث كثرت فيها الضمائر؛ فالتى تعود على الشجر، والتاء فى قابلتها تعود على الممدوح، وها فى قابلتها أيضًا تعود على الشجر، وهكذا اكتظ البيت بالضمائر المنفصلة والمتصلة، ولم تجر ألفاظه فى سهولة وعذوبة، ولا فى رقة وجمال.

وثالثها: أن البحترى قد جعل المنبر يسعى إلى الممدوح من شدة الشوق، أما المتنبى فقد جعل الأشجار تمد غصونها محيية الممدوح وهو يشق طريقه وسطها، ولو جعلها تسعى إليه بالتحية والترحاب لكان أفضل.

ومن هنا أستطيع أن أقول إن بيت البحترى لا يفضل بيت المتنبى بحسن ديباجته وتمكنها ومتانتها وحسب، وإنما يفضله أيضًا بروعة المعنى ودقته، وذهابه فى المبالغة إلى أبعد مما وصل إليه المتنبى.

وفى نص آخر أورد الصفدى ما قاله النقاد فى بيتى أبى الطيب:

كَأَنَّ الهَامَ فِى الهَيْجَا عُيُونٌ ... وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ
وَقَدْ صُغْتَ الأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ ... فَمَا يَخْطُرْنَ إِلاَّ فِى الفُؤَادِ[1]

وعدَّد المواطن التى ادّعوا أن المتنبى سرق منها بيتيه، فقال: «وقد عد علماء الشعر سرقته هذا المعنى من عدة أماكن منها قول منصور النميرى:

وَكَأَنَّ مَوْقِعَهُ بِجُمْجُمَةِ الفَتَى ... حَذَرُ المَنِيَّةِ أَوْ نُعَاسُ الهَاجِعِ

ومنها قول مهلهل:

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاَءَ تَحْسَبُهَا ... نَوْمًا أَنَاخَ بِجَفْنِ العَيْنِ يُغْفِيهَا
بِلَهْذَمٍ مِنْ هُمُومِ النَّفْسِ صِبْغَتُهُ ... فَلَيْسَ يَنْفَكُّ يَجْرِى فِى مَجَارِيهَا

ومنها قول ابن المعتز:

أَيْنَ الرِّمَاحُ الَّتى غَذَّيْتَهَا مُهَجًا ... مُذْ مِتَّ مَا وَرَدَتْ قَلْبًا وَلاَ كَبِدَا

ومنها قول الآخر:

كَأَنَّ سِنَانَ ذَابِلِه ضَمِيرٌ ... فَلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ لَهُ ذِهَابُ

ومنها قول أبى تمام:

كَأَنَّهُ كَانَ تِرْبَ الحُبِّ مِنْ زَمَنٍ ... فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ قَلْبٌ وَلاَ كَبِدُ

وهذا جملة ما عدوه فى ذلك»[2].

فالصفدى هنا قد حصر كل المواطن التى اتهم النقاد أبا الطيب بسرقة بيتيه منها، فهل هناك بيت من هذه الأبيات يرقى لفظًا ومعنى، ووصفًا وصورة إلى مستوى بيتى أبى الطيب؟ لا، والصفدى نفسه قد أحس بهذا حين قال عقب ذلك مباشرة:

---

(١) لقد أثبت هذه الكلمة بعد أن صححها من الديوان حيث وردت فى الغيث «فى فؤاد» يراجع الغيث جـ ٢، ص ٣١، الديوان ص ٦١.

(٢) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٣١، ٣٢.

قلت: وليس فى جميعه ما يقال له طيب غير قول أبى الطيب، وأين فضل الطل من الوابل الصيب؟»[1].

فأبو الطيب المتنبى فى بيتيه قد شبه رؤوس الفرسان فى الحرب بالعيون التى ما إن ترى سيوف التنوخى التى طُبعت من رقاد حتى تنام، كما جعل أسنة الرماح فى إصابتها القلوب والأفئدة كالهموم التى تشغل القلب أو تقتل القلب من ثقلها وشدتها.

هذا معنى بيتَىْ أبى الطيب، وقد استخدم المتنبى ألفاظًا جزلة فصيحة، فيها فخامة وضخامة وقوة تناسب الموقف والمقام، وقد استخدم المتنبى عددًا من الأساليب التى تعينه على بلوغ غايته كأسلوب القصر فى الشطرة الثانية من البيت الثانى، واستعمال قد التى هى للتحقيق مرتين، وهذا كله لا يوجد فى الأبيات التى رأى النقاد أن أبا الطيب قد سرق بيتيه منها أو من بعضها؛ فكلمة جمجمة فى بيت النميرى قبيحة فى موضعها، وأفضل منها كلمة الهام التى استخدمها أبو الطيب، وقول المهلهل «الطاعن الطعنة النجلاء»، تعبير يفيد القوة، وقد أفسده قوله بعد ذلك «تحسبها نوما» لأنه دل بذلك على ضعفها ولينها، وابن المعتز فى بيته يتساءل عن هذه الرماح التى غذاها صاحبها بالمهج والأرواح، أين اختفت فلم تعد تفتك بقلب أو تهتك كبدًا بعد موت صاحبها؟ وعلى هذا لا يحق أن يكون بيت ابن المعتز من باب بيتى أبى الطيب؛ لأن سيوف ممدوح المتنبى ورماحه لا زالت عاملة قاتلة، وتشبيه الأسنة فى البيت الذى بعده بالضمائر - التى محلُّها القلوب والأفئدة - لا تنفك عنها، ولاتزول منها، تشبيه ضعيف، والشاعر غير موفق فيه؛ لأن الضمائر تحيى القلوب فهى أداة حياة وبعث، أما الأسنة فتميتها فهى أداة هلاك وإفناء، أما بيت أبى تمام فلا يرقى أيضًا إلى مستوى بيتى أبى الطيب الفنى لأنه تحدث عن هذا الذى سماه ترب الحب، فهو قد جعل للحب ترابًا يغزو القلوب والأكباد وقد أغرب أبو تمام بهذا؛ لأنه أتى بكلام بعيد عن التصور والتخيل، ومن ثم فقد بيته ما كان ينبغى أن يكون عليه من الرقى الفنى.

ونخرج من هذا التحليل بأن الصفدى كان موفقًا فى تفضيله لبيتى المتنبى على

---

(1) السابق نفسه: ص ٣٢.

كل هذه الأبيات، ولا ينبغى أن يُفهم من هذا أن الصفدى ينكر سرقة المتنبى لبيتيه من هذه الأبيات؛ لأن هناك تلاق بين معنى بيتى أبى الطيب ومعانى هذه الأبيات، وليس يبعد أن يكون المتنبى قد أخذ هذه الأبيات كما قال النقاد ونظر إليها ثم صاغ منها فكرته ومعناه بعد ما صبغها بصبغته، وأضفى عليها شخصيته.

**محاسن المتنبى كما يراها الصفدى:**

وفى الغيث نصوص استحسن فيها الصفدى أبياتًا للمتنبى لما تحتوى عليه من معان جميلة أو صور بديعة أو تشبيهات جيدة، ومن هذه النصوص قوله «وما أحسن قول أبى الطيب وهو مما رواه تاج الدين الكندى ولم يكن فى ديوانه[1]:

أبِعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِى ... وَأَهَنْتَنِى وَقَذَفْتَنِى مِنْ حَالِقِ

لستَ المَلُومَ أنَا المَلُومُ لأَنَّنِى ... أنزَلْتُ آمَالِى بِغَيْرِ الخَالِقِ»[2]

والصفدى قد حكم على هذين البيتين بالحسن، ولم يبين علة هذا الحسن، فقد ذكر الحكم عامًا دون ذكر أسبابه، وأرى أن العلة فى تحسين الصفدى لهذين البيتين ما بهما من الحكمة والدعوة إلى الاعتماد على الخالق وعدم التعويل على المخلوق؛ لأن المتنبي يقول لمعاتبه مستنكرًا ما وقع منه: أتنظر إلىَّ بعين المنعم الذى يرانى مفتقرًا إليه، وتهيننى بهذه النظرة، وتنزلنى من مكانتى العالية الشامخة التى أتبوءها؟! ثم عاد يخاطبه قائلاً: لست ملومًا فيما فعلت، بل أنا وحدى الملوم لأننى أعتمدت على غير خالقي، ووثقت عرى الصلة بك، ولم أوثقها به، ولاشك أن الصفدى موفّقٌ فى الحكم على هذين البيتين بالحسن لأمور:

**أولها:** أن هذين البيتين قد عبر فيهما المتنبى خلاصة عن تجربة حقيقية مر بها، ومن ثم وجدنا فيهما الصدق فى العتاب، والحزن على ما وقع فيه الشاعر من المهانة والازدراء.

**وثانيهما:** المعنى الأخلاقى الجميل الذى يدعو إليه المتنبى فى هذين البيتين وهو الاعتماد على الله الخالق، وعدم التعلق بالمخلوق، والتعويل عليه.

---

(١) البيتان فى ديوان المتنبى: ص ٤٣٩.

(٢) الغيث المسجم: جـ١، ص ٤٠.

وثالثها: خروج البيت الثانى من هذين البيتين مخرج الحكمة الجارية والمثل السائر.

ورابعها: ذلك التصوير البديع فى البيت الأول حيث جعل الشاعر نفسه وقد أهانها معاذ الصيدانى فنزلت من عليائها كالشىء الذى يقذف من مكان شاهق مرتفع، ومردُّ الجمال فى هذا التصوير أنه يوحى بانكسار نفس الشاعر وتحطمها.

وهذان البيتان، وتحسين الصفدى لهما يدلان على مقياس من مقاييس الصفدى فى النقد وهو المقياس الأخلاقى؛ فهو يتخذ من سمو المعنى فى البيت أو الأبيات ورقيه دعامةً من دعائمه التى يتكئ عليها عند تحسين البيت أو الحكم عليه بالحسن وكلما كان معنى البيت ساميًا ورفيعًا ويحمل دعوة إلى خير وفضيلة كان أجمل وأحسن عند الصفدى.

وتتضافر نصوص كثيرة من الغيث على تأكيد هذا الاتجاه النقدى عند الصفدى؛ هذا الاتجاه الأخلاقى فى النقد الذى ينظر إلى المعنى ويحكم على جودة البيت وحسنه من خلال ما يحتوى عليه من قيم خلقية ومبادئ إنسانية، ويهمنا من هذه النصوص هنا ما يتعلق بشعر أبى الطيب المتنبى؛ فمن ذلك قوله: «ولم أر لأحد من الشعراء غزلا فى وعظ مثل قول أبى الطيب:

زَوِّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكِ مَادَا ... مَ فَحُسْنُ الوُجُوهِ حَالٌ يَحُولُ

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِى هَذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَإِنَّ المُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ»(1)

فهذان البيتان فى الغزل إلا أن المتنبى قد بث فيهما عدداً من المعانى الأخلاقية أو الوعظية على حد قول الصفدى؛ فهو يطلب من محبوبته أن تُزَوِّدَهُ بإطالة النظر إلى حسن وجهها، ويعلل هذا الطلب بأن حسن الوجوه لا يدوم ولا يظل كما هو؛ حيث يعترى الإنسان من الأمراض وحوادث الدهر ما يذهب بحسن وجهه ووضاءته ثم يأمرها بأن تصله دائمًا حتى يظل على وصلها ماد اما فى الحياة؛ لأن المكث بها قليل فسرعان ما تنقضى أيامها وتزول.

وفى هذين البيتين جمال لا يخفى، مبعثه حسن التعليل لطلبه النظر إلى وجه

---

(1) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٣٤.

محبوبته والتزود مما يعلوه من الحسن والبهاء، ثم حسن التعليل لطلبه وصلها والمحافظة على دوام هذه العلاقة التى بينها وبينه، وقد خرجت الشطرة الثانية من البيت الأول مخرج الحكمة، وكذلك خرجت الشطرة الثانية من البيت الثانى مخرج الحكمة الجارية أيضًا.

ولكل هذه الأسباب حكم الصفدى للمتنبى بتفوقه على غيره من الشعراء بهذا المعنى الجميل.

وإذا كان المتنبى قد أحرز هذه البراعة فى إخراج الغزل فى صورة الوعظ، فإنه لا يقل براعة فى إخراج الحماسة فى صورة الغزل، يقول الصفدى فى ذلك: «ليس لأحد معه فى هذا الباب دخول؛ لأنه يصف الحروب ويظهرها مظاهر الغزل، وهذا من القدرة فى التخيل؛ ألا ترى قوله:

تعودَ أن لا تَقْضَمَ الحَبَّ خَيلُهُ ... إذَا الهامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنوبَ العَلائِقِ[1]

ولاَ تَرِدَ الغُدْرَانَ إلاَّ وَمَاؤُهَا ... مِنَ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ فَوْقَ[2] الشَّقَائِقِ»[3]

وهذان البيتان يُظهران - كما قال الصفدى - قدرة أبى الطيب المتنبى على التخيل؛ لأنه يقول إن الممدوح يمنع خيله أن تأكل من الحب «إن لم تقتل من الأعداء ما يجتمع من رؤوسهم ما ترفع المخالى عليه، وتستغنى به عن مثل القدود[4]» كما يمنعها أن ترد الغدرانَ للشرب إلا بعد أن تتحول مياهُها إلى دماءٍ تفوح رائحتها كما تفوح رائحة الريحان فوق الشقائق.

ومضى الصفدى يذكر أمثلة أخرى لهذا الضرب من شعر أبى الطيب فقال: «وقول أبى الطيب:

إِنْ كُوتِبُوا أَوْ لُقُوا أَوْ حُورِبُوا وُجِدوا ... فى الخَطِّ واللَّفْظِ والهيجاء فُرْسَانَا

(١) أوردتها بعد ما صححتها من الديوان حيث وردت فى الغيث (جيوب) يراجع الديوان ص ٢٩٩ الغيث، ص ٣١.

(٢) أثبتها بعد أن صححتها من الديوان لأنها فى الغيث (تحت)، يراجع الديوان ص ٢٩٩الغيث المسجم جـ ٢، ص ٣١.

(٣) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٣١.

(٤) ديوان المتنبى هامش رقم ٤، ص ٢٩٩.

كأنَّ ألسنَتَهُمْ فِي النُّطقِ قَدْ جُعلَتْ     عَلَى رِمَاحِهِمُ فِي الطَّعْنِ خُرْصَانَا

كَـأنَّهُمْ يرِدُونَ المَـوْتَ مِنْ ظَمَـإٍ     أوْ ينشـقـون مِنَ الخَطِّي رَيْـحَـانَا

وقوله أيضًا:

إِنَّكَ مِنْ مَـعْـشَـرٍ إِذَا وَهَبُـوا     مَـا دُونَ أعْـمَـارِهِم فَـقَـدْ بَخِلُوا

قُلُوبُهُمْ فِي مَضَـاءِ مَا امْتَشَقُـوا     قَـامَـاتُهُمْ فِي تَمَامِ مَـا اعْـتَـقَلُوا

وقوله أيضًا:

بِكُلِّ أشْعَثَ يَلْقَى المَوْتَ مُبْتَسِمًا     حَـتَّى كَـأنَّ لَهُ فِي قَـتْـلِهِ أرَبًا

وقوله أيضًا:

كَـأنَّ الهَـامَ فِي الهَـيـجَـا عُـيُـونٌ     وَقَـدْ طُبِعَتْ سُـيُـوفُكَ مِنْ رُقَـادِ

وَقَـدْ صُـغْتَ الأسِنَّةَ مِنْ هُـمُـومٍ     فَـمَـا يَخْطِرْنَ إلاَّ فِي الـفُـؤَادِ[1]

فهذه الأبيات قد راقت للصفدى لأن الشاعر فيها قد أخرج الحماسة فى صورة الغزل أو فى مظاهر الغزل مما يدل على قدرة تخيل المتنبى، على أنَّ التفات الصفدى إلى هذه الظاهرة فى شعر المتنبى لم ينفرد بها وإنما سبقه كثير من النقاد الذين نبهوا أذهاننا إلى هذه السمة التى تميز بها المتنبى، كما كانت هذه السمة موضع إعجاب صاحب اليتيمة حيث يقول فى الفصل الذى جعله لروائع وبدائع وفرائد المتنبى: «منها استعمال ألفاظ الغزل والنسيب فى أوصاف الحرب والجلد، وهو أيضًا مما لم يُسبق إليه، وتفرَّد به، وأظهر فيه الحذق بحسن النقل، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام»[2].

وأورد الثعالبى ضمن شواهده على هذه السمة ذينك البيتين اللذين قدمهما الصفدى بين يدى فكرته وهما:

تَعَـوَّدَ أنْ لا تَقْـضَـمَ الحَبَّ خَـيْلُهُ     إِذَا الهَـامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ العَـلائِقِ

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٣١.

(٢) يتيمة الدهر: جـ ١، ص ٣٠٧.







وَلاَ تَرِدَ الغُدْرَانَ إلاَّ وَمَاؤُهَا مِنَ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ فَوْقَ الشَّقَائِقِ[1]

وكما أعجب الصفدى بإخراج المتنبى للغزل فى صورة الوعظ، والحماسة فى صورة الغزل، فقد أعجب بقول المتنبى:

أىُّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِى بِوِصَالٍ لَمْ تَرُعْنِى ثَلاَثَةٌ بِصُدُودِ

وسر إعجاب الصفدى بهذا البيت أن المتنبى قد نقل المعنى من عتاب محبوبه إلى عتاب الدهر، وقد أشار الصفدى فى تعليقه على هذا البيت أن ظاهر البيت بَيِّنٌ واضح، وأرجع ظهوره ووضوحه إلى سببين هما «انسجام لفظه، وانصبابه فى السمع وتعلقه بالقلب[2]» بينما هو فى الحقيقة «باطنه مشكل لعدم تعلق الجملة الثانية بالأولى[3]».

وكان ينبغى على الصفدى حينئذ أن يشرح علاقة الشطرة الثانية من البيت بالشطرة الأولى حتى يزول الإشكال الذى فى البيت، إلا أنه لم يفعل، وأحال القارئ على كتاب ابن الشجرى فقال: «وقد تكلم عليه الشريف ابن الشجرى فى أماليه فى أول المجلس الثانى عشر، وأجاد الكلام فيه، فليؤخذ من هناك»[4].

ومعنى هذا أن ابن الشجرى قد استوفى الكلام فى هذه العلاقة بين شطرتى البيت وأتى على ما يمكن أن يقال فيها من حديث، ومن ثم فقد رأى الصفدى أن يُحيل القارئ عليه، ولم يشأ أن يختصره أو يوجز هو القول فى العلاقة بين الشطرين حرصًا منه على أن يعود القارئ إلى أمالى ابن الشجرى من ناحية، وحتى لا يكون حديثه ممجوجًا أو غير جديد ومفيد من ناحية ثانية.

وأختتم هذا الفصل عن موقف الصفدى من المتنبى بالحديث عن رأيه فى قول أبى الطيب:

وَجُرْدًا مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا القَنَا فَبِتْنَ حِفَافًا يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا

---

(١) الغيث المسجم: ص ٣٠.

(٢) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٤١٦.

(٣) السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه: ص ٤١٦، ٤١٧.



تُجَاذِبُ فُرسانَ الصَّبَاحِ أَعِنَّةً كَأَنَّ عَلَى الأَعْنَاقِ مِنْهَا أَفَاعِيَا



قال الصفدي: «وهذا تشبيه حسن فى العنان، وفيه زيادة معنى؛ لأن الخيل تجاذب الفرسان الأعنة؛ فهى تطلب أمام وفرسانها تجذب أعنتها لتخفيف السير عنها»(1).

والصفدى هنا موفق فى حكمه على هذا التشبيه الحسن؛ لأنه جعل الأعنة التى فى رقاب الخيل كالأفاعى، ووجه الشبه بين الأعنة والأفاعى - فى تصورى - هو الإعاقة عن السير؛ فالأفاعى حين تلدغ إنسانًا تمنعه من السير وتعطل حركته، وكذلك الأعنة حين يمسك بها الفارس ويجذبها إليه ساعة انطلاق الفرس إلى الأمام، فإنها تهدئ من هذه السرعة، ويتضايق الفرس من هذا الجذب كما يتضايق الملدوغ من لدغ الأفاعى.

هذه هى جملة التعليقات الصفدية على بعض ما أورده للمتنبى من شعر، ولعلها تصور موقفه من المتنبى، ولعلها أيضًا تصور أو تلقى ظلالاً على قيمة الغيث المسجم لا ككتاب من كتب الشروح وحسب، ولكن ككتابٍ من كتب النقد التطبيقى - إن جاز لى هذا التعبير.

******

(1) السابق نفسه: ص ٨٤.

# المبحث الثالث

## الصفدى وشعر ابن سناء الملك

القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك شاعر أيوبى حاز شهرة واسعة فى عصره وبعد عصره بكتابه الذى وضع فيه قواعد فن التوشيح، ذلك الكتاب المسمى دار الطراز، وبشعره الذى سجل فيه أحداث عصره، وعبر فيه عن مكنون نفسه.

وقد استشهد الصفدى بهذا الشعر فى مواطن شتى من كتابه الغيث المسجم، وكثيراً ما كان يعلق عليه تعليقات تظهر حسنه وجماله، وترد على من عابه وانتقده، وهى تعليقات على درجة كبيرة من الأهمية حيث تكوِّن فى مجموعها صورة لموقف الصفدى من ابن سناء الملك وشعره.

وقد التفت الأستاذ الدكتور شوقى ضيف إلى أهمية هذه التعليقات وهو فى معرض حديثه عن الغيث المسجم حيث قال «وهو شرح ملئ بالملاحظات النقدية، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية[1]».

### شعر ابن سناء الملك بين اتهامات ابن جبارة ودفاع الصفدى:

وكما كان لتعليقات الصفدى على شعر أبى الطيب المتنبى محور تدور عليه، وتستند إليه، فإن لتعليقاته على شعر ابن سناء الملك محوراً تدور عليه أيضاً؛ وهو محاولة إنصافه من تعنت شرف الدين بن جبارة[2] عليه، وتفنيد اتهاماته التى اتهم بها ابن سناء الملك فى كتابه النقدى «نظم الدر فى نقد الشعر» الذى[3]

---

(١) عصر الدول والإمارات: مصر والشام ص ١٢٧.

(٢) هو شرف الدين أبو الحسن على بن إسماعيل بن إبراهيم بن جبارة الكندى، ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وقد برع فى علم النحو وكان مالكى المذهب، ومن شيوخه الحافظ السلفى، وأبو عبد الله الحضرمى وغيرهما. تراجع ترجمته فى نكت الهميان ص ٢٠٨، ص ٢٠٩.

(٣) سقط هذا الكتاب من يد الزمن ويقول الدكتور شوقى ضيف «ولا شك فى أن النقد الأدبى المصرى فى هذا العصر خسر كثيراً بسقوط هذا الكتاب النقدى من يد الزمن» عصر الدول والإمارات: مصر الشام ص ١٢٧.

«قصره على مؤاخذات ابن سناء الملك»(١) على حد قول الصفدي(٢).

١- فعند الحديث عن حسن التخلص أتى الصفدي ببيت ابن المعتز:

وَاللهِ لا كَلَّمْتُهَا وَلَو أنَّهَا ... كَالْبَدْرِ أوكَالشَّمْسِ أوْ كَالْمُكْتَفِي(٣)

ثم أشار إلى أن ابن سناء الملك قد أشار إلى هذا البيت في بعض شعره فقال «وقد أشار ابن سناء الملك إلى هذا في قوله:

وَمَلِيحَةٍ(٤) بالحُسْنِ يَسْخَرُ وَجْهُهَا ... بِالْبَدْرِ يَهْزأُ رِيقُهَا بِالْقَرْقَفِ

لا أرْتَضِي بِالشَّمْسِ تَشْبِيهًا لَهَا ... وَالبَدْرِ بَلْ لاَ أكْتَفِي بِالْمُكْتَفِي»(٥)

وأورد الصفدي بعد ذلك تعليق ابن جبارة على هذين البيتين ونقده لهما فقال: «وتعنت عليه ابن جبارة في تعليقته التي أملاها على شعر ابن سناء الملك، وقال عند هذا البيت: هذا نوع من الجنون والاختلاط، وذلك أن هذا الشاعر كثيراً ما يسمع الشعر ويختلط فيه ذهنه فيأتي به على غير ما يقتضيه؛ فإن ابن المعتز أنشد البيت وأراد كونها في الحسن كالشمس التي هي آية النهار، أو كالبدر الذي هو آية الليل، أو كالمكتفي الذي هو خليفة الأرض في عظم الشأن وكبر السلطان، فنقله هذا الشاعر إلى الحسن، ومن أين للمكتفي صفة الحسن؟ والذي دلت عليه التواريخ أنه كان أسمر أعين قصيراً، وليست هذه من صفات الحسن، وإنما ظن أن ابن المعتز وصفه بالحسن فمشى على ظنه، وأخذ في مهيع فنه، وليس كما ظنه واعتقده، ولاقصد ما قصد. وأحسن ابن أبي الشخباء في قوله:

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ص ٢٠٩.

(٢) لقد قرأت أثناء تصحيح تجارب طبع هذا الكتاب للأستاذ هلال ناجي أنه قال إن للصفدي كتابًا اسمه الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك ويليه تلاوة لذلك وعلاوة عليه، وقال لقد قمت بتحقيق الكتاب بمشاركة الدكتورة ظمياء محمد عباس، وأخذ الكتاب طريقه إلى المطبعة، راجع الذخائر ص ٤٣: عدد صيف ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) ورد البيت في ديوان ابن المعتز هكذا: والله لا كلمته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي وأشار المحقق إلى وروده عند ياقوت بالرواية نفسها التي أوردها الصفدي في الغيث. يراجع ديوان الأمير ابن المعتز بتحقيق الدكتور محمد بديع شريف ص ٣٨٦ دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

(٤) وردت بالديوان «ومليّة» ديوان ابن سناء الملك بتحقيق محمد إبراهيم نصر ومراجعة الدكتور حسين نصار، دار الكاتب العربي بالقاهرة عام ١٩٦٦، ص ٢٠٠.

(٥) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٠٩.

الشِّعْرُ كَالرَّوضِ ذَا ظَامٍ وَذَا خَضِلُ أَوْ كَالصَّوَارِمِ ذَا نَابٍ وَذَا خَصِمُ
مِثْلَ العرانين هذا حَظُّهُ خنسٌ يُزْرِى عَلَيْهِ، وَهَذَا حَظُّهُ شممٌ»[1]

هذا هو نقد ابن جبارة على بيتى ابن سناء الملك، وهو يرى أن ابن سناء الملك لم يفهم بيت ابن المعتز، أو اختلط عليه الأمر عند فهمه له، حيث ظن أن ابن المعتز يصف المكتفى بالحسن فى حين أنه لا يصفه بالحسن، وإنما أتى به لبلوغه فى عظم الشأن وعلو المنزلة أعلى درجة يمكن أن يصل إليها طموح الإنسان.

وجعل ابنُ جبارة اضطرابَ فهم ابن سناء الملك لهذا البيت السبب الرئيسى الذى أدى إلى خطئه عندما تمثل به أو نقله إلى شعره.

فهل كان ابن جبارة متعنتا على ابن سناء الملك كما زعم الصفدى؟ وهل ردَّ الصفدى على انتقاد ابن جبارة وتعنته؟

نعم، قال الصفدى «قلت: ليس ابن سناء الملك ممن يخفى عليه هذا الذى ذكره، وإنما ذكر ابن المعتز المكتفى خروجًا إلى المديح بعلاقة الحسن، وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده، وإنما قول ابن المعتز قد شاع وذاع، وملأ الأسماع، وسار وطار فى الأقطار بالاشتهار، فلما ذكر ابن سناء الملك حُسن محبوبته، وذكر الشمس والقمر، والقافية فائية كان المكتفى جالسًا فى طريقها، وكان فى ذكره إشارة إلى قول ابن المعتز مع زيادة الجناس، فقال: بل لا أكتفى بالمكتفى الذى جعله ابن المعتز غايةً فى الحسن عنده؛ لأنه انتقل مِن أدنى إلى أعلى، ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه: بل التى هى للإضراب، وهذا من الأدب غاية فى حسن النظم، والتلعب بالكلام، وما ينكر هذا إلا من ليس له ذوق بالأدب؛ فإنه قد جاء من هذا النوع كثير فى كلام المتأخرين»[2].

والصفدى فى هذا الرد قد أخطأ وأصاب؛ أما الخطأ فمرجعه أنه لم يحسن الدفاع عن ابن سناء الملك على الرغم من أنه حاول ذلك جاهدًا؛ فابن جبارة يرى أن ابن المعتز قد أتى بالمكتفى لا لكونه حسنا، وإنما لكونه قد بلغ أعلى درجات

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٠٩، ص ٢١٠.

(٢) السابق نفسه ص ٢١٠.

الرفعة والسلطان، بينما يرى الصفدى أن ابن المعتز قد أتى بالمكتفى ليخرج إلى المديح بعلاقة الحسن، أى أن البيت فيه حسن تخلص، وتلطف فى الانتقال من التغزل فى المحبوبة إلى مدح الأمير أو الخليفة.

والصفدى مُحِقٌ فى هذا الكلام، ومع هذا فقد أفسده بعد ذلك حين قال: «فلما ذكر ابن سناء الملك حُسْنَ محبوبته، وذكر الشمس والقمر والقافية فائية كان المكتفى جالسًا فى طريقها».

فهذا الكلام يوحى بأن الصفدى مقتنع تمام الاقتناع بأن لفظة (المكتفى) فى بيت ابن سناء الملك مجلوبة للقافية، وإن كان قد قال بعد ذلك أنه جلبٌ حسن لأنه توفر فيها أمران يُحمدان: أولهما ما بها من الإشارة إلى بيت ابن المعتز، وثانيهما ما حققته مع لفظة (لا أكتفى) من الجناس.

ولم يفت الصفدى أن يشير إلى ما فى لفظة (بل) التى هى للإضراب فى بيت ابن سناء الملك من جمال حيث قال: «ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه: (بل) التى هى للإضراب، وهذا من الأدب غاية فى حسن النظم، والتلعب بالكلام».

وحين نعيد قراءة رد الصفدى على انتقاد ابن جبارة مرة ثانية يتضح لنا أن الصفدى قد بنى رده على أسس ثلاثة:

**الأساس الأول:** أن ابن سناء الملك ليس ممن يخفى عليه فهم معنى بيت ابن المعتز، وفهم الحقائق التاريخية المتعلقة بأوصاف المكتفى الخِلْقِيَّة التى أوردها ابن جبارة فى نقده.

**والثانى:** أن بيت ابن سناء الملك يتفوق على بيت ابن المعتز بما فيه من الإشارة إلى هذا البيت أولاً ثم بما فيه من الجناس ثانيًا، ثم بما فيه من لفظة بل التى هى للإضراب ثالثًا.

**والثالث:** التهكم على ابن جبارة، والسخرية منه، والهزء به؛ وذلك حين وصفه أولاً بالتعنت، وحين اتهمه بانعدام الذوق فى نهاية تعقيبه.

ولم يفت الصفدى أن يشير إلى أن ابن سناء الملك قد استخدم لفظة المكتفى فى موضع آخر من شعره، ولم يرد بها الخليفة العباسى، وإنما أراد بها اسم الفاعل من

الفعل اكتفى، لكن رشحها للتورية استخدامه للفظة المقتدى فى آخر البيت؛ قال الصفدى «وما أحسن ما قال ابن سناء الملك رحمه الله فى موضع آخر من شعره:

بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ يَكُونُ الْمُكْتَفِي ... بِجَمَالِهِ لِجَمَالِهِ كَالْمُقْتَدِي

هنا لم يُرِدْ بالمكتفى الخليفة، ولكنه هنا اسم فاعل من اكتفى، ولما وصل إلى المقتدى ترشح المكتفى للتورية؛ لأن المقتدى والمكتفى خليفتان من بنى العباس»[1].

٢- ونمضى فى قراءة الغيث حتى نصل إلى الشرح الأدبى للبيت الثامن عشر من أبيات اللامية، فنرى الصفدى يورد أبيات ابن سناء الملك:

أَلاَ فَارْفَعِي ذَا الشَّعْرَ عنَّا فإِنَّنَا ... نَغَارُ [2] عَلَيْهِ مِنْ مُلاَعَبَةِ[3] الحَجْلِ

عَجِبْتُ لَهُ إِذْ يَطْمَئِنُّ مُعَانِقًا ... أَمَا أَذْهَلَ الخَلْخَالَ خَوفُ بَنِي ذُهْلِ

بِشَوْكِ القَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَابِهَا ... وَلاَ بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

وبعد أن أورد هذه الأبيات تحدث عن رأى ابن جبارة فيها فقال: «قال شرف الدين بن جبارة بعد أن أورد على البيت الأول والثانى ما أورده من فساد المعنى ونقضه: أراد أن يمدحهم فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفنَ ميته؛ لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل، وإبرة النحل لا أثر لها، ولا ألم يحصل منها، ولو أن كل عاشق إنما يمنعه من معشوقه ويحجزه عنه لسع الزنابير ولدغها لسهل عليه صعبها، وذل له منيعها»[4]. وقال: «ثم ذكر أشياء غير ذلك وقال: لولا وقوع هذا الشاعر فى شعره، وقلة معرفته، وقصور فكره لما قال (بشوك القنا يحمون شهد رضابها) وكيف يحمى الشهد الشوك؟، ولو اتفق له أن يقول (جنى رضابها) لكان أسوغ وأبلغ، ثم قال في أول البيت (شهد)، وفى آخره (شهد)، وإنما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ؛ لأنه إذا كرر بلفظه فكأنه هو، وإنما القصد أن يكشف المعنى بلفظ موجز، وقولٍ مجموعٍ معجز، وإذا تُؤُمِّلَ أكثرُ الشعر

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢١١.

(٢) بالديوان: (عنه أننى أغار) ص ٢٢١.

(٣) بالديوان: (مداعبة) ص ٢٢١.

(٤) الغيث المسجم جـ١ ص ٣٧٠.



المضمن للأمثال وجد على هذا المثال، وهذه العلوم تدق عن فهمه، ويخفى غرضها عن مرمى سهمه أ.هـ»[1].

هذا هو رأى ابن جبارة فى البيت الثالث من أبيات ابن سناء الملك السابقة، ويحسن أن أجمل أولاً اعتراضاته فى نقاط مركزة قبل أن أمضى فى ذكر آراء الصفدى ورده عليها:

أولاً: يعيب ابن جبارة معنى البيت؛ حيث أراد الشاعر المدح، على حين أن الذى قاله يدل على الهجاء، إذ أراد أن يمدح قوم المحبوبة، وقوتهم فى الدفاع عن حريمهم، فجعل آثار طعن رماحهم فى عدوهم كآثار إبر النحل عندما تلدغ الإنسان، فكان فى ذلك ما يدل على هوانهم وضعفهم، كما أن شوك القنا تعبير لا يستسيغه.

ثانيًا: يعيب على ابن سناء الملك قوله (شهد رضابها)، ويرى أنه لو قال (جنى رضابها) لكان أجمل.

ثالثًا: ويعيب عليه أيضًا تكراره لكلمة شهد مرتين حيث وردت مرة فى الشطرة الأولى، ووردت مرة فى الشطرة الثانية.

رابعًا: ويعيب عليه أيضًا إتيانه بالمثل بلفظه، ويرى أنه لو أتى به بمعناه لكان أجمل.

وهذا كله عدا ما اتهمه به من قصور الفهم، وعدم الإدراك، وقلة المعرفة، وكثرة الأخطاء التى يقع فيها، والآن نتساءل: بم أجاب الصفدى عن هذه الانتقادات؟ أو: ما موقفه من هذه الاتهامات التى وجهها ابن جبارة إلى ابن سناء الملك وبيته؟

فى الحقيقة أن الصفدى قد انبرى يدافع عن ابن سناء الملك وبيته، لا دفاع المتحيز المتعصب، وإنما دفاع الباحث المنصف، وهو لم يخالف ابن جبارة على طول الخط، بل خالفه مرة وأيده أخرى، مما يدل على أنه يقف من ابن سناء الملك موقف المنصف، وموقفه هنا يشبه موقفه من أبى الطيب المتنبى؛ حيث جعل وكده إنصاف المتنبى ما وجد إلى ذلك سبيلا.

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



وفى رده على أول هذه الانتقادات خطأً ابنَ جبارة فى قوله: «وإبرة النحل لا أثر لها، لا ألم يحصل منها، ووصف هذا الكلام بأنه تحامل على ابن سناء الملك حيث قال: «قلت: أما كونه يدَّعى أنه لا ألم فى إبر النحل، ولا ضرر فى الزنابير؛ فهذا ما لا يسمع، وهو تحامل، أليس أن فى إبر النحل والزنابير سُماً يمنع القرب منه والدنو إليه، وغالبُ الناس يهاب ذلك ولا يُقْدِم عليه.»[1] وقال: «وبالجملة ففى إبر النحل سُمٌّ تعاف النفوس من الإقدام عليه»[2].

كما خطأه فى فهمه للهجاء من معنى الشطرة الثانية وقال: «وهو ما أرادَ أن طعن قومها مثل لسع إبر النحل كما قال المعرى:

وَأَضْعَفَ الرُّعْبُ أَيْدِيَهُمْ فَطَعْنُهُمُ ... بِالسَّمْهَرِيَّةِ دُونَ الْوَخْزِ بِالإبَرِ

لأنه ما أتى بمثل، ولا بكاف التشبيه، بل نبه بالمثل الذى ذكره على أن حلاوة ريقها لا تُنال إلا بعد مشقة وعناء أهوال، كما أن الشهد من دونه إبر النحل، وكل لذيذ محفوف بألم؛ فالجنة حُفت بالمكاره، وهذا غيرُ وارد عليه»[3].

والصفدى موفَّق دون شك فى هذا الرد، وصادقٌ فى وصفه لكلام ابن جبارة بالادعاء والزعم والتحامل، والكذب الذى لا يُسمع؛ لأن الادعاء بأن لسع الزنابير لا شىء فيه كلام ينطوى على مغالطة كبيرة، كما أن الشاعر لا يريد أن يصف آل محبوبته بالقوة قدر ما يريد أن يبين صعوبة الوصول إلى هذه المحبوبة.

وإذا كان ابنُ جبارة لا يستسيغ قول ابن سناء الملك «بشوك القنا يحمون ...» فإن الصفدى يرى أن هذا التعبير ينطوى على استعارة رائعة، كما يرى أن ابن سناء الملك قد جرى فى هذا التعبير على مثل ما جرى عليه الشعراء والأدباء من قبله.

ويتحدث الصفدى عمَّا فى هذا التعبير من الاستعارة فيقول: «وأما إنكاره شوك القنا فهو استعارة حسنة، والتشبيه مطابق؛ لأن الأسنة أشكال مستدقة ملسَّنة حادَّة كما هو الشوك، وأتى بها ليطابق الكلام المثل فى قوله: ولا بد دون الشهد من إبر النحل فقوله «شوك» يناسب إبر النحل[4]».

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٣٧٠.

(٢) السابق نفسه ص ٣٧١.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



ويتحدث عن تشبيه الشعراء القنا بالشوك فيقول: «وقد شبه الشعراء القنا بالشوك؛ قال الأرجاني:

وَرْدُ الخُدُودِ وَدُونَهُ شَوْكُ القَنَا   فَمَنِ المُحَدِّثُ نَفْسَهُ أنْ يَجْتَنِي؟

وقال ابن خفاجة:

وَالْخَيلُ تَعْثُرُ فِي شَبَا شَوْكِ القَنَا   وَتَظَلُّ تَسْبَحُ فِي الدَّمِ المَوَّارِ[1]»

ومعنى هذا الكلام أن الصفدى يتصف لبيت ابن سناء الملك، ويقيم رأيه النقدى فى هذا البيت على دعامتين:

الأولى: الحس الأدبى والتذوق الجمالى، وقد استخدم الصفدى هذه الدعامة فى الشق المتعلق بجمال التعبير وإظهار ما به من حسن الاستعارة، وحسن مطابقة التشبيه، وحسن مطابقة الكلام للمثل فى الشطرة الثانية.

والدعامة الثانية: مسايرة ابن سناء الملك لما هو مألوف ومأثور من أساليب للتعبير عن مثل هذه المعانى فى ديوان الشعر العربى ولدى شعراء عصره وما سبقه من عصور.

ويتفق الصفدى مع ابن جبارة فى عدم ارتياحه لكلمة «شهد» فى قول الشاعر «يحمون شهد رضابها» وفى عدم تقبله لتكرارها فى الشطرة الثانية من البيت.

وإذا كان ابنُ جبارة قد اقترح أن يستبدل بلفظة «شهد» فى الشطرة الأولى (جنى) فتكون الجملة «يحمون جنى رضابها» فإن الصفدى قد اقترح أن يستبدل باللفظة ذاتها (شهد) لفظة أخرى أحسن من تلك التى اقترحها ابن جبارة، واللفظة التى اقترحها الصفدى هى (رشف) فتكون شطرة بيت ابن سناء الملك «بشوك القنا يحمون رشف رضابها» قال الصفدى: «وما أعجبنى شىء مما أورد عليه غير[2] إنكاره تكرار الشهد، وكان الأحسن لو قال: بشوك القنا يحمون رشف رضابها حتى إذا جاء المثل فسَّر ما تقدم، وإخراجُ الكلام مبهما ثم مفسرا أوقعُ فى النفوس وأبلغ[3]».



(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) وضعت هذه اللفظة حتى يستقيم معنى الكلام ويراجع الغيث جـ١ ص ٣٧١.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ومعنى هذا أن الصفدى لا يعيب على ابن سناء الملك إتيانه المثل بلفظه مثلما فعل ابن جبارة؛ لأنه يرى أن المثل يستمد جماله وقيمته الفنية فى البيت - لا من لفظه ولا من معناه - وإنما يكتسبها مما فى الشطرة الأولى من جودة السبك وحسن النظم، فلو كان الشاعر قد استخدم بدلاً من لفظة (شهد) فى الشطرة الأولى من البيت لفظة (رشف) لكان إيراد المثل بلفظه فى الشطرة الثانية أكثر جمالاً وروعة لأنه فى هذه الحالة يكون مفسرًا لما فى الشطرة الأولى من الإبهام، ومزيلاً لما فيها من الغموض، وكاشفًا عما بها من الجمال.

٣- ولابن جبارة رأى فى بيتين آخرين من القصيدة نفسها التى منها الأبيات الثلاثة السابقة، وهذان البيتان هما:-

لَهَا نَاظِرٌ يا حَيرةَ الظَّبيِ إذْ رَنَا ... بِهِ كَحَلٌ نَادَاهُ يَا خَجْلَةَ الكُحْلِ

وأَثْقَلَهَا الحُسْنُ الَّذِى قَدْ تَكَاثَرَتْ ... مَلاَحَتُهُ حَتَّى تَثَنَّتْ مِنَ الثِّقْلِ

وقد أورد الصفدى هذين البيتين فى أثناء شرحه للبيت الحادى والعشرين من أبيات اللامية، ونقل طرفا من تعليق ابن جبارة عليهما، وعقّب - كعادته - على تعليق ابن جبارة موضحًا رأيه الخاص، وإن كنت ألاحظ فى هذه المرة أنه كان مؤيدًا لجميع الانتقادات التى أوردها ابن جبارة على البيتين، وملتمسا له العذر فى تحامله الشديد على ابن سناء الملك، ومن ثم فقد انبرى يصحح ما وقع فيه الشاعر من أخطاء ويعالج ما فى البيتين من عيوب، ويضع لنا التصور الصحيح لما أُثِرَ عن الشعراء والأدباء فى معنى بيتى ابن سناء الملك من أساليب فى التعبير والأداء.

قال الصفدى: «وقال أيضًا من(١) أبيات:

لَهَا نَاظِرٌ يا حَيرةَ الظَّبيِ إذْ رَنَا ... بِهِ كَحَلٌ نَادَاهُ يَا خَجْلَةَ الكُحْلِ

وأَثْقَلَهَا الحُسْنُ الَّذِى قَدْ تَكَاثَرَتْ ... مَلاَحَتُهُ حَتَّى تَثَنَّتْ مِنَ الثِّقْلِ

وقال ابن جبارة: قوله (لها ناظر) تحققنا ذلك، ثم قال (يا حيرة الظبى) ولم يحار مع وجود المقاربة وعدم المباينة؟ ثم جعل العلة فى حيرته وجود الكحل، إن

---

(١) أى ابن سناء الملك.

هذه قريحة قريحة، وفكرة غير صحيحة، وهذا إن سلم من المؤاخذة على المجازاة[1] بإذ، وليست من حروف المجازاة وهل ينبغى أن يقول قائل: إذ يقوم زيد قام عمرو ويريد بذلك التعليق؟ وإنما أراد سَبْكَ مَثَلِ المتنبى:

وَلَيْسَ التكَحُّلُ فِى الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ[2]».

وابن جبارة يعيد هنا ما سبق أن اتهم به الشاعر من قصور الفكر، وضعف القريحة الشعرية؛ لأنه لم يحسن التعبير عن المعنى الذى يريد أن يعبر عنه، ويخطئه فى قوله: يا حيرة الظبى، ويرى أنه لا مبرر لهذه الحيرة مع وجود المقاربة وعدم المباينة، كما يخطئه فى استعمال إذ للمجازاة.

ويمضى الصفدى فى نقل فقرات أخرى من تعليق ابن جبارة على هذين البيتين فيقول: «وقال بعد كلام ساقه على البيت: وقوله: «وأثقلها الحسن» هذا قلب للمعنى الذى ليس بمعنى، وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شخص فيستحسن به، والملاحةُ هى- وإن كانت البياض فى الأصل- فهى فى الاستعمال صفةُ صورةِ الذات من الحاجب والعين والأنف والفم، ولهذا يقال فى العرف: مليح حسن؛ يعنى أن الذات مكملة بالملاحة فى صورة مستحسنة عند تأملها لبلوغ الأمل.

ثم قال: ولا ينبغى أن يقال «هو حَسَن مليح» لأنه يجعل الوصف الذاتى تبعًا لغيره، وكان الصواب أن يقول: «أثقلتها الملاحة التى تكاثر حُسنها».

ثم قال: حتى تثنت من الثقل، ولو رفع ثاء الثقل لكان أليق بالبيت وبصنعه؛ فلا يقال له أهويتَ ولا أوهيتَ، وهل يتثنى الإنسان من الثقل؟ وإنما يمشى قطعة واحدة فى حالة الثقل.

ثم قال: وقد وكلتُ شرح هذه البيت لعجزى عن معناه إلى عريف الحمالين فعساه يعرف معناه»[3].

هذه هى الفقرات التى نقلها الصفدى من تعليق ابن جبارة على بيتى ابن سناء

---

(١) قد أدخلت بعض التعديلات على الجملة حتى يمكن أن تفهم؛ حيث ورد الكلام فى الغيث مختلا. يراجع جـ١ ص ٤٠١.

(٢) السابق نفسه ونفسها الصفحة.

(٣) الغيث المسجم جـ١ ص ٤٠١، ص ٤٠٢.

الملك وهى جميعها تدور حول رأيه فى البيت الثانى من هذين البيتين؛ حيث قبح ابن جبارة قول الشاعر «وأثقلها الحسن الذى تكاثرت ملاحته» وعاب قوله فى الشطرة الثانية: «حتى تثنت من الثقل».

ويعلق الصفدى على هذا النقد فيقول: «قلتُ: هذا لعمرى نقد حسن، وسبيل ألقى إليه العنان والرسَن[1]» ثم يصحح خطأ ابن سناء الملك فى بيته الأول فيقول: «ولو كان لى فى البيت الأول حكم لقلت: لها ناظر يا حيرة الظبى عنده، وخلصتُ من (إذ) وعدم وضعها للمجازاة[2]».

ويلتمس الصفدى لابن جبارة العذر فى تحامله الشديد على ابن سناء الملك أثناء نقده للبيت الثانى فيقول «وأما قوله (وأثقلها الحسن) فابن جبارة معذور فيه لأن حُسنا يُثقل صاحبَه سمجٌ بارد غث؛ لأن الحسن إنما يفيد الخفة والحركة والنشاط[3]».

ولم يكتف الصفدى بهذا، بل بين أن وصف الحسن بالثقل، أو مدح الحسن بالثقل غير مألوف ولا معروف فى الشعر العربى، وأن الشىء الوحيد الذى امتدح فى الشعر العربى بالثقل هو الأرداف؛ قال الصفدى: «وما مُدِح شىء بالثقل غير الأرداف وما يتركونها الشعراء، بل يقرنونها بخفة الخصر ورقة القد؛ ومنه قول شمسة الموصلية:

هَيْفَاءُ إِنْ قَالَ الشَّبَابُ لَهَا انْهَضِى ... قَالَتْ رَوَادِفُهَا اقْعُدِى وَتَمَهَّلِى

وقول الآخر، وهو فى غاية الحسن:

هَيْفَاءُ إِنْ خَطَرَتْ لِحَاجَتِهَا ... عَجِلَ القَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ[4]»

والصفدى فى تعقيبه هذا على نقد ابن جبارة إنما يريد أن يشير إلى أن ابن سناء الملك قد خرج على طرائق العرب ومذاهبهم فى التعبير الفنى، حين وصف الحسن بالثقل، وهذا فى حد ذاته خطأ، ناهيك عما أحدثه هذا الوصف من إفساد معنى البيت وتقبيح الصورة أو الفكرة التى يريد أن يعطيها لقارئه عن المحبوبة؛ لأن

---

(١) الغيث المعجم ٤٠٢/١.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



الناس تستثقل الحسنَ الثقيلَ أو البارد أو الغثَّ وتحب الحسنَ الممزوجَ بالخفة والحركة والنشاط.

٤- ومن أبيات ابن سناء الملك التى أوردها الصفدى فى الغيث قوله يمدح القاضى الفاضل:

وَإِذَا سَأَلْتَ مَنِ الْكَرِيمُ فَإِنَّهُ ... عَبْدُ الرَّحِيمِ لأَنَّهُ[1] مَوْلَى الْوَرَى

يَخْتَارُ أَنْ يَهَبَ الْخَرِيدَةَ كَاعِبًا ... والطَّرْفَ أَجْرَدَ والحِسَابَ مُجَوْهَرَا[2]

يَقْرِى الضُّيُوفَ شُعَاعَ تِبْرٍ أَحْمَرٍ ... فَشُعَاعُ ذَاكَ التِّبْرِ نِيرَانُ القِرَى

وكما عوّدنا فيما سبق، فقد تحدث عن رأى ابن جبارة فى هذه الأبيات وتعليقه عليها قال: «وتعنت عليه ابنُ جبارة فى هذه الأبيات؛ فمما قال: فى هذا الثالث ألَمَّ أولاً بقول ابن عمار:

قَدحُ زِنَادِ المَجْدِ لاَ يَنْفَكُّ مِنْ ... نَارِ الوَغَى إلاَّ إِلَى نَارِ القِرَى

وزاحمَ فيه أبا الطيب فى قوله:

تَرَكْتَ دُخَانَ الرِّمْثِ فِى أَوْطَانِهَا ... طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنْبَرَا

وقوله (يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر)، والتبر لا يكون إلا كذلك، وإنما قصد المبالغة، وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على البقاع ليهتدى بها الحيران وتهتدى إلى موضعها الضيفان، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام، وكم من ضيف يمتنع من أخذ ذلك ويعده عيبا شنيعًا[3]».

هذا ما أورده الصفدى من تعليق ابن جبارة على هذه الأبيات، وهو - بطبيعة الحال - لم ينقل رأى ابن جبارة كاملاً؛ لأن هذه الآراء جميعها تدور حول البيت الثالث من هذه الأبيات من ناحية، ثم لأنه أورد منها هذا الجزء فقط وأغفل جزءًا آخر لم يورده من ناحية ثانية، ويدل على ذلك قوله: «فمما قال فى هذا الثالث» وهذا يدل على أن الصفدى ينتقى أو يختار بعض التعليقات والانتقادات التى يستطيع أن يردّ عليها أو التى يمكنه أن ينتصف لابن سناء الملك من خلال تفنيدها.

---

(١) بالديوان (وأنه) ص ١٥٩.

(٢) بالديوان «والألف ألفا والكلام مجوهرا» السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) الغيث جـ١ ص ٤٣٨، ص ٤٣١.



وليس معنى هذا أن الصفدى غيرُ أمين فى نقله؛ لأن هذه مسألة لا نملك أن ندلى فيها بالرأى القاطع الذى تؤيده الشواهد وتدل عليه؛ لأن كتاب ابن جبارة مفقود أو على الأقل غير موجود ولو أن هذا الكتاب بأيدينا لاستطعنا أن نقارن بين نصوصه وما نقله الصفدى فى الغيث لنتبين أمانة الصفدى فى النقل من عدمها، ولو كان هذا الكتاب موجوداً لاستطعنا من ناحية ثانية أن نقف على النصوص التى أغفل الصفدى ذكرها أو التى لم يوردها بالغيث لنعرف رأى ابن جبارة كاملاً فى ابن سناء الملك وشعره.

على أنى أحب أن أبادر هنا بالإشارة إلى أننى لا أستبعد أن يكون شرف الدين ابن جبارة قد وقف من ابن سناء الملك موقفًا وسطًا لاسيما وأن النصوص التى نقلها الصفدى من كلامه تدلُّ على ما يمتاز به من جودة العقل واعتدال المزاج، الأمر الذى يهيئه لتقبُّل ما لابن سناء الملك من حسنات وفلتات.

وابن جبارة يرى أن ابن سناء الملك فى بيته قد تأثر بابن عمار وأبى الطيب المتنبى فى بيتيهما اللذين حددهما فيما سبق، كما يرى أن الشاعر غير موفق فى وصف التبر بالحمرة؛ لأنه لا يكون إلا كذلك، ويرى الصفدى أن ابن جبارة قد تعنت على ابن سناء الملك لأن بيته ليس له علاقة ببيت ابن عمار، وليست هناك رابطة بينه وبين بيت أبى الطيب؛ قال الصفدى: «قلت: هذا تعنت زائد، وليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار، ولا بقول أبى الطيب[1]».

والصفدى على صواب فيما قال؛ لأن بيت ابن سناء الملك فى واد وبيتى ابن عمار وأبى الطيب المتنبى فى واد آخر؛ فبيتُ ابن سناء الملك فى مدح القاضى الفاضل بالكرم، ولما كان تقديم الطعام للضيوف فيما يسمى بالقرى هو أشهر ما يدل على الكرم عند العرب، فقد بالغ ابن سناء الملك فى وصف ممدوحه بهذه الصفة الجليلة؛ فالممدوح يقرى الضيوف، وضيوفه كثيرة، وهو يوقد أكثر من موقد أو نيرانا كثيرة لطهى الطعام، وقد جعل الشاعر أشعة هذه النيران كشعاع تبر أحمر لتوهجها وشدة بريقها واتقادها.

أما أبو الطيب المتنبى فى بيته فهو يمدح ابن العميد أبا الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة، لا بالكرم وحسب، وإنما بالترفع عما ألفه الناس من ضروب الكرم

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٤٣٩.

لأن صفاته أبَتْ إلا أن تترك دخان الرمث فى أوطانها، وابنُ عمار فى بيته يريد أن يقول إن المجد لا يُنال إلا بالتضحيات الكبرى والجهاد المتواصل فى ميادين الحروب لكسب الانتصارات للأهل والعشيرة، ثم بالتودد إلى هؤلاء الأهل والعشيرة فى حال السلم بإطعامهم وإكرام الضيف وتقديم القرى له.

ومن هنا كان معنى بيت ابن سناء الملك يختلف عن معنى بيت أبى الطيب ومعنى بيت ابن عمار، ومِن ثم كان الصفدى محقًا فى رده على ابن جبارة، وكان ابن جبارة متعنتًا على ابن سناء الملك.

ويرى الصفدى أن ابن سناء الملك قد أخذ معنى بيته من بيت آخر لأبى الطيب المتنبى من القصيدة نفسها التى منها البيتُ الذى توهم ابنُ جبارة أن شاعرنا قد سرقه؛ قال الصفدى: «نعم لو قال: نظر إلى قول أبى الطيب:

وَمَلَلْتَ نَحْرَ عِشَارِها فَأَضَافَنِى    مَنْ يَنْحَرُ الْبَدْرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرى

لكان فيه بعض سرقة[1]».

ويمضى الصفدى يدافع عن ابن سناء الملك ويردُّ على بقية انتقادات ابن جبارة فيقول: «وأما قوله «التبر لا يكون إلا أحمر» لا نسلم له هذه الدعوى؛ لأن التبر: ما كان من الذهب غير مضروب، والشاعر هنا ما أراد إلا الذهب المضروب، ولكنه قال تبرا مجازا، والذهب منه ما يكون أحمر، ومنه ما يكون أخضر، ومنه ما يكون أصفر، وهذا أمر يشاهده الحس، ولولا أن ذلك لازمٌ لَمَا قيل فى بعض المواطن: الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض»[2].

والصفدى قد بنى ردَّه هذا على أسس ثلاثة:

**الأساس الأول**: إدراكه للفرق بين التعبير الحقيقى الذى يهدف إلى تصوير الحقيقة والواقع، وإعطاء القارئ والسامع المعنى الأول أو المباشر للألفاظ والتراكيب، والتعبير المجازى الذى يلجأ إليه الأدباء والفنانون والذى لا يُهْدَفُ من استخدامه إلى تقرير الحقيقة والواقع، وإنما يُهْدَفُ من استخدامه إلى العدول «باللفظ عما

(١) الغيث المسجم حـ ١، ص ٤٣٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

يوجبه أصل اللغة»[1] إلى معان أُخَر لها ما يدل عليها فى اللفظ - أيضًا - إلا أنها ذات دلالات جمالية لا تكون فى المعنى الحقيقى للفظة فى أصل اللغة كما فى لفظة أحمر التى وردت فى بيت ابن سناء الملك على سبيل المثال حيث أدرك الصفدى أن الشاعر لم يُرِد بلفظه أحمر ذكر حقيقة اللون الذى تدل عليه الكلمة وهو الاحمرار، وإنما أراد ما تدل عليه هذه اللفظة من المعنى المجازى الذى هو التوهج والبريق، وأنه لم يرد بكلمة التبر إلا الذهب الخالص ذا البريق واللمعان والاحمرار، وأنه ما أراد أن يستخدم كلمة التبر بمعناها الذى وُضعت له فى أصل اللغة وإنما أراد أن يستخدمها بمعناها المجازى الذى تدل عليه.

**الأساس الثانى**: ما يمكن أن أسميه الأساس العلمى؛ حيث أحسن الصفدى استخدام معارفه وعلومه العملية فى مجال النقد، أو بتعبير آخر استطاع الصفدى أن يطوِّع معارفه فى علم المعادن فى ميدان النقد؛ حيث ادعى ابن جبارة أن التبر جميعه على لون واحد وهو الأحمر، فذكر الصفدى أن التبر هو الذهب غير المضروب، وأن الذهب المضروب على ألوان مختلفة وليس على لون واحد كما ادعى ابن جبارة؛ فمنه الأحمر، والأخضر، والأصفر، وهذا معروف، ويمكن التأكد منه بالمشاهدة الحسية.

**الأساس الثالث**: وهو أساس عقلى وذهنى؛ فالصفدى يرى أن الشىء لا يحدَّد لونه إلا إذا تعددت هذه الألوان، ومن ثَم فقد كان على ابن جبارة أن يدرك ذلك، ولو لم يكن للذهب المضروب سوى اللون الأحمر ما قال ابن سناء: شعاع تبر أحمر، ولقال: «شعاع تبر» وحسب.

وهكذا استطاع الصفدى أن يرد على ابن جبارة وأن ينتصف لابن سناء الملك من هذا الناقد المتعنت.

وليس معنى هذا أن الصفدى قد خالف ابنَ جبارة فى جميع ما أورده على البيت من انتقادات لأنه قال بعد ذلك: «وما بقى له من النقد عليه إلا قوله إن الأضياف فيهم من لا يقبل الإنعام، وهذا نقد حسن؛ فإن الضيف قد يكون أكبر

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ص ١٧.

قدراً ممن أضافه وأجلُّ نعمةً وأشرف همةً، ولا كذلك العفاة؛ فإنهم لا يكونون إلا دون من يسألونه ويستعطفونه»[1].

ومن هنا رأى الصفدى أن ابن سناء الملك لو استبدل بكلمة (الضيوف) كلمة (العفاة) لزال بعض الإيراد؛ قال الصفدى: «فلو قال يقرى العفاة لزال الإيراد، مع أن فيه نظر من إثبات القرى، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ويستعطفونه»[2].

٥ - وإذا كنا قد رأينا ابن جبارة فى هذا التعليق يشير إلى تأثر ابن سناء الملك بأبى الطيب المتنبى وابن عمار الأندلسى، ويرى أنه زاحم الأول وألمَّ بقول الثانى، فإنه فى نصوصٍ أخرى كان أكثر صراحة؛ حيث اتهم الشاعر بالسرقة من أبى الطيب المتنبى؛ قال الصفدى: «وقال ابن سناء الملك:

وَلَمْ[3] يَبْقَ إلاَّ مَنْ سَبَى الجَيْشُ مِنْهُم وَإِنْ كَانَ يَسْبِى الجَيْشَ بالحدقِ النُّجُلِ

قال ابن جبارة: أين هذا البيت من المسروق منه وهو قول أبى الطيب:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ حَمَاهَا مِنَ الظُّبى لَمَى شَفَتَيْهَا والثُّدِىُّ النَّوَاهِدُ»[4]

والصفدي فى تعليقه على رأى ابن جبارة لا ينكر سرقة ابن سناء الملك لبيته وإنما يرى أن ابن جبارة لو قرأ بيت أبى دلف العجلى:

إِذَا رجعنَا بِأَسْرَى مِن سَرَاتِهِمُ نَالُوا التُّرَاثَ بِلحْظِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

لحكمَ بأن ابن سناء الملك قد سرق بيته من بيت أبى دلف العجلى لا من بيت أبى الطيب المتنبى، وذلك لما بين بيت أبى دلف وبيت ابن سناء من التقارب الشديد فى المعنى واللفظ، قال الصفدى: «قلتُ: لو استحضر ابن جبارة أبيات أبى دلف المتقدمة لما عدل عن الثالث منها؛ إذ نسبةُ السرقة إليه أكمل لأنها بالمعنى واللفظ»[5].

---

(١) الغيث المسجم جـ١، ص ٤٣٩.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) أوردتها مصححة من الديوان وقد جاءت بالغيث «فلم يبق» يراجع الغيث جـ ٢، ص ١٨، والديوان جـ ٢، ص ٢٢٥.

(٤) الغيث: جـ ٢، ص ١٨.

(٥) السابق نفسه ص ١٨، ١٩.



وليس معنى هذا الكلام أن الصفدى ينكر أن ابنَ سناء الملك قد سرق أبا الطيب المتنبى وأغار على شعره؛ فعلى العكس من هذا تمامًا لقد أثبت الصفدى سرقة ابن سناء لأبى الطيب المتنبى فى مواضع كثيرة من الغيث، ونصَّ فى أكثر من موضع أيضًا على أن ابن سناء قد أغار على أبى الطيب المتنبى، ومن هذه المواضع على سبيل المثال قوله: «وقال أبو الطيب:

فَتًى يَمْلأُ الأفْعَالَ رأيًا وَحِكْمَةً ... ونَادِرَةً أحيانَ يَرْضَى ويَغْضَبُ

إذَا ضَرَبَتْ فِى الحَرْبِ بِالسَّيْفِ كَفُّهُ ... تَبَيَّنْتَ أنَّ السَّيفَ بِالْكَفِّ يُضْرَبُ

وأخذه ابن سناء الملك غصبًا، وجرَّد عليه فى الإغارة عضبا فقال:

فلا تحسبوا بِالْكَفِّ جَرَّدَ نَصْلَهُ ... ولَكِنَّهُ قَدْ جَرَّدَ الكَفَّ بِالنَّصْلِ»[1]

وابن سناء الملك فى هذا البيت يمدح الناصر صلاح الدين الأيوبى[2] بالقوة والشجاعة، وهو يقول إن الناس فى مثل مواقف هذا البطل يحسبون أنه قد استمد قوته من كفه، وأنه قد جرد النصل بكفه، بينما الحقيقة أنه قد استمد قوته من هذا النصل، وأنه قد جرد كفه بنصله، كأنه يريد أن يقول إن كفه ونصله قد بلغا غاية القوة، ولا شك أن ابن سناء الملك كان ينظر وهو يصوغ هذا المعنى إلى بيت أبى الطيب المتنبى وهو يمدح كافور الإخشيدى، إلا أن بيت ابن سناء أحسن وأجمل من بيت المتنبى لسببين:

**الأول:** أن أبا الطيب المتنبى قد جرد سيف ممدوحه من القوة، ونسبها إلى كفه حين قال: «تبينت أن السيف بالكف يضرب»، وهذا ليس بالمعنى البديع أو العتيق لأنه تعبيرٌ عادى؛ فالكفُّ هو الحامل للسيف والضارب به، وهذا دليل على قوة الكف، وليس فيه ما يدل على قوة السيف ونفاذ ضرباته.

**الثانى:** أن بيت ابن سناء الملك يزيد على بيت أبى الطيب بما فيه من البديع؛ حيث أحدث الشاعر مقابلة بديعة حين قال: «بالكف جرد نصله» ثم قال فى الشطرة الثانية: «جرد الكف بالنصل».



(١) السابق نفسه صـ ١٩٦.

(٢) يراجع الديوان: ص ٢٢١.

ولهذين السببين أشار الصفدى إلى أن ابن سناء الملك قد «أخذ البيت غصبا، وجرد عليه فى الإغارة عضبا».



٦ - وأورد الصفدى بيتى ابن سناء الملك:

وَصَفْتُكَ واللأَحِى يُعَانِدُ فِى[1] العذْلِ ... فكُنْتَ أَبَا ذَرٍّ وكَانَ أَبَا جَهْلِ

لَهُ شَاهِدًا زُورٍ مِنَ النَّهْيِ وَالنُّهَى ... عَلَيْكَ ومِنْ عينيكَ لِى شَاهِدَا عَدْلِ

ثم أورد رأىَ ابن جبارة فى أولهما فقال:

«وقال شرف الدين بن جبارة: هذا البيت نادرة قصيدته، وعين خريدته، وقد أخذه أخذًا، وفلذه فلذًا من قول شاعر متقدم:

وَلِىَ عَاذِلٌ يُغْرِى إلى الجَهْلِ لَمْ يَخَلْ ... بأنِّى فِي دَعْوَى الغَرَامِ أَبُو ذَرِّ»[2]

ويعترف الصفدى بسرقة ابن سناء الملك بيته من هذا الشاعر، إلا أنه يدرك ما صار إليه بيت هذا الشاعر بعد أن أخذه ابن سناء الملك وصاغه، فقد أخذه ابن سناء مادة خامًا فأعاد تشكيلها وصياغتها، قال الصفدى «لكنه أخذه وقف عاج، وأعاده درة تاج»[3] وذلك لأنه «قابل فيه بين أبى ذر وأبى جهل فزاده حسنًا، وكان فيه ليلَى فضمَّ إليها لبنى»[4].

وبهذا ينتهى ما أورده الصفدى من نصوص لشرف الدين بن جبارة تتناول شعر ابن سناء الملك بالنقد والتعليق، وينتهى معها دفاع الصفدى عن ابن سناء الملك، والرد على شرف الدين بن جبارة، والنتيجة التى نخرج بها بعد هى أن الصفدى يؤمن بشاعرية ابن سناء الملك، ويرى أنه شاعر متمكن من أدواته، أصيل فى موهبته، له تعبيراته ومعانيه التى يختص بها، وله إضافاته على شعر السابقين.

* * *

على أن للصفدى بعد ذلك بعضَ الأحكام العامة على بعض شعر ابن سناء

---

(١) وردت بالغيث «بالعذل» وصححتها من الديوان، يراجع ص ٢٢١، الغيث جـ ٢، ص ٣٧١.

(٢) الغيث: جـ ٢، ص ٣٧١.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

الملك كقوله مثلاً «ولما مات أبوه رثاه بقصيدة رائية فى غاية الحسن»[1] وقوله: «ولابن سناء الملك مقاطيع فى عمياء تروى غلة الكبد الظمياء»[2] ويورد الصفدى من هذه المقاطيع مقطوعة من أبيات ثلاثة وهى:

شَمْسٌ بِغَيرِ اللَّيلِ لَمْ تَحْتَجِبْ[3] ... وَفِي سِوَى الْعَيْنَيْنِ لَمْ تُكْسَفِ
مُغْمَدَةُ الْمُرْهَفِ لَكِنَّهَا ... تَفْتِكُ فِي الغِمْدِ بِلا مُرْهَفِ
رَأَيْتُ مِنْهَا الْخُلْدَ فِي جُؤْذُرٍ ... وَنَاظِرَيْ يَعْقُوبَ فِي يُوسُفِ

ثم يعلق على البيت الأخير منها بقوله: «وهذا البيت الثالث ما له فى الحسن وارث، ولقد تلطف فيما تخيّل، واختلس رقة المعنى وتخيّل»[4].

ويشير الصفدى إلى أن هذا المعنى البديع لابن سناء الملك قد سرقه جمال الدين ابن نباتة واستخدمه فى بيتين من أبياته بعد أن أضاف إليه حلية البديع، فبدا وكأنه معناه الذى لم يسبقه أحد إليه؛ حيث أصبح بزيادة البديع حراً من الاسترقاق، قال الصفدى: «وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة، ولكنه استعمل الخلد مُورّى، ودخل الدار من دربه وغيره براً، وإن كان قد سرقه من ابن سناء الملك فقد استرقّه وجعله بالزيادة حراً، وهو:

فَدَيْتُ أعمَى مغمَداً لحظُهُ ... لنزهتى فى خَدِّهِ الوَرْدِى
تَمكَّنَتْ عَيْنَايَ مِنْ وَجْهِهِ ... فَقُلْتُ هَذِي جَنَّةُ الخُلْدِ[5]

### عيوب الشمس بين ابن سناء الملك وشرف الدين التيفاشى:

وعند حديث الصفدى عن الشمس أثناء شرحه الأدبى للبيت السادس والأربعين من أبيات اللامية أورد أبياتًا لشرف الدين التيفاشى فى ذم الشمس يبدو عليها

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٧٠، والقصيدة التى عناها الصفدى موجودة بالديوان ص ٥١١ وما بعدها، وهى قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها سبعة وستين بيتًا، ومطلعها:

أَيَا دَارُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ لـه دارُ ... وَيَا جَارُ إِنَّ اللَّهَ فَيْهَا لَهُ جَارُ

(٢) الغيث: جـ ٢، ص ٣٢١.

(٣) هكذا وردت بالغيث وهى فى الديوان (لم تحجب)، يراجع الديوان: ص ٤١٧.

(٤) الغيث: جـ ٢، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٥) السابق نفسه: ص ٣٢١.

الضعف، ويظهر عليها التكلف، ولا تحتوى على أى جمال فنى؛ لأنه أخذ يعدد عيوب الشمس التى قال إنها ستة تنتظم أخلاقها وخلقها، ثم أورد بعدها أبيات ابن سناء الملك فى الموضوع نفسه وهو ذم الشمس، ونبه على أن أبيات ابن سناء أحسن من أبيات التيفاشى، وذكر بعد نهاية أبيات ابن سناء أنه وازن بينها وبين أبيات التيفاشى «ليعلم تفاوت الناس فى البلاغة»[1] أى اختلاف مستوياتهم وملكاتهم فى البلاغة.

ولكأن الصفدى هنا يشير إلى أمر مهم، وهو أن الإنسان لا يستطيع أن يفضل أو يفاضل بين شاعر وشاعر أو أديب وأديب إلا إذا تحدثا فى موضوع واحد، أو عالجا قضية واحدة، لأنه فى هذه الحالة سيظهر ما بينهما من وجوه التفاوت فى الملكات والقدرات مثلما ظهرت قدرات ابن سناء الملك الخاصة، وملكاته الفنية التى استطاع بها التفوق على شرف الدين التيفاشى فى ذكر عيوب الشمس وتصويرها.

والجدير بالذكر هنا أن التيفاشى لم يذكر من عيوب الشمس الخلقية والأخلاقية سوى تلك العيوب الظاهرة الواضحة؛ كتغاير نورها وعدم ثباته على درجة واحدة من الشروق إلى الغروب، وضعف إبصارها مع العمش إذا أصبحت، وعدم إبصارها إذا أمست، وأن البدر يكسفها مع أن جرمه أصغر من جرمها، وأنه لا يطاق حرها، وفى القرِّ نورُها مستحقَر، وأن خُلُقَها كخلق الملوك، تنكث فى العهد ولا تصبر.

وبدر الدين التيفاشى حين صاغ هذه العيوب نظمًا اعتمد فى صياغتها على أسلوب التقرير، كأنه يقرر حقائق علمية أو يذكر مساوئ ظاهرة، ومن ثم فقد انعدم الخيال فى أبياته، وافتقرت إلى الصدق الفنى.

أما ابن سناء الملك فقد سلك فى ذكر عيوب الشمس مسلكًا آخر اعتمد فيه على قدراته الفنية وطاقاته الشعرية؛ فتحدث عن أثرها فى صفحة الخد؛ حيث تلفحه بنارها الملتهبة فتبدلُ حسنَه قُبحًا، وبياضَه سمرةً، وجعلها كالعذول الذى يفرق بين المحبين لأنها تسطع فتبدد دياجى الليل، وتوقظ النيام من طول السبات، وتَحُول بينهم وبين الاستمتاع فى نومهم وأحلامهم بطيف خيال المحبوب، ثم شبهها



---

(١) الغيث: ٢/ ٢٦٣.

في نهاية أبياته بعجوز تبرجت وتزينت، ومعنى هذا أن حسنها متكلف كما تتزين العجوز لتتكلف الحسن والجمال، وقرنها في البيت الأخير بالشيطان الذى لا يدل إلا على الشر، ولا يهدى إلا إلى طريق الغى والضلال.

وهذه المعانى بطبيعة الحال أعمق وأجمل من تلك التى ذكرها شرف الدين التيفاشى، ولذا كان الصفدى على صواب حين فضل أبيات ابن سناء الملك على أبيات التيفاشى أثناء موازنته حيث قال: «وقال الشرف التيفاشى فى ذمها:

فِي خِلْقَةِ الشَّمْسِ وَأَخْلاَقِهَا ... شَتَّى عُيوبٍ سِتَّةٌ تُذْكَرُ

مِنْ صُبْحِهَا النورُ لإمْسَائِهَا ... مُغايرُ الأشْكَالِ لا يفْتُرُ

رَمْدَاءُ عَمْشَاءُ إذَا أصْبَحَتْ ... عَمْيَاءُ عِنْدَ اللَّيلِ لاَ تُبْصِرُ

وَيَغْتَدِى البَدْرُ لَهَا كاسِفًا ... وَجُرْمُهُ مِن جُرْمِهَا أصْغَرُ

حَرُورُهَا فِى القَيْظِ لا تُتَّقَى ... ونُورُها فِى القَرِّ مُسْتَحْقَرُ

وَخُلْقُهَا خُلْقُ المُلوكِ الَّتِى ... تَنْكُثُ فِى العَهْدِ ولاَ تَصْبِرُ

لَيْسَتْ بِحَسْنَاءَ ولاَ حُسْنَ مَنْ ... يَقْصُرُ عَنْهُ اللَّفْظُ إذْ يُخْبِرُ

وأحسن من هذا قول ابن سناء الملك:

لاَ كَانَتِ الشَّمْسُ فكَمْ أصْدأَتْ ... صفحةَ خدٍّ كالحُسَامِ الصَّقِيلْ

وَكَمْ وكَم صَدَّتْ بِوَادِى الكَرَى ... طَيْفَ خَيَالٍ جَاءَنِى مِنْ خَلِيلْ

وَأعْدَمَتْنِى مِنْ نُجُومِ الدُّجَى ... وَمِنْهُ رَوْضًا بَيْنَ ظِلٍّ ظَلِيلْ

تكْذِبُ فِى الوَعْدِ[1] وبُرْهَانُهُ ... أنَّ سَرَابَ القَفْرِ مِنْهَا سَلِيلْ

وَتَحسبُ النَّهرَ حُسَامًا فَتَرْ ... تَاعُ وتَحْكِى فِيهِ قَلْبَ الذَّلِيلْ

إنْ صَدأَ الطَّرْفُ فَمَا صَقْلُهُ ... إلاَّ التَّحَلِّى بِمُحَيًّا جَمِيلْ

(١) هكذا وردت بالغيث، وفى الديوان (وتكذب فى العهد) يراجع الغيث جـ ٢، ص ٢٦٣، الديوان جـ ٢، ص ٤٨١.

وَهِيَ إِذَا أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ ... حَدِيدُ طَرْفٍ عَادَ[1] عَنْهَا كَلِيلْ

يَاغُلَّةَ الْمَهْمُومِ يَا جِلْدَةَ الْـ ... مَحْمُومِ يَا زَفْرَةَ صَبٍّ نحيل

يَا فُرْحَةَ الْمَشْرِقِ وَقْتَ الضُّحَى ... وَسَلْحَةَ الْمَغْرِبِ عِنْدَ الأَصِيلْ

أَنْتِ عَجُوزٌ لِمْ تَبَرَّجْتِ لِي ... وَقَدْ بَدَا مِنْكِ لُعَابٌ يَسِيلْ

وأنت بِالشَّيْطَانِ قرنانةٌ ... فَكَيْفَ تَهْدِينَا سَوَاءَ السَّبِيلْ؟!»[2]

والصفدى قد أورد أثناء موازنته أبيات قصيدةَ ابن سناء الملك كاملةً حتى يعطى القارئَ الفرصة كاملة فى القراءة والوقوف على ما بها من المعانى والأفكار والصور والأساليب التعبيرية التى صبّ فيها أفكارَهُ ومعانيه، وهذا يتيح - دون شك - الفرصة للموازنة والمقارنة والتحليل والتفسير، ثم الحكم فى نهاية المطاف.

ويرى الصفدى أن قصيدة ابن سناء الملك ليست على مستوى فنى واحد فى الجودة الفنية، أو بمعنى آخر يرى الصفدى أن فى هذه القصيدة أبياتًا أجمل من أبيات حيث يقول: «وأحسن ما فى هذه القطعة قوله: يا غلة المهموم ... البيت، والذى بعده أحسن، وكذلك الثالث أيضًا[3]».

ويشير الصفدى إلى أن ابن سناء الملك قد أخذ بيته «أنت عجوز» الذى حكم عليه بالحسن فيما سبق من أبى العلاء المعرى فيقول: «وكذلك الثالث أيضًا، وهو مأخوذ من قول أبى العلاء المعرى:

وَفَضْلُ الشَّمْسِ فِى الأَيَّامِ بَاقٍ ... وَإِنْ مَدَّتْ مِنَ الْكِبَرِ اللُّعَابَا[4]»

وبقى بعد ذلك نص واحد فى الغيث علق فيه الصفدى على قول ابن سناء الملك.

تَدَّعِي العَقْلَ وَهْوَ أَشْرَفُ مَا فِيـ ... ـكَ فَلِمْ صَارَ دَاخِلاً تَحْتَ حِسِّكْ

---

(١) هكذا وردت بالغيث، وهى فى الديوان (راح) يراجع الغيث جـ ٢، ص ٢٦٣، الديوان جـ ٢، ص ٤٨١.

(٢) الغيث المسجم جـ ٢ صـ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) السابق نفسه ونفس الصفحة.

(٤) السابق نفسه ونفس الصفحة.

وَكَذَا حُبُّكَ(١) الْحَيَاةَ وَقَدْ أَصْـ ـبَحْتَ لاَ تَشْتَهِي سِوَى طُولِ حَبْسِكْ

طَلِّقِ النَّفْسَ فَهْيَ أَخْوَنُ عِرْسَيْـ ـكَ(٢) أَلَيْسَتْ هِي الْمُشِيرُ بِعُرْسِكْ

وَإِذَا اخْتَالَ فَوْقَ أَرْضِكَ مِنْكَ الـ ـعِطْفُ فَاذْكُرْ هوانه تَحْتَ رَمْسِكْ

لاَ تُغَالِطْ فَمَا تَنَالُ رِضَى اللَّـ ـهِ تَعَالَى(٣) إِلاَّ بِإِغْضَابِ نَفْسِكْ

مَا أَهَانَ الْوَرَى وَلاَ سَلَكَ الدُّنْـ ـيَا وَلاَ حَازَهَا سِوَى الْمُتَنَسِّكْ

والصفدى فى تعليقه على هذه الأبيات يركز على شىء واحد هو تحسينه لكلمة المتنسك فى موضعها من البيت الأخير، رغم مخالفتها لقواعد العروضيين؛ لأن العروضيين يقولون إن قافية هذه القصيدة سينية، والكاف فى حسك، وحبسك وعرسك، ورمسك، ونفسك ليست أصلية فى تركيب كل كلمة من هذه الكلمات؛ لأنها ضمير متصل، وعلى هذا الأساس فهم يرون أن ابن سناء الملك قد أخطأ حين أتى بالمتنسك ليختتم بها البيت لأن الكاف فيها أصلية، قال الصفدى مادحًا ابن سناء ومثنيا عليه: «قلت ما أحلى ما أتى بالمتنسك - هنا - قافية فسقى الله ضريحه وَرَوَّحَ روحه، وما كان ألطف ذوقه وأشبَّ عمره الذى جعل الهلال طوقه(٤)» ثم قال مجيزًا هذه القافية وأشباهها وعارضا لرأى العروضيين فى عدم ارتياحهم لها: «وهذه القافية لا يجيزها العروضيون ويحتجون بأن الكاف أصلية وليست ضميرًا كأخواتها، وأنا وغيرى من أئمة الأدب الذين لطف ذوقهم يرون أن هذه القافية بين نجوم القوافى كالشمس، وهى التى فيها خفة الروح، وما عداها فيه ثقل الرمس(٥)».

والصفدى فى هذا الكلام يعاود التركيز على أهمية الذوق الأدبى فى الحكم على العمل الفنى، ذلك لأنه رفض اعتراض العروضيين على هذه القافية وأشباهها

---

(١) هكذا وردت بالغيث، وهى فى الديوان (حبسك) يراجع الغيث جـ ٢، ص ٣٩٢، الديوان جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٢) هكذا وردت بالغيث وهى فى الديوان (عرسك) يراجع الغيث جـ ١، ص ٣٩٢، الديوان جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٣) هكذا وردت بالغيث وهى فى الديوان (رضى الرحمن) حقًا يراجع الغيث جـ ٢، ص ٣٩٢، والديوان جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٤) الغيث المسجم حـ ٢ صـ ٣٩٢.

(٥) السابق نفسه والصفحة نفسها.

معتمدًا على الذوق فى هذا الرفض، ومعنى هذا أنه يغلب الذوق على القواعد الجافة والجامدة التى يحكم بها العروضيون وغيرهم من العلماء بالأدب ونقده، ومعنى هذا الكلام - بطبيعة الحال - أنه لا يُخَطِّىء العروضيين فى حكمهم على هذه القافية وأشباهها، وإنما يرى أن لكل فريق وسائل نقده وحكمه على العمل الأدبى؛ فعلماء العروض والأدب والنقد يستندون عند نظرهم فى الأعمال الأدبية والحكم عليها إلى ما تعارفوا عليه من قواعد وقوانين استقر عليها رأيهم، وأجمعت عليها كتبهم؛ أما الأدباء الذين يعانون صنعة الأدب، ويمارسون عملية الإبداع فلهم ذوقهم وحسهم الأدبى المرهف الذى يتكئون عليه عند النظر فى الأعمال الأدبية والحكم عليها، ومن هنا - أى من هذا التباين فى الوسائل التى يستخدمها كل فريق فى الحكم على الأعمال الأدبية ونقدها - يأتى اختلاف آرائهم فى الحكم على العمل الأدبى، ومن ثم نجد فريقًا لا يجيز العمل، أو يقبحه، أو يوهيه، وفريقًا آخر يجيزه ويحكم عليه بالحسن والجودة الفنية.

وحين نعيد قراءة كلام الصفدى نجد فيه بعض المغالاة فى تحسين قافية ابن سناء الملك التى رفضها العروضيون لأنها قافية عادية كسائر قوافى القصيدة، وليس بها من المزايا ما يجعلها بين نجوم القوافى كالشمس على حد قوله، كما نجد فيه مغالاة فى الاعتداد بالنفس، والثقة بها، والتعالى على غيره من أهل العلم بالأدب ذلك لأنه عبر عن نفسه بأنا، ووصفَ نفسه وبعض أصحابه بأنهم من أئمة الأدب، ثم امتدح ذوقه وذوق أصحابه، ووصفه باللطف.

وحين نكمل تعليق الصفدى على هذه الأبيات ولفظة المتنسك التى كانت قافية البيت الأخير منها نجده يعلل خفة هذه القافية وثقل ما عداها فيقول: «لأنها قليلة الوقوع فى الكلام، بخيلة بالزيارة ورد السلام، قلَّ أن يظفر الناظم من هذا النوع بقافية، ويجد لها ثانية[1]».

هو - إذن - يرى أن علة حسن هذه القافية وأشباهها تكمن فى ندرتها حيث لا يستطيع الناظم أن يقع عليها أو على أمثالها بسهولة.

ولا يساورنى أدنى شك فى صدق الصفدى فى حكمه على هذه القافية

(١) السابق نفسه صـ ٣٩٢، ص ٣٩٣.

وأشباهها؛ لأنه شاعر ذو موهبة، ومعارض ومقلد ذو خبرة وتجربة، كثيراً ما يعجب بالمعنى أو المبنى الشعرى فيحاول تقليده ومحاكاته، وقد لا تتيسر له إجادة الأنموذج المقلد من أول مرة، فيجهد نفسه، ويكد عقله فى محاولة ثانية بل فى محاولات أخرى كثيرة، ولا يزال يتعب نفسه ويرهقها من أمرها عسراً حتى يتهيأ له ما يريد من النجاح فى المحاكاة والتقليد؛ وقد مر بنا فى غير هذا الموضع من الكتاب قول ابن تغرى بردى فيه: «رأيت من نظمه بخطه عندما يعارض بعض من تقدم من مجيدى الشعراء فى معنى من المعانى اللطيفة فيأخذ ذلك المعنى فينظمه فى بيتين ويجيد فيهما بحسب الحال، ثم ينظم أيضًا فى ذلك المعنى بعينه بيتين آخرين، ثم بيتين، ثم بيتين، ولا يزال ينظم فى ذلك المعنى وهو يقول قلت أنا[1]».

وها هو ذا الصفدى يقدم ما يشهد له بصدق حكمه على هذه القافية بالندرة؛ حيث دعا القارئ أن يطيل النظر فى دواوين الشعراء، وأن يستقرئ كل ما قالوه طلبًا للعثور على أخت لها، ويخبره بنتيجة هذه المحاولة مُسبَّقا وهى التعب فى غير طائل قال الصفدى: «والاستقراء أمامك فاطلب لها أختا، واسلك من أرض اللغة عوجا وأمتا، فإن وُجدَتْ فبعدَ جهد، وتعب فى النظم والنثر يؤديانك إلى الزهد، بخلاف أخواتها لأنك تجد أمثالهن فى مطالع اللغة رواقى، يعرف هذا القول أربابه ومَن بينى وبينه نسبة أو تشابه[2]».

والصفدى فى نهاية هذا التعقيب يعتدُّ للمرة الثانية بنفسه، ويثق بها، ويغالى فى هذه الثقة، ويتعالى على الآخرين ويدَّعى أنه قد حاز الفهمَ والذوقَ، وأن أصحابه الذين يشبهونه فى ذوقه يدركون سرَّ جمال هذه القافية، وسرَّ خفتها وندرتها دون غيرهم من الذين لم يلطف ذوقهم على حسب ما يريد أن يقول.

وصفوةُ القول إن الصفدى يرى فى ابن سناء الملك شاعراً مبدعًا له مكانته، وله طاقاته الشعرية، وله فلتاته التى لا تأتى إلا منه، ولا يمكن أن تنتسب إلا إليه، ولهذا كانت معارضته لابن جبارة وردُّه على تعليقاته المتعنتة على بعض أبيات هذا الشاعر الأيوبى العظيم.

---

(١) المنهل الصافى جـ ٥، ص ٢٥٧.

(٢) الغيث المسجم حـ ٢ صـ ٣٩٢.

# المبحث الرابع

## الصفدى وسرقات الطغرائى

**تقديم:**

ينظر النقاد العرب القدماء إلى الشعر نظرة ذات شقين؛ أحدهما يتعلق بالمعنى، والآخر يتعلق باللفظ، وهم يفصلون بين هذين الشقين فصلاً يكاد يكون تامًا فى كتاباتهم وتعليقاتهم وأحكامهم النقدية على شعر الشعراء، وقد أدى هذا إلى افتقار نقدنا العربى القديم إلى النظرة الشمولية أو الكلية إلى العمل الشعرى[1].

وقد وقر فى أذهان النقاد والشعراء على السواء أن الخالفين قد «سُبِقُوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح»[2]، ومن هنا لم يبق لهم من الموضوعات ما يستطيعون الخوض فيه، ولم يبق لهم من صيغ التعبير ما يمكن أن يكون خاصًا بهم، ووقفًا عليهم.

وقد استبد بشعرائنا هذا الوهم من قديم[3] حتى قال زهير بن أبى سلمى فى عصر الجاهلية:

مَـا أرَانَا نَـقُـولُ إِلاَّ مُـعَـارًا ... أَوْ مُـعَـادًا مِنْ لَـفْظِنَا مَـكْرُورَا

وحتى تساءل عنترة العبسى قائلاً:

هَلْ غَـادَرَ الشُّـعَـرَاءُ مِنْ مُـتَـرَدَّمِ؟!

ومضى النقاد يؤصلون ويعمقون هذا الفهم، وهذا الإحساس بسبق القدماء إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح فى كتاباتهم النقدية حين أخذوا يوضحون للشعراء

---

(١) المعنى الشعرى فى التراث النقدى، د. حسن طبل ص ٢٥٧، الناشر مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا العلوى، بتحقيق أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام ص ٤٦، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٣) مشكلة السرقات فى النقد العربى، أ.د. محمد مصطفى هدارة ص ٢١٧ ص ٢١٨، نشر المكتب الإسلامى ببيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

كيف يكون الأخذ عن القدماء، وكيف يكون التلطف في الأخذ، وكيف يصير المعنى المأخوذ أحسن وأجمل من المأخوذ منه؛ فابن طباطبا العلوى يقول: «ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة، وتدقيق النظر فى تناول المعانى واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غيرمسبوق بها فيستعمل المعانى المأخوذة فى غير الجنس الذى تناولها منه»[1].

ومن هذا المرتكز ظهرت فى نقدنا العربى منذ وقت مبكر من حياته ونشأته ظاهرة السرقات بوصفها مشكلة نقدية فرضت نفسها على النقاد[2] فأفردوا لها كتبًا خاصة بها، وتحدثوا عنها فى أثناء تعليقهم على شعر الشعراء.

والصفدى فى الغيث، يسير على ما سار عليه النقاد من قبله؛ إذ كثرت تعليقاته النقدية على الأشعار التى أوردها فى هذا الكتاب، وكان عدد جم من هذه التعليقات يشير تصريحًا أو تلميحًا إلى الأخذ والسرقة، وأن الشاعر مسبوق بالمعنى أو اللفظ، أو متأثر بمن سبقه من الشعراء فيما نظم.

ولما كان الكتاب فى شرح لامية الطغرائى؛ فقد رأيت أن أدرس النصوص التى تتعلق بسرقات الطغرائى من الشعراء السابقين عليه حتى أستطيع أن أقف على مصادر الطغرائى التى استقى منها معانى قصيدته وأفكارها، وحتى أستطيع أن أتبين ما للطغرائى من المعانى المبتكرة فى هذه القصيدة التى حازت إعجاب الصفدى وغيره من شراحها.

وأردت أن أتبين أيضًا أثر الطغرائى فى غيره من الشعراء؛ فدرست النصوص الخاصة بسرقات الشعراء من لامية الطغرائى.

## أولاً: سرقات الطغرائى:

استقرأت جميع النصوص التى تحدث فيها الصفدى عن سرقات الطغرائى فوجدته يستخدم أساليب متنوعة للدلالة على سرقة الطغرائى لبيته من الآخرين، ومن هذه الأساليب ما كان اتهاما مباشرًا بالسرقة، ومنها ما كان تلميحًا بها، وهو

---

(١) عيار الشعر ص ١١٣.

(٢) تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى، الدكتور محمد زغلول سلام، ص ٦٩ وما بعدها، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٢م.

فى حالتى التصريح والتلميح يوازن بين النصين: المسروق، والمسروق منه؛ ليعطينا رأيه الخاص فيهما، وليطلعنا على ما بهما من محاسن وما عليهما من مآخذ.

(أ) بين الطغرائى وأبى العلاء:

١- فعند شرحه للبيت الثانى من أبيات اللامية وهو:

مَجْـدِى أخِيـرًا، ومَجْـدِى أولاً شَرَعٌ    والشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كالشَّمْسِ فِى الطَّفَلِ

بين أن هذا البيت مأخوذ من بيت لأبى العلاء المعرى فقال: «وقد أخذ الطغرائى هذا المعنى من قول أبى العلاء حيث قال:

وافَـقْتُـهُـمْ فى اخـتلافٍ مِنْ زَمَـانِكُمُ    والْبَدْرُ فى الْوَهْنِ مِثْلُ الْبَدْرِ فى السَّحَرِ»[1]

ويرى الصفدى أن بيت الطغرائى هو بعينه بيت أبى العلاء، غير أن الطغرائى قد استخدم الشمس فى التمثيل، وأن أبا العلاء قدا استخدم القمر، قال الصفدى: «فهذا هذا، خلا أن ذلك فى الشمس، وهذا فى القمر»[2].

والطغرائى وأبو العلاء كلاهما يعبر عن فكرة واحدة، وهى أن المكانة أو المنزلة الاجتماعية لا تتغير بتغير الزمان كما لا يتغير نور الشمس أو ضوء القمر فى حالتى الظهور والأفول، وهذا ما عناه الصفدى بقوله: فهذا هذا؛ أى هذا المعنى هو هذا المعنى.

ثم يشير الصفدى إلى أن قول أبى العلاء أحسن من قول الطغرائى فيقول: «ولكن قول المعرى ألطف عبارة، وأحسن إشارة»[3]، ويعلل أو يذكر السبب الذى جعله يفضل بيت المعرى فيقول: «لأن الطغرائى أغربَ فى لفظتى رأد، والطفل»[4].

أى إن الطغرائى قد أخل بشروط الفصاحة حين استخدم هذين اللفظين الغريبين والثقيلين، على حين التزم المعرى بها؛ لأن ألفاظه جرت فى سهولة وليونة لم تجر عليها ألفاظ بيت الطغرائى.

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٩٠.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



ويركز الصفدى فى ختام تعليقه وموازنته بين البيتين على أن «عذوبة الألفاظ أمر مهم فى البلاغة[1]».

ثم يشير إلى أن معنى بيت الطغرائى، ومعنى بيت أبى العلاء يشبهان معنى قول الحريرى:

وَطَالَما أُصْلِىَ الياقُوتُ جَـمْرَ غضًا ثُمَّ انْطَفَا الجمرُ والياقُوتُ ياقُوتُ[2]

وعلى هذا فالمعنى أو الفكرة واحدة فى هذه الأبيات الثلاثة، وإن اختلفت صيغ التعبير عن هذا المعنى أو هذه الفكرة عند الشعراء الثلاثة، ومع هذا فهو اختلاف يسير؛ لأن هناك تقاربا بين قول الطغرائى وقول أبى العلاء؛ فالطغرائى قد وقف على معنى بيت أبى العلاء، ووقف أيضًا على طريقة صياغته ولعل هذا ما دعا الصفدى إلى أن يعبر عن هذا الوقوف على المعنى وصياغته، بالأخذ، ثم فارقه فى ألفاظه؛ حيث استبدل بالقمر الشمس، واستبدل فى التمثيل بمثل الكافَ التى هى للتمثيل والتشبيه أيضًا، ثم ترك الوهن والسحر اللذين هما من أوقات الليل، واستعمل الضحى والطفل اللذين هما من أوقات النهار.

والصفدى يدرك أن لا علاقة بين بيتى المعرى والطغرائى وبيت الحريرى من ناحية الألفاظ، وكان واضحًا فى ذلك حين لجأ إلى استعمال أسلوب يبين هذا الفهم وهذا الإدراك، ويبين أن العلاقة الجامعة بين الأبيات الثلاثة هى المعنى الواحد أو الفكرة الواحدة التى عبر ثلاثتهم عنها بأساليب متغايرة إذ قال: «وكلا المعنيين يشبه قول الحريرى..».

٢- وإذا كان الطغرائى قد أخذ معنى بيته السابق من معنى بيت أبى العلاء، وأفاد من طريقة صياغة المعرى لبيته، وسلك مسلكًا يقاربها فإنه فى بيته:

نَاءٍ عَنِ الأَهْلِ صفر الكَفِّ مُنْفَرِدٌ كَالسَّيْفِ عُرِّىَ مَتْنَاهُ عَنِ الْخَلَلِ

قد اقترب قربًا شديدًا من أبى العلاء المعرى فى بعض أبياته، قال الصفدى: «ومن قول أبى العلاء فى معنى قول الطغرائى:

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٩٠.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



وأنتَ السَّيفُ إنْ يَعْدمْ حليًا ... فَلَمْ يُعْدَمْ فِرِنْدُكَ والغِرارُ

وليس يزيد فى جرىِ المذاكى ... ركابٌ فوقه ذهبٌ مُمَارُ

وَرُبَّ مُطَوَّقٍ بالتِّبْرِ يكبو ... بِفَارِسِهِ وللرَّهَجِ اعتبارُ

وزندٍ عاطلٍ يزهى بمدحٍ ... وَيُحْرَمُهُ الذى فيه السوارُ»[1]



والصفدى يقصد دون شك تقارب معنى بيت الطغرائى مع معنى البيتين الأول والرابع من أبيات أبى العلاء، وهو هنا لم يحكم بسرقة الطغرائى لمعنى بيته من أبيات أبى العلاء، وذلك لما بين بيت الطغرائى وأبيات المعرى من البون الشاسع فى المعنى الفرعى، وطريقة الصياغة، وخصائص الألفاظ؛ فالطغرائى يشكو حاله وقلة ماله بقوله: أنا وحيد، نـاء عن أهلى وأقوامى، وليس معى من المال ما يعيننى على أمرى، وحالتى هذه تشبه تمامًا حالة السيف المجرد من حليته، الذى أزيل عنه ما يخلب اللب ويستجلب المدح؛ فالمال للإنسان كالحلية للسيف، كلاهما يتمم ويزين الشكل الخارجى الذى إليه ينظر الناس، والذى على أساسه يكون التفاضل فيما بينهم، ويكون إقبالهم أو إعراضهم على الإنسان ومدحهم أو ذمهم إياه. أما أبو العلاء فهو يقول لممدوحه: أنت كالسيف إن فقد زينته لم يفقد قيمته، وإن فقد شكله لم يفقد أصله وما صنع من أجله وهو القتل والفتك، وأنت ترى أن ما فوق الفرس من حلى وزينة حتى ولو كانت من الذهب الخالص لا تفيده شيئًا، ولا تؤدى إلى زيادة سرعته بل لعل هذا المطوق بالتبر يكبو بمن يركبه من الفرسان، ولعل زندا عاطلاً من الزينة يمتدح ويثنى عليه، وزندا آخر مزينا يحرم من المدح والثناء.

وعلى هذا فقول الطغرائى وقول المعرى متقاربان كأشد ما يكون التقارب، ومختلفان فى الوقت نفسه كأشد ما يكون الاختلاف، **لأنهما متقاربان فى المعنى الكلى العام، ومختلفان فى المعنى الجزئى الخاص**، والمعنى الكلى العام الذى اتفق فيه الشاعران هو وصف الألم النفسى الذى نتج من الغبن والظلم وعدم التقدير والتشجيع والثناء، والمعنى الجزئى الخاص الذى اختلف فيه الشاعران هو وسيلة وصف هذا الألم النفسى، فقد وصف الطغرائى هذا الألم عن طريق التحسر، وخطاب النفس، ومحاولة التعزى والتسلى، ووصف المعرى ما يشعر به ممدوحه من الألم النفسى عن طريق تبصيره بمزاياه وسجاياه، ولهذا كان ما رأيناه من

---

(1) الغيث المسجم جـ1 ص 136.

احتياط الصفدي، وتمسكه بالحذر والدقة، وهو يربط بين معنى أبيات المعري ومعنى بيت الطغرائي.



٣ – وعند شرحه لقول الطغرائي:-

لم أرتض العيش والأيامُ مُقبِلَةٌ        فكيف أرضَى وقد ولَّتْ على عَجَلِ

نجده يقول: «وبيت الطغرائي مأخوذ من قول أبي العلاء:

وما ازدهيت وأثواب الصِّبا جُدُدٌ        فكيف أزهَى بثوبٍ مِن ضَنًى خَلَقِ

ومن قوله أيضًا من رسالة يخاطب الدنيا: «أسأتني غانيةً، فكيف بك عَجوزًا فانية؟»[1].

وقد حالف الصفدي التوفيقُ في اتهامه الطغرائي بسرقة بيته من المعري؛ لأن المعنى واحد، وطريقة صياغته واحدة، لكني لا أوافقه على ما ادعاه من سرقة الطغرائي لبيته من قول المعري في رسالته؛ لأنّا لو فتحنا هذا الباب على مصراعيه هكذا ما سلمَ لأحدٍ شعرٌ ولا نثر على حدٍّ قول ابن رشيق.

**ب – بين الطغرائي ومسلم بن الوليد:-**

ويربط الصفدي بين قول الطغرائي أيضًا:-

نَاءٍ عَنِ الأَهْلِ صِفْرُ الكَفِّ مُنْفَرِدٌ        كالسَّيْفِ عُرِّيَ مَتْنَاهُ عَنِ الْخَلَلِ

وبيتِ مسلم بن الوليد حيث قال: «وقول الطغرائي «رحمة الله» مأخوذ من قول مسلم بن الوليد:

وباينْتَ حتى صرتَ لِلْبَيْنِ راكبًا        قُوَى الْعَزْمِ فَرْدًا مِثْلَ ما انفردَ النصلُ»[2]

وحين نوازن بين بيت الطغرائي وبيت مسلم نجد أن **أهم وجوه التشابه بينهما** مخاطبة النفس بما تدل عليه من الألم والحسرة والحزن على الفراق والبعد عن الأهل والعشيرة؛ فالطغرائي يقول: لقد بعدتُ عن أهلي وقومي ومالي الذين هم حليتي، وأصبحتُ وحيدًا منفردًا كالسيف المعرَّى عن حليته، ومسلم يقول: لقد كثر ارتحالي وبعدي عن أهلي وقومي حتى كأني تعودت على ذلك لِمَا معي من العزم القوي؛ فمثَلي وأنا منفردٌ في غربتي كالسيف الذي جُرِّد من حليته.

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١٤٧.

ولكن: هل يصح مع هذا التشابه بين البيتين فى الفكرة أو المعنى أن يكون بيت الطغرائى من بيت مسلم؟

لا، ولا يصح فى رأيى اتهام الصفدى للطغرائى بسرقة بيته من بيت مسلم؛ لأنه وإن كان هناك تشابه بين بيت الطغرائى وبيت مسلم فى المعنى أو الفكرة، فإن هناك فارقًا كبيرًا بين البيتين فى الصياغة وفى الصورة والخيال، وفى المعنى الجزئى أيضًا.

ففى الصياغة استخدم الطغرائى لفظَ ناءٍ، واستخدم مسلمُ لفظَ باينتُ، ومدلولا اللفظين مختلفان لأن لفظة (ناء) التى فى بيت الطغرائى تفيد بعده عن الناس لاجتناب الناس له بسبب فقره، وتنكُّر الدنيا له، على حين أن لفظة (باينت) التى فى بيت مسلم تدل على بعده هو واجتنابه الناس.

وفى بيت مسلم صورة بيانية؛ إذ اتخذ من قوة عزمه مَطِيَّةً يركبها، ويرحل عليها، ويفارق بها وطنه وأهله دون صاحب أو رفيق سوى نفسه، ورباطة جأشه، وشدة بأسه.

والتعبير بقوله «صرت» يفيد أن مسلمًا حَوّل مجرى حياته من الثبات والاستقرار إلى الترحل والانتقال، وهذه كلها معان وأخيلة لا توجد فى بيت الطغرائى.

وبقى أن أشير إلى أن الطغرائى قد ربط بين بُعدِه عن الناس، واجتناب الناس له وبين فقره ورقة حاله، وقد ركز الصفدى فى شرحه لهذا البيت على هذا المعنى حيث قال: «فلهذا قال الطغرائى ما قاله، يعنى أننى فى بغداد بهذه الحالة من الفقر واجتناب الناس لخلو ذات يدى، وأنا من العلم والفضل والأدوات بمحلٍّ أسنى، ومع ذلك لا يعبأ بى، ولا ينظر إلى ذاتى مِن حيث هى»[1].

جـ - بين الطغرائى والشريف الرضى:-

وعند شرحه لبيت الطغرائى:

وَضَجَّ مِنْ لَغَبٍ نِضْوِى وَعَجَّ لِمَا ... أَلْقَى رِكَابِى وَلَجَّ الرَّكْبُ فِى عَذَلِى

بَيّن أن الطغرائى قد سرق هذا البيت أبشع سرقة لأنه نقله بلفظه كلِّه من

(١) السابق نفسه ص ١٣٥.

الشريف الرضى قال الصفدى «أقول: قد أخذ بيت الشريف الرضى برمّته من قوله»:



وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَنَازِلِهِم ... وديارُهم بِيَدِ البِلَى نَهَبُ
وَوَقَفْتُ حَتَّى ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ ... نَضْوِى وَلَجَّ بِعَذْلِىَ الركْبُ
وَتَلَفَّتَتْ عينى فمُذْ خَفِيَتْ ... عَنِّى الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القلبُ»[1]

والطغرائى هنا لم يسرق المعنى أو لم يأخذ المعنى فحسب، وإنما أخذ اللفظ أيضًا، ولو وقف عند هذا الحد لكانت سرقةً معيبة حقًا، إلا أنه أبى إلا أن يزيدها قبحًا وسوءًا حين كرر معنى «ضج من لغب» فى قوله «وعج لما ألقى ركابى»، وقد التفت الصفدى إلى ذلك فقال: «وفى قوله (وضج من لغب نضوى) غنيةٌ عن أن يقول فيما بعده (وعج لما ألقى ركابى) لأن المعنى واحد، فكل منهما يغنى عن ذكر الآخر، فإن ضجيج النوق هو عج الركاب»[2].

وبهذا يظهر قبح أخذ الطغرائى لبيت الشريف الرضى، وتظهر علة قبح هذا الأخذ؛ إذ أخذ اللفظ والمعنى ثم أطال اللفظ وكرر المعنى دون إضافة جديدة يستحق بها أن يحمد ويحسب الأخذ له لا عليه[3].

وأحب أن أربط هذا الرأى النقدى برأىٍ آخر للصفدى فى بيت الطغرائى:

وَذِى شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقَلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلاَ وَكِلِ

حيث يرى الصفدى أن «صدر بيت الطغرائى هو بعينه صدر بيت الحريرى فى مقامته الرابعة والأربعين من قصيدته لأنه قال:

وَذِى شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ قَامَتُهُ ... صادفْتُهُ بمنى يَشْكُو مِنَ الْجَدْبِ»[4]

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ١٩١.

(٢) السابق نفسه ص ١٨٣.

(٣) يرى ابن وكيع التنيسى أن من الأقسام العشرة التى تنقسم إليها السرقات التى يذم صاحبها ولا يحمد طارقها: نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير، وأخذ اللفظ المدعى هو ومعناه معًا. يراجع المنصف القسم الأول ص ٢١، ص ٢٢، الهامش بتحقيق يوسف نجم وطبع الكويت.

(٤) الغيث المسجم جـ ١ ص ٢٥٩.

وملاحظةُ الصفدى فى موقعها ومحلها؛ لأن صدرَ بيت الطغرائى هو بعينه صدر بيت الحريرى؛ حيث لم يغيِّر الطغرائى شيئًا من ألفاظ شطرة الحريرى سوى أنه استبدل بكلمة (قامته) التى فى بيت الحريرى كلمة (معتقل)، وبمقارنة يسيرة بين ما فعله الطغرائى ببيت الحريرى، وما فعله ببيت الشريف الرضى فى الرأى النقدى السابق يتضح لنا أنه نهج نهجًا واحدًا فى الأخذ والسرقة؛ حيث نقل بيت الشريف الرضى، وصدر بيت الحريرى بألفاظهما دون أن يُجرى عليهما من التغيير ما يستحق به أن يحسب الأخذ له كما قلت، وإذا كان الصفدى لم يتردد فى اتهام الطغرائى بسرقة بيت الشريف الرضى، فقد كان من المتوقع هنا أن يحكم بسرقة بيت الحريرى أيضًا، إلا أنه لم يفعل؛ لأنه يرى أن قول الحريرى «وذى شطاط كصدر الرمح» قولٌ عادى ليس وقفًا على الحريرى دون غيره من الناس؛ لخلوه من الجمال فى لفظه ومعناه، ولأنه بإمكان الناس أن يأتوا بمثله فى غير جهد، ومعنى هذا أن الصفدى يرى كما يرى غيرُه من النقاد[1]، أنه لا سرقة فى الشائع المعروف المتداول بين الناس من المعانى والألفاظ، يقول الصفدى فى التعقيب على اتفاق شطرتى بيتى الطغرائى والحريرى: «ومثل هذا لا يعد سرقة؛ لأن المعنى ليس بديع، ولا لفظه بفظيع، ولا الطغرائى بعاجز عن الإتيان بمثله، بل جرى على لسانه ونسى أن هذا لغيره لعدمَ الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير، وهذا كثير الوقوع للناس، لا يكاد يسلم الفحول منه، ولهذا قال أشياخ الأدب: ما حفظَ المقاماتِ أحدٌ ونَسِيَها إلا نظم ونثر»[2].

والصفدى فى هذا التعقيب النقدى المهم ينفى سرقة الطغرائى لصدر بيته من الحريرى، ويتكئ فى نفيه للسرقة على حجج أو أسباب ثلاثة: أحدها يتعلق بالمعنى، والثانى يتعلق باللفظ، والثالث يتعلق بمقدرة الطغرائى الفنية، فليس المعنى ببديع - أى بجديد - حتى يكون خاصًا بالحريرى، كما أن اللفظ أو التركيب اللفظى واللغوى للكلام أو لصدر بيت الحريرى ليس فيه من ميزة تختص به مما يجعل نقله سرقة، ثم إن الطغرائى لا يعجزه أن يأتى بمثل هذا التركيب.

(١) يذهب إلى هذا الرأى من نقادنا العرب: أبو هلال العسكرى، وضياء الدين بن الأثير على سبيل المثال ويراجع مشكلة السرقات د. هدارة فى مواضع متفرقة.

(٢) الغيث المسجم جـ ١ ص ٢٥٩.

والصفدى فى هذا التعقيب النقدى المهم يشير أيضًا إلى تأثر الإنسان بما سبق له أن قرأه أو حفظه من جيد الشعر والنثر، إذ يُختَزَنُ هذا المحصول الفكرى والأدبى فى الذاكرة، ويأتى على الإنسان حينٌ من الزمن ينسى فيه هذه الآثار الفنية وخصائصها الجمالية نسيانًا يكاد يكون تامًا ثم إذا بها تظهر بطريقة غير مباشرة عند محاولة الإبداع الفنى، وهذا كله نفهمه من قوله عن الطغرائى «بل جرى على لسانه، ونسى أن هذا لغيره؛ لعدم الاحتفال بأمره؛ إذ هو ليس بأمر كبير»، أى جرى قول الطغرائى: (وذى شطاط كصدر الرمح) على لسانه وهو يكتب البيت، ولم يأت على ذهنه أن هذا التركيب ليس من عنده وإنما هو من عند الحريرى، فقد نسى هذه المسألة تمامًا عند عملية الإبداع، ومعنى هذا أن الصفدى قد أطلعنا فى هذا التعقيب النقدى على لون من ألوان الثقافة الأدبية التى كان يلم بها الطغرائى وهو حفظه لمقامات الحريرى، وتأثره بها لا معانِىَ وحسب، وإنما معانى وألفاظًا وهو يكتب قصيدته أو لاميته.

وبيَّن الصفدى أن الطغرائى فى تأثره بمحصوله الفكرى فى عملية الإبداع ليس نسيج وحده فى هذا الباب إذ إن «هذا كثير الوقوع للناس لا يكاد يسلم الفحول منه»[1].

وينهى الصفدى تعقيبه على بيتى الطغرائى والحريرى ببيان أثر المقامات فى تنمية الملكات الفنية لدى أصحاب المواهب الأدبية حين يذكر ما أُثِرَ عن أشياخ الأدب فى فضل المقامات حيث قال «ولهذا قال أشياخ الأدب: ما حفظَ المقاماتِ أحدٌ ونسيها إلا نظمَ ونثر»[2] أى تمكن من كتابة الشعر وكتابة النثر، وذلك لما بها بطبيعة الحال من ثروة لغوية، وقيم فنية تثرى الفكر، وتوسع الآفاق والمدارك، وتقوى ملكة الخيال عند المبدع أو الفنان.

ونرى الصفدى بعد أن يوفى الحديث عن العلاقة بين بيت الطغرائى وبيت الحريرى ينصرف إلى الحديث عمّا فى بيت الطغرائى من الجمال الفنى أو من القيم



(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

البلاغية حيث يقول: «وقوله: كصدر الرمح معتقل بمثله» من الإيجاز والاختصار لأنه استغنى بمثله عن أن يقول برمح طويل قويم معتدل»[1].

وعلى هذا فهو يرى أن كلمة (بمثله) حسنة فى موقعها لأنها منعت الطغرائى من التكرار والإسهاب، وألزمته الإيجاز والاختصار.

ولم يكتف الصفدى بهذا، وإنما أخذ يدلل على شيوع هذه الطريقة فى الإيجاز والاختصار، واستخدام الشعراء لها فى مختلف العصور حيث قال «ومثل قول الطغرائى (بمثله) فى كلام الشعراء كثير كقول أبى تمام الطائى:

وَرَكْبٍ كأطرافِ الأسِنَّةِ عَرَّسُوا     على مِثْلِهَا واللَّيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُه»[2]

كأن الصفدى يريد أن يقول أن هذه الطريقة فى الإيجاز والاختصار ليست من ابتكار الطغرائى، وكأنه يريد أن يقول أيضًا إن الطغرائى متأثر فيها بمن سبقه من الشعراء عامة وبأبى تمام خاصة حيث استفادها منهم وأخذها عنهم.

د - بين الطغرائى وأبى تمام:-

وإذا كان الصفدى قد رأى أن الطغرائى قد استفاد من طريقة أبى تمام فى الإيجاز والاختصار؛ فإنه فى موضع آخر يشير إلى ما بين معنى قول الطغرائى:

حُلْوُ الفُكَاهَةِ، مُرُّ الجدِّ، قَدْ مُزِجَتْ     بِشِدَّةِ البَأسِ مِنْهُ رِقَّةُ الغَزَلِ

ومعنى بيتى أبى تمام:

الجِدُّ شِيمَتُهُ، وَفِيهِ فُكَاهَةٌ     سُمْحٌ ولاَ جِدٌّ لِمَنْ لَمْ يَلْعَبِ

شَرِسٌ وَيَتْبَعُ ذَاكَ لِينُ خَلِيقَةٍ     لاَ خَيْرَ فِي الصَّهْبَاءِ مَا لَمْ تُقْطَبِ

من صلة؛ حيث قال «وقول الطغرائى يشبه قول أبى تمام الطائى»[3]، وفعلاً هو يشبه بيتى أبى تمام من حيث المعنى الكلى العام لا المعنى الجزئى الخاص، وأقصد هنا بالمعنى الكلى العام مجموعة الصفات التى يتحلى بها الممدوح عند الشاعرين؛ فالطغرائى يمدح نفسه أو يبين الخصال الأربع التى فى صاحبه - الذى هو نفسه

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه ص ٢٦٠.

(٣) السابق نفسه ص ٢٧٧، ٢٧٨.



بطبيعة الحال - فيقول إن فى صاحبى خصالاً هى الفكاهة الحلوة، والجد المر الشديد، والرقة المفرطة التى تسندها شدة البأس، وأبو تمام يمدح صاحبه بهذه الخصال الأربع نفسها؛ ففى ممدوحه فكاهة مبعثها سماحته، وفى طبعه مع هذا جد، وهو يشتد ثم يلين.

ويرى الصفدى أن بيت الطغرائى يشبه بيتين آخرين لأبى تمام - أيضًا - وهما:

لا طَائِشٌ تَهْفُو خَلاَئِقُهُ وَلاَ ... خَشِنُ الوَقَارِ كَأَنَّهُ فِى مَحْفَلِ

فَكِهٌ يَجِدُّ الجِدَّ أَحْيَانًا، وَقَدْ ... ينضى، وَيَهْزُلُ عيشُ مَنْ لَمْ يَهْزِلِ[1]

وقد اكتفى الصفدى بهذه الإشارة السريعة إلى تشابه بيت الطغرائى وأبيات أبى تمام، ومضى فى طريقة ليذكر نصوصًا أخرى لشعراء متأخرين بينها وبين بيت الطغرائى ألوان من التشابه.

ولست أدرى لِمَ لم يوازن الصفدى بين بيت الطغرائى وأبيات أبى تمام؟!، ولست أدرى لم لم يعمق هذا الرأى النقدى؟! فقد كان بمقدوره أن يوازن ويقارن ويفاضل، ويحسن ويقبح؛ لأن بيت الطغرائى أبلغ فى المديح من أبيات أبى تمام فضلاً عن إيجازه؛ حيث جمع الصفات التى مدح بها أبو تمام صاحبه فى بيت واحد على حين أتى بها أبو تمام فى بيتين.

ولعل الصفدى لم يكن بحاجة إلى الموازنة والترجيح فى أى موضع آخر قدر حاجته إليهما فى هذا الموضع، وذلك لسببين أولهما: حتى يفسر ما يقصده بالتشابه بين بيت الطغرائى وقول أبى تمام، وثانيهما حتى يبرز لقارئه ما فى بيت الطغرائى من جمال، وذلك لأن قصيدة الطغرائى هى المحور الذى يرتكز عليه ويدور حوله فى كتابه.

**هـ - بين الطغرائى وأبى نواس:-**

ويمثل هذه السرعة فى الربط بين قول الطغرائى وقولى أبى تمام، أشار الصفدى إلى سرقة الطغرائى لبيته:

لَعَلَّ إِلْمَامَةً بِالْجِزْعِ ثَانِيَةً ... يَدُبُّ مِنْهَا نَسِيمُ البُرْءِ فِى عِلَلِى

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٧٨.

من بيت أبى نواس المشهور:

فَــتَـمَـشَّتْ فِى مَــفَـاصِـلِهِمْ كَــتَـمَـشِّى الْبُــرْءِ فى السَّــقَمِ

حيث قال «وقول الطغرائى فى غاية الحسن والرقة، وهو مأخوذ من قول أبى نواس»[1]، وترك الصفدى بيتَ الطغرائى وأخذ يتتبع معنى بيت أبى نواس حتى وصل به فى نهاية المطاف إلى أحد الهذليين؛ إذ أورد نصًا للأصمعى يوضح أن أبا نواس قد سرق بيته من مسلم، وأن مسلما قد سرق بيته من عمر بن أبى ربيعة، وأن ابن أبى ربيعة قد سرق بيته من أحد العذريين، وأن العذرىَّ قد سرق بيته من أسقف نجران، وبعد أن انتهى نصُّ الأصمعى رفض الصفدى كل الأحكام النقدية المتعلقة بسرقة أبى نواس لبيته؛ قال الصفدى «قلت: وقد أخذه أبو نواس برمته من بعض الهذليين يصف قانصًا ظفر بصيد بسرعة مشْيٍ حيث يقول:

فــتـمَـشَّى لا يُحِسُّ بِهِ كَـتَـمَشِّى النَّارِ فِى الـفَـحْمِ»[2]

ويبنى الصفدى رأيه هذا على أساسٍ هو أن ما ورد من الروايات عن أبى نواس يؤيد هذا الحكم؛ قال الصفدى: «فإن بعض الروايات عن أبى نواس على هذا النص، وهى أصح الروايات لأنها آخر ما استقرت عليه الحال»[3].

وهذا الكلام حرى أن يطلعنا على وعى الصفدى التام بالمرويات الأدبية، كما يدل على أنه يمتلك المقدرة على الترجيح بينها، وهو يعتمد على آخر ما استقر عليه الحال من الروايات المختلفة.

ومعنى هذا أن الأصل فى هذا المعنى الشعرى الذى فى بيت الطغرائى هو بيت هذا الهذلى إلا أن الطغرائى لم يأخذه عنه لأن أبا نواس قد أخذه أو وقف عليه وأخذه وطوَّره وصاغه بطريقته فى بيته، ثم وقف الطغرائى على بيت أبى نواس وتأثر به، وبهذا يكون الصفدى قد بيَّن أن هذا المعنى قد مر بمرحلتين قبل أن يستخدمه الطغرائى، لكننا نلاحظ أن كل مرحلة كانت أكمل من سابقتها وأحسن؛ لأن الصفدى يصف بيت الطغرائى بقوله «وقول الطغرائى فى غاية الحسن والرقة»



(١) السابق جـ ٢ ص ١٢.

(٢) السابق نفسه ص ١٣.

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

أى أن الطغرائى قد وصل المعنى على يديه إلى درجة أرقى مما وصل إليها على يدى أبى نواس حين أخذه من صاحبه الأصلى أو الأول وهو الهذلى. وعلى هذا تكون سرقة أبى نواس لمعنى بيته من الهذلى من أنواع السرقات المحمودة التى نص عليها ابن وكيع فى المنصف، وذلك لأنها فى رأيى تدخل ضمن الوجه الثانى من وجوه هذا النوع من السرقات، وهو نقل اللفظ الرذل إلى الرصين الجزل، كما تدخل ضمن الوجه الثالث أيضًا من وجوه هذا النوع من السرقات؛ وهو نقل ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسنَ مبناه ومعناه[1].

وكذا تكون سرقة الطغرائى لبيته من بيت أبى نواس من أنواع السرقات المحمودة أيضًا؛ لأنها تدخل ضمن الوجهين الثانى والثالث من وجوه السرقات المحمودة التى نص عليها ابن وكيع لأن ألفاظ الطغرائى فى بيته أرصن وأجزل من ألفاظ بيت أبى نواس، ثم لأن بيت أبى نواس أقل حسنا فى مبناه من بيت الطغرائى، ولعل هذا ما أراد أن يشير الصفدى إليه بقوله: «وقول الطغرائى فى غاية الحسن والرقة».

**و - بين الطغرائى والمتنبى:-**

ونمضى بعد ذلك لنرى الصفدى وقد ركز على سرقات الطغرائى من أبى الطيب المتنبى، وأحب أن أشير إلى أن الصفدى قد استخدم أربعة ألوان من الأساليب للدلالة على سرقة الطغرائى من أبى الطيب، واللون الأول منها هو قوله «وقول الطغرائى من قول أبى الطيب»، ففى تعقيبه على بيت الطغرائى:

يحمون بالبيضِ والسُّمرِ اللِّدَانِ بِهِ     سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحلى والحِلَلِ

قال: وقول الطغرائى من قول أبى الطيب:

دِيَارُ اللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ     بِسُمْرِ[2] القَنَا يحمين[3] لا بِالتَّمَائِمِ[4]

والذى أعتقده أن الصفدى على صواب فى هذا الرأى النقدى؛ لأن الطغرائى يريد أن يعبر عن عزة ديار قوم محبوبته أو فتاته ومنعتها فقال: إن هؤلاء الرماة من

---

(١) يراجع المنصف لابن وكيع بتحقيق محمد يوسف نجم وطبع الكويت من ص ٩ ومابعدها.

(٢) وردت بديوان المتنبى بطول القنا، ص ١٦٤ طبع هندية.

(٣) وردت بالديوان يحفظن، السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٤) الغيث المسجم: جـ ١، ٣٦٨.



من بنى ثعل يحمـون بالسيـوف والرمـاح حرمَ هذا الحـى من إضم الذى تسكنه الفتيات الحسناوات ذوات الشعـر الأسود المضفر والحلى والملابس الحمراء، وهذا المعنى هو الذى عبر عنه المتنبى من قبل فى بيتـه الذى ذكره الصفدى حيث قرر أنه غزا ديار النسوة اللائى يحتمين بسمر القنا لا بالتمائم أو التـعاويذ، ومن هنا فأنى أرفض دفع الدكتور إبراهـيم منصور السرقة عن الطغرائى بـحجة «أن هذا ليس مما انفرد به المتنبى وغيره»[1].

وإذا كان الصفـدى قد حدد هنا بيت أبى الطيب الذى منه بيت الطغـرائى، فإنه فى موضع ثان لم يحدد البيت أو الأبيات التى تأثر بها الطغرائى؛ ففى تعقيبه على بيت الطغرائى:

وَلاَ أَهَابُ الصِّفَاحَ البِيضَ تُسْعِدُنِى ... باللَّمْحِ مِنْ خَلَلِ الأَسْتَـارِ وَالْكِلَلِ

قال الصفدى: «وأما قولُ الطغرائى فى هذا البـيت وإخراجُه الحماسة فى صورة الغزل فـهو من قـول أبى الطيب؛ إذ ليس لأحد مـعه فى هذا البـاب دخول لأنه يصف الحروب ويظهرها مظاهر الغزل وهذا من القدرة فى التخيل، ألا ترى قوله:

تَعَـوَّدَ أَلاَّ تَقْـضَمَ الحَـبَّ خَـيْلُهُ ... إِذَا الهَامُ لَـمْ تَرْفَعْ جُيُوبَ الـعَلاَئِقِ

وَلاَ تَرِدَ الـغُـدْرَانَ إِلاَّ وَمَـاؤُهَا ... مِنَ الدَّمِ كالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ»[2]

وبديهى أن البيتين اللذين أوردهما الصفدى للمتنبى ليس لهما علاقة ببيت لامية الطغرائى، وقـد أوردهما الصـفدى كمـا أورد غيـرهما[3] ليدلل بهـما على تلك الطريقـة التى انفرد بها المـتنبى بين شعـراء العربية فى وصف الحـروب عن طريق إخراجها فى صورة الغزل، ومن ثَمَّ فإن معنى قول الصفدى: «وأما قول الطغرائى فى هذا البيت . . فـهو من قول أبى الطيب» مـعناه أن الطغرائى فى بيتـه قد نهج النهج الفنى نفسه الذى سـار عليه المتنبى فى وصف الحماسة وإخـراجها فى صورة الغزل فى شعـره، وعلى هذا يكون معنى قول الصفـدى «من قول أبى الطيب» أى من شعـر أبى الطيب، وتصح للصفدى فى رأيى هذه الدعـوى أيضًا، وذلك لأن

---

(١) شروح لامية العجم: ص ١٧٦.

(٢) الغيث جـ ٢، ص ٣٠، ٣١.

(٣) يراجع السابق نفسه ص ٣١.



جميع نقادنا القدامى تقريبًا قد اتفقوا على أن أبا الطيب يتميز بهذه السمة فى شعره الحماسى، وعدُّوها من محاسنه التى لا يشركه فيها غيره، ومن ثم فقد أضحى هو أصل كل المعانى التى أتى بها الشعراء بعده فى هذا الباب، وأضحى شعره المصدر الذى يحث الشعراء على ولوج هذا الباب، واتباع هذه السبيل.

**واللون الثانى من ألوان التعبير التى استخدمها الصفدى للدلالة على سرقة الطغرائى من شعر أبى الطيب هو تعبيره بالأخذ مباشرة؛ ففى تعقيبه على بيت الطغرائى:**

فَادْرَأْ بِهَا فِى نُحُورِ الْبِيدِ جَافِلَةً ... معارضاتٍ مَثَانِى اللُّجْمِ بِالجدلِ

قال الصفدى: «وهذا البيت مأخوذ من قول أبى الطيب:

لا أبغضُ العيسَ لكنى وقيتُ بها ... قلبى من الحزنِ أو جِسْمِى مِن السَّقَمِ

طَرَدْتُ من مصر أيديها بِأَرْجُلِهَا ... حتَّى مَرَقْنَ بِهَا[1] مِنْ جَوْشَ وَالْعَلَمِ

تبرى بِهِنَّ[2] نعام الدَّوِّ مسرجة ... تُعَارِضُ الجُدُلَ المُرْخَاةَ بِاللُّجُمِ»[3]

والصفدى يقصد دون شك أن بيت الطغرائى مأخوذٌ من البيت الثالث من أبيات أبى الطيب التى أوردها، وهو على صواب فيما ادعاه؛ لأن الطغرائى قد أخذ معنى البيت، وأخذ بعض لفظه أيضًا؛ فالطغرائى يحث فى بيته «على إعمال الركاب، وأن يرمى بها فى نحور البيد مسرعة تبارى بأزمتها لجم الخيل فى مسيرها»[4] حيث يقول «فادفع الأنيق الذلل فى نحور المفاوز والقفار مسرعة غير ملتفتة، وبجياد الخيل فعارض لجم تلك بأزمة هذه»[5] ويكاد يكون هذا المعنى هو معنى بيت المتنبى نفسه حيث كنى بنعام الدو عن الخيل[6] ووصفها بأنها «مسرجة تعارض الجدل المرخاة باللجم».

هذا من ناحية المعنى ومن ناحية الألفاظ؛ فإن الطغرائى قد استخدم بعض ألفاظ

---

(١) وردت بالديوان بنا ديوان المتنبى ص ٣٧٣.

(٢) وردت بالديوان (لهن) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٨٣.

(٤) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٨٣.

(٥) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٦) ديوان المتنبى هامش رقم ٣، ص ٣٧٣.

بيت المتنبى بنفسها كالجدل واللجم وتصرَّف فى بعضها الآخر؛ حيث استخدم لفظة (معارضات) بدلا من (تعارض) كما استخدم لفظة (البيد) جمع بيداء بدلاً من كلمة (الدو) التى استخدمها المتنبى.

وعلى هذا فسرقة الطغرائى هنا تنتظم اللفظ والمعنى معًا، ولعل هذا ما جعل الصفدى يعدل عن التعبير عن هذه السرقة بقوله: «وقول الطغرائى مِن قول أبى الطيب» إلى التعبير بالأخذ مباشرة حيث قال دون مواربة: «وهذا البيت مأخوذ من قول أبى الطيب»:

وأرانى - هنا - أخالف الدكتور إبراهيم منصور الذى يخطِّئ الصفدى فى اتهامه الطغرائى بسرقة بيته من المتنبى اعتمادًا على شيوع هذا التعبير؛ إذ يقول: واضح أن معارضة اللجم بالجدل، أو الجمع بين الخيل والإبل فى السفر ليس مما ينفرد به شاعر»[1].

واستخدم الصفدى فى اللون الثالث من ألوان التعبير التى استخدمها للدلالة على سرقة الطغرائى من أبى الطيب مصطلحًا يطلق أو أطلقه نقادنا القدامى على لون معين من ألوان السرقات، ذلك المصطلح هو مصطلح الاختلاس الذى يدل عند نقادنا القدامى على سرقة المعنى وتحويله من غرض إلى غرض أو تحويله إلى ضده أو مقابله والذى قد يطلقون عليه أحيانا اسم نقل المعنى[2]، ففى تعقيبه على قول الطغرائى:

وَإنْ عَلانِى مَنْ دُونِى فَلاَ عَجَبٌ ... لِى أُسْوَةٌ بانحطاط الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

قال الصفدى: «والطغرائى اختلس معنى بيته من قول أبى الطيب:

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إلاَّ ذُو مَحَلٍّ ... تَعَالى الجيشُ وانحطَّ القَتَامُ»[3]

وأولُ ما يسترعى نظرى فى هذا التعليق النقدى هو إدراك الصفدى أن الاختلاس لا يكون إلا فى المعانى، وذلك الإدراك نفهمه من قوله: «اختلس معنى

---

(١) شروح لامية العجم: دراسة تحليلية ص ١٧٨.

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى ص ٤٥٤، بتحقيق قميحة وطبع دار الكتب العلمية ببيروت، والسرقات الأدبية للدكتور بدوى طبانة ص ٥٩، طبع الأنجلو المصرية عام ١٩٦٩م.

(٣) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٨١.

بيته» وكأنه بهذا ينبهنا ويلفتنا إلى إدراكه لمعنى المصطلح ودلالته التى عرفها النقاد وأشاروا إليها أثناء وضعهم لهذه المصطلحات النقدية الخاصة بالسرقات.

ولكن: هل اختلس الطغرائى معنى بيته من بيت أبى الطيب الذى أشار إليه الصفدى؟.

فى الحقيقة يكاد الصفدى يخطئ شاكلة الصواب فى هذا الرأى النقدى إلا أن يكون قد أراد بالاختلاس شيئًا آخر غير الذى تعارف عليه النقاد من قبله؛ لأن الاختلاس كما عرَّفوه هو سرقة المعنى وتحويله من غرض إلى غرض؛ يقول ابن رشيق القيروانى: «فإن حوَّل المعنى من نسيب إلى مديح فذلك الاختلاس»[1] أما الذى فعله الطغرائى فهو أبعد ما يكون عن الاختلاس بهذا المعنى وبهذه الدلالة التى ذكرها ابن رشيق القيروانى؛ لأن الطغرائى يُسَلِّى نفسَه ويعزِّيها، ويلتمس السلوى فيقول: «وإنْ عَلانى هؤلاء الذين ذممتُ دولتهم وأيامهم وهم دونى فى كل شىء فإن لى أسوة بكون الشمس منحطة عن زحل»[2].

أما بيت المتنبى فهو من الغرض الشعرى نفسه تقريبًا؛ حيث يتحسر المتنبى على تلك الأيام التى عاشها حيث ساد فيها الصغار وولى أمور الناس ملوكٌ كالأرنب فى الذلة والضعف[3]، ثم أخذ يسلى نفسه بعد ذلك ويعزيها قائلاً لها: وهل يوجد شىء فى هذه الدنيا غير معوج؟ إن الأمور لا تجرى كما ينبغى أن تسير، بل هى تسير بالعكس دائمًا، فلو لم يعْلُ إلا ذو محل أى لو لم يل أمر الناس إلا الشريف ذو المكانة العالية والمنزلة السامية والدرجة الرفيعة، لما تعالى القتام أى الغبار فى المعركة، ولتعالى وارتفع الجبين الذى حقق النصر وأحرز الغلبة، وانحط الغبار، وعلى هذا فالغرض الشعرى واحد، وأكثرُ من هذا أن طريقة التعبير عن هذا الغرض الشعرى واحدة؛ حيث ضرب كل شاعر من الشاعرين المثل على ما يقول فى الشطرة الثانية من بيته، ويعقب الصفدى على معنى بيت الطغرائى بقوله «وهو مثلٌ حسن، وفيه من البديع إرسال المثل والإيضاح»[4] وذلك لأن الطغرائى

---

(١) العمدة فى صناعة الشعر ونقده ص ٤٥٤.

(٢) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٤٨.

(٣) ديوان المتنبى هامش رقم ٧، ص ٧٣.

(٤) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٤٨.

قد عزى نفسه فى الشطرة الأولى من البيت، ثم ضرب المثل فى الشطرة الثانية، وكذلك فعل المتنبى من قبله؛ حيث تحدث عن اعوجاج الأمور وسيرها على غير ما ينبغى أن تسير عليه فى الشطرة الأولى، وفى هذا عزاء وسلوى له، ثم ضرب المثل على اعوجاج الأمور بعد ذلك فى الشطرة الثانية بتعالى الغبار وارتفاعه وسط ساحة المعركة مع أنه لا قيمة له ولا أثر، وكان ينبغى أن يتعالى الجبين صاحب النصر الحقيقى وصانعه.

ولعلى بعد هذا التحليل أستطيع أن أزعم أن الصفدى ما أراد بقوله (اختلس) أنه نقل المعنى أو تصرف فى الغرض الشعرى ونقله إلى غرض آخر، وإنما أراد بمعنى اختلس معنى آخر تمامًا هو الأخذ أو السرقة، أو لعله قصد بها أن الطغرائى قد لمح معنى قول أبى الطيب، وهو يستخدم لفظ (لمح) ويضيفه إلى المعنى فى كثير من تعليقاته النقدية كما سيأتى فيما بعد.

وإذا كان الصفدى قد رأى أن الطغرائى قد اختلس معنى بيته أو لمح معنى بيته من بيت أبى الطيب المتنبى، فإنه قد قرر فيما بعد أن الطغرائى قد أخذه من أبى الفتح البستى؛ قال الصفدى: «لا، بل أخذه صريحًا من أبى الفتح البستى حيث قال:

لاَ تَعْجَبَنَّ لِدَهْرٍ ظَلَّ فِى صَبَبٍ ... أَشْرَافُه، وَعَلاَ فِى أَوْجِهِ السَّفَلُ
وَانْقَدْ لأَحْكَامِهِ أَنَّى تُقَادُ بِهِ ... فَالْمُشْتَرِى السَّعْدُ يَعْلُو فَوْقَهُ زُحَلُ»(١)

وحرى بنا أن نتوقف عند قوله «بل أخذه صريحًا» لأنها قد تفسر بعض التفسير ما يقصده بقوله اختلس التى فى التعليق النقدى السابق أو فى الشق الأول من هذا التعليق النقدى على بيت الطغرائى؛ فالصفدى يرى أن الطغرائى قد أخذ بيته من المتنبى، إلا أنه يرى فى الوقت نفسه أن هذا الأخذ ليس بالواضح الجلى وإنما هو مستور خفى، ويرى أيضًا أنه قد أخذ بيته من أبى الفتح البستى ويرى فى الوقت نفسه أن أخذه لبيته من البستى ظاهر لا يحتاج إلى تدقيق النظر، وإعمال الفكر للوصول إلى ما يؤيد ذلك، وإذا كان الصفدى قد قال: «والطغرائى اختلس معنى



---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢٨١.

بيته من أبى الطيب» فهو بهذا القول قد حدد ما يقصده بعد ذلك بقوله: «لا بل أخذه صريحًا من أبى الفتح البستى»، فكأنه يريد أن يقول إن الطغرائى قد أخذ المعنى من المتنبى واللفظ من أبى الفتح البستى، وبمقارنة يسيرة بين ألفاظ بيت الطغرائى، وألفاظ البيت الثانى من أبيات البستى يتضح لنا ذلك تمام الوضوح؛ فالشطرة الثانية من بيت الطغرائى «لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل» هى بعينها شطرة البيت الثانى الثانية فى قول البستى «فالمشترى السعد يعلو فوقه زحل» إلا أن الطغرائى قد استخدم (الشمس) فى التمثيل بينما استخدم البستى (المشترى) فى التمثيل.

وهنا يرد سؤالٌ له وجاهته فى هذا المكان وهو: ولم هذا التحديد؟ ولم هذا الجزم بأن الصفدى يريد أن يقول إن الطغرائى قد أخذ المعنى من المتنبى واللفظ من البستى؟ مع أن المقارنة بين ألفاظ الشطرة الثانية من بيت الطغرائى وألفاظ الشطرة الثانية من بيت البستى الثانى تؤدى إلى الاقتناع بأن الأخذ الصريح الذى يقصده الصفدى لا يشمل اللفظ وحده، وإنما يشمل اللفظ والمعنى معًا؟

والجواب على هذا أن بيتَىِ البستى لا يحتويان على معنى الطغرائى كاملاً، كما أن معنى الشطرة الأولى من بيت أبى الطيب هو معنى الشطرة الأولى من بيت الطغرائى.

والصورة الرابعة من صور تعبيره عن سرقة الطغرائى لبيته من أبى الطيب هو قوله: «والأصل فى هذا قولُ أبى الطيب «ففى تعقيبه على بيت الطغرائى»:

فَسِرْ بِنَا فى ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا    فَنَفْحَةُ الطِّيبِ تهدينا إلى الحللِ

قال الصفدى: «ومن قول الطغرائى قول التهامى:

يتركْنَ حيث حللن زهْرَ لطيمةٍ    مما يثرن به العَبِيرَ وطاحا

يهدى ثراه إلى البِلادِ وربَّمَا    حيَّتْ بِرِيَّاه الرياح رياحا

وقول الأرجانى:

بَلِّغَانِى مَنَازِلَ الحَىِّ أسْأَلْـ    ـهَا مَتَىٰ فَارَقَتْ رُبَاها الغِيدَا

واستدلا على الحِمَى نَشْرَ مِسْكٍ    مِنْ مَجَرِّ الْحِسَانِ فِيهِ بُرُودَا

والأصل فى هذا كله قول أبى الطيب:

وَيَفُوحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحٌ    لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ»[1]

وأظن أن الصفدى يقصد بقوله (والأصل فى هذا كله) أصل المعنى لا أصل اللفظ، وهو فى هذا الرأى النقدى قد عاد بنا إلى ممارسة هوايته المفضلة، إن جاز لى مثل هذا التعبير، حيث يغرم الصفدى كثيراً بتتبع المعنى وتعقبه حتى يصل به إلى صاحبه الأول، والمعنى الذى عبر عنه الشعراء الثلاثة الطغرائى، والتهامى، والأرجانى، والذى يرى الصفدى أنه مأخوذ من المتنبى أو أن أصله عند المتنبى هو أن للحسناوات من طيب الثناء عليهن رائحة تفوح ويستنشقها الناس فى كل مكان، هذا هو المعنى الأصلى كما ورد عند المتنبى، ويرى الصفدى أن الطغرائى قد أخذ بيته أو معنى بيته من بيت المتنبى، ثم كان الطغرائى بعد ذلك الواسطة الذى انتقل من خلالها هذا المعنى إلى التهامى والأرجانى.

ويمتدح الصفدى معنى بيت الطغرائى بقوله «وهذا معنى لطيف، وتركيب رقيق»[2] وهو بهذا يصف معنى بيت الطغرائى بالدقة ويصف ألفاظه بالرقة أى بالسلاسة والعذوبة؛ لأن اللطف هو الخفاء، ولأن التركيب هو طريقة نظم الألفاظ. ويوضح الصفدى أن الطغرائى فى هذا البيت يجرى على ما جرت عليه سنة الشعراء من قبله فيقول: «وقد جرت عادة الشعراء أن يذكروا أن مواطنَ الحبيب وأماكنَه وما جاورها تتضوع بأنواع الطيب، وتتأرجح النسمات بنفحاته العطرة»[3].

ويستدل الصفدى على اتباع الشعراء لهذه السنة من قديم بأبيات للنميرى فى أخت الحجاج بن يوسف الثقفى قال الصفدى «وقال محمد بن عبد الله النميرى فى زينب أخت الحجاج بن يوسف الثقفى من قصيدة:

تَضَوَّعَ مِسْكًا بَطْنُ نُعْمَانَ إِذْ مَشَتْ    بِهِ زَيْنَبٌ فِى نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ
لَهُ أَرَجٌ مِنْ مَجْمَرِ الهِنْدِ ساطعٌ    تطلع رياهُ مِنَ الْحُجُرَاتِ»[4]

---

(١) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٣٧٩.

(٢) السابق نفسه: ص ٣٧٧.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



وعلى أية حال فالذى يعنينا فى هذا المقـام هو ثناء الصفدى على بيت الطغرائى لفظًا ومعنى؛ لأن فى هذا الثنـاء إشارة من وراء حجاب إلى تفـوق الطغرائى على أبى الطيب، وهذا يدل على أن المعنى قد مر بثلاث مراحل: الأولى مرحلة صاحبه الأصلى وهو أبو الطيب، وقد كان المعنى فى هذه المرحلة بسيطًا ويفتقر إلى اللطف والرِّقَّـة، والمرحلة الثانيـة هى تلك التى وصل إليـها على يد الطغـرائى، والمرحلة الثالثة هى تلك التى فى أبيات التهامى والأرجانى.

الصفدى إذن قد استـخدم أربعة تعبيرات مختلفـة للدلالة على سرقة الطغرائى من المتنبى وهى قوله «وقول الطغرائـى من قول أبى الطيب»، وقوله: «وهذا البيت مأخـوذ من قول أبى الطيب»، وقـوله «واختلس هذا المعنى من قـول أبى الطيب» وقوله «والأصل فى هذا قول أبى الطيب».

بقى أن أشير إلى أن الصفدى قد ربط بين بعض أبيات اللامية وبعض أبيات أبى الطيب بألفاظ تدل على المشابهة كأن يقول «وهذا البيت يشبه قول أبى الطيب» وقد استخدم الصفدى هذا الأسلوب فى تعقيبه على قول الطغرائى:

أُرِيدُ بَسْـطَةَ كَفٍّ أَسْـتَـعِينُ بِهَـا ... عَلَى قَـضَـاءِ حُـقُـوقٍ لِلْعُلَى قِـبَلِى

حيث قال «وقول الطغرائى فى هذا البيت والذى بعده[1] يشبه قول أبى الطيب:

وَأَتْعَـبُ خَلْقِ اللَّـهِ مَنْ زَادَ هَمُّـــهُ ... وَقَصَّـرَ عَمَّـا تَشْتَهِى الـنَّفْسَ وجدُهُ

فَـلاَ مَجْـدَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَـالُهُ ... وَلاَ مَالَ فِى الـدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَـجْدُهُ

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَـرْكُـوبُهُ رِجْـلاهُ وَالثـوبُ جِلْدُهُ

ولكِـنَّ قلبًـــا بَيْنَ جَـنْبَىَّ مَـــا لَهُ ... مَدًى يَنْتَهِى بِى فِى مُـرَادٍ أَحُدُّهُ»[2]

ولكن هل قول الطغرائى فى هذا البـيت والبيت الذى بعده يشبه فـعلاً قول أبى الطيب؟ وبمعنى آخر إلى أى مدى كان الصـفدى على حظ من النجح والتوفيق فى الربط بين معنى هذين النصين الشعريين؟

---

(١) يقصد الصفدى قول الطغرائى:

وَالدَّهْرُ يَعْكِسُ آمالِىَ وَيُقْنِعُنِى ... مِنَ الْغَنِيمَةِ بَعْدَ الْكَدِّ بِالْقَفَلِ

(٢) الغيث المسجم: جـ١، ص ٢٣٠.

يشرح الصفدى معنى بيتى الطغرائى فيقول: «أحاول من الزمان بسطة كف من المال المتسع لأجل الإعانة على وفاء حقوق استقرت فى ذمتى للعلى.. والدهر يعكس ما أؤمله وأرجوه من البسطة والرفعة، حتى أقنع من الغنيمة بالرجوع بعد التعب والمشقة»[1].

فهو إذن يتحدث عن آماله وأحلامه وموقف الدهر منها حيث «مازال يعكس المقاصد، ويراقب الخيبة ويراصد»[2].

أما المتنبى فإنه فى أبياته يصف ما يعانيه الإنسان الطموح من التعب والألم عندما لا يجد ما يستطيع به أن يحقق آماله وأحلامه، ويبين أن المجد والمال مرتبطان ببعضهما؛ حيث يستطيع صاحب المال أن يحرز المجد، بينما لا يستطيع من لا يملك المال أن يحرز المجد، ثم يصنف الناس ويقسمهم إلى قسمين: راضٍ بميسور عيشه وهين أمرِه، وطموحٍ يحمل قلبًا يطمح إلى أشياء كثيرة، عزيزة المنال.

وعلى هذا فلا مشابهة بين بيتَىِ الطغرائى، وأبيات المتنبى التى أوردها الصفدى إلا من حيث إن كل واحد من الشاعرين يتحدث عن نفسه وحالته فقط، أما المعانى والأفكار فلا مشابهة بينها إلا إذا أوَّلنا معنى بيت الطغرائى الأول على أنه يصف تعبه من قلة المال، ثم أولنا معنى البيت الثانى على أنه يصف تعبه من أفاعيل الدهر به وبآماله.

وهناك نص ثان ربط فيه الصفدى بين بيت الطغرائى، وبيتين لأبى الطيب بهذه الطريقة أيضًا فى ثنايا شرحه الأدبى لقول الطغرائى:

لَعَلَّ إِلْمَامَةً بِالْجِزْعِ ثَانِيَةً ... يَدُبُّ مِنْهَا نَسِيمُ الْبُرْءِ فِى عِلَلِى

يقول: «وقول الطغرائى يشبه قول أبى الطيب:

وَرَبِيعًا يُضَاحِكُ الغَيْثُ فِيهِ ... زَهَرَ الشكرِ مِنْ رِيَاضِ الْمَعَالِى

(١) السابق نفسه ص ٢١٨، ص ٢٣٤.

(٢) السابق نفسه: ص ٢٣٤.



نَفَحَتنا منه الصَّبا بنسيمٍ ... رَدَّ رُوحًا في ميِّتِ الآمالِ[1]

ولعل التشابه الذى يقصده الصفدى بين قول الطغرائى وقول المتنبى هو فى تصوير الأمر الذى يُحدثه الذهاب إلى مكان الحى من الجزع فى نفس الطغرائى، والذهاب لزيارة عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى عند المتنبى؛ لأن كل واحد منهما جعل فى هذه الزيارة إحياءً له وبرءًا من أمراضه وأسقامه؛ فالطغرائى يطلب إلمامة بمكان الحى من الجزع يحصل له بسببها دبيبُ نسيم البرء فى علله التى كابدها من الأشواق، والمتنبى يجعل زيارة ممدوحه كزيارة سليمان ويوسف عليهما السلام وكزيارة الربيع الذى ينعش الناس سيبه ويحيى فى الناس آمالهم وطموحاتهم التى أماتها الجدب والإقفار.

هذا عن النصوص التى تبين تأثر الطغرائى بغيره وموقفه من السابقين واستفادته من معانيهم وطريقة صياغة هذه المعانى فى أبيات اللامية، ومنها يتضح لنا أن الطغرائى قد تأثر فيها أكبر تأثر بأبى الطيب المتنبى، وهذا بدهى ومنطقى وغير مستغرب على الإطلاق؛ لأن المتنبى قد ذهب فى ديوان الشعر العربى باعتداده بنفسه، والفخر بها، والتكبر والرفعة والشموخ، والتأبى على نوائب الدهر، وديوان شعره يفيض بأروع القصائد فى هذا المجال الذى هو بعينه موضوع لامية الطغرائى، ومن ثم فقد كان متوقعًا أن يتأثر الطغرائى بالمتنبى، وأن يكثر من السطو على معانيه وأفكاره، وأن يستفيد من طريقة صياغته لهذه المعانى وهذه الأفكار.

وبيَّن الصفدى - أيضًا - أن الطغرائى قد تأثر بأبى العلاء المعرى، ومسلم بن الوليد، والشريف الرضى، وأبى تمام الطائى، وأبى نواس، والحريرى.

**ثانيًا: تأثر الشعراء والكتاب بمعانى وألفاظ لامية الطغرائى وألفاظها:**

وليس معنى هذا أن الطغرائى كان عالة فى شعره على غيره من الشعراء أو ليس له من صيغ التعبير والمعانى والأفكار الخاصة ما يمكن أن يكون خاصًا به، ووقفًا عليه؛ فكما تأثر الطغرائى بمن سبقه من الشعراء، تأثر بالطغرائى فى معانى لاميته وألفاظها بعض من أتى بعده من الشعراء والكتاب، وقد كان الصفدى يقف أحيانًا فى بعض تعليقاته النقدية على تأثر بعض الشعراء والكتاب بالطغرائى فى لاميته ففى تعقيبه على البيت:

---

(1) الغيث: جـ ١، ص ١٤.

أعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمالِ أرْقُبُهَا ما أضْيَقَ العُمْرَ لولا فُسْحَةُ الأمَلِ



قال الصفدى: «وقد أخذ العماد الكاتب قول الطغرائى فقال:

وَمَا هَذِه الأيَامُ إلاَّ صَحَائِفٌ نُؤَرِّخُ فِيهَا ثُمَّ تُمْحَى وتُمْحَقُ

وَلَمْ أرَ شَيْئًا مِثْلَ دَائِرَةِ المُنَى تُوَسِّعُهَا الآمالُ وَالْعُمْرُ ضَيِّقُ»(١)

وحين نقارن بين قول العماد الكاتب، وقول الطغرائى، نجد أن العماد الكاتب قد أخذ شطرة بيت الطغرائى الثانية أخذًا سافرًا مما يدل على تأثره الشديد ببيت الطغرائى، ذلك التأثر الذى هيمن عليه فلم يستطع الانفلات منه مما جعله يأخذ المعنى واللفظ معًا.

وممن تأثر بالطغرائى فى لاميته أيضًا الأرجانى الذى يرى الصفدى أنه سطا على معنى بيت الطغرائى:

وَإنْ عَلانِي مَنْ دُونِى فَلاَ عَجَبٌ لِى أُسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

وذلك حيث يقول:

وَدَعِ التَنَاهِى فِى طِلاَبِكَ لِلْعُلَى واقنعْ فَلَمْ أرَ مِثْلَ عِزِّ القَانِعِ

فَبِسَابِعِ الأفْلاكِ لَمْ يَحْلُلْ سِوَى زُحَلٍ وَمَجْرَى الشَّمْسِ وَسْطَ الرابعِ

قال الصفدى: «وهذا المعنى أخذه من الطغرائى»(٢)، ويبين الدليل على ذلك فيقول: «لأن الأرجانى توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، والطغرائى سنة خمس عشرة وخمسمائة»(٣).

والصفدى بذلك يجعل المعنى للأسبق أو للمتقدم من المتعاصرين؛ فالأرجانى والطغرائى متعاصران لأنهما عاشا معًا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس، إلا أن الطغرائى كان أسبق وفاةً حيث توفى على ما يقول الصفدى سنة خمس عشرة وخمسمائة، بينما عاش الأرجانى بعد هذا التاريخ ثلاثين عامًا أو يقلون

---

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ١٦٣.

(٢) السابق نفسه، ص ٢٥٠.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



قليلاً حيث تُوفِّى على ما يقول الصفدى سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية ولهذا السبب - تَأَخُّرِ وفاة الأرجانى عن الطغرائى - حكم الصفدى للطغرائى بالمعنى وحكَمَ على الأرجانى بسرقة المعنى من صاحبه وهو الطغرائى.

ولقد قارن الصفدى بين قول الطغرائى وقول الأرجانى، وفضل قول الطغرائى على قول الأرجانى وذلك حيث يقول «ولكن بيتَ الطغرائى أبدعُ وأعذبُ وأطربُ وأهزُّ للأعطاف، وأخلب للقلوب، وإن كان بيت الأرجانى فيه زيادة أن الشمس فى الرابع وزحل فى السابع، ففيه زيادةُ بيانٍ فى الصورة الواقعة وبُعْدِ التفاوت بينهما فى المحل، وبيتُ الطغرائى إنما يُفْهَم منه علوُّ زحل لا غير، فقد يظن أنه فى الخامس»(١).

وهذا التعليق النقدى يبين أن الصفدى يدرك الفرق الدقيق بين قولى الطغرائى والأرجانى؛ فقول الطغرائى يتفوق فنيًا على قول الأرجانى من ناحية الإبداع والعذوبة والجمال الذى يأسر القلوب، وبيت الأرجانى لا يتفوق على بيت الطغرائى وإنما يزيد عليه فى معناه بعضَ الشىء؛ حيث حدد الفلك الذى فيه زحل وهو السابع، والفلك الذى فيه الشمس وهو الرابع، وهذا التحديد إنما يشكل زيادة فى بيان الصورة الواقعة فقط كما قال الصفدى، على أن بيت الطغرائى لا يخلو من مثل هذا التحديد؛ حيث يفهم منه أن زحل يعلو الشمس، وهذا فى حد ذاته تحديد، إلا أنه ليس تحديدًا كاملاً أو شاملاً؛ لأنه من الممكن أن يفهم منه أن زحل فى الفلك الخامس لا السابع، أى أنه من الممكن أن يفهم منه أن زحل يعلو الشمس بفلك واحد لا بثلاثة أفلاك.

وإذا كنا قد رأينا الصفدى فى هذا الرأى النقدى صريحًا فى اتهام الأرجانى بسرقة معنى بيته من الطغرائى، فإنه فى موضع آخر يتذرع بالحيطة والحذر فى الاتهام ويستخدم من أساليب التعبير فى الحكم النقدى ما يقل حِدَّةً عن (أخذ)، و(سرق) حيث قال فى ثنايا شرحه الأدبى لبيت اللامية:

تَقَدَّمَتْنِى أُنَاسٌ كان شَوْطُهُمُ ... وَرَاءَ خَطْوِى لَوْ أَمْشِى عَلَى مَهَلِ

(١) السابق نفسه: ص ٢٥٠، ٢٥١.

«ومما ينخرط فى سلك قول الطغرائى ما قاله الأرجانى:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ لِي ... صَبْرًا عَلَى هَذِى الْعَجَائِبْ

وَمِنَ النَّوَائِبِ أَنَّنِى ... فِى مِثْلِ هَذَا الشغل نَائِبْ»[1]

ولست أدرى حقيقةً كيف ينخرط ما قاله الأرجانى فى سلك قول الطغرائى؛ فبين القولين بونٌ شاسع لأن الطغرائى يبالغ فى وصف «سوء الحال، وإخناء الزمان عليه بأن تعوقه الأيام والليالى عن السعى حتى يتقدمه الذين كانت نهايات أشواطهم إذا بلغوها وراء خطوة المتهمل»[2]، أما الأرجانى فهو يعجب من صبره الطويل أو يَعُدّ صبره على عجائب الدهر من الأمور العجيبة، على أية حال فلعل هذا البون الشاسع بين القولين «أى قول الأرجانى وقول الطغرائى» هو الذى أدى إلى لجوء الصفدى إلى الحذر والحيطة عند ربطه بينهما، وبمثل هذا الحذر وهذه الحيطة قال الصفدى فى ثنايا شرحه لبيت الطغرائى:

فَقُلْتُ أَدْعُوكَ لِلْجُلَّى لِتَنْصُرَنِى ... وَأَنْتَ تَخْذُلُنِى فِى الْحَادِثِ الْجَلَلِ

«وما يعد قول الطغرائى من قول الأرجانى:

فَإِنْ يَكُ أَعْدَائِى عَلَىَّ تَنَاصَرُوا ... فَمَا هُوَ إِلاَّ مِنْ تَخَاذُلِ إِخْوَانِى

وَلَمْ أَدْعُ لِلْجُلَّى صَدِيقًا أَجَابَنِى ... وَلَمْ أَرْضَ خِلاً لِلْوِدَادِ فَأَرْضَانِى»[1]

وقد كان الصفدى موفقًا فى الربط هنا بين قولى الطغرائى والأرجانى؛ لأن هناك صلةً ما بين القولين؛ وهو بيان موقف الصديق من صديقه حين دعاه لنصرته والوقوف بجانبه، حيث التمس الطغرائى صاحبه لنصرته فإذا به يبادر بخذلانه، وبيَّن الأرجانى أن تكالب أعدائه عليه إنما يرجع إلى انفضاض إخوانه من حوله، حيث دعا صديقه لنصرته فلم يجبه، فكما ابتلى الطغرائى بصاحبه وكان وبالاً عليه ابتلى الأرجانى بأصدقائه وكانوا نكالاً عليه.

هذه هى الصلة بين النصين الشعريين، أو هذه هى الرابطة الجامعة بينهما، والتى جعلت معنى كل منهما يقترب من معنى الآخر مما جعل الصفدى يربط بينهما

(١) الغيث المسجم: جـ ٢، ص ٢١٦.

(٢) السابق نفسه: ص ٢١٠.



بقوله وما يبعد قول هذا من قول ذلك أو وما يبعد قول الطغرائى من قول الأرجانى.

ولما كان الصفدى يجعل أصل المعنى للمتقدم والأسبق، ويجعل التالى متأثرًا بالأول، جاز لنا أن نقول بأن الأرجانى قد سرق قوليه السابقين من قولى الطغرائى المتقدمين أيضًا، أى أنه قد سرق قوله «ومن العجائب...» البيتين من قول الطغرائى «تقدمتنى أناس...» البيت، وسرق قوله «فإن يك» البيتين من قول الطغرائى أيضًا «فقلت أدعوك» البيت. وهذا ما أعتقد أن الصفدى يميل إليه ويرجحه ويقول به كما يفهم من كلامه.

ومن تأثر بلامية الطغرائى أيضًا ابن الساعاتى؛ يقول الصفدى فى تعقيبه أو شرحه الأدبى لبيت اللامية:

يحمون بالبيضِ والسمر اللدان بِهِ ... سوادَ الغَدائِرِ حُمْرَ الحِلى والحللِ

«ومن قول الطغرائى أخذ ابن الساعاتى قوله:

مِنَ الظبَاءِ اللواتى لا ذَمامَ لَهَا ... مِنْ أينَ يَعرِفنَ رَعْىَ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

بيضُ التَّرائبِ سُمْرُ الخَطِّ يَحْجُبُهَا ... سُودُ الذوائِبِ حُمْرُ الحلى والنَّعَمِ»[1]

ويوضح الصفدى أن ممن تأثر باللامية وسرقَ عنها أيضًا ابن قلاقس؛ ففى ثنايا الشرح الأدبى لقول الطغرائى:

غاض الوفاءُ وفاض الغدرُ واتسعتْ ... مسافةُ الخلفِ بين القول والعملِ

قال الصفدى: «وأخذ ابن قلاقس قول الطغرائى فقال:

غَاضَ الوفَاءُ وَفَاضَ مَا ... ءُ الْغَدْرِ أنْهَارًا وغُدْرا

وَتَطَابَقَ الأقْوَامُ فِى ... أقْوَالِهِمْ سِرًا وَجَهْرًا

فانظر بِعَيْنِكَ هَلْ تَرى ... عُرفًا ولَسْتَ تَرَاهُ نُكرًا؟»[2]



---

(١) الغيث المسجم: جـ ١، ص ٣٦٨.

(٢) الغيث المسجم: ٢/٣٤٨.

# المبحث الخامس

## الفنون البديعية فى الشرح

إن الوقوف على ما بنص اللامية من فنون بلاغية، وعرضها، وتحليلها، كان ركيزةً من الركائز التى تشكل فى مجموعها معالم الشرح الأدبى لنص اللامية فى الغيث، فقد كان الصفدى يشرح البيت الشعرى شرحًا أدبيًا يقوم على هذه الركيزة، وعلى ركيزتين أخريين هما: بسط المعنى الشعرى الموجود فى البيت بسطًا يعتمد على تسليط الضوء على ما لصيغ النص وعباراته من دلالات على معناه، والوقوف على معانى النص وألفاظه لبيان ما للطغرائى منها، وما ليس له منها.

وقد لاحظتُ أن الصفدى لم يلتزم بمنهجٍ ثابت عند الحديث عن الفنون البلاغية فى الشرح؛ حيث كان يوجز مرة، ويسهب أخرى، ويتحدث عن الفن البلاغى الموجود فى النص حيث يعنى بتعريفه، وضرب الأمثال له من النصوص القديمة، وبيان أثره فى المعنى مرة، ويغفل هذا جميعه مرة أخرى.

وسوف أقف فى هذا المبحث على ما أورد من الفنون البديعية فى الغيث، حيث أفرد لكل فن من هذه الفنون حديثًا خاصًا به.

### ١- الجناس:-

تحدَّثَ الصفدى عن هذا الفن البديعى فى مواضع شتى من الغيث كان أطولها عند الحديث عن قوله تعالى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] إذ أورد الصفدى ما قاله البلاغيون فى سبب عدول الآية الشريفة عن لفظ (تدَعَوُن) الذى هو بمعنى (تذرون) أى تتركون، وإيثار هذا اللفظ الثانى مع أن استخدام اللفظ الأول يؤدى إلى تحقيق المعنى مع زيادة الجناس عليه، ثم لم يرض الصفدى بهذا السبب الذى ذكره البلاغيون، وأخذ يشرح الأسباب التى يرى أن المولى - تبارك وتعالى- قد استخدم لأجلها كلمة (تذرون)، وقد كان فى الحديث عن هذه الآية الشريفة مجالٌ رحب للحديث عن الجناس كمحسن بديعى من تلك المحسنات البديعية التى قد تأتى بعفوية فتقبل ويحسن وقعها فى السمع، وقد تأتى متكلفة فتُمَجّ وتنبو عنها الأذواق والأسماع.

قال الصفدى: «وذكرت هنا قوله تعالى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قالوا: ما الحكمة فى العدول عن أن يقـول: «أتدْعون بعلا وتَدَعُون» إلى ما أتى به لفظ القرآن مع أن المعنى واحد، فإنّ يدع مثل يذر، ويكون فى اللفظ زيادة الجناس وهو من أنواع البديع الذى هو أحـدُ أثافى البلاغة؟ وأُجِيبَ بأنه لو أتى على هذه الصفـة لاحتملَ التـحريفَ فى اللفظ ويقـال بالعكس أى «أتَدَعون بعـلا وتَدْعون أحـسن الخـالقـين» بتـحريـك الدال من الأول وسكونهـا من الثـانى. هذا الذى ذكروه»[1].

هكذا أورد الصـفدى الآية، والسؤال الذى أثيـر بشأن اسـتخدام القـرآن للفظة (تذرون) بدلاً من (تَدَعون) التى هى بنفس معناها، وجواب العلماء عليه.

وكما قلت لم يقـتنع الصفدى بهذه الإجابة، وذلـك لأنهم قالوا إن السـبب فى العدول عن لفظة (تَدَعـون) هو منع التحريف فى اللفظ، والصـفدى يرى أن هذا السبب «ليس بشىء لأن سـياق الكلام وقرينة اللفظ والحـال يمنعان من هذا الوهم ويبطلان هذا التحريف»[2] وذلك لأن الله - تبارك وتعـالى - ينكر على الكافرين اتخاذهم الأصنام والأوثان آلهـة من دون الله تعالى وهذا يفهم من سـياق الكلام، وليس هذا وحـسب بل إن بالكلام «قـرينة توجـه الانكار على دعـاء الصنم وترك أحسن الخالقين»[3] وهى قوله تعالى ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

هذا هو السـبب الذى جعل الصـفدى يرفض قـول القائلين بالعـدول عن لفظة تدعون لمنع التحريف، والصفـدى حين يرفض هذا الرأى يتبنى رأيًا ثانيًا يقوم على أن القـرآن الكريم عذبٌ فى لفظه، سـهلٌ فى تراكيـبه، لا يحـتاج إلى مـثل هذه اللفظة لتحقق لونًا من الجناس لا تقبله الأذن لثقله وتكلفه؛ قال الصفدى «والجواب أن لفظ القرآن الكريم أعذب فى السمع، وأخف على اللسان، فإن تكرار الحروف على اللسان بالثـقل والخفة أعقد، ويحـتاج إلى إحضار الذهن لئـلا يقع التحريف وينطق بالأول كالثانى وعكسه»[4].

---

(١) الغيث جـ٢ ص ٦٣.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وقد وجد الصفدى نفسه بعد هذا الكلام بحاجة إلى بيان موقفه من هذا المحسِّن البديعى، أو بتعبير آخر بحاجة إلى بيان المواضع التى يحسن فيها الجناس، والمواضع التى يقبح فيها؛ فقال «الجناس وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صوره مستثقل»[(١)].

ويضرب الصفدى المثل على الجناس المستثقل بقول ابن الفارض:

أما لك عن صَدٍّ أما لك عن صَدٍ ... لِظَلْمِكَ ظُلْمًا مِنْكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةِ

وبقوله من نفس القصيدة:-

فَرُحْنَ بِحُزْنٍ جازعاتٍ بُعَيْدَ ما ... فَرِحْنَ بِحَزْنِ الجزع بى لشبيبتى

ويعلق على البيت الأول فيقول «فانظر إلى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف فى (صَدٍّ) و(صَدٍ)؛ الأول من الصدود، والثانى صَدٍ أى عطشان، وفى (ظَلْم) و(ظُلم) الأول: (الظَّلْم) بالفتح وهو الريق، والثانى بالضم وهو الجور مع التقدير فيه أما لك ميلٌ لعطفةٍ عن صَدٍّ أمالك ظلمًا منك عن صد لظلمك؛ (فأما لك) الأولى مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب، و(أمالك) الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة، وكاف الخطاب»[(٢)].

ويعلق على البيت الثانى بقوله: «أما البيت الثانى ففيه (فرحن) مرتين: الأولى: الفاء فاء العطف و(رُحْن) فعل ماض من الرواح لجماعة الإناث، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضًا، والراء فى الأولى مضمومة، وفى الثانية مكسورة، وفيه الحزن مرتين الأولى بضم الحاء ضد الفرح، الثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل»[(٣)].

ولا شك أن الصفدى مُحِقٌ فى استثقاله لهذا الجناس فى بيتى ابن الفارض؛ لأنه بهذه الصورة التى جلاَّها الصفدى فى شرحه وتعليقه قد تبين أنه لم يأت بعفوية وتلقائية وإنما بتكلف، وتصنع مما جعله ممجوجًا غير مقبول لثقله، وقد عبر الصفدى عن ذلك بقوله «ولهذه الألفاظ التى عقدها عقد الميزان لأجل الجناس صار كلامه وحشيًا من العوام، بل من بعض الخواص الذين لم يتمهروا فى الأدب»[(٤)].

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٢) الغيث جـ٢ ص ٦٣، ص ٦٤.
(٣) السابق نفسه، ص ٦٤.
(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وكما تحدث الصفدى عن جناس التحريف فى شعر ابن الفارض فقد تحدث عن جناس التصحيف فى شعره أيضًا، وبيّن أنه كسابقه حيث كان شيوعه فى شعره سببًا فى ضعفه، وقلقه، ونبو الذوق عنه؛ قال الصفدى: «ومن الجناس المستقل جناس التصحيف كقوله أيضًا:-

وما احتَرْتُ حتى اختَرْتُ حبيكَ مذهبًا    فواحيرتى إنْ لَمْ تكُنْ فِيكَ خِيرَتِى

ومنها:

وَجُدْ بسيف العزم سوف فإن تَجُدْ    تَجِدْ نفسا فالنَّفْسُ إنْ جُدْتَ جدَّتِ»[1]

ويعلق على هذين البيتين بقوله «فإنه فى البيت الأول احترت من الحيرة، واخترت الثانية من الاختيار، وفى الثانى تجد الأول من الجود والثانية من الوجدان، وهذه الأشياء لا يخفى على ذى الذوق السليم ما فيها من الاستثقال»[2].

وليس معنى هذا الكلام أن الصفدى يقلل من شأن ابن الفارض، ويحط من قدره شاعرًا، لأنه يدرك تمامًا قيمة الرجل ومكانته، ويدرك قيمة شعره، ويعرف لجيده منزلته؛ قال الصفدى «ولم أقل هذا الكلام جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين ابن الفارض - رحمه الله - وأنه لم يكن من الفصحاء، ألا ترى إلى قصائده التى أخلاها من الجناس مثل الميميتين، والجيمية، واللامية، والمهموزة وغيرها؛ فما أرقها وأحلاها»[3].

ويعود الصفدى ليركز على ضرورة عدم الإكثار من الجناس حتى لا يُمَلّ فيقول: «الجناس إذا كثر فى الكلام مل»[4] إلا أنه يربط ذلك الملل الذى ينشأ عن كثرة اللجوء إلى الجناس كمحسن بديعى بالتكلف والتصنع، أما إذا كان عفويًا وجاء بتلقائية فلا شئ فيه؛ قال الصفدى: «والجناس إذا كثر فى الكلام مل، اللهم إلاَّ أن يكون سهل التركيب، ليس على المتكلم فيه كلفة»[5].

(١) السابق نفسه، والصفحةنفسها.

(٢) السابق نفسه، ونفس الصفحة.

(٣) السابق نفسه ص ٦٤، ص ٦٥.

(٤) السابق نفسه ص ٦٥.

(٥) الغيث المسجم جـ٢ ص ٦٥.

ويضرب الصفدى أمثلة على الجناس غير المستشكل الذى يأتى دون كلفة بقول المعتمد بن عباد وقد قالت له جاريته وهو بسجن أغمات «يا مولاى لقد هُنَّا هُنا»:

قـــالـت لقــــد هُنَّا هنا          مـــولاى أيـنَ جـــاهُـنَـا
قـلـتُ لـهــــــا إلَـهُـنـا          صـــيَّـــرنا إلـى هُنا

وبقول الشيخ زين الدين عمر بن الوردى:

دَهـرُنـا أمــسَى ضنينا          بـالـلُّـقـــا حَـتَّـى ضنينا
يا لـيــالى الـوَصْلِ عُــودِى          واجْـمَـعِـينَا أجْـمَـعِـينَا

وبقول إحدى جوارى القاضى الفاضل له وقد تعبت فى بعض مرضاته: «والله يا سيدى ما لنا قدرةٌ على مرضاتك فى مرضاتك»[١].

ويورد الصفدى أمثلة أخرى على جناس التحريف عندما يورد أبيات أبى الفتح البستى:

مَنْ جَـعَلَ الصَّـبْـرَ فى مقاصِدِه          وفى مــراقيــه سُلَّمًـا سَلِمَـا
والصبـرُ عـونُ الـفتى وناصِرُه          وقل مَـنْ عَنَهُ نَـدَّمًـا نَـدِمَـا
كم صـدمـةٍ للزمـان منكرةٍ          لما رأى الصبـر صـدَّ ما صَدَمـا
فـاصبـرْ فـإن الزمـان عن كثبٍ          يأسو على الرغم كُلَّمـا كَـلَمـا

ويعلق الصفدى على هذه الأبيات بقوله «وفى هذه الأبيات الجناس الذى يسميه أرباب البديع جناس التحريف»[٢] والصفدى لم يحتج أن يبين المواطن التى تشتمل على جناس التحريف فى هذه الأبيات لوضوحها وظهورها، وقد جانس أبو الفتح البستى بين قوله (سُلَّما)، وقوله (سَلِمَا) فى البيت الأول، كما جانس بين (ندَّما)، و(ندما) فى البيت الثانى، وبين (صدَّما)، و(صدما) فى البيت الثالث، وبين (كلَّما)، و(كلما) فى البيت الرابع.

ويتحدث الصفدى عن لون آخر من ألوان الجناس وهو الجناس المرفو، وقد اشترط فى هذا اللون من الجناس شرطًا «وهو أن يكون أحد ركنى الجناس مركبًا من جزئين أولهما حرف من حروف المعانى»[٣].

---

(١) تراجع هذه الشواهد فى الجزء الثانى من الغيث ص ٦٥.
(٢) السابق نفسه ص ٣٠٢.          (٣) الغيث جـ١ ص ٧٧.

وقد مثل له بقول أبى الفتح البستى أيضًا:

عَـولُ عَلَى رَأْيِـه إذَا حَـزَبَتْ نـائبـةٌ مِـنْ نَوَائِـبِ الزَّمَـنِ
فليس فـى الأرضِ مَعْـقِلٌ أشِبٌ كَـرأْيِهِ مِنْ كَـرَائِهِ الْمِـحَنِ

ويعلق على هذين البيتين وما بهما من الجناس المرفو بقوله «هذان الجناسان فى هذين المقطوعين من أنواع الجناس المرفو»[1].

وقد عَقَّب فى نهاية تعليقه على هذين البيتين بقوله: «وقد ذكرتُ ذلك مستوفى فى كتابى المسمى جنان الجناس»[2].

ويتحـدث الصفـدى عن لون رابع من ألوان الجناس وهو **الجناس بالقلب**، وهو أن يكون أحد ركنى الجناس مقلوب الآخرِ، وقـد ذكر الصـفدى فى كتـابه جنان الجناس الصور المختلفة التى يأتى عليهـا هذا اللون من ألوان الجناس، وتحدث فى الغيث لا عن هذه الصور جميعها، وإنما تحدث عن ثلاث صور وحسب وهى التى تهمنا هنا بطبيعة الحال، وأوَّلُ صور الجناس بالقلب التى تحدَّث عنها الصفدى تلك الصورة التى سمّاها **قلبَ البعض** وقد جاء الحديث عنهـا من خلال حكمة للكاتب العباسى ابن المقفع حيث قال: «وكان ابن المقفع يقول: إذا نزل بك أمرٌ مهم فانظر فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإنْ كان مما لا حيلة فيه فلا تجزع»[3].

هكذا أورد الصفدى كلامَ ابن المقفع ثم عقب على ما فيه من حسن فقال: «وما أحسنَ قوله تعجز وتجـزع وهذا الذى يسمى قلب البعض، وهو معدود عند أرباب البديع من الجناس كقولك: رقيب وقريب»[4].

وتحدث الصـفدى عن صورة أخرى من صـور الجناس بالقلب تلك التى يكون الكلام فيـها «**بمجموعه يقرأ من آخره إلى أوله كـما يقرأ مـن أوله إلى آخره**»[5] قال الصـفدى «ولا بد من إيراد نوع آخـر من القلب وهو أشـرف من الأول، وهو أن

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٩٢.

(٤) السابق نفسه، ونفس الصفحة.

(٥) جنان الجناس ص ٧٣.

الكلمة وما فوقها لا يتغير معناها بالقلب، وقد عبر عنه الحريرى فى مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس ومثله بقوله ساكب كاس ومثله قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [يس: ٤٠] وقوله تعالى ﴿رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]. ومنه قوله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارقا[1] ...»[2].

ومضى الصفدى يذكر أمثلة كثيرة لهذا النوع من القلب من كلام القاضى الفاضل، والعماد الكاتب، والأرجانى الشاعر، وكمال الدين بن النبيه، وغيرهم إلى أن وصل إلى الحديث عن الصورة الثالثة من صور الجناس بالقلب، وهى تلك الصورة التى أطلق عليها اسم مجنح القلب، وهى تلك التى يكون فيها «كل كلمة بمفردها تقرأ مقلوبة بنفسها»[3] على أن يكتنف هذا النوع طرفى البيت أو السجعة على حد قوله، ومثَّل له بقول الشاعر:

رَقَّتْ شمائلُ قاتلى ... فلذاكَ روحى لا تَقَرّ
رَدَّ الحبيبُ جوابَهُ ... فَكَأنَّهُ فى اللَّفظِ دُرّ[4]

ويتحدث الصفدى عن هذا النوع من أنواع الجناس بقوله «وقد سميت أنا هذا النوع مجنح القلب، وفى هذه التسمية تورية مطبوعة»[5].

ولقد راق هذا اللون من ألوان الجناس للصفدى إلا أنه أراد أن يكمله لأنه رأى أن كلمة (تقر) ثلاثية الحروف، وأن كلمة (در) ثنائية الحروف فقال لنفسه «لو اتفق الكلمتان فى العدد لكان أكمل فى الصناعة»[6] وامتحن خاطره فى نظم شئ من هذا النوع كاملاً فوفق إلى شئ من ذلك فقال:

رَضَّتْ فؤادى غادة ... ما كنت أحسبها تضر
رَدَّتْ رسولى خائبا ... فمدامعى أبدًا تَدِرُّ[7]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣ ص ١٩٢.

(٢) الغيث المسجم جـ٢ ص ٤٥٦.

(٣) جنان الجناس ص ١٧٤.

(٤) الغيث المسجم جـ٢ ص ٤٥٧.

(٥) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٧) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



## ٢- الالتفات:-

وقد أتى حديثه عن هذا الفن البديعى فى ثنايا شرحه للبيت العاشر من أبيات اللامية:

وذى شطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ ... بمِثلِهِ غيرِ هيابٍ ولا وَكِلِ

حيث بين ما بالبيت من الالتفات، ثم عرف هذا الفن البديعى، وبين رأيه فى الاقتضاب حيث يعتقد أنه نوع من الالتفات، ثم عاب تعريف ابن الأثير للالتفات ورد عليه، وأخذ بعد ذلك يتحدث عن أقسام الالتفات الثلاثة حديثًا مدعمًا بالشواهد القرآنية والشعرية، وقد اهتم الصفدى بشرحها وبيان ما فيها من الالتفات ثم تحدث فى نهاية المطاف عن فوائد الالتفات وقيمته البديعية.

ففى الحديث عما ببيت الطغرائى من الالتفات يقول الصفدى «أخذ يصف صاحبه، ويعدد ما هو عليه من كمال الخُلُقِ والخَلقِ، والصفات التى تطلب من رفاق السفر فى الليل من الشجاعة والإقدام وغير ذلك، فقد التفت إلى هذا فاقتضب مما كان يشرحه ويوضحه من حاله ومقامه فى بغداد وغربته وفقره وعدم أصحابه، وعكس مقاصده، ووصف هذا الرفيق»[(١)].

هكذا تحدث الصفدى عمّا بالبيت من الالتفات أو الاقتضاب الذى هو نوع من أنواع الالتفات على ما سيأتى بعد، ثم عرف هذا الفن البديعى بقوله: «والالتفات عادةُ البلغاء فيلتفتون من فن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب على عادة العرب فى كلامهم»[(٢)].

وبعد ذلك انتقل للحديث عن الاقتضاب فقال: «وأرى الاقتضاب نوعًا من الالتفات كقول أبى نواس فى قصيدته النونية بيتًا يصف الخمر ويقول من ذلك:

ما استقرَّتْ فى فؤادِ فتًى ... فَدَرَى ما لَوْعَةُ الحُزْنِ

إذ اقتضب ذلك وقال بعده:

تضحكُ الدُّنيا إلى مَلِكٍ ... قام بالآثارِ والسُّنَنِ»[(٣)]



(١) الغيث جـ١ ص ٢٥٦.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الغيث ١/٢٥٦.

وعاد ليطبق هذا الكلام على بيت الطغرائى فقال «وكذلك الطغرائى بينا هو فى ذكر حـاله، وما هو عليه من شكـوى الزمان إذ اقتـضب ذلك، وأخذ فى وصف الصاحب الذى ذكره، فهذا التفات من نوع إلى نوع»[1].

ويوسع الصفدى دائرة الالتـفات ولا يضيقهـا مثلما فعل ضـياء الدين بن الأثير حيث رأى أن الالتفات هو الرجوع من الخطاب إلى الغيبة، والرجوع من الغيبة إلى الخطاب وحسب، بينمـا يرى الصفدى أن الالتفـات أوسع دائرة من ذلك حتى إنه ليعتـبر التخلص لونًا من ألوان الالتـفات؛ قال الصـفدى: «وقـول ابن الأثير فى المعانى المبتدعة، وتغليطه الناس فى الالتفـات، ومشاحة من أدخل فى الالتفات ما ليس من شرطه، وهـو أن الالتفات الرجـوع من الخطاب إلى الغيـبة أو بالعكس، تحكُّمٌ منه، وإنما الالتفات هو الخروج من نوع إلى نوع، وسلوك سبيلٍ بعد سبيل، حتى إن التـخلصات هى نوع من الالتفـات، ولكن خروجَهـا متصلٌ بمناسبةٍ بين الغزل والوصف أو غير ذلك، وبين المدح»[2].

ويتحـدث الصفـدى عن أقسـام الالتفـات فيـقول: «وأرباب البـلاغة يسـمون الالتفات شجاعة العربية، وهو ينقسـم ثلاثة أقسام: الأول: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب وبالعكس، فالأول: كقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ثم قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحـة: ٥] انتقل من الغيـبة إلى الخطاب، والثانى: كقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] انتقل من الخطاب إلى الغيبة»[3].

ولا يمضى الصفدى فى الحديث عن القسمين الآخرين من أقسام الالتفات دون أن يوفى هذا القسـم الأول حقـه فى الشرح والإيضـاح، حيث تحدث عـن سبب العدول من الغيبة إلى الخطاب فى قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقال «وأقول إنما عدل فى الأول من الغيـبة إلى الخطاب لأن الحمـد دون العبادة، ألا تراك تحمـد نظيرك ولا

---

(١) السابق نفسه ص ٢٥٦، ص ٢٥٧.

(٢) السابق نفسه ص ٢٥٧.

(٣) الغيث جـ١ ص ٢٥٧.



تعبده؛ فكأن القارئ توسل إلى الأعلى بالأدنى، وإلى الخطاب بالغيبة على سبيل التدريج إلى الغاية، ولم يخاطب الله من أول وهلة.

قدِّم يداً مِن قبل أن تُدْنِي يداً          ومبرةً مِن قَبْلِ أنْ تُدْنِي فما

فكأنه أثنى عليه أولاً ثم خاطبه ثانياً»[1].

ويتحدث عن سبب العدول من الخطاب إلى الغيبة فى قوله عز شأنه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول «وفى الثانى إنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة لأن المقام مقام سؤال وتعطف وطلب هداية ورحمة من الله تعالى، فلو قال غير الذين غضبت عليهم» لكان قد نسب الغضبَ إليه تعالى، وكان بمنزلة من يقول: أنت تنعم وتنتقم، وتعفو وتؤاخذ، وفى هذا من المواجهة لمن يطلب إحسانه ورحمته وهدايته ما فيه؛ لأنك تذكره بما له عليك، أما إذا قلتَ: أنت المنعم الذى لا يغضب، والعفوُّ الذى لا يؤاخذ، كنت قد أتيت بما زاده عطفًا عليك، وأغراه بالعفو عنك»[2].

وبعد أن وفَّى الصفدى هذا القسم الأول من أقسام الالتفات حقه مضى ليتحدث عن القسم الثانى فقال «والثانى من أقسام الالتفات الرجوع عن الفعل المستقبل إلى الأمر، وعن الماضى إلى الأمر؛ فالأول كقوله تعالى ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي...﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]انتقل من الاستقبال إلى الأمر، والثانى: كقوله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩][3].

ويقف الصفدى برهة ليتحدث عن الأسباب التى أدت إلى العدول عن الاستقبال إلى الأمر فى الآية الأولى، وعن الماضى إلى الأمر فى الآية الثانية فيقول: «أقول: إنما عدل فى الآية الأولى عن المستقبل إلى الأمر لئلا يساوى بين شهادة الله تعالى وشهادتهم؛ فلم يقل أُشهِد الله وأُشْهِدُكُمْ، وإنما عدل فى الآية الثانية عن

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٥٧.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الغيث جـ١ ص ٢٥٨.



الماضى إلى الأمر؛ لأن لفظَ الأمر فيه العناية بما أمـر به، فإذا قلت: أمرتك بالقيام وصلّ لله تعالى كان أبلغ من قولك أمرتك بالقيام والصلاة»[(١)].

أما القسم الثالث من أقسام الالتفات فهو «الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وبالعكس؛ فالأول كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩] انتقل من المضى إلى الاستقبال، والثانى كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَوَاتِ...﴾ [النمل: ٨٧] انتقل من الاستقبال إلى المضى»[(٢)].

ويشرح الصفدى أسباب هذا الانتقال فيقول «إنما عدل فى الأول عن الماضى إلى الاستقـبال طلبًا لاستـحضار حال تلك الصـورة البديعة كأن المستـقبل فى الانتظار والتوقع، فيطلب بذلك التهيؤ والتطلع لوقـوع الحال، بخلاف الماضى فإنه أمرٌ فرغَ منه، وليس للنفوس إليـه تطلع، وفى الثانى إنما عدل عن الاستـقبال إلى الماضى، لأن الماضى أمـرٌ وقع وصحّ وثبت وتحـقق كـونه، ولما كـان الحشـرُ وفـزعُ أهل السماوات والأرض أمرًا مطلوبًا ثبوته وتحقـقه، أخبر عنه بالماضى الذى وقع وجزم العقل به بخلاف الاستقبال فإنه أمر مظنون يحتمل وقوعه وعدمه»[(٣)].

وبدا الصفـدى فى كل التعقيبات التى عقب بهـا على أنواع الالتفات المختلفة والشواهد القرآنـية ذا ذوق سليم، وذا دراية بالقرآن الكريم وإعجـازه، وهو يتخذ من هذه المعانى التى خلعـها الالتفاتُ على النصوص القرآنية السابقـة شاهدا على قيمة هذا الفن البديعى فى تحقيق إعجاز القرآن الكريم، وقد قال فى ذلك: «فانظر إلى ما أعطى الالتـفات فى هذه المواضع من المعـانى، وأفادها من الحكم، فتبارك الله الذى أنزل القرآن وجعله معـجزًا نأتْ غايته عن البشر، وبعدت مـرامى معانيه وحِكمه عن المعارضة والإتيان بمثله أو بسورة منه، تنزيل من حكيم حميد»[(٤)].

وينقل الصفـدى عن الزمخشرى ما قاله فى فائـدة الالتفات حيث قـال: قال

---

(١) السابق نفسه، ونفس الصفحة.

(٢) الغيث جـ١ ص ٢٥٨.

(٣) السابق نفسه ص ٢٥٨، ص ٢٥٩.

(٤) الغيث جـ١ ص ٢٥٩.



الزمخشرى: والالتفات من أسلوب إلى أسلوب تطريةٌ لنشاط السامع وطلبًا للإصغاء إليه»[1].

ومعنى هذا أن الالتفات فيه تنبيهٌ للذهن، ويؤدِّى إلى تجديد نشاط السامع، ويدفع عنه ما قد يشعر به من السأم والملل إذا طال حبل الكلام، لأن المستمع بحاجة دائمًا إلى الترويح عنه، والتنقل به من موضوع إلى موضوع، ومن فن إلى فن.

ويطبِّق الصفدى هذا الكلام على ما فعله الطغرائى فى اللامية يقول: «قلت: ألا ترى أن الطغرائى لما أخذ فى وصف حاله وما هو فيه من النكد وضيق الحال كأنه أطال على المخاطب فى ذلك، وأحس منه بالملل، فالتفت إلى وصف هذا الصاحب الذى رافقه فأنشأ للسامع معنى غير الأول بعث له نشاطًا جديدًا، واستأنف له إصغاءً آخر، وجدَّد له تطلعًا يتشوف معه إلى الوقوف على هذا الخبر الثانى، وهذا غير خاف»[2].

### ٣- الموازنة، ولزوم ما لا يلزم:-

وقد تحدث الصفدى عن هذين الفنين البديعيين فى ختام شرحه الأدبى للبيت الأول من أبيات اللامية وهو قول الطغرائى:

أصالةُ الرأى صانتنى عَنِ الخَطَلِ ... وحليةُ الفَضْلِ زانتنى لَدَى العَطَلِ

حيث قال: «وفى بيت الطغرائى من البديع لونان؛ وهما الموازنة فى (صانتنى) و(زانتنى)، وفيهما الترصيع، والنوع الثانى: لزوم ما لا يلزم؛ فإنه التزم الطاء فى (الخطل)، و(العطل)»[3].

وقد أشرت فى غير هذا الموضع إلى ما فى هذا الحديث عن هذين الفنين البديعيَّين من الاقتضاب والاختصار، وبينتُ أنه كان ينبغى على الصفدى أن يشرح هذين الفنين، ويلقى مزيدًا من الضوء على ما حققاه فى البيت من جمال، وعلى ما أدياه ويؤديانه فى البيت الشعرى عمومًا من الموسيقى.



(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الغيث ١/٨٦، ٨٧.

**٤- عتاب المرء نفسه:**

وقد تحدث الصفدى عن هذا الفن البديعى فى أثناء شرحه الأدبى للبيت الثالث من أبيات اللامية وهو قول الطغرائى:

فيمَ الإقامةُ بالزوراءِ لا سكَنِى ... بها، ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِى؟

حيث قال: «قول الطغرائى فيم الإقامة؟ هذا النوع تسميه أرباب البديع: عتاب المرء نفسه، وهو من إيراد ابن المعتز، ولم ينشد فيه سوى بيتين وهما:

عصانِىَ قَومِى والرَّشادُ الذى بِهِ ... أمَرتُ وَمَن يَعصِ المُجَرِّبَ يَندَمِ

فصبرًا بَنِى بَكرٍ على الموتِ إننى ... أرى عارضًا ينهَلُ بالموتِ والدَّمِ»[(١)]

**٥- صحة التقسيم:**

وقد جاء الحديث عن هذا الفن البلاغى من فنون البديع فى ثنايا الشرح الأدبى للبيت الخامس من أبيات اللامية؛ حيث أورد البيت:

ولا بدَّ من شكوَى إلى ذى مروءةٍ ... يُوَاسِيكَ أوْ يُسْلِيكَ أوْ يَتَوَجَّعُ

ثم قال «وقول الشاعر ولا بد من شكوى .. هذا البيت وأمثاله يسميه أرباب البديع صحة التقسيم، أوردوا فيه قول البحترى:

قِفْ مَشوقًا أوْ مُسعِدًا أو حَزِينا ... أوْ مُعِينًا أو عاذِرًا أو عذولا»[(٢)]

ولما أورد الصفدى بيت البحترى أورد كلامَ ابن الأثير عليه فقال: «قال ابن الأثير الجزرى فى المثل السائر: هذا من فساد التقسيم؛ فإن المشوق قد يكون حزينًا، والمسعد قد يكون معينًا، وكذلك قد يكون المسعد عاذرًا»[(٣)].

وهكذا عدَّ البلاغيون قول البحترى من باب هذا الفن البديعى المسمى بصحة التقسيم، بينما يرى ضياء الدين بن الأثير أن بالبيت شيئًا من فساد التقسيم، ولم يكن الصفدى ليترك هذا الرأى من آراء ابن الأثير دون أن يرد عليه ويفنده؛ قال الصفدى: «قلت: فيما ادعاه ابن الأثير نظر؛ إذ ليس كل مشوق حزينًا؛ لأن

---

(١) السابق نفسه ص ١٢٠.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٥٧.

(٣) السابق نفسها، والصفحة نفسها.



المحزون قد يكون غير مشتاق لأنه قد يكون الحبيب عنده غير غائب عن عيانه ولكنه مُعرِض عنه، غير ملتفت إليه، فهنا الحزن موجود من غير شوق، ولا يرد هنا قول القائل:

وَكِدْتُ وَهْوَ ضَجِيعِى أَنْ أَقُولَ له — من شِدَّةِ الشَّوْقِ قَدْ أبعدتَ فاقْتَرِبِ

فإن هذا من المبالغة فى الحب الذى لا يشفيه قرب، ولا يبلُّ غليلَه دنُوّ»[1].

وبعد أن استطرد الصفدى فأورد أبياتًا أخرى فى المبالغة فى الحب قال «رجع: ولا كل مسعد عاذرًا، فإن الإنسان قد يساعد صاحب البلية وهو غير عاذر له، وإنما يفعل ذلك رحمةً وشفقة ورقة، فبطل ما اعترض به ابن الأثير على البحترى الفحل»[2].

ويتحدث الصفدى عن الجمع مع التقسيم فى ثنايا شرحه للبيت الثالث عشر من أبيات اللامية وهو قول الطغرائى:

والركْبُ مِيلٌ على الأكوارِ مِنْ طَرَبٍ — صاحٍ وآخرُ من خَمْرِ الكرى ثَمِلِ

قال الصفدى «وفى بيت الطغرائى مِن البديع الجمعُ مع التقسيم؛ لأنه جمعهم فى (مِيلٌ على الأكوارِ) ثم قسمهم فقال: منهم من مال من التعب، ومنهم من نام من النعاس»[3].

ويضرب الصفدى أمثلة على هذا الفن البديعى فيقول: «ومن أمثلة هذا النوع قول أبى الطيب:

حتَّى أقامَ على أرباضِ خرشنةٍ — تَشْقَى به الرومُ والصلبانُ والبِيَعُ

لِلسَّبْيِ ما نكَحُوا والقَتْلِ ما ولدوا — والنَّهْبِ ما جَمَعُوا، والنَّارِ ما زَرَعُوا

وأحسن من هذا قوله ﷺ: «ليس لك من مالكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيتَ»[4].

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه ص ١٥٨.

(٣) الغيث ١ ص ٣١١.

(٤) السابق نفسه، ونفس الصفحة.

### ٦- حُسْنُ التخلص:

سبقت الإشارة إلى أن الصفدى يعتبر التخلص نوعًا من أنواع الالتفات، والجدير بالذكر فى هذا المقام أنه تحدث عنه حديثًا منفردًا فى ثنايا شرحه للبيت السابع من أبيات لامية الطغرائى حيث قال «وقد جاء التخلص فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٠] إلى قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

فهذا تخلصٌ من قصة إبراهيم وقومه إلى قولهم، وتمنى الكفار فى الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، وهذا تخلص خلافًا لأبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى، فإنه أنكر وقوع التخلص فى الكلام، وفى القرآن كثير منه»[١].

وهذا الفن البديعى معروف فى الشعر العربى منذ عصر الجاهلية، وقد وضع النقاد لحسنه شروطًا، وقد مثل الصفدى بقول أبى الحسين الجزار فى مدح فخر القضاة نصر الله بن بصاقة على حسن التخلص قال الصفدى: «وما أحسن قول أبى الحسين الجزار يمدح فخر القضاة نصر الله بن بصاقة:

وكم ليلة قَدْ بِتُّها مُعْسِراً ولى ... بزخرف آمالى كنوزٌ مِنَ الْيُسْرِ
أقولُ لقلبى كلَّما اشْتَقْتَ لِلْغِنَى ... إذا جاءَ نَصْرُ الله تَبَّتْ يدا الفَقْرِ»[٢]

ثم يبين عِلَّة هذا الحسن بقوله «قلت: انظر إلى هذا الشاعر كيف تخلص، ووثب إلى المديح وما تربص، وصدق نظمه فى الحسن وما تخرّص، فَاحْذُ على مثاله إن كنت تحذو، واغذ بلبان بيانه إنْ كنتَ تغذو»[٣].

وكما أعجب الصفدى ببيتى الجزار السابقين لما فيها من حسن التخلص، أعجب ببيتين له - أيضًا - فى مدح جمال الدين موسى بن يعمور لما فيهما من حسن التخلص أيضًا، وهذان البيتان هما:

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢١٢.

(٢) السابق نفسه ص ٢٠٠.

(٣) الغيث ١/ ص ٢٠٠.



جسـرتْ على لَثْمِ الشقيقِ بخَدِّها ... ورشْفِ رضابٍ لم أزلْ منهُ في سُكْرِ
ولستُ أخافُ السِّحْـرَ مِنْ لَحَظاتِها ... لأني بِموسَى قَدْ أَمِنْتُ مِنَ السِّحْرِ

والجزار الشاعر قد تخلص في البيتين السابقين من شكوى الحال، والتوقان للغنى، إلى المديح، وهو في هذين البيتين قد تخلص من الغزل إلى المديح، وقد كان تخلصه في المرتين دون تكلف، وتَصنُّع؛ حيث أتى عفويًا مما أكسبه جمالاً ورقة.

## ٧- المقابلة:-

تحدث الصفدي عن هذا الفن البديعي في ثنايا شرحه الأدبي للبيت الحادي عشر من أبيات اللامية وهو قول الطغرائي:

حُلْوُ الفُكَاهَةِ مُرُّ الجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ ... بِشِدَّةِ البَأْسِ مِنْهُ رِقَّةُ الغَزَلِ

قال الصفدي: «وفي بيت الطغرائي مِن حُسْن الصناعة ما يشهدُ لقائله بفوز قدحه في البلاغة؛ فإنه جمع فيه بين ثمانية أشياء: الحلاوة، والمرارة، والفكاهة، والجدّ، والقسوة، والرقة، والبأس، والغزل، وهي ثمانية لم تجتمع لغيره بهذا الانسجام والعذوبة، وأرباب البديع يسمون هذا النوع المقابلة، واستشهدوا عليه بقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥، ٦]. ففي كل آية ما يقابل الأخرى، هكذا قرره الجميع»[١].

وهكذا تحدث الصفدي عن الفن البديعي الموجود ببيت اللامية، وأورد عليه شاهدًا من القرآن الكريم، وذكر تعقيب البلاغيين عليه، إلا أنه ختمه بكلمة نشعر معها أنه لا يرتاح لوجود هذا الفن البديعي في الشاهد القرآني الذي ذكروه، ومن ثَمَّ فقد علَّق عليه بعد ذلك رافضًا وجود المقابلة في النص الكريم قال «وأقول إنه فات فيه ذلك؛ فإن لفظة (فسنيسره) تكررت في الآيتين ولم يختلف معناها، فما تمت المقابلة، ويحتمل أن يكون (فسنعسره) لأنه إذا تيسر تعسيره كان معسراً، لكن ذلك غير صريح»[٢].

---

(١) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٨٢.

(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣.



والصفدى يذكر أن قول أبى الطيب:

أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لى ... وأنثنى وبياضُ الصبح يُغْرِى بِى

«مِن أحسن ما استشهدوا به فى هذا النوع من الشعر»(١)، ويُدِلُّ بفهمه لما أحدث أبو الطيب فيه من المقابلات؛ حيث لم ينتبه أترابه لكل المقابلات الموجودة فى البيت، بينما استطاع هو أن ينتبه إليها جميعًا فقال «كنت عند الشيخ الإمام الأديب الكاتب القاضى شهاب الدين أبى الثناء محمود أقرأ عليه كتابة حسن التوسل فجاء هذا البيت فى أثناء القراءة فى مكانه وعنده جماعة من الطلبة وغيرهم فقال: عدُّوا هذه الخمسة التى ذكرها أرباب البديع. فكلّهم قالوا: أزورهم يقابل أنثنى، وسواد يقابل بياض، .والليل يقابل الصبح، ويشفع يقابل يغرى. ووقفوا فقال هذه أربعة لأربعة، وبقى القسم الخامس. فلم ينتبهوا له، فقلت: لفظة (لى) تقابل لفظة (بى) لأن الشفاعة له تقابل الإغراء به كأنه يقال ذلك لى، وهذا علىّ»(٢).

ولم يكتف الصفدى باستخراج المقابلة الخامسة الموجودة فى البيت، بل زاد فدلل على شيوعها فى كلام الأدباء بشاهد شعرى؛ إذ قال فى تكملة الحديث: «قال الشاعر:

فيـــومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُســاءُ ويومٌ نُسَــر

ألا تراه قابل ما عليهم بما لهم فى ذلك من الإساءة والسرور»(٣).

٨- التدبيج:

وقد تحدث الصفدى عن هذا الفن فى ثنايا شرحه للبيت الثامن عشر من أبيات لامية الطغرائى وهو قوله:

يَحْمُونَ بالبِيضِ والسُّمْرِ اللدانِ بِهِ ... سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحلىِ والحللِ

قال الصفدى: متحدثًا عمّا بالبيت من التدبيج، ومعرفًا بالأصل اللغوى له،

(١) الغيث جـ١ ص ٢٨٣.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



وكيع فإنه قال: لولا انتهاء القافية لمضى فى العارض الهتن إلى آدم عليه السلام، وبانتهاء القافية أعلمنا أن نهاية عدد آبائه المستحقين للمدح ثلاثة ثم يقف الأمر!
قال: وأحسنُ من هذا قول البحترى:

الفـاعِلُونَ إِذَا لُـذْنَا بِجُـودِهِمُ ... مَا يَفْعَلُ الغَيْثُ فى شُؤْبُوبِهِ الهَتِنِ

فجاء بالمعنى عاما بغير عدد متردد، ولا لفظ مستبرد، فهو أرجح كلامًا، وأحسن نظامًا قال: وما أشبه برد[1] بيت أبى الطيب ببيتٍ قاله امرؤ القيس:

أَلاَ إِنَّنِـي بَالٍ عَلَى جَـمَلٍ بَـالِي ... يَقُـودُ بِنَا بالٍ وَيَتْـبَعُنَا بَالِي[2]»

هذا رأى ابن وكيع فى بيت أبى الطيب المتنبى، فبم أجاب الصفدى عمّا يحمله من انتقادات؟ قال الصفدى «قلت: كذا ذكره فى المنصف، وقد أخطأ فى هذا الكلام من عدة وجوه: أولها أنه قال: لولا انتهاء القافية لمضى إلى آدم، ولو قال لولا انتهاء الوزن لكان أكثر تحقيقًا؛ لأن القافية حصلت فى ربع البيت من أول ذكر الهتن، وهذا كلام سبقه إليه عبد الملك بن مروان، وقد أنشد قول دريد بن الصمة:

قَـتَلْنَا بِعَـبْدِ اللهِ خَـيْـرَ لِدَاتِهِ ... ذِئَابَ بنَ أَسْمَـاءَ بنِ زيدِ بنِ قاربِ

فقال: لولا القافية لوصل به إلى آدم[3]».

وظاهرُ هذا الكلام الذى عقب به الصفدى على أول الانتقادات التى وردت فى كلام ابن وكيع يدل دلالةً واضحةً على أن الصفدى لم يتعرض للانتقاد بالمناقشة والتفنيد، حيث لا يزال كلام ابن وكيع الذى فحواه أن انتهاء تفعيلات البحر هى التى قطعت الكلام، ولو لم تنته التفعيلات لظل المتنبى يقول ابن العارض الهتن بن العارض الهتن حتى ينتهى إلى أبينا آدم فى محله، وكل ما فعله أنه خطأه فى قوله «لولا انتهاء القافية»، وكأن ابن وكيع لا يدرك الفرق بين الوزن والقافية، وحقًا لقد أخطأ ابن وكيع حين قال: «لولا انتهاء القافية» إلا أن هذا الخطأ من الممكن أن يرد إلى أنه يقصد انتهاء البيت، كما أنى أرى أن الصفدى مبطل فى اتهام ابن وكيع

---

(١) فى المنصف «تردد» راجع المنصف ص ٥٨٤.
(٢) الغيث المسجم جـ١ ص ١٨٥، ص ١٨٦.
(٣) السابق نفسه ص ١٨٦.

ولم يكتف الصفدى بتعريف الاستخدام، والتمثيل له ببيتى أبى الطيب وحسب، وإنما مثل له - أيضًا - بقول الشاعر:

وَخَلَطْتُم بَعْضَ القُرَانِ بِبَعْضِهِ ... فَجَعَلْتُمُ الشُّعَرَاءَ فى الأنْعَامِ

ثم أورد بعد ذلك رأى الشيخ بدر الدين بن النحوى فى هذه الشواهد فقال: «قال الشيخ بدر الدين بن النحوى فى إسفار الصباح له: والتمثيل بجميع ذلك غلط لأنه من باب التورية لا من باب الاستخدام»(١).

ثم استطرد الصفدى يقول «أمّا ما وقع به الكلمتان فكقول البحترى:

فَسَقَى الغضا والسَّاكِنِيه وإنْ هُمُو ... شَبُّوهُ بَيْنَ جَوانحى وضُلُوعى

فاستخدم فى قوله (والساكنيه) أحد مفهوميه، وفى قوله (شبوه) مفهومه الآخر؛ لأن الأول أراد به المكان، والثانى أراد به الخطب»(٢).

وقال: «وأما ما اكتنفه كلمتان فهو قول الآخر:

إذا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانوا غِضَابَا

إذ السماءُ تستعمل للمطر، والنبات، فاستخدم فى قوله (نزل) المطر، واستخدم فى قوله (رعيناه) النبات، وهذا وإن كان حقيقةً ومجازًا، إلا أنه كثر استعمال مجازه حتى صار حقيقةً عرفية، فأمكن اعتبارُ الاشتراك»(٣).

ويتحدث الصفدى عن نوع الاستخدام الموجود فى بيت اللامية ويجعله من هذا الذى يمكن اعتبار الاشتراك فيه؛ فيقول: «ومن هذا قول الطغرائى، لأنه ذكر الصفاح، وهى هنا مشتركة بين السيوف حقيقةً وبين العيون مجازًا، وقد غلب العرفُ عليها بين الشعراء فصارتْ حقيقةً عرفية، فأمكن اعتبار الاشتراك، فقال ولا (أهابُ الصفاحَ البيض) فهو إلى هنا فى الحقيقة اللغوية، والسامع يظنه فى ذكرها، ثم ترك المفهوم الأول وأخذ فى المفهوم الآخر فقال: (تسعدنى باللمح من خلل الأستار والكلل) فاستعمل الصفاح فى العيون، وهى الحقيقة العرفية، وهذا فى غاية الغزل»(٤).

---

(١) الغيث جـ٢ ص ٢٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



ويتحدث الصفدى عن التورية والاستخدام فى مقطوعة من شعر ابن الوردى فيقول: «وأبلغُ ما سمعت فى التورية والاستخدام ما أنشدنى من لفظه المولى جمال الدين محمد بن نباتة قال: أنشدنى مِن لفظه لنفسه القاضى زين الدين عمر بن مظفر المعروف بابن الوردى، وقد أنشده بعض شعراء العصر بيتًا له يجمع استخدامين، فاستخدم هو أربعةً فقال:

وَرُبَّ غـزالة طَلَعَتْ ... بِقلبى وهْوَ مَـرْعَـاهَا
نَصَبْتُ لـهـا شِبَاكًـا من ... نُـضـارٍ ثم صِـدْنَاهَا
وقـالـتْ لى وَقَـدْ صِـرْنَا ... إلى عَـيْـنٍ قَـصَـدْنَـاهَا
بذلت الـعـين فـاكحلهَا ... بِطَلْعَـتِـهـا ومَـجْـراهَا»[1]

وشرح فى عجالةٍ سريعة هذه الاستخدامات الأربعة فقال «قلت: معنى الاستخدامات الأربعة: بذلت الذهب فاكحل عينك بطلعة عين الشمس ومجرى العين الجارية من الماء لأنه وطَّأ لهذه المعانى فى الأبيات المتقدمة، وأتى بالبيت الرابع فتنزل جملة على ما تفصل، وهذا يدل على الفكر الصحيح والتخيل التام»[2].

ويورد الصفدى بيتى رشيد الدين الفارقى:

إنَّ فى عـينيك مَـعْنَى ... حَـدَّثَ النَّرجِسُ عَنْهُ
ليتَ لِـى مِنْ غَضِّـهِ سَهْـ ... ـمًـا فَـفِـى قَلْبِـيَ مِنْهُ

ويشرح الصفدى ما بالبيتين من الاستخدام فيقول «وهذا أيضًا فيه أربعة ولكن تعود إلى شيئين؛ لأن قوله (من غضه) فيه معنيان أحدهما غض الطرف وهو كسره إلى أسفل، والثانى من الغضاضة وهى الطراوة؛ فالأول للعين، والثانى للنرجس، وقوله (سهما) فيه معنيان أحدهما النصيب وهو الذى تمناه والثانى الذى يُرشَق به من النبل، وهو واحد السهام الذى فى قلبه منه، وهذا وإن كان بديعًا إلا أنه أربعة لاثنين، والأول أربعة لواحد وهو لفظة العين؛ فكان أكمل»[3].

---

(١) السابق نفسه ص ٢٩، ص٣٠.
(٢) السابق نفسه ص ٣٠.
(٣) الغيث المسجم جـ٢ ص ٣٠.

وفى نهاية الحديث عن هذين الفنين البديعيين أشار الصفدى إلى مؤلَّفه فيهما، وأحال من يطلب المزيد من الإيضاح عليه.

### ١٠- القول بالموجب:-

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الفن البديعى فى ثنايا شرح الصفدى للبيت العاشر من أبيات اللامية، وقد عرفه بقوله «وهو أن يقع فى كلام المتكلم شىء فيُثْبِتَه المتكلم لغيره من غير تصريح بثبوته له، ولا بنفيه»(١).

ويتحدث عن وروده فى آيات الذكر الحكيم فيقول: «قد جاء فى القرآن العظيم منه قوله تعالى حكاية عن المنافقين ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] الآية فإنهم كنوا بالأعز عن فريقهم، وبالأذل عن المومنين، فأثبت اللهُ عز وجل صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرُّضٍ لثبوت حُكْمِ الإخراج بصفة العزة، ولا لنفيه»(٢).

ويرى الصفدى أن هذا الفن نادر الوقوع فى الكلام، وذلك لصعوبته قال: «وهذا نوعٌ عزيزُ الوقوع لا يطيع من يرومه لتوعُّر مسلكه»(٣).

### ١١- التضمين:-

سبق أن تحدثت عن هذا الفن البديعى فى أكثر من موضوع من هذا الكتاب؛ حين تعرضت لموقف مبدعى العصر ونقاده من البديع فى الفصل الأول، وحين تحدثت عن تضمين الطغرائى للمثل المشهور «لا ناقة لى فى هذا ولا جمل» وموقف الصفدى من هذا التضمين، ولقد خلصت فيما سبق إلى نتيجة هى أن الصفدى يرى أن التضمين فن بديعى له قيمته، ويرى أنه يحصل فى الكلام بطريقتين: الأولى تضمين المثلِ أو البيتِ أو الجزء من البيت بلفظه، والثانية تضمينُ ذلك كله بمعناه، وأريد هنا أن أتحدث عن لون آخر من ألوان التضمين، وهو ذلك اللون الذى سمّاه الصفدى «التضمين مع الاختصار»، وهو يرى أن ذلك اللون من

---

(١) الغيث جـ١ ص ٢٦٢.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.



التضمين «أشرف من التضمين الكامل وأطرب للفهم، وأعذب للسمع»(١).

والسبب فى ذلك عنده أن هذا اللون «فيه من البلاغة حسن التضمين مع ما فى ذلك من الاختصار الذى هو من أشرف أنواع البلاغة؛ لأنه يرفع عن المخاطب مؤونة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر فى الذهن»(٢).

وقد ضرب الصفدى على هذا اللون من التضمين مثلاً هو شاهدٌ شعرى قاله أحدُ النخاسين لعبدٍ كان قد باعه، وتنقلتْ به الأيام إلى أن صار أميرًا يرتجى نواله، وهذا الشاهد هو:

كُنّا جَمِيعَيْنِ فى بُؤْسٍ نُكَابِدُهُ ... والقلبُ والطَّرْفُ مِنّا فى أذى وقذى

والآنَ أقبلَتِ الدنيا عليكَ بما ... تَهْوَى، فلا تَنْسَنِى إنَّ الكرامَ إذا(٣)

وقد حصل التضمين فى الشطرة الثانية من البيت الثانى حيث يشير بقوله «إن الكرام إذا» إلى قول الطغرائى:

إنَّ الكِرَامَ إذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا ... مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِى الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

## ١٢- الاقتباس:-

وقد تحدث الصفدى عنه فى ثنايا الحديث عن قول الطغرائى:

فَإنْ جَنَحْتَ إلَيْهِ فاتَّخِذْ نَفَقًا ... فى الأرضِ أوسُلَّمًا فى الجوِّ فاعتَزِلِ

قال الصفدى: «وبيت الطغرائى يسميه أرباب البديع التلميح، وبعضهم يسميه الاقتباس، وهو نوع من التضمين، ولكن التضمين هو أن يأتى لفظ الآية أو الحديث أو البيت كاملاً، وإن لم يأت كاملاً فهو الاقتباس، والطغرائى اقتبس كلامه هنا من قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] ....»(٤).

وحين نعيد قراءة كلام الصفدى نرى أنه فرَّق بين التضمين والاقتباس، وبيَّن أن

---

(١) الغيث ص ٢٢٣.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) الغيث جـ٢ ص ٦١.

البلاغيين قد اختلفوا فى اسم المصطلح الدال على هذا الفن البديعى، وإن لم يختلفوا فى كونه أحد أنواع التضمين، ثم دلنا على الموضع الذى اقتبس منه الطغرائى كلامه وهو الآية القرآنية الكريمة.



**١٣- التجريد:**

وقد تحدث الصفدى عن هذا الفن البلاغى فى أول شرحه الأدبى لقول الطغرائى:

حُبُّ السَّلامَةِ يُثْنِى هَمَّ صَاحِبِهِ ... عن المَعَالِى، ويُغْرِى المَرْءَ بالكَسَلِ

حيث وضح أن الكلام فى هذا البيت يحتمل أن يكون الطغرائى قد خاطب به صاحبه الذى وصفه فيما قبل، وتحدث إليه عن همومه وأحزانه، كما يحتمل أن يكون الطغرائى يخاطب نفسه بهذا الحديث بعد أن قطع الكلام عن صاحبه، وعلى هذا فلو رجح الاحتمال الأول لخلا البيت من هذا الفن البديعى، أما إذا رجح الاحتمال الثانى فإن البيت يكون قد حوى من فنون البديع التجريد الذى هو «أن يخاطب المتكلم غيرَه وهو يريد نفسه؛ كأن الإنسان يجرد من نفسه مخاطبًا أقامه للمواجهة بالقول»[(١)].

ويرى الصفدى أن «أحسن ما جاء فيه قول الصمة بن عبد الله القشيرى من الحماسة:

حَنَنْتَ إلى ريًا، ونَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ ريًا، وَسَعْيَاكُمَا معا»[(٢)]

ويرى الصفدى أن الطغرائى قد استخدم هذا الفن البديعى مرة ثانية فى قوله:

يا وارداً سُؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ ... أَنْفَقْتَ صَفْوَكَ فى أَيَّامِكَ الأُوَلِ

حيث قال فى شرح البيت وبيان معناه: «يا من ورد بقية عيشٍ كله كدر، لأى شيءٍ ترد هذا الكدر؟ والصفو قد أنفقته وأفنيته فى أيامك السالفة؟ وهذا الذى يسميه أربابُ البلاغة التجريدَ؛ وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصًا يخاطبه، فهو يستريح بمعاتبته وتعنيفه، وهذه عادةٌ جارية لكل من آخذ نفسه فأخذ يوبخها،

(١) السابق نفسه ص ٤٦.

(٢) السابق نفسه، ونفس الصفحة.



ويعاتبها فيقول: من قال لك تفعلين هذا؟ ولم كنت اعتمدت هذا الأمر الفاسد؟ وأمثال ذلك»(1).

ويمثل الصفدى هنا على التجريد بقول الحيص بيص(2):

إلامَ يراك المجدُ فى زىِّ شاعرٍ ... وقد نحلت شوقًا فروعُ المنابِرِ

حكَمْتَ تصيب الشعر علمًا وحكمةً ... بِبَعْضِهِمَا ينقادُ صَعْبُ المفاخِرِ

أما وأبيك الخير إنك فارسُ الـ ... ـمعالى ومُحيى الدارساتِ الغوابِرِ

فَإنَّكَ أعْيَيْتَ المسامعَ والنُّهَى ... بِقَوْلِكَ عنَّا فى بُطُونِ الدَّفَاتِرِ

وإلى هنا يبدو أن الصفدى لم يضف جديدًا إلى ما سبق أن تحدث عنه عند شرحه لبيت اللامية «حبُّ السلامة» حيث عرّف التجريد ومثّل له، وبيَّن ما فى بيتى اللامية من التجريد، لكنّا حين نمضى فى قراءة الشرح نجده يوضح أن من البلاغيين «مَن لا يقصر اسمَ التجريد على مخاطبة المتكلم غيره مريدًا لنفسه، ولكن يُجريه فى كل ما يصح أن يُشتق له، بأن يكون قد جُرِّدَ فيه شىءٌ من آخَرَ كقوله تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت:28] أى الجنة هى دار الخلد، ولكنه جرد من الدار، وقوله تعالى وهى قراءة علىٍّ كَرَّم الله وجهه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ [مريم:6] وهو الوارث نفسه، ولكنه جردَ من الوارث وارثا»(3).

ولا يكتفى الصفدى بهذين الشاهدين القرآنيين، بل يستشهد أيضًا على ذلك بقول الشاعر:

وشوهاءَ تَعْدو بى إلى خارجِ الوغَى ... بِمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ البَعِيرِ المُرَحَّلِ

ويشرحه ليبين ما فيه من التجريد قائلاً: «ويعنى: من نفسى بمستلئم فجردَ من نفسه مستلئمًا جعله مصاحبًا له»(4).

---

(1) الغيث 2/ ص 381.

(2) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(3) الغيث جـ2 ص 381.

(4) السابق نفسه ص 382



## ١٤- الإيضاح وإرسال المثل:-



وقد جاء الحديث عن هذا الفن البديعى فى ختام الشرح الأدبى لبيت الطغرائى:

ولو أنَّ فى شرفِ المأوَى بُلُوغَ مُنًى　　　لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دارةَ الحَمَلِ

حيث قال الصفدى: «وفى قول الطغرائى فى هذا البيت من البديع: الإيضاحُ وإرسالُ المثل»[1] وبعد هذا الإجمال يفصِّل القول فيقول: «أما إرسالُ المثل فهوواضح لأن كل من سمعه وحفظه تمثل به فيما يليق من المواقع، وأما الإيضاح فإنه أزال به اللبس مِن خفاء الحكم الذى فى البيت الذى تقدمه، وهو أن العِزَّ فى النقل، فهذا حكمٌ خاف عند المخاطَب حتى يوضحه بقوله: لو أن فى شرف المأوى.. البيت، فيزول اللبس، ويتضح الحكم»[2].

## ١٥- حُسن التعليل:-

وقد جاء الحديث عنه فى أول الشرح الأدبى لبيت اللامية:-

قَدْ شَانَ صِدْقَكَ عِنْدَ النَّاسِ كِذْبُهُمُ　　　وهل يطابقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدِلِ

حيث قال فى شرح البيت: «وشانَ كذبَ الناس صدقُك عندهم لأنك تلبست بما لم يتلبسوا به، وخالفتهم فى حالهم؛ لأنك وإياهم فى طرفَىْ نقيض، فلا تلمهم إذا باعدوك وهجروك ونفروا منك؛ لأنك لست منهم فى شىء، ثم أخذ يستفهمه فقال: وهل يطابق المعوج بالمعتدل؟ والمعوج: الناس، والمعتدل: أنت، ضرب له بذلك مثالاً ليعترف له ويقول: لا ما يحصل بينهما تطابق، وهذا عند أهل البديع يسمى حسن التعليل؛ لأنه علل شين صدقه عند الناس وكذبهم بأن قال: وهل يطابق المعوج وهو الكذب بالمعتدل وهو الصدق؟»[3].

## ١٦- المبالغة:

وقد جاء الحديث عن هذا الفن البديعى فى ثنايا الشرح الأدبى لقول الطغرائى:

تَقَدَّمَتْنِى أناسٌ كان شَوْطُهُمُ　　　وَرَاءَ خَطْوِى لو أَمْشِى عَلَى مَهَلِ

---

(١) الغيث ٢/ ص ١١٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه ص ٣٥٦.



حيث قارن بين هذا البيت وبيت هاشم الرقاشى:

تَقَدَّمَتْنِى أناسٌ ما يكون لهم      فى الحقِّ أنْ يَلجُوا الأبوابَ مِنْ دُونِى

وهو يرى أن بيت الطغرائى يزيد على بيت هاشم «بمبالغتين وهما أن شوط أولئك وراء خطوه، وأن خطوه مع ذلك كان متمهلاً»[1] وخلص بعد ذلك إلى الحديث عن دعوى المبالغة فقال: «والدعوى فى المبالغة منحصرة فى ثلاثة أقسام: الغلو، والتبليغ، والإغراق»[2] وبيّن دليل هذا الحصر بقوله: «ودليل الحصر أن الدعوى إما أن تكون ممكنة، أوْ لا، فإن لم تكن ممكنة كانت غلواً، وإن كانت ممكنة فإما أن يصح وقوع ذلك أوْلا، فإن صح كان تبليغًا، وإن لم يصح كان إغراقًا»[3].

وعلى هذا فهو يرى أن الغلو يكون فى المبالغات التى يستحيل تحققها، وهو يمثل له بقول مهلهل:

فلولا الريحُ أسْمَعَ مَن بِحجرٍ      صليل البيضِ تُقْرَعُ بالذكورِ[4]

ويرى أن التبليغ والإغراق كليهما يكونان فى المبالغات التى يمكن تحقيقها إلا أن التبليغ يكون فى المبالغات التى يصح وقوعها، وقد مثل له بقول امرئ القيس:

عدا بى عداءً بَيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ      دِرَاكًا ولم يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

وقد عد الصفدى هذا البيت من باب التبليغ «لأن هذا ممكن فى حق الفرس أن يدرك الثور والنعجة ولم يعرق كى لا يحتاج إلى أن يغسل»[5].

أما الإغراق فيكون من باب المبالغات التى لا يصح وقوعها، وقد مثل له بقول امرئ القيس أيضًا:

تنورتها مِنْ أذرعاتٍ وأَهْلُهَا      بِيَثْرِبَ أدْنَى دارها نَظَرٌ عالِى

وقد عدَّ الصفدى هذا البيتَ مِن باب الإغراق لأن «هذا غير ممكن عادةً مَن أن يكون إنسانٌ بأذرعات، ويشاهدَ نارَ يثرب»[6].

---

(١) الغيث جـ٢ ص ٢١٠.      (٢) السابق نفسه ص ٢١١.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) السابق نفسه ص ٢١٢.



## ملحق الدراسة

# شعر الصفدى فى الغيث المسجم

### جمعٌ وتحقيق









# قافية الهمزة

-١-

قال الصفدى: «وقلت فى تفضيل بياض الشيب على سواد الشباب:

[من الوافر]

أرَى فَـضْلَ المَشِيْبِ على شَبَابِى ... يُخَالِفُ فـيـه بـعض الأغـبيـاءِ

وَهَبْنِـى قلتُ هذا الـصُّـبْحُ لَـيْلٌ ... أيَعْـمَـى العـالمون عن الضِّـيـاءِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤.

-٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

مـا أبصرتْ عـيناك أحْـسَنَ مَنْظَرًا ... فـيـمـا يُرَى من سـائِرِ الأشـيـاءِ

كالشَّامَةِ الخَضْراءِ فَوْقَ الوَجْنَةِ الْـ ... حَـمْـراءِ تَحْتَ المُقْلَةِ الـسَّـوداءِ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٧٢.

-٣-

قال الصفدى في ذمّ زامر: «وقلت أنا فى ذمِّهِ:-

[من السريع]

يقـولُ فى مـجلسِنا زامِـرٌ ... لَمْ نَلْـقَ مـا ألْقَـى بِإصْـغَـاءِ

مـا عِنْدَكُمْ مَـيْلٌ إلى حـاضِـرٍ ... قـلنـا ولا شـوقٌ إلى نـاءِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٨٢.









-٤-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من المتقارب]

تَبَسَّمَ فارتَحْتُ مِنْ سَكْرَتي وقلتُ: هنا القَرقفُ المُنْتَخَبْ

وما ذُقْتُ فاهُ ولكنَّني حكَمْتُ على ثَغْرِهِ بالحَبَبْ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٥٠.

-٥-

قال الصفدى: «فكتبت إليه[1] الجواب عن ذلك:

[من السريع]

يا باعثَ العُتْبِ إلى عَبْدِهِ وما كفاهُ العُتْبُ إذْ نَدَبَا

ومُذْكِرِي عَيْشًا لَبِسْنَا بِهِ ثَوْبَ سُرُورٍ بالبها مُذْهَبَا

مَرَّ فلَمْ يَحْلُ لنا بَعْدَهُ عَيْشٌ ولم نَلْقَ الهوى طَيِّبا

ما كُلُّ ذي وُدٍّ خَلِيلٌ ولا كُلُّ مَلِيحٍ فى الورَى طَقْصَبَا»

التخريج: الغيث ٢/ ١٧٧.

-٦-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من الخفيف]

بي غزالٌ لَمَّا أطَعْتُ هواه أخَذَ القلبَ والتَّصَبُّرَ غَصْبَا

ما أفاقَ العذولُ مِنْ سكْرَةِ العَذْ لِ عليه حتَّى غدا فيه صَبَّا»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٧.



(١) أى إلى بهاء الدين أبى بكر بن غانم.

-٧-



قال الصفدى: «وقلت:-

[من الخفيف]

يا لقــومى سـألـتكُم خبّـرونى ... هكذا كلُّ مَـنْ أحَبَّ حَـبِيـبَـه

سَـقَمٌ زائـدٌ، ودَمْعٌ، وَسُـهْـدٌ ... ويَجِى عـاذلى تمام المصيبَـه»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٦.

-٨-

قال الصفدى: «ومما اتفق لى نظمه فى الصبر:-

[من المتقارب]

إذا أنْشَبَ الدَّهْرُ ظُـفْـراً ونَـابَا ... وصـالَ على الحُـرِ مِنّا ونَـابَا

صَبَـرنَا ولَمْ نَشْكُ أحْـدَاثَهُ ... لأنَّا نَـعَـافُ التَّـشكِّى ونَـابَى»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩.

-٩-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الطويل]

وَطَلٌّ على وَرْدٍ حكَـى خَـدَّ غَـادَةٍ ... بِهِ عَـرَقٌ مِـنْ خَجْلَةٍ يَتَـصَبَّبُ

وأوراقِ كَرْمٍ قَـدْ حكَتْ كَفَّ سَائِلٍ ... لِمَنْ باتَ فـي نَعْـمَائِهِ يَتَـقَلَّبُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٧٧.

-١٠-

قال الصفدى: «ومما نظمته، وفيه تضمين:-

[من الطويل]

أقولُ وَقَـدْ نَامَتْ على حرِّ وجهِـهَا ... ومـا لى عليـهـا فى الظَّلامِ دَبِيبُ

وإن الكثيبَ الفـردَ مِنْ جانِبِ الحِمَى ... إلىَّ وإنْ لَـمْ آتِهِ لَحَـبِيبُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٧.

-١١-

قال الصفدى:- [من الطويل]

ثَمَانِيَةٌ إنْ يَسْمَحِ الدَّهْرُ لى بها    فما لى عليها بَعْدَ ذلكَ مطلوبُ
مقامٌ ومشروبٌ ومزحٌ ومأكلٌ    وملهٌ ومشمومٌ ومالٌ ومحبوبُ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٠.

-١٢-

قال الصفدى: «وجاء لى فى معنى البيت المذكور(١) قولى:- [من البسيط]

يا برقُ لا تَبْتَسِمْ مِنْ ثَغْرِهِ عَجَبًا    قَدْ فَاتَ مَعْنَاكَ مِنْهُ الظَلْمُ والشَّنَبُ»

التخريج: الغيث ١/ ١٩٤.

-١٣-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:- [من البسيط]

إلى متى أنا لا أنْفَكُّ فى بَلَدِ    رهين جيماتِ جُورِ كُلُّهَا عَطَبُ
الجوعُ والجرىُ والجيرانُ والجدرى    والجهلُ والجبنُ والجرذانُ والجربُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٠.

-١٤-

قال الصفدى: «وقلت أنا من أبيات:- [من البسيط]

ويا رسولى إليهم صفْ لهُم أرَقى    وَأنَّ طَرْفِى لِطَيْفِ الضَّيْفِ مُرْتَقِبُ
عَرِّض بِذِكْرِى فَإِنْ قَالوا أتَعْرِفُهُ    فاسألْ لى الوَصْلَ وانكرْنِى إذَا غَضِبُوا»

التخريج: الغيث ١/ ٣٩٢.

---

(١) يقصد بيت الشهاب محمود:-

يا بارقَ الثَّغْرِ لو لاحتْ ثُغُورُهُمُ    وَشِمْتَ بَارِقَهَا مَا فَاتَكَ الشَّنَبُ

-١٥-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا -: -

[من الكامل]

وكـأنَّما الأغـصانُ تُثْـنِيهـا الصبـا ... والبـدرُ مِنْ خَلَلٍ يـلوحُ ويُحْـجَبُ

حسناءُ قَدْ عَـامَتْ وأَرْخَتْ شَعْرَهَا ... فى لُجَّـةٍ والمـوج فـيـه يَلْعَبُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٣٧.

-١٦-

قال الصفـدى: «وكُلِّفْتُ أنا فى سنة سبعمائة وعـشرين نظم شىء فى هذه المادة[1] فقلت: -

[من الكامل]

ولَقَـدْ ذَكَـرْتُكُـمُ بِحَـرْبٍ يَـنْثَنِى ... عَنْ بَأْسِـها اللَّيْثُ الهِـزَبْرُ الأغْلَبُ

والصَّـافنَاتُ بِرَكْضِـهَا قَدْ أنْشَأَتْ ... ليـلاً، وكُلُّ سنـا سنانٍ كَـوْكَبُ

والبـيضُ تنثر كلَّمـا نَظَـمَ القنَا ... والنَّبلُ يشكلُ، والـعَجَـاجُ يـتْرَبُ

وحُشَـاشَةُ الأبطالِ قَدْ تَـلَفَتْ ظمًا ... ودمُ الفـوارسِ مُـسْـتَـهِلٌّ صَـيِّبُ

والنَّفْسُ قَدْ سَالَتْ عـلى حَدِّ الظُّبَا ... وأنا بِذِكْــرِكُمُ أَمِـيلُ وأَطْرَبُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٣.

-١٧-

قال الصفدى: «ومما اتفق لى نظمه فى الخلخال: -

[من الطويل]

أيا عَـجَبًـا مِنْ صابِرٍ صـامِتٍ ولَـمْ ... يَفُهْ بـكَلامٍ قَطُّ فى ساعَـةِ الضَّرْبِ

أقـامَ ولَـمْ يَـبْـرَحْ مكانًـا ثَوَى بِهِ ... على أَنَّهُ أضْحَى يَدُورُ على الكَعْبِ»

التخريج: الغيث ١/ ٦٢.



(١) يقصد معنى أبيات عنترة العبسىِّ المشهورة والتى أولها: ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ.

-١٨-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من الطويل]

غـزالٌ مِنَ الأَتْراكِ ما ضـاق لَحظُهُ لِحَظِّىَ إلاَّ كَـىْ تَضِيقَ مَـذَاهِبِى

كَـأنَّ الحَشَـا طَيْرٌ، وكـاسِرُ جَـفْنِهِ تَصَـيَّـدَهُ مِنْ هدبِـهِ بِمَـخَـالِبِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١.

-١٩-

قال الصفدى: «وقلت فى الأتراك الذين يحلقون ذوائبهم:-

[من الطويل]

لَقَـدْ زَانَ أَصْداغَ الممالِـك نَبْتُـهَـا وما شَانَهُمْ فى الحُسْنِ حَلْقُ الذَّوَائِبِ

فـما بالُ مَنْ تَهْـوَاهُمُ عندمـا اتَّقَى عضاضَ الأفاعى نامَ فوقَ العَقَارِبِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤.

-٢٠-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من السريع]

كـأَنَّمـا الأغـصـانُ لَمَّا انـثَنَتْ أمـامَ بَدْرِ التَّمِّ فى غَـيْـهَـبِـهْ

بِنْتُ مَـلِيْكٍ خَلْفَ شِـبَّـاكِـهـا تَفَـرَّجَتْ مِنْهُ عـلى مَـوْكِبِـهْ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٣٦.

-٢١-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من المجتث]

مـا أبْـصَـرَ النَّاسُ صَـبْـرِى عـلـى عَنَـائِـى وكَـــرْبِـى

الصَّـــمْـتُ دَأْبُ لِسَـــانِـى وَقَـــدْ تَـكَلَّـمَ قَـلْـبِـى»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩.

-٢٢-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من البسيط]

لا يَعْـرِفُ الدَّهْرُ أحيـاءً وأمـواتا أخـانَهُمْ أَمَلٌ فى النَّـفْسِ أَمْ وَآتى
فَنَزِّهِ الـنَّفْسَ عَنْ مَـالٍ وَعَنْ أَمَلٍ قَدْ أَتْـعَبَاهَا، ولا تَـجْزَعْ لِمَا فَـاتَا
فَـمَـا لِمَنْ تَـتَـقَـاضَـاهُ مَنِيَّـتُـهُ إِلاَّ إلى ذلك الميـقَـاتِ مِيـقَاتًا»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٧٧.

-٢٣-

قال الصفدى: «وقد ضمنته[1] أنا فقلت أبياتًا أرثى بها نفسى وهى:-

[من الطويل]

كَـأنّى بهذا الجِسْمِ أصبحَ عـاطِلاً وَشَـمْلُ قـواه بالمـمات مُـشَتَّتُ
وَقَـدْ عَافَـهُ مَنْ كَـانَ يهوى لقـاءه وأَنْكَـرَهُ مَنْ طالما كَـــانَ يُثْـبِتُ
وَغَـايَةُ مَنْ يَأْوِى لِمَـصْرَعِـهِ فـتىً يُفَكِّرُ فـيـمـا قَـدْ عـراه ويُبْـهَتُ
وإنْ عَطَفَـتْهُ رحـمـةٌ فى انصرافـه غـدا نَحْـوَهُ مِنْ حَسْـرَةٍ يَتَلَفَّتُ
وإنْ كــان يَبْكِيـــه خليـلٌ يودُّه وَيَفْـجَـأُهُ الـرُّزْءُ الجليلُ وَيُبْـغِتُ
فماذا الذى يُجْدِى على سَاكِنِ الثَّرَى إذا كـان يُبْـدِى الحُزْنَ أَوْ يَتَـشَبَّتُ
قضى، ومضى، هيهات لو ينفعُ البكا كأَنْ لَمْ يكُنْ مَنْ قَدْ غَدَا وهو مَيِّتُ
وكم قـائلٍ: لا أبـعـدَ اللَّهُ دَارَهُ وآخـرُ جـذلانٌ يُسَـرُّ وَيَشْـمَتُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٠١.

---

(١) الضمير عائد على بيت مالك بن طوق، أو تميم بن جميل، وهو آخر بيت فى مقطوعة الصفدى هذه.

-٢٤-



قال الصفدى: «وقلت مضمنا - أيضًا-:-

[من الكامل]

عَـهْـدِى بِأيرِى وَهْـوَ فِـيـه تَيَقُّظٌ | كم قـام متـصـبًـا وما حَـرَّكـتُـه
والآن كـالطِّفْلِ الصَّـغِـيْـرِ بمَهْـدِه | يزدادُ نومًـا كلَّـمـا نَـبَّـهْـتُـه»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٤٢.

-٢٥-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من الطويل]

تَطَلَّبْتُ رزقى بـالقَنَاعَـةِ فى الورى | ولم أبْتَـذِلْ مِنْ أجْلِ قُـوتِى قُـوَّتِى
وَمُذْ خِفتُ ضِيْقَ السُّبْلِ فى طَلَبِ الغِنَى | رَتَعْتُ بِأمْنٍ فى مُـرُوطِ مُـرُوءَتِى»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٠٣.

-٢٦-

قال الصفدى: «وقلت فى القناعة غزلاً:-

[من الكامل]

إِنْ غابَ مَنْ أحْـبَبْتُـهُ عن مجلسى | لِيَـذوبَ قلبُ الصَّبِّ مِنْ حَسَـرَاتِه
أحْـضَرْتُ لى وردًا وكَـأسَ مدامـةٍ | وَشَـرِبْتُ رِيْـقَـتَـهُ علـى وَجَنَاتِه»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٠٣.

-٢٧-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من الكامل]

قالوا حلا وصفُ العذارِ مِنَ الورى | في كُلِّ مـــا نَلْقَـاهُ مِنْ أبْـيَـاتِهِ
فَـأجَبْـتُـهُم لِمَ لا يُرَى حلوًا وَقَـدْ | قَطَفَ الرِّجَـالُ القَـولَ عِنْدَ نَبَاتِه»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤.

-٢٨-

قال الصفدى: «ذكرت بقول الطغرائى:- ويقنعنى من الغنيمة بعد الكدِّ بالقفلِ- ما نظمته أنا وهو:-

[من السريع]

قَنِعْتُ بِالعَوْدِ إلى منزلى ... وذاك دَأْبُ المرءِ فى خَيْبَتِه

كالحَجَرِ المُلْقَى إلي صاعِدٍ ... ليس له هَمٌّ سِوَى عَوْدَتِه

التخريج: الغيث ١/ ٢٤٩.

## قافية الثاء

-٢٩-

قال الصفدى: «ذكرت - هنا - بيتين لى وهما:-

[من البسيط]

صَبْرِى الَّذى اقتسمتْهُ غربةٌ ونوىً ... كأنَّما لهما فى ذاك ميراثُ

وكل يومٍ على ما فِيهِ مِنْ هَرَمٍ ... يَلْقَى صُرُوفَ اللَّيالى وهى أحْدَاثُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٩٠.

## قافية الجيم

-٣٠-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا -:-

[من الخفيف]

رُبَّ يوم تقابلَ الوردُ فيه ... بَيْنَ رَوْضٍ وَبَيْنَ خَدٍّ تَضَرَّجْ

كل شيءٍ ومثله لكنِ الأحـ ... ـسنُ ما كان بالعَذَارِ مُسَيَّجْ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٠.



-٣١-

قال الصفدى: «ولكن أخذت أنا هذا المعنى [1] فنظمته بالقاهرة أول دخولى إليها، وقد حصل لى، ولمن أحبه جربٌ فقلتُ:-

[من الطويل]

ولما صَفَونَا وامتَزجْنَا مَحبَّةً ... علانا حَبَابُ الحب فى ساعةِ المزجِ
وما ضرَّ مَنْ قدْ خاضَ بَحرَ غرامِهِ ... وأصبحَ فى كَفَّيهِ مِنْ لُؤْلؤِ اللُّجِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٢٨.

-٣٢-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من السريع]

تبًا لها مِنْ بَلدَةٍ [2] لا أرى ... فيها مقامى واضِحَ النَّهجِ
لأنها فى وَجْهِ سُكَّانِها ... وأهلِها تَبْصُقُ بالثَّلْجِ»

التخريج: الغيث ١/ ١١٨.

## قافية الحاء

-٣٣-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الطويل]

أيَا حُسْنَ أعمى لَمْ يَجِدْ حَدُّ طَرْفِهِ ... مُحِبًّا غدا سكران فيه وما صحا
إذا طار قلب بات يَرعَى خُدُودَهُ ... غدا آمنا مِنْ مُقْلَتَيْهِ الجَوَارِحَا»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٢١.

---

(١) يقصد بالمعنى تخيُّل الجدرى حباب.

(٢) يقصد بالبلدة: الرحبة.



-٣٤-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من السريع]

وصـــاحـب لَمَّا أتَـاهُ الـغِنَـى تاه ونـفسُ المرءِ طمَّـــاحَـــهْ

وَقِـيلَ هَلْ أبصـــرتَ منه يدًا تَشْكُرُهَـا قلتُ ولا راحَـــهْ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦.

-٣٥-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من المجتث]

أتـى مــــــحـلّـى أناسٌ بـهـم تحـلَّـى المديـحُ

زاروا وزانـــوا وزادوا هـذا الجـنـاسُ المـليـحُ

التخريج: الغيث ١/ ٧٨.

-٣٦-

قال الصفدى:-

[من الطويل]

وساقٍ غدا يسعى بكأسٍ وطرفُـهُ يُجَـرِّدُ أسيافًا لِغَيرِ كِفَاحِ

إذا جرح العشاقَ قالوا أقمتَ فى مـدارِجِ راحٍ أَمْ مَـدَارِ جِـرَاحِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٢.

## قافية الدال

-٣٧-

قال الصفدى: «وقلت في مليحٍ أعور:-

[من مجزوء الكامل]

أفـديه أعْـوَرَ طَرْفُـهُ الـ ـبـاقى يقـولُ ومـا تَعَـدَّى

قَــدْ غَــارَ مِنْ حُسْنِى أخى          وبَقِــيْتُ مِــثْلَ السَّــيْفِ فَـرْدا»



التخريج: الغيث ١/ ١٢٥، ١٢٦.

-٣٨-

قال الصفدى:-

[من الخفيف]

قَلَبَ الدنَّ مَنْ أُحِبُّ فَأَضْحَتْ          نفحةُ الندِّ مِنْ حُمَيَّاهُ تُهْدَى

قال لى اعجب فقلت غير عجيبٍ          كل دن قَلَبْتَــهُ كــان ندًا»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٥٨.

-٣٩-

قال الصفدى: «ومما اتفق لى نظمه بالرحبة:-

[من المجتث]

وبَـلْدَةٍ قَــدْ رَمَـتْنِى          بِـكُـلِّ دَاءٍ عِــنَـادَا

ولَـوْ رَجَــعْـتُ لأَهْـلِـى          كــانـت بـلادى بـلادا»

التخريج: الغيث ١/ ١١٨.

-٤٠-

قال الصفدى: «ومما قلت - أيضًا-:-

[من الخفيف]

أنا إنْ لَمْ أَجِــدَّ فـي كَـسْـبِ مـالٍ          هات قُلْ لى بـاللَّهِ كَـيْـفَ أَجُـودُ

وإذا لم أســـدَّ خُـلَّةَ حُــرٍّ          هات قُلْ لي بالـلَّهِ كَـيفَ أَسُـودُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٨.



- ٤١ -

قال الصفدى: -

[من الطويل]

بكيت على نفسى لِنَوحِ حَمَائمٍ وجـدت لهـا عِنْدى هـدية هادِ
تنوبُ إذا ناحتْ على الأيكِ فى الدُّجَى مَنَابَ رشـادٍ في مَنَابِرِ شَـادِ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٢.

- ٤٢ -

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-: -

[من الطويل]

تقـولُ دمـشقٌ إذْ تُفَـاخِرُ غَيْـرَهَا بجـاملهَـا الزَّاهى البـديع المشيَّـدِ
جـرى ليبـاهى حُـسْنَهُ كُلُّ جَـامعٍ وما قَـصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لمعـبدِى»

التخريج: الغيث ١/ ١١٨.

- ٤٣ -

قال الصفدى: «وكتبت على مجلد قديم قد رثَّ: -

[من الطويل]

مَلَكْتُ كِـتَـابًا أخلـق الدَّهْرُ جِلْدَهُ ومَـا أحَـدٌ فى دهرِهِ بِمُـخَلَّدِ
إذا عـايَنَتْ كُتْبِى الجـديدةُ حَـالَهُ يقُـولُونَ لا تهلكْ أسـىً وتَجَلَّدِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٦، ٢/ ٥١.

- ٤٤ -

قال الصفدى: «وقلت أنا مضمنا فى ضروط: -

[من البسيط]

عاتَبْتُ مَنْ سَدَّ سمعى صوتُ فَقْحَتِهِ ولَمْ أجِـدْ مَلْجَـأً لـى مِنْ مطارِدِها

فقال نوقُ ضراطى كلما سَنَحَتْ أنامُ مِلءَ جُفُونى عن شوارِدِها»

التخريج: الغيث ٢/ ١٠٧.

-٤٥-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-:-

[من الكامل]

ظَبْىٌ من الأتراكِ يَحْمِى خَدَّهُ الـ حَسَنَ النَّقِىَّ مِنَ النَّبَاتِ المعتدِى

قال الجمالُ لِخَدِّهِ المبْيَضِّ قَدْ خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتَ غَيْرَ مُسَوَّدِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥.

-٤٦-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى هذه المادة على وزن أبيات ابن أبى الحديد ورويه[1]:-

[من السريع]

لولا ثلاثٌ هُنَّ أقصى المنى لم أهب الموتَ الذى يُرْدِى

تكميلُ ذاتى بالعلوم التى تنفعُنى إِنْ صِرْتُ فى لَحْدِى

والسعى فى ردِّ الحقوق التى لصاحبٍ نِلْتُ به قصدى

وأَنْ أرى الأعداءَ فى صرعةٍ لقيتها من جمعهم وحدى

فبعدها اليوم الذى حُمَّ لى عندى استوى فى القُرْبِ والبُعْدِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٥٧، ١٥٨.

---

(١) أبيات ابن أبى الحديد التى عارضها الصفدى هى:-

لولا ثلاث لم أخف صرعتى ليست كما قال فتى العبد

أن أنصر التوحيد والعدل فى كلِّ مكانٍ باذلاً جهدى

وأن أناجى الله مستمتعًا بخلوة أحلى من الشهد

وأن أتيه الدهر كبرا على كل لئيم أصعر الخد

لذاك أهوى لا فتاة ولا خمر، ولا ذى ميعة نهد

- ٤٧ -

قال الصفدي: «وقلت فيها - أيضًا -:-

[من المجتث]

بالرحبة انهدَّ رُكْني ... وذاب عظمي وجلدِي

لِصَيْفِهَا حرحرٌ ... وللشتا بردُ بَرْدِ

التخريج: الغيث ١/ ١١٨.

## قافية الراء

- ٤٨ -

قال الصفدي: «وقلت - أيضًا -:-

[من مخلع البسيط]

لا تلح قلب الشجي تقابل ... معروفَ أهلِ الهوى بمنكر

فَلَوْ تَرَشَّفْتَ رِيْقَ فِيهِ ... كُنْتَ يقينًا يا صاحِ تسكر

التخريج: الغيث ١/ ٤٥١، ٢/ ١٠٢.

- ٤٩ -

قال الصفدي: «وقلت أنا:-

[من السريع]

اتركْ هوى الأتراكِ إنْ شِئْتَ أنْ ... لا تُبْتَلَى فيهم بِهَمٍّ وَضَيْر

ولا تُرَجَّ الجُودَ مِنْ وَصْلِهِم ... ما ضاقت الأعينُ منهم لخَيْر»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١.



– ٥٠ –

قال الصفدي: «وقلت أنا:-

[من السريع]

حكـى هلالُ الأفقِ لَمَّا مَـضَتْ ... له ثـلاثٌ واعـتلى واسـتنارْ

مـرآةَ خَـدٌّ بعـضُـهـا ظاهرٌ ... والبعـضُ منها في غِـلافِ العذارْ»

التخريج: الغيث ١/ ٥٢.

– ٥١ –

قال الصفدي: «ومما اتفق – أيضًا –:-

[من مجزوء الخفيف]

بِتُّ مِنْ وَرْدِ خَـدِّهِ ... ولمـاهُ المـعـطَّـرْ

بَيْنَ وَرْدٍ مُـفَـتَّـحٍ ... وشـرابٍ مـسكَّـرْ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٨.

– ٥٢ –

قال الصفدي: «وقلت – أيضًا –:-

[من الطويل]

كَلِفتُ بوجهٍ فيه بعضُ سماجَةٍ ... رجـاءَ بأَنْ يحلو إذا هو عـذَّرَا

وَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يُـزَانَ بِلِحَيَةٍ ... فَقَدْ ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرَى»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥.



قال الصفدي: «وقلت:

[من الطويل]

إذا كُنتَ لا علم لديكَ تُفِيـدُنا ... ولا أنت ذو جودٍ فنرجوك لِلقِرَى

ولا أنت مِـمَّنْ يُرتَجَى لِكريهـة ... عَمِلْنا مثالاً مِـثْلَ شَخْصِكَ مِنْ خرا»

التخريج: الغيث ١/ ١٥٦

## قافية الفاء

-٥٤-

قال الصفدي: «وقلت في شيب عِذار الحبيب:

[من الكامل]

قال الحبيبُ وَقَدْ وصفتُ مَشِيْبَهُ ... والنَّاسُ قـدْ وصفوه لَمَّا عَـذَّرَا

قَطَفَ الرِّجَالُ الفـولَ عنْدِ نَباتِهِ ... وَقَطَـفْتَ أنْتَ الفـولَ لَمَّا نَوَّرَا»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥

-٥٥-

قال الصفدي: «وقلت أنا:

[من مجزوء الكامل]

يا خَـجْلَةَ لجـريرِ مِنْ ... قـولِ كـفـانـا اللَّهُ عـارَهْ

طَرَقَـتْكَ صـائدةُ القلو ... بِ وليـس ذا وقـتَ الـزيـارَهْ

هـل كـان يلقَى إنْ أتا ... هُ خيـالُ مَنْ يهـوى خسارَهْ

أو كـــان قـلـبٌ قَـــدْ حـــوا ... هُ من حـــديدٍ أو حِـــجَـــارَهْ»



التخريج: الغيث ١/ ٢٤٢

-٥٦-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من السريع]

كم أمَلٍ لَمّا اقـتـضـاه الفـتى ... أزْرَى ومـــا شـــدَّ له أزْرَا
مـــا حـمـلـتْ نَفْسٌ جنينَ المنى ... فى الحـــال إلا وضـــعت قَـــدْرًا»

التخريج: الغيث ٢/ ١٧٠

-٥٧-

قال الصفدى: «وقلت أنا من أبيات:

[من السريع]

مُذْ غابَ مـحـبـوبِىَ عَنْ ناظرى ... بطلـعـةٍ كـالروضـةِ الناضـره
أبكَى بِـطَـرْفٍ فى الدُّجَـى سـاهِرٍ ... حتى يـرى شخصى فى الـسَّـاهِرَهْ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦١

-٥٨-

قال الصفدى: «وقلت -أيضا:

[من المتقارب]

يقـــولون لـمّـــا رنَا وانْثَـنَى ... وقَـدْ أخْـجَلَ الـغُـصْنَ والجُـؤذُرَا
أتَشْـتَـاقُ مِنْ طَرْفِـه أبْـيَـضَـا؟ ... فَـقُلْـتُ وَمِنْ قَـدِّهِ أسْـمَــرًا»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦



-٥٩-

قال الصفدى: وقلت - أيضا -:

[من الطويل]

ألا فاسْقِنى من رِيقَةٍ لَذَّ طَعْمُـهَا ... بِفِيكَ ولا تَبْخَلْ وَقُل لى هِيَ الخَمْرُ

وَحُطَّ لثامًا حَجَّبَ اللَّثْمَ عن فمى ... فلا خَيْرَ فى اللَّذَّاتِ من دونها سِتْرُ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥

-٦٠-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من الطويل]

يقـابلُ بدرَ التَّمِّ مِنْهُ بطلعةٍ ... هى البدرُ لكنْ حُسنُها منهُ أَشْهَرُ

وفى خدِّهِ وردٌ، وفى الرَّوْضِ مِثْلُهُ ... ولكنْ مـا تَحتَ النَّواظِرِ أَنْضَرُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٠

-٦١-

قال الصفدى: «فقلت:

[من البسيط]

كم قد أقمنا على حُبِّ العذار لمن ... يهـواهُ عُـذرًا إذا ما جاء يعتـذرُ

وما لَحَينَا على حبِّ اللِّحَى أحدًا ... قد هـامَ فيهـا وقلْنا الأمْـرُ يُغْتَـفَرُ

فكيف نقضى على حُبِّ الشيوخِ وهل ... يكون فى الشَّيْبِ حُسْنٌ قطُّ يا دُرَرُ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٠٢

-٦٢-

قال الصفدى: «فقلت:

[من مجزوء الكامل]

رَضَّتْ فـؤادى غـادةٌ ... مـا كنتُ أحسَـبُهَـا تَضُرُّ

ردَّت رسولى خائبًا فمدامعى أبدًا تُدِرُّ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٥٧

-٦٣-

قال الصفدى: «وقلت أيضا:

[من السريع]

كأنما الأشجارُ فى روضها والبدرُ فى غيهبِه مُسفِرُ
بناتُ مليكٍ خلْفَ شِبَّاكِها قامتْ إلى مَوكِبِه تَنْظُرُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٣٧

-٦٤-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا :

[من الخفيف]

قلت إذ قيل لى تَسَلَّ فهذا صدغُه قَدْ دَجَا وكان ينيرُ
هى مرآةُ خَدِّه غابَ منها فى غلافِ العذار شىءٌ يسيرُ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٠٠

-٦٥-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا :

[من المجتث]

رَشَفْتُ رِيقَكَ حُلْوا فلمْ يَكُنْ لى صَبْرُ
وسوفَ أحظَى بِوَصْلٍ وأوَّلُ الغَيْثِ قَطْرُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٤

-٦٦-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا:

[من الطويل]

تَشَفَّعْتُ للبينِ المُشِتّ بِكُمْ عَسَى ... يَعودُ هزيمُ الوصلِ عودةَ منصورِ
على أنَّ جاهَ الحظِّ أكرَمُ شافعٍ ... ولولاهُ لم يحتجْ إلى بنت منظور (١)
وما هو إلا الحظُّ يعترضُ المُنَى ... ولولاه كان الدهرُ أطوَعَ مأمورِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٣٨

-٦٧-

قال الصفدى: «فقلت:

[من الطويل]

ولَمَّا تَراءَيْنا الهلالَ بَدَا لَنا ... مُحَيًّا حبيبٍ لم يَغِبْ قطُّ عَنْ فِكْرِى
فقلتُ عجيبٌ أنْ يُرَى البَدْرُ هكذا ... تمامًا ونحن الآن فى أوَّلِ الشَّهْرِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٤٦

-٦٨-

قال الصفدى: «وقلت مضمنًا قولَ المعرى فى فرند السيف:

[من البسيط]

ما كُنْتُ أحْسَبُ لولا نَبْتُ عارِضِهِ ... أنْ يَنْبُتَ الآسُ وَسْطَ الجَمْرِ فى النَّهَرِ
ولا ظَنَنْتُ صِغَارَ النَّمْلِ يُمْكِنُهَا ... مَشْيًا على اللُّجِّ أوْ سَعْيًا على السَّعَرِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥

---

(١) يشير إلى بيت الفرزدق المشهور:

أمّا البنون فلم تُقْبَلْ شفاعتُهم ... وشُفِّعَتْ بنتُ منصورِ بنِ زَبّانا

-٦٩-

قال الصفدى: «وقلت فى تفضيل مملوكٍ على خادم:

[من البسيط]

يَا مَن يرَجّحُ وَجْهًا كالظَّلَامِ على ... وَجْهٍ كَصُبْحٍ تَبَدَّى فى بَشَائِرِهِ
إنْ كانَ مملوكُ هذا مِثْلَ خادِمِ ذا ... فما انتفاعُ أخِى الدُّنيا بِنَاظِرِهِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤، ١٢٥

-٧٠-

قال الصفدى: «وقلت -أيضا:

[من الوافر]

بدا فى الخدِّ عارِضُهُ فأضْحَى ... عليه مُعنِّفِى باللوْمِ يُغْرِى
وحاول أنْ يرَى مِنِّى سُلُوًّا ... فقال لقد تعذَّرَ، قُلْتُ صَبْرِى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦

-٧١-

قال الصفدى: «قلت:

[من الوافر]

أقولُ لِمَنْ يُسائِلُ عن مَحَلِّى ... تقَدَّمْ وامْشِ مِن خلف السَّوارى
ومُرَّ فَحيثُما تلقَ احتكاكًا ... بِسُرْمِكَ لا تَعُدَّ فَثَمَّ دارِى»

التخريج: الغيث ١/ ٣٨١

-٧٢-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من السريع]

بِى غَادَةٌ لم تَرضَ بَدْرَ الدُّجَى ... يَبِيتُ فى خِدْمَتِها يَسْرِى

إذَا رَنَتْ أقْسَمَ مِنْ خَوْفِهَا هاروتُ لا عاد إلى السِّحْرِ

وفَرْقُها الوضَّاحُ يَنْفِي الدُّجى وَيَسْلَخُ اللَّيْلَ إلى الفَجْرِ
والبرقُ لَمَّا ابْتَسَمَتْ كَمْ غَدَا وقلبُهُ يَخْفقُ بالذُّعْرِ
والظَّبْيُ لَمَّا الْفَتَتْ جِيدَها هَجَّ على الوَجْهِ إلى القَفْرِ
فلو تَثَنَّتْ قَطَّعَتْ خُفَّها على قَذالِ الغُصنِ النَّضْرِ
وَأدْخَلَتْهُ فى حِرام النَّقا وما استحَتْ من شيبَةِ الزَّهْرِ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٠١

-٧٣-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا:

[من السريع]

لزمتُ بيْتى مثلما قيلَ لى ولم أُعانْد حادثَ الدَّهْرِ
وليس لى درعٌ يَرُدُّ الرَّدَى أستغفرَ الله سوى صبرى
علمًا بِأنَّ البُؤْس رَهْنُ الرخا وغايةُ العُسْر إلى اليُسْرِ
فقد يُسَلُّ السَّيْفُ مِنْ غِمْدِهِ وَيَخْرجُ الدُّرُّ مِنَ البَحْرِ
وتبرزُ الصهْباءُ مِنْ دَنِّها ويرجعُ النُّورُ إلى البَدْرِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩، ٣١٠

-٧٤-

قال الصفدى: «وقلت -أيضا-:

[من السريع]

يقول صَحْبِى إذ أتَى مِنْكُمُ مشرفٌ بالغتُ فى شُكْرِهِ
هل يُلتَقَى أكرمُ مِنْ طَيِّهِ قلت: ولا أطيبُ مِنْ نَشْرِهِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٧



-٧٥-

قال الصفدى: « وقلت أنا:

[من الخفيف]

يا لَقَومى مِن سطوةِ التُّركِ سَلُّوا بِيضَ أجفانهم لِجَزِّ النُّحُورِ

كُلُّ لَحْظٍ ومِثلُهُ لَكِنِ النَّصْـ ـرَ تراهُ فى الحربِ للمكسورِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٠

-٧٦-

قال الصفدى: « وقلت فى ذلك أيضا:

[من المتقارب]

رأيتُ الهلالَ وحُبِّى معا وفى وجْهِهِ شُغْلُ عينى وفكرِى

فبشَّرتُ بالسَّعْدِ عَيْنِى التى أرتْنى الهلالَ على وجْهِ بَدْرِى»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٤٦

## قافية السين

-٧٧-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الطويل]

تَعَشَّقْتُهُ شَيْخًا أسالَ مَدَامِعِى
وَحَمَّلَنِى ما ليسَ يَحْمِلُهُ النَّاسُ

فجارَ وَأَجْرَى حين جاوزَ واجتَرَى
فما فاتَهُ مِمَّا يَرُومُ جِنَاسُ»

التخريج: الغيث ١/ ٧٨.

-٧٨-

قال الصفدي: «وقلت - أيضا -: -

[من البسيط]

لو يعلَمِ الدَّهْرُ منِّي أنَّ مُصْطَبَرِي ... يغتالُ صِرفَ اللَّيالي ثم يفترِسُ

كانتْ جِيادُ الرَّزايا كلَّما اطَّرَدَتْ ... تَحُومُ حولَ رُبُوعي ثمَّ تنعكسُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩.

-٧٩-

قال الصفدي: -

[من المتقارب]

عِذَارُكَ والطَّرْفُ يا قاتلي ... يُحاكيهما الآسُ والنَّرجِسُ

وقد صارَ بينهُما نِسْبَةٌ ... فهذا يَدُبُّ وذا يَنْعِسُ

التخريج: الغيث ٢/ ٩.

-٨٠-

قال الصفدي: «وقلت: أيضاً: -

[من الوافر]

ذكرْتكُمُ وكاساتُ النَّدَامى ... تَدُورُ على بدورٍ مِثْلِ شَمْسِ

وأضواءُ الشُّمُوعِ نجومُ أُفقٍ ... قضتْ بالأُنْسِ فيه لِكلِّ نَفْسِ

وأصواتُ المثالث والمثاني ... علَتْ ولها خفَضْنا كُلَّ حِسِ

وَقَدْ رقَّ النَّسيمُ وراقَ حتَّى ... يكادُ يفوتُ لُطفًا كُلَّ لَمْسِ

وقد رَمَتِ الجفونُ سهامَ سِحْرٍ ... يلاقيها المحبُّ بِغَيرِ تُرْسِ

وقد غنَّى النَّديمُ عن الحميَّا ... بكأسِ مراشفٍ كالشَّهدِ لعسِ

فنغَّصَ كلُّ ما أنا فيه ذِكْرَى ... لكمْ فمضَى السرور وغاب أُنسِي»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٣.

-٨١-

قال الصفدى: واتفق لى فيه - أى فى الخلخال - أيضاً: -

[من السريع]

«مـا أصْـفَـرٌ دارَ على أبيضٍ ... لانَ ولكِـنْ قلبـهُ قـاسِى

ورُبَّ سـاقٍ غـصٍ مِنْـهُ وَمَـا ... أحـسنَ هذا الوصفَ فى النَّاسِ»

التخريج: الغيث ١/ ٦٢.

-٨٢-

قال الصفدى: -

[من المنسرح]

«قلـتُ وَقَـد سِـرْتُ فى الظلام وقـد ... أهَمَّنى منه فَـقْـدُ إيناسِى

كـيف يَطيـرُ الفـؤادُ مِنْ جَـزَعٍ ... وكـلُّ سـارٍ فَـقَلْبُـهُ راسِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩.

## قافية الشين

-٨٣-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا-: -

[من الوافر]

كَـفَفْتُ عنِ الأنامِ فَمِي وكـفِّى ... كَـأنّى بِتُّ فـى خَرَسٍ وَرَعْشَـهْ

وكنتُ مـتـيَّمًـا فى كلِّ شـخصٍ ... فعـندى من خيـالى اليومَ وَحْـشَهْ»

التخريج: الغيث ١/ ١٦٠

-٨٤-

قال الصفدى: «وقلت: - أيضا - : -

[من الوافر]

سَـألْتُ نَسِيْمَ أرْضِكَ حِينَ وافى ... فـقلتُ: صِف القَوامَ ولا تُحَـاشى

فـقـال: يَلِينُ، قـلـتُ: لكلِّ صَـدٍّ ... وقالَ: يمـيلُ، قلتُ: لِكُلِّ واشى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦، ٢٦٧

## قافية الصاد

-٨٥-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من الطويل]

هو الرِّزْقُ إن وافـاك سـعـيًـا فـهـيِّنٌ
وَإِنْ تَأْتِـهِ فى غَـيـضـهِ فـعَـوِيص
عـلـى أنَّ مَنْ أَلْـغَـاهُ نال منـالَ مَنْ
يَغُـورُ على تحـصـيلِهِ ويغُـوص»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٠٣.

## قافية الضاد

-٨٦-

قال الصفدى: «وقلت فيها - أى فى الرحبة - أيضاً:-

[مخلع البسيط]

عـدمـتُ بالرَّحْبَـةِ اكتسابى ... فـلا قـريضٌ ولا قـراضَـهْ
وَكَـلَّ طَرْفِـى بهـا وفكْـرِى ... فـلا رياضٌ ولا رياضَـهْ»

التخريج: الغيث ١/ ١١٨.

-٨٧-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من السريع]

يَا حُسْنَهُ مِن أَشْقَرٍ قَصَّرَتْ ... عَنْهُ بُرُوقُ الجَـوِّ فى الرَّكْضِ
لا تستطيعُ الشَّمْسُ مِن جَرْيِهِ ... تَرْسِمُـهُ ظِلاً على الأرْضِ»[1]

التخريج: الغيث ١/ ٤٣.



(١) ملحوظة يصف الدكتور نبوى هذه الصورة من صُوَر السَّريع بأنها غير شائعة.

## قافية الطاء

-٨٨-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

أحببتُ مِنْ ترك الخطا ذا قامةٍ فُضحتْ غصونُ البانِ لمّا أنْ خطا

إيَّاكُم وجُفونَه فأنا الذِى سهمٌ أصابَ حشاهُ مِنْ عينِ الخطا»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١.

-٨٩-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من مجزوء الكامل]

يا قلبُ لا تُقْدِمِ على سِحْرِ العيونِ إذا سَطا

ومِنَ العجائبِ أنَّهُ أضْحَى يَصحُّ معَ الخطا»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١.

## قافية العين

-٩٠-

قال الصفدى فى جواب كتابٍ لابن نباته:-

[من المتقارب]

وَقَفْتُ على نَظْمِكَ المشتهَى وشاهدتُ روضتَهُ اليانِعَهْ

فكم ألِفٍ مثلِ غصنِ النَّقا وهمزتُهُ فَوقَهُ ساجِعَهْ

أقام على الودِّ لى حُجَّةً ولكنْ على النَّاسِ لى قاطعَهْ

وقد سَمِعَ العبْدُ ألفاظَها فيا حُسْنَهَا فى الحشا واقِعَهْ

وأصبح شكرى لها تاليًا وجملته للثنا جامعه

ورُحتُ لبابِ الدُّعا قارِعًا إلى أن تُصيبَ العِدَا قارِعَه

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦١.

-٩١-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من الطويل]

ألحَّ عذولى فى هَواه وزادَ فى مَلامِى فقلتُ احتَلْ على غيرِ مَسْمَعِى
فَلَمْ يَدْرِ مِنْ فَرطِ الولوعِ بِذِكْرِهِ مُصيبَتَهُ حتَّى تَعشَّقَهُ مَعِى»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٦، ٣٦٧.

-٩٢-

قال الصفدى: «وقلت- أيضاً - فى مقياس نيل مصر:-

[من الطويل]

يقولُ لنا المقياسُ والنِّيلُ هابِطٌ لِيَقطَعَ أوصالَ المُنَى والمطامع
ومَنْ يأمنِ الدُّنيَا يكُنْ مِثْلَ قابِضٍ على الماءِ خَانَتْهُ فروجُ الأصابع»

التخريج: الغيث ٢/ ١٢٥، ٢/ ٧٦.

-٩٣-

قال الصفدى: «وكنت نظمت قبل هذا:-

[من السريع]

لا يعجب المرءُ لعكسِ المُنَى ما فِكْرُهُ فى مِثْلِ ذا نافع
فالأنجمُ السَّبْعُ العُلَى ما نَجَت من عكسِها بالفلكِ التاسعِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٣٩.

## قافية الغين

-٩٤-

قال الصفدى: «وقلت أيضا:

[من الطويل]

إذا ملكَ الإنسانُ ثوبَ قناعةٍ ... ترشَّفَ كاسَ العزِّ فى النَّاس سَائغَهْ
ولم يَخْشَ من فقرٍ رَمَتْه سِهامهُ ... لأنَّ عليه نعمةُ الصبرِ سابِغَهْ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٠٣

## قافية الفاء

-٩٥-

قال الصفدى: «ومما اتفق لى نظمه - أيضا -:

[من المجتث]

حضرتُ مجلسَ قومٍ ... وفيه ظبى، مُهَفهَفْ
قاموا له وَحَمَوهُ ... مِنِّى وقالوا تَعَفَّفْ
دَنَوْا وذَبُّوا ودَبُّوا ... فلم يَفُتْهُمْ مُصَحَّفْ»

التخريج: الغيث ٢/ ٨

-٩٥-

قال الصفدى:

[من السريع]

يا زمنًا أوقَعَنى شُؤْمُهُ ... فى محنةٍ ليس لها كاشِفَهْ
الفضلُ يحتاجُ إلى عارِفٍ ... والحالُ تُضطرُّ إلى عارِفَهْ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦١

-٩٧-

قال الصفدى: «ونظمت فيه - أيضا -:

[من المنسرح]

مــا ناظمُ الشِّــعْــر فى مــحلٍّ فــتى
يقــودُ فــاســمع مــقــالةَ الظرَفَــا
ألِّفَ هذا حُــــروفَــــهُ وسَــمَتْ
هِمَّــــةُ هذا فــــألَّفَ الحِــــرَفَــا»

التخريج: الغيث ٢/ ٨

- ٩٨ -

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من الطويل]

يقــولُ لِيَ العُــذَّالُ لَمَّا عَـشِقْـتُـهُ ... وبعضُ جوابِ الصَّبِّ فيه لطَائفُ
أيُسْبِيكَ مِنهُ يـا أخا الوَجْـدِ نَاظِرٌ ... مُـهَنَّدُهُ مـاضٍ فَـقُلْتُ وَسَالِفُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦

- ٩٩ -

قال الصفدى: «وقلت أنا من أبيات:

[من البسيط]

عَلِقْتُـهَا مِن بناتِ التُّـرْكِ قَدْ غَنِيَتْ ... بدمعِ عـاشِـقِـهـا عـن مِنَّةِ الشَّنَفِ
باللهوَى عَـيْنُها عـين، وحاجِبُـهَا ... نونٌ وتَمَّ الـعَنَا مِنْ قــدِّها الألِفِ
يَلْقَى المتيمُ مِن تشقيف قـامَـتها ... مـا لا يُلاقيـه كُـوفىٌّ مِنَ الثَّقَـفِي
إنى لأعْـجَبُ للعـذَّالِ كـيف رأوْا ... شخصِي وقد رُحْتُ ذا روحٍ ترددٌّ فِي

التخريج: الغيث ١/ ١٢٨، ١/ ٢٢٤

قال الصفدى: «وقلت أنا - وفيه نكتة نحوية-:

[من السريع]

لا تجمعِ الدِّينارَ واسْمَحْ بِهِ ولا تقل كُنْ فى حِمَى كَفِّى

ما الدَّهْرُ نَحْوِىٌّ فينحُو الهُدَى ويمنعِ الجمْعَ مِنَ الصَّرْفِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٩، ٢٣٠

-١٠١-

قال الصفدى: وقلت - أيضا -:

[من السريع]

باللَّه لا تأسَ على فائتٍ مَضَى ولا تيأسْ مِنَ اللُّطْفِ

فقدْ يَجِئُ الدَّهْرُ مع قَسْوَةٍ فيهِ بوقْتٍ ليِّنَ العَطْفِ

التخريج: الغيث ٢/ ٣٠٩

-١٠٢-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من السريع]

لا تسألِ النَّاسَ فإنِّىَ امرؤٌ ما طابَ لى عرفٌ من العرفِ

واقنعْ ولا تجمعْ حطامًا فكَمْ فى الدَّهر للدينارِ منْ صَرْفِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٠٣

-١٠٣-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من السريع]

لا تعجَبُوا منه فما حُسْنُهُ إلا بليغٌ حِرتُ فى وَصْفِهِ

إنْ كانَ قَدْ أوْجَزَ فى خَصْرِهِ فإنَّهُ أطْنَبَ فِى رِدْفِهِ

ومـا أتى بالـواو فى صَـدْغِـه إلا وَقَـدْ رتَّبَ فى عِطْفِـه
ولفٍّ فـى البـردةِ أعطافَـهُ حـتى يَطِيبَ النَّشْرُ مِنْ لَفِّـه»

التخريج: الغيث ١/ ٤٦٤

-١٠٤-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من المجتث]

نِكْ مَنْ هَجَا لك شعْرا أو شـانَهُ بزِحـافِ
وقل لِمَنْ لام فيـهِ على نَحْتُ القَـوَافى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٤

## قافية القاف

-١٠٥-

قال الصفدى: «وقلت أيضا:

[من المجتث]

لِمْ لا أهِيمُ بمِصْـرِ وأرتضيها وأعشقْ
ومـا ترى العيـنُ أحلَى مِن مائها إنْ تَملَّقْ»

التخريج: الغيث: ٢/ ٧٦

-١٠٦-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا - فى مليحة فى يدها سوار:

[من المتقارب]

تكوَّنَ مِنْ بَرَدٍ زندُها وَجَمْرُ السّوار عليه ائتلَقْ
فلا ذا على ما علمتُ انطفا ولا ذا وحاشاهُ مِنْ ذا احترَقْ»

التخريج: الغيث: ٢/ ١٠٢



-١٠٧-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من البسيط]

قد أنزل الدَّهْرُ حظى بالحضيض إلى ... أن اغْـتَـدَيْتُ بما ألقاهُ مِنْهُ لِقَا

يَضوعُ عَرْفُ اصطبارِى إذ يُضَيِّعُنِى ... والعودُ يَزْدَادُ طِيبًا كلَّما احترقا»

التخريج الغيث: ٢/ ٣١٠

-١٠٨-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من الكامل]

يا شـادنًا أبدًا أرى نـفسى لَهُ ... دونَ البريَّةِ لا تفارقُ شيِّقَه

والله ما اتسعتْ همومى فى الدُّجَى ... حتى بُليتُ بمقلَتَيْك الضيِّقَهْ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١

-١٠٩-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من الطويل]

ألا فـاطَّرِحْ عنكَ التمنّى ولا تَبِتْ ... بكاساتِـه نَشْوانَ غَيْرَ مُفِيقِ

وإنْ كـانَ مما لا غِنَى عنهُ فليكُنْ ... وفـاةَ عَدُوٍّ أو حياةَ صديقِ

التخريج: الغيث ٢/ ١٧٠

-١١٠-

قال الصفدى: «وقلت أنا ملغزًا فى الموسى:

[من الوافر]

ومـا شيءٌ لـه حَـدٌّ وخَـدٌّ ... يُكَلِّمُ مَنْ يُلامِسهُ بِحَقِّهْ

وكلٌّ حَلْقُـــهُ مِنْ تَـحْتِ رأسٍ　　　وهذا الرَّأسُ يصبـحُ تحت حَلْقِـهْ»



التخريج: الغيث ١/ ٢٦٢

-١١١-

قال الصفدى: «وقلت أنا :

[من الكامل]

أبْعَـدتَ مَنْ زَخْزَحْـتَـهُ عَنْ أضلُعٍ　　　مـا أنت عِندَ ذَوى الغـرامِ بِعَـاشِقِ

هذا يدُلُّ النَّاسَ مـنك على الجَـفـا　　　إذ لِيس هذا فِـعْلَ صَبٍّ وامِقِ

إنْ شئتَ قُلْ: أبْعَدتُ عَنْه أضَالِعي　　　لِيَكُونَ فِـعْلَ المستـهـام الصَّادقِ

أو قُلْ: فَباتَ على اضطرابِ جوانحى　　　كالطِّفْـلِ مضطجعًـا بِمَهْـدٍ خافِقِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٨٨

-١١٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى مليح ساقى:

[من الكامل]

كلِفـى بسـاقٍ كُلُّ وعـدٍ مـنهُ لِى　　　مـا زال يُخْلِفُـهُ عـلى الإطلاقِ

حـتَّى قَطَعْتُ مطامِـعِى مِنْ وَعْـدِهِ　　　ونسـيتُ عـرقـوبًا بهـذا السَّاقِى»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٥٢

-١١٣-

قال الصفدى: «ذكرت ما قلته أنا قديما:

[من السريع]

قـلـتُ لـه إذ هَـزَّ لـى ذَقْـنَـهُ　　　ولامَ فى مَنْ ذبتُ فى عِـشْـقِهـا:

تَذكُّـــرُ إذ غَنَّت؟ فـنادَى نـعم　　　فـقـلتُ واشـوقًـا إلى حَلْقِـهـا

التخريج: الغيث ١/ ٣٩٥



-١١٤-

قال الصفدى: «وقلت - أيضا -:

[من السريع]

لقَـــدِّهـا إذْ يَنْثَنِـى صَـــولَةٌ　　　مـعـروفـــةٌ مـا بين عُـشّـاقِـهـا

قَـدْ قَطَّعَتْ ظَهْـرَ غُـصُـونِ الرُّبى　　　وجَـرَّتِ الـورْقَ بِأَطْواقِـــهــا»

التخريج: الغيث ١/ ٣٠٠

-١١٥-

قال الصفدى: «وقلت أنا:

[من الخفيف]

وسـيـوف إذا مَضَتْ فى جراحٍ　　　قلت هذا بنفسـجٌ فى شـقـيقِ

ينشـد الجسمُ رُوحَـهُ مِنْ ظباهَا　　　ودِمـاهُ بينَ النَّقَـا والعَـقـيقِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٥

## قافية الكاف

-١١٦-

قال الصفدى: «وقلت -أيضا-:

[من السريع]

صـدَّق خِلِّـى نسـمـاتِ الصَّـبا　　　فـيـمـا روتْ عَنْكَ ومـا شكَّا

وقَـالَ: لا أخْـبَـرُ منـهـا بما　　　جـاءَتْ بِهِ، قلتُ: ولا أزْكَى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٧







قال الصفدى مخاطبًا ابن نباته:

[من البسيط]

أهديتُــــــــه ســـــــمكًا يصطادُ ودَّك لـى

فليس ذا ســـــــمكًا لَكنَّهُ شَـــبَكُ

لا يُنكَرُ التـــمـــرُ إذ يُهْـــدَى إلى هَجَـــرٍ

فـــأنت بحـــرٌ وقـــد أُهــدى لكَ السَّـــمكُ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٢٩

-١١٨-

قال الصفدى: «وقلت أنا:

[من الطويل]

تمسَّكْ بِذُلٍّ فـــهـو أَلْيَقُ بـالهـوَى لِتُنْظَمَ مَـعْ أهْلِ المحـبَّـة فى سِلْكِ

مـتى لاقَ بالعُـشَّـاق عِـزٌّ وسطوةٌ كـأنّك من ذُلِّ المحـبَّـةِ فى شكٍّ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٢٩

-١١٩-

قال الصفدى: «وقلتُ أنا فى مثل هذا النوع(*):

[من مخلع البسيط]

أضـــاعَ نُـسْكِى عَـــذارُ تُرْكِى فكيف تَـرْكى لحـــاظَ تُـرْكى

قَـــدْ شَـكَّ قلبى بِرُمْـحِ قَـــدٍّ قَـــدَّ فـــؤادى بغَـــيـــرِ شَكِّ

التخريج: الغيث ٢/ ٢٠٣



(*) يقصد ردّ العجز على الصدر وهو من أنواع البديع.

-١٢٠-

قال الصفدى: «وقلت:

[من الكامل]

علم الوشــاةُ بأنَّ ريقَ مُــعَــذِّبى راحٌ تُعِيـدُ الصَّـبَّ بَعْـدَ هَلاكِـهِ

أمَّــا أنا لم يَبْـدُ هذا من فَــمِـى لكنَّ هذا من فُــضُـولِ سِـوَاكِـهِ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٥١

-١٢١-

قال الصفدى: «وقلت أنا:

[من السريع]

أشكو إلى البـدرِ ليالى الجَـفـا وليـس يَدْرى مــا بِمُـضْـناكِ

فــهــو سَـمـيـرى أتَسَلَّى به وإنما البَـــدْرُ مُــحَــيَّـاكِ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٤٣

## قافية اللام

-١٢٢-

قال الصفدى: «وقلت- أيضا-:

[من السريع]

وجـدتُ فى عشـرةِ صحبى أذًى لمَّا لزمتُ البـيتَ فـى الوقت زالْ

يا عـجـبًـا مِنْ أشْعَـرِىٍّ غَـدا يَحْمَدُ رأىَ النَّـاسِ فى الاعتـزالْ»

التخريج: الغيث ١/ ١٦٠

-١٢٣-

قال الصفدى: « وذكرت- هنا- ما نظمته فى مليح قابل معى كتابًا وهو:

[من المجتث]

جَـنَـيْـتُ خَــــــدَّكَ وردًا غَــــضًّـــا وقـــدُّكَ ذابِلْ

فهـا أنا كلّ وقتٍ أجْنى وأنتَ تُقابِلُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٧٩

-١٢٤-

قال الصفدى: «ومما قلته فى الخيال:

[من المخلع البسيط]

لم يرنى الطَّيفُ إذْ أتانى لِذَوْبِ جِسْمى بِكَ انتحالا
وعندما دلَّهُ أنِينى باتَ كلانا يرَى خَيالا»

التخريج: الغيث ١/ ٢٤٣

-١٢٥-

قال الصفدى: «وقلت مضمنًا قول المعرى:

[من الوافر]

وأشقرَ نَبْتُ عارِضِهِ تَراهُ كأنَّ شُعَاعَ وَجْنَتِهِ تلالا
وَدَبّتْ فَوقَهُ حُمُرُ المنايا ولكنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمالاَ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٥

-١٢٦-

قال الصفدى: «وقلت أنا مضمنا:

[من الخفيف]

لى أيرٌ ينامُ شؤمًا ولؤمًا إن أنا نِلْتُ من حبيبٍ وِصالا
وإذا ما غدوتُ فى البيت فردا طلبَ الطعن وحدَهُ والنزالا»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٤١

-١٢٧-

قال الصفدي: «وقلت فيه - أيضاً: -

[من الطويل]

هويتُ خيـــاليّـــا حكَى الغُـــصْنَ قَـــدُّهُ
إذا مـــا انثنَى هاجتْ عليـــه البـــلابلُ
أراق دمَ العُـــشَّـــاقِ سَـــيْفُ جُـــفُـــونه
ومَنْ بَعْـــد ذا أضـــحَى عليـــهم يُخـــايِلُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٢٤

-١٢٨-

قال الصفدي: «وقلت أنا: -

[من مخلع البسيط]

عشقتُ شيخـا بديعَ حُسْنٍ لام على حُـبِّـه العـذولُ
كـأنَّ ياقـوتَ وجنتَيْـه للشَّيب فيـها حـبالُ لولو»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٨٥

-١٢٩-

قال الصفدي: «وقلت فى مليحٍ أحبَّ أسود: -

[من المتقارب]

أيَا مَنْ تكَلَّفَ حُبَّ العَـبيـد ذلك فى العـقل لا يَجْـمُلُ
فَلوبِتُّـمـا عند قَـدْرَيْكُمَـا لَبِتَّ وأعـلاكـمـا الأسْـفَلُ

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤، ٢/ ٢١٥، ٢١٦



قال الصفدى: «وقلت أنا: -

[من الطويل]

ورُبَّ صَديقٍ غاظَهُ حين جاءَهُ  من القوم صفعٌ دائمُ الهطْلِ بالنَّطْلِ
فقلتُ له تأبى المروءةُ أننا  نُخلِّيكَ يا بستانُ فينا بلا نخْلِ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٣٧

-١٣١ -

قال الصفدى: -

[من الطويل]

تداهَى عذولى فى الغرامِ ولَمْ تكُنْ  مَقاصِدُهُ تَخْفَى على عاشِقٍ مِثْلى
أحَبَّ فلمَّا غارَ منِّى وخاف أنْ  أفاتِحَهُ فى ذاكَ سابَقَ بالعَذْلِ

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٦

-١٣٢ -

قال الصفدى«ثم جمعت الستَّة - أى الدهاة الستَّة - فى قوله: -

[من الطويل]

مِنَ الْعُرْبِ إنْ رُمْتَ الدُّهَاةَ فَستَّةُ
مَوائدُ فَضْلٍ مَا بِهِنَّ طُفَيْلِى
مُعاويةٌ، عمرو، زيادٌ، مُغيرةُ
وقَيس، وعبدُ اللهِ نَجل بُدَيْلِ»

التخريج: الغيث ١/ ٧٥



- ١٣٣ -

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الطويل]

«لئن رُحْتُ مَعْ فضلى من الحظِّ خاليا
وغيرى على نقصٍ بِه قَدْ غدا حالى

فإنّى كَشَهْرِ الصَّوْمِ أصبح عاطلاً
وطوقُ هِلالِ العيدِ فى جِيدِ شوَّالِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٢٥

- ١٣٤ -

قال الصفدى:-

[من البسيط]

«تقولُ يعكسُ آمالى وأنت كما ... عَلِمْتَ فى عالمٍ فى التُّرْبِ مُسْتَفِلِ
أما ترى الشَّمْسَ تَلْقَى عكْسَ مَقْصِدِها ... فى كلِّ يَوْمٍ ولوْلا ذاك لمْ تَفِلِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٣٩

- ١٣٥ -

قال الصفدى: مضمنًا عجزَ بيت الطغرائى: «لى أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحل»:

[من البسيط]

«أفدى حبيباً له فى كلِّ جارحةٍ ... منّى جراحٌ بسيفِ اللَّحْظِ والمقَلِ
تقول وجنتُه مِن تحت شامَتِه ... لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحلِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٢٨٩

- ١٣٦ -



قال الصفدى : مضمنا قول الطغرائى لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل-

[من البسيط]

رأيتـه تحت عـبـد بـات يَرْهُزُهُ ... فقلتُ ترضَى بذا قُبِّحْتَ مِن رَجُلِ
وكيف يعلوكَ عَبْـدُ السوءِ قال نعم ... لى أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحلِ

التخريج: الغيث ٢/ ٢٨٩

- ١٣٧ -

قال الصفدى: «وقلت أنا فى مليحة أسنَّتْ:-

[من البسيط]

قـالوا اسْلُهـا قَـدْ ذَوَى عنّاب راحـتِـهـا
وأنـت رهنُ صَـبـابـاتٍ وتضليـلِ
فـقلـتُ لستُ بـسـالٍ حُـبَّـهـا أبدا
وكلَّـمـا كَـرْنَـشَ العُنّاب يَحلو لى»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٨٦

- ١٣٨ -

قال الصفدى: «وقلت أنا فى مَلِيح مخايل:-

[من مخلع البسيط]

مـخـايل قـد بَدَتْ عليـه ... مـخـايل البـدر فى الكمـالِ
تُـريكَ بـابـاتُـهُ فنـونًـا ... تروقُ فى الحُـسْنِ والجَـمـالِ
فَـقَـدْ غـداً وَصْلُـهُ يَقِـينًا ... أحسنَ مـا كـان فى الخَـيَـالِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٢٤



- ١٣٩ -

قال الصفدى: «وقلت: - أيضا: -

[من الوافر]

وحـقِّكَ لو حكاها غـصْنُ بانٍ ... لقطعتُ الخفَـافَ على قَـذالهْ

ولم يَفْـتحْ لِعَـيْنِ الزَّهْرِ جَـفنًا ... لِينْظُرَ فى الغَـدِيْرِ إلى خَـيَالِهْ»

التخريج: الغيث ١/ ٣٠٠، ٣٠١

- ١٤٠ -

قال الصفدى: «وقلت: أيضا: -

[من الكامل ]

يا آمرى بالصبـر عَـمَّن شفَّنى ... سقـمًا وفى فيـه شِفـاءُ غليلى

مَن يستطيعُ الصبرَ أو يرضَى به ... عن مثلِ ذاك المرشف المعسـولِ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٥١

- ١٤١ -

قال الصفدى: «وقلت أنا فى الوحدة: -

[من السريع ]

لَزِمتُ بيـتى كلزوم البِنَا ... فى الفعلِ والحرفِ على الأصلِ

واستـوحشت نَفْسِى حَتَّى لقَدْ ... نفَـرتُ لو أمكنَ مِنْ ظِلِّى»

التخريج: الغيث ١/ ١٦٠

- ١٤٢ -

قال الصفدى: «وقلت: -

[من السريع ]

يا حـسرةً فـيه على سلوةٍ ... ليستريح القلبُ مِنْ عـاذلى

فـإنَّ عـمرى بين ذلِّ الهـوى ... وَعَـذْلِه قـد ضاع فى البـاطِلِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٦





-١٤٣-

قال الصفدى: «وقلت: أيضا:-

[من السريع ]

غَنَّى بِشِعْرٍ سَمِرًا فانثنى ... مشبَّب الجوقَةِ يَدْعُو لى

وقال ما مقطوعُهُ داخلٌ ... لِذاك يستخرجُ مَوْصُولى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٨٧

-١٤٤-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من المجتث]

لِلَّهِ قومٌ حمونى ... من حادثات الليالى

صانوا وصابوا وصالوا ... كذا جناسُ المعالى»

التخريج: الغيث ١/ ٧٨

-١٤٥-

قال الصفدى: «وحاولت أنا نظم شىء.. فقلت:-

[من المجتث ]

كفلت حملَ غرامى ... له بفرطِ نحولى

فهل سمعتمْ بِغَيْرِى ... فى السقم مُضنًى كفيلِ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٠٨



## قافية الميم

-١٤٦-

قال الصفدى: «ونظمت أنا فى هذا المعنى(*):

[من الطويل]

ألاَ إنَّ مَنْ عــانى القَــرِيضَ بِطَبْــعِــهِ
يقــودُ فَــأرْسِلْـهُ لِمَنْ صَــدَّ و اخْــتَــشَمْ
ألم تَــرَهُ إنْ قــال شِــعْــراً مُــجَـنَّسًــا
يُؤَلِّفُ مـــا بـين الحــروفِ إذا نَظَمْ»

التخريج: الغيث ١-٧٧/ ٧٨

-١٤٧-

قال الصفدى: «وقلت أنا:

[من الطويل]

وَمَا حَسَدَتْ نفسى سوى نَفَس الصَّبَا ... ولا سيـمـا يوم قَطَـعْنَاهُ بالحِـمَى
فَكَمْ ضَمَّ عطفًا للغصـون مُرَنَّحًـا ... وَعَـانَقَه قَـداً اللقـضيب مُقَوَّمًا
وَقَبَّلَ خَـدَّ الوردِ وهو مُـضَـرَّج ... وثغر الأقاحى فى الرُّبى إذْ تَبَسَّما
وكم باتَ يستجلى عذارَ بنفسج ... سَقَتْهُ الغـوادى صَوبَهـا فتنمنما»

التخريج: الغيث ١/ ٣٠٠

---

(*) يقصد معنى بيت أسعد بن مماتى
طبعُ المجنس فــيــه نوعُ قــيــادةٍ ... أوَمَــا ترى تــأليــفَــه لــلأحــرفِ

-١٤٨-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من الطويل]

تَعَشَّقْتُهُ مِثْلَ القَضيبِ إذا انثنَى ... بِوَجْهٍ حكَى البدرَ المُنيرَ إذا تَمَّا

فَإنْ كانَ عُذَّالى عَمُوا عن جماله ... فلى أُذُنٌ عَنْ كُلِّ ما نقلوا صَمَّا»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٦٦

-١٤٩-

قال الصفدى: «وقلت:-

[من البسيط]

قالوا علا نيلُ مصرٍ فى زيادته ... حتى لقد بلغَ الأهرام حينَ طَما

فقلتُ هذا عجيبٌ فى بلادِكُمُ ... أنَّ ابْنَ ستٍّ وعشرٍ يبلغُ الهَرَما»

التخريج: الغيث ٢/ ٧٦

-١٥٠-

قال الصفدى: «وقلت - أيضًا - فى بكاء المحبوب:-

[من الطويل]

بِمُقْلَةِ مَحْبُوبى دُمُوعٌ تَحَدَّرَتْ ... دلالاً على صَبٍّ غدَا وهُوَ مُغْرَمُ

فَشَبَّهْتُ عينيه سيوفًا وقَدَ غَدَتْ ... من التِّيهِ فى أغْمَادِهَا تَتَبَسَّمُ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤

-١٥١-

قال الصفدى: «وقلت فيمن يُتَّهم بحاله مع معشوقه:-

[من الطويل]

يقول له المعشوقُ وَهْوَ يلوطُهُ: ... لعلَّكَ تحتى بعد ذاك تنامُ

فقال وهل فى العيش للنَّاسِ لَذَّةٌ ... إذا لَمْ يكُنْ تَحْتَ الكِرَامِ كِرَامُ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤

-١٥٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من البسيط]

إنْ كنتَ تنكرُ حالى فى الغرام وما ... ألقَى وأنّى فى دعواىَ مُتَّهَمُ

فاللّيلُ والوَيْلُ والتَّسْهيدُ تَشْهَدُ لى ... والحزنُ والدَّمْعُ والأشواق والسَّقَمُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٣٣

-١٥٣-

قال الصفدى: «وقلت وقد عدتُ مليحًا أرمد:-

[من البسيط]

أيقظتُهُ مِنْ كَرَاهُ بعد ما رَقَدَتْ ... عيناهُ لامَسَهُ مِنْ بعدِها ألمُ

قَدْ زُرْتُهُ وسيوفُ الهِنْدِ مغمدةٌ ... وَقَدْ نظرتُ إليه والسيوفُ دَمُ»

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤

-١٥٤-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من المنسرح]

هذا مُحبٌّ وما يُخَلِّصُهُ ... فى دينِهِ إنْ وشاتُهُ أثموا

فواصليهِ واصْغَىْ لمغلطةٍ ... يَقْبَلُها من طباعِهِ الكرمُ

يا ويحَ وَصْلٍ أتى بحيلتِهِ ... إن كنتَ لم تُرعَ عندكَ الذِّمَمُ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٢٤



-١٥٥-

قال الصفدى: «وقد ضمنت هذا البيت(*) فى معنى نظمته:-

[من البسيط]

أقول إذ نالنا فى برِّ مِصْرَعنا | لما أتيناهُ إلى الأهرام فى الظُّلَمِ
أتى الزمانُ بَنوهُ فى شَبِيبَتِهِ | فسرَّهم وأتيناه على الهرَمِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٧٤

-١٥٦-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى الحظ:-

[من البسيط]

شكوتُ حظِّى إلى دهرى وبيَّنتى | فضلى، ولكنها لم يَرْضَها حكمى
مآربُ عاقنى عن نَيْلها قَدَرٌ | جرى ولكنها لمْ تَعْلُ عَنْ هممى»

التخريج: الغيث ٢/ ١٣٧، ١٣٨

-١٥٧-

قال الصفدى: «وقلت فى النوع الأول أيضا(**):-

[من مخلع البسيط]

قَدْ فاقَ غُصْنَ النَّقَا حبيبى | وأخجلَ البدرَ فى التَّمامِ
ذاك قوامٌ بلا مُحَيَّا | وذا مُحَيَّا بلا قوامِ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٠٣

(*) أى بيت أبى الطيب المتنبى، وهو البيت الثانى من بيتَىْ هذه المقطوعة.

(**) يقصد من أنواع رد العجز على الصدر.

-١٥٨-

قال الصفدى: -

[من الكامل]

أنا والحبيبُ وَمَنْ يلومُ ثلاثةٌ ... لهم بديعُ الحُبِّ أصبحَ ينتمى

فلِىَ الجِنَاسُ لأنَّ دَمْعِى مِن دَمِى ... يَجْرِى ألستَ تراه مِثْلَ العندَمِ

وله مطابقةُ التواصل بالقِلَى ... ولِعاذليه لُزومُ ما لم يَلْزَمِ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٤

-١٥٩-

قال الصفدى: «وقلت فيه أيضا: -

[من السريع]

قد زاد هذا النِّيلُ فى عامِنَا ... فأغرقَ الأرضَ بإنْعَامِهِ

وكادَ أن يعطفَ مِن مائِهِ ... عرًى على أزرار أهرامِهِ»

التخريج: الغيث ٢/ ٧٦

-١٦٠-

قال الصفدى: «وقلت أيضاً-

[من المتقارب]

ضَمَمْتُ خيالَكَ لَمَّا أتى ... وَقَبَّلْتُهُ قُبْلَةَ المُغْرَمِ

وقُمْتُ ومِن فرحَتِى باللِّقا ... حلاوةُ ذاك اللَّمى فى فَمِى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٤٣

-١٦١-

قال الصفدى: «وقلت فيه أيضاً:-

[من السريع]

ورُبَّ أعْـمَى وجْـهُـهُ روضـةٌ    تَنَزُّهى فـيـهـا كـثـيـرُ الديونْ
فى خَـدِّهِ وردٌ غنينا بـه    عن نرجسٍ مـا فَتَّحَتْهُ العيونْ»

التخريج: الغيث ٢/٣٢١.

-١٦٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الطويل]

أقولُ لـهـمْ قَدْ رَقَّ عَيْشِيَ والصِّبَا    وعقلى وكاساتى وصَوْتِى الذى غَنَّى
فقال الذى أهوى: وخصْرِى نَسِيتَهُ؟    فقلتُ له: والله قَدْ جِئْتَ فى المعْنَى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٢.

-١٦٣-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

ولَقَدْ أتَـيْتُ لِصَاحِبٍ وَسَـأَلْتُهُ    فى قَـرْضِ دينارٍ لأمـرٍ كـانا
فـأجـابنـى واللهِ دارى مـا حَـوَتْ    عَـيْنًا فـقلتُ لَهُ ولا إنْـسـانًا»

التخريج: الغيث ١/٢٦٦.

-١٦٤-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

لا كُنْتَ يا فَـضْلَ الـشِّـتَـاءِ فـإنَّنا    لَمْ تَـأتِ إلا نُضْـرِمُ النِّـيـرانا

فإذا تطاردُ فيك خيل شرارها ... رَجَعَتْ بِحِدَّتها بنا خيلانا»

التخريج: الغيث ١/ ٤٢٥.

-١٦٥-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى شرط الصحبة:-

[من المتقارب]

صديقُك مهما جنى غطّه ... ولا تُخف شيئاً إذا أحسنا

وكنْ كالظَّلام مع النار إذْ ... يوارى الدُّخَانَ ويُبْدِى السَّنَا»

التخريج: الغيث ١/ ٣٣٤.

-١٦٦-

قال الصفدى:-

[من البسيط]

إذا تَيَسَّرَ لى فى مصر واجتمعتْ ... سَبْعٌ فإنِّىَ فى اللّذات سلطانُ

خودٌ وخمرٌ وخاتونٌ وخادمها ... وخلسةٌ وخَلاعاتٌ وخِلاّنُ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٥٩.

-١٦٧-

قال الصفدى:-

[من البسيط]

إن قَدَّر اللهُ لى فى العُمْرِ واجتمعتْ ... سَبْعٌ فما أنا فى اللّذات مَغْبونُ

قصرٌ وقدرٌ وقوّادٌ وقَحْبَتُهُ ... وقهوةٌ وقناديلٌ وقانونُ

التخريج: الغيث ٢/ ٤٥٩.




-١٦٨-

قال الصفدى: «ومما نظمته أنا:-

[من الطويل]

وقـائلةٍ فِـيمَ اجـتـهـادُك لِلغِنَى ... وَقَـدْ رَقَـدَتْ للحظِّ منك عـيـونُ
فـقلتُ لها والله مـا بِىَ حـاجـةٌ ... لتـحـصـيلِ دُنيا فـالأمـورُ تَهـونُ
ولكنْ حـقـوقٌ للعُـلَى قَـدْ تَرَتَّبَتْ ... على ذِمَّـتِى مـفـروضـةٌ وديونُ
فَلَوْ وَجَدَتْ كَـفِّى لَبَرَّأَتُ سـاحتى ... وكنتُ أُرِيكِ الجُـودَ كـيفَ يكونُ»

التخريج: الغيث ١/ ٢٢٧.

-١٦٩-

قال الصفدى: «وكتبت أنا إلى المولى جمال الدين محمد بن نباته:-

[من الكامل]

لو أنَّ قُـربَـكَ بالنُّفُـوسِ يكونُ ... كـان العـزيزُ لِمِـثْـلِ ذاك يهـونُ
لـكـنَّ دهـرى أنت تَـعْـلَـمُ أنَّـهُ ... بِنَوَى الحـبـيـبِ مُـوكَّلٌ مـقـرونُ
هذا إذا عـاهَـدْتُهُ أنْ نَلْـتَـقى ... ينسى، وإنْ أنصـفتُ قلتُ يَخُـونُ
دَهْرٌ له فـى كلِّ يومٍ خَـضْـبَـةٌ ... بِـأُهَيْلِهِ مـا عند ذاك يمينُ»

التخريج: الغيث ٢/ ٣٥٣.

-١٧٠-

قال الصفدى: «وقلت أيضا:-

[من الوافر]

وإخـوانٍ وثـقتُ بهمْ فـأضْـحَى ... أذاهُمْ يَـغْـتَـرِينى كُـلَّ حِينِ
ولَمَّا أنْ أسَـأتُ الظَّنَّ كَـفُّـوا ... فـواعَـجـبـاه مِنْ ظَنٍّ يَقِـينى»



التخريج: الغيث ١/ ٤٠٨.

-١٧١-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

مولًى تَفَرَّعَ مِنْ كِرَامٍ وجهُهُمْ وبنانُهم للمُجْتلِي والمجْتنى

فاقوا الأنامَ عُلاً وَهُمْ من جنسهم ومنَ الحجارة إثمدٌ للأعْيُنِ»

التخريج: الغيث / ٣٦٠.

-١٧٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى المشورة:-

[من الكامل]

لا تَسْعَ فى أمرٍ ولا تَعْمَلْ بِهِ ما لمْ يَزِنْهُ لديك عقلٌ ثانى

فالشِّعْرُ معتدلٌ بِوَزْنِ عَروضِهِ وكذا اعتدالُ الشَّمْسِ بالميزانِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٥٣.

-١٧٣-

قال الصفدى: «وقلت أنا فى المشورة:-

[من الكامل]

حسبى الذى ألقاه مِن ألم الهوى وعلى الصحيح فبعضُ ذاك كفانى

فانظر إلى قلبى إذا قابَلْتَهُ يا غصنُ كيف يطيرُ بالخَفَقانِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٠٢.

-١٧٤-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من الكامل]

سافر تنلْ رُتَبَ المفاخرِ والعُلا كالدُّرِّ سارَ فصار فى التيجان

وكذا هلالُ الأفق لو تَرَكَ السُّرَى ما فارقَتْهُ مَعَرَّةُ النُّقْصَانِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١١٩.

-١٧٥-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

سافرْ تَنَلْ عِزًّا فما مِسْكُ الورى إلاّ دمٌ فى سُرَّةِ الغِزْلانِ
والرُّمْحُ لمَّا فارقَ الوطنَ اغتدى بذؤابةٍ خفقتْ وتاجِ سنانِ»

التخريج: الغيث ٢/ ١١٩.

-١٧٦-

قال الصفدى:-

[من مجزوء الكامل]

لم أنسَه فى روضةٍ والطَّيرُ تَصْدَحُ فوق غُصنِ
فأعلَّم الوُرْقَ البُكا ويعلِّمُ البانَ التثنِّى»

التخريج: الغيث ٢/ ٤٦٣.

-١٧٧-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من الخفيف]

قَدْ سَأَلْتُ النَّسيمَ وَهو خبيرٌ بسؤالى إذْ غابَ وَجْهُكَ عنِّى
قُلْتُ: قُلْ لى: هَلْ وَرْدُ خَدَّيهِ غَضٌّ قَالَ قَدْ ضَاعَ نَشْرُهُ، قُلْتُ مِنِّى»

التخريج: الغيث ١/ ٢٦٦.

-١٧٨-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من الخفيف]

وغزالٍ غزا فؤادى بِسَهْمٍ وسنانٍ من طرفِهِ الوسنانِ
كم سقانى مِنْ ثغرِهِ كاسَ خمرٍ فَرَشَفْتُ السُّلافَ من أُقْحُوانِ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٥٢.

-١٧٩-

قال الصفدى: «فلما أصبحت أنشدته- أى ابن نباته - فى معناه:

[من المجتث]

يقولُ رِدفُ حبيبى وَعِطْفُهُ المتثنِّى
ما أنت يا غُصْنُ قدِّى ولا كثيبُكَ وزنى»

التخريج: الغيث ١/ ٤٠٣.

## قافية الهاء

-١٨٠-

قال الصفدى: «وقد لمحت أنا إلى قول ابن خفاجة(١) فنظمته وزدت فيه مع الاستعارة حسنَ التعليل:-

[من الكامل]

أضحى نسيمُ دمشق حيَّاها الحَيَا يمشِى الهُوَيْنَا فى ظلالِ حِمَاهَا

فكأنَّهُ مِنْ مائِها وهِضَابِها ما داس إلاَّ أعْيُنًا وجِبَاها»

التخريج: الغيث ١/ ١١٣.

-١٨١-

قال الصفدى: «ولما اتفق لى نظمه:-

[من الرجز]

قُلْ لِلرَّقِيبِ يَسْتَرِحْ مِنْ رَصْدِى ما أصبح المعشوقُ عندى مُشْتَهَى

وارتدَّ قلبى عن سيوفِ لَحْظِه وكلُّ شىءٍ بلغ الحدَّ انْتَهَى

التخريج: الغيث ١/ ١٢٤، ٢/ ٥١.

-١٨٢-

قال الصفدى: «وقلت أنا:-

[من الكامل]

هل يكتسى المحبوبُ قبحًا زائداً بدلاً مِنَ الحُسنِ الذى غطّاهُ

وأراهُ بالعين الذى أبصرتُه كى لا أرى غيرى قتيلَ هواهُ»

التخريج: الغيث ٢/ ١٥٨.

---

(١) يقصد أبياته:

وتلذَّذتْ نحو الحمى بىَ نظرةٌ عذريّةٌ ثَنت العنانَ إلى الحمى

فَلَوَيْتُ أعناقَ المطىِّ مُعَرِّجاً ونزلتُ أعتنقُ الأراكَ مُسلِّما

فى منزلٍ ما أوطأتُهُ حافراً عُربُ الجيادِ، ولا المطايا منسما

-١٨٣-

قال الصفدى :-

[من الطويل]

وأهْيَفُ كالغُصْنِ الرَّطيبِ إذا انثنَى تميلُ حمـامـاتُ الأراكِ إليْـهِ

له عـارضٌ لَمَّا رأى الطَّرْفَ ناعِساً أتى خَـدَّهُ سِـراً ودبَّ عَـلَيْـهِ

التخريج: الغيث ٢/ ٨.

-١٨٤-

قال الصفدى: «وكتبت أنا إلى بعض الأصحاب:-

[من المتقارب]

كـتـبْتُ لَـمِـولْـى نَأَتْ دارُهُ وسـينات حـالِيَ وَقْفٌ لـديْهِ

فـسـعْـيِى إليـهِ سُمُـوِّى بِهِ سُـؤالى عنـه سلامـى عليـهِ»

التخريج: الغيث ١/ ١٥٩.

## قافية الياء

-١٨٥-

قال الصفدى: «ملغزاً: -

[من الطويل]

شـهـادَتُهُ مـا ردَّها غـيـرُ كـافـرٍ ويقضى بها بالحقِّ مَنْ كـان قاضِيَا

يقول مُـعانى الطِّـبِّ: يا عَجَباً لهُ يَصِحُّ وقد ضَـمَّتْ حشاه المراقـيا»

التخريج: الغيث ٢/ ٢١٩.

-١٨٦-

قال الصفدى: «وقلت - أيضاً:-

[من مجزوء الكامل]

يـا قلـبُ إنْ زاد الـظـمـا فـاقـصـدْ مـراشِفَـه الشَّـهِيَّـهْ

إنـى لأعـرِفُ مَنهـلاً يَشْفِى الجـوَى خلفَ الثَّنِيَّـهْ»

التخريج: الغيث ١/ ٤٥١.





-١٨٧-

قال الصفدى: «وقلت أخاطب أمرد يسرق نظمى:-

[من السريع]

إِنْ كـــان لا بُـدَّ لمولاىَ أنْ ... يأخذَ شِعْـرِى جملةً كـافيَـه

قـافـيـة البـيت اطرح لفظهـا ... وقم خُـذِ الكلَّ بلا قــافيَـه»

التخريج: الغيث ١/ ٦٣.

******



# الخاتمة

حاولت فى الفصول السابقة دراسة كتاب من أهم كتب شروح الشعر فى تراثنا العربى، وهو كتاب «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم» لصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى المتوفى ٧٦٤هـ.

وقد جاءت هذه الدراسة فى خمسة فصول، تحدثت عن مباحثها، والمنهج الذى سرت عليه فيها فى المقدمة، ثم أردفتها بملحق جمعت فيه نصوص شعر الصفدى التى بثها فى تضاعيف الغيث، ورتبتها على حروف المعجم، وحققتها تحقيقاً علمياً، وكان هدفى من هذا الملحق أن أحقق غايتين: الأولى لَمُّ شتات هذه النصوص المفرقة فى الغيث بجزأيه، والثانية: ضبطها وتيسيرها لتكون فى متناول الباحثين والدارسين.

وأريد فى هذه الخاتمة أن أركز على أهم ما خرجت به هذه الدراسة من النتائج التى أُجملها فيما يلى:

**أولاً:** أفضتْ بنا هذه الدراسة إلى الإيمان بأهمية الغيث المسجم بوصف كتاباً يعبر - أصدق تعبير- عن الحياة الفكرية فى العصر المملوكى الأول بكل ملامحها وأطرها، حيث صور الصفدى فيه هذه الحياة وأهم ما يميزها ويسمها من الميزات والسمات العامة والخاصة، وقد جاء ما قدمه لنا فى هذا الكتاب موافقا لما حدثتنا عنه مصادر العصر الأدبية والفكرية الأخرى.

ثانياً: وأفضَتْ بنا هذه الدراسة إلى الإيمان بأهمية الغيث عند تحقيق دواوين شعراء العصر المملوكى الأول وعند تحقيق آثار هذا العصر الفنية الأخرى؛ لما حواه الغيث من النصوص الكثيرة لشعراء العصر وكتّابه، وقد بينتُ فى الفصل الثالث من فصول هذا الكتاب أن هذه النصوص لا يمكن أن يرقى إليها الشك؛ فهى بمعزل عنه لأصالة مصادرها، حيث أخذها الصفدى عن أصحابها: إما مشافهة، وإما إجازةً؛ حيث كانت علاقاته الاجتماعية قوية وواسعة ووطيدة، مما أدى إلى قبول العلماء والأدباء لشخصه، وإقبالهم عليه، وحرصهم على مصادقته، مما مكن الصفدى من قراءة آثارهم، وسماع أشعارهم، وتدوينها.

ثالثاً: يحمل الغيث المسجم كل خصائص الكتابة العربية فى العصر المملوكى الأول؛ ومن حيث:

١- الاهتمام بالبديع؛ فقد لاحظت أن الصفدى يكثر منه فى ثنايا حديثه، وقد كان على الأخص يكثر من السجع والجناس.

٢- غلبة النزعة الموسوعية؛ تلك النزعة التى كانت سائدة فى ذلك العصر، والتى أدت إلى حفظ آثارنا وتراثنا العربى والإسلامى فى ذلك العهد العصيب.

رابعاً: كان الصفدى على وعى تام بما سيكتبه داخل شرحه لكل بيت من أبيات اللامية من المباحث النحوية والأدبية، وهذا يدل على ترتيبه لها، ومن ثم فهو يمتلك منهجاً واضحاً فى تأليفه. وقد كانت شخصيته ظاهرة وواضحة أثناء تحريره هذه المباحث جميعها؛ حيث كان يناقش النص الذى يورده، ويوافق الآخرين أو يخالفهم عن اقتناع كامل، كما كان يصحح كثيراً من الأخطاء العلمية التى يتداولها الناس على أنها من بدهيات العلم ومسلَّماته الأولى، وقد ظهر الصفدى من خلال هذا الكتاب الذى يضم حصيلة تجاربه فى هذه الحياة عالماً باللغة، والنحو، والتاريخ، والأدب، وكل علوم عصره، وهو لذلك حقيق بالإكبار والإجلال، وجديرٌ بأن يقف فى مصاف العلماء الأفذاذ فى عصره وفى كل العصور.

خامساً: يرى الصفدى أن القصيدة الشعرية يجب أن تكون كالبناء المتماسك المرصوص الذى يشد بعضه بعضاً، ويدعو الشعراء إلى إحكام صنعة الشعر عن طريق تخير الألفاظ والعبارات المناسبة للمعانى والأفكار، ثم عن طريق تخير القوافى التى يجب أن تتجانس مع ألفاظ الأبيات عذوبةً وفصاحةً وقوةً، ولعله فى هذا متأثر بابن طباطبا العلوى فى عيار الشعر.

سادساً: يعتمد الصفدى فى نقده للعمل الفنى على الأسس الآتية:

أ- الذوق الخاص: فهو كثيراً ما يجعل ذوقه الخاص حكماً على العمل الفنى من ناحية الجودة والرداءة، أو الحسن والقبح، ويردد عبارات تدل على ذلك من مثل قوله: «وهذا ما يشهد الذوق بصحته» وقوله: «وليس ينكر هذا إلا من ليس له ذوق فى الأدب».

ب- البديع: وهو يرى أن البيت الشعرى يكتسب جمـاله وقيمته الفنية، إذا كان يحتوى على أكبر قدر ممكن من المحسنات البـديعية، سواء أكانت محسنات معنوية أم محسنات لفظية، وهو هنا يوافق عصـره الذى سيطر عليه التصنع، مما أدى إلى شيوع البديع، وتعدد ألوانه وأشكاله.

جـ- طرائق العرب فى التعبير والأداء: فهو يتخذ ما أثر عن الشعراء فى العصور السابقة من أسـاليب فى التعبير، وطرائق فى الأداء دعـامة من الدعائم التى يحكم بها على البيت أو العـمل الشعرى، فمتى كـان قول الشاعر متسـقاً مع ما أثر عن السـابقين فى التـعبـير والأداء كـان حـسناً.. ومتى خـالف مـا ورثناه من طرائق ومضامين كان قبيحاً.

سابـعاً: ويؤمن الصفـدى بالغاية الوعظية والتـعليميـة للأدب، بمعنى أنه يمتدح البيت إذا كان يحتوى على معنى خلقى جمـيل، أو مثل سائر، كما يعجب بالبيت إذا كان يؤدى هدفاً تعليمياً كأن يحـتوى على نكتة نحوية على سبيل المثال، أو أى معنى علمى آخـر، كما يعجب بالبـيت إذا كان يتضمن لغـزا حسنا، وهذا يدخل أيضا تحت الغاية التعليمية لـلأدب؛ لأن الألغاز تساعد على تفتح الأذهان وإعمال القرائح، وتنشيط الأفهام.

ثامناً: يقف الصفدى من المتنبى موقفـاً وسطاً؛ فلا هو بالمفرط فى حبه، ولا هو بالمتغالى فى كرهه، حيث كان ينتصف له مرة، ويؤاخذه على أخطائه أخرى، وهو فى آرائه ومواقفه من المتنبى يكاد يكون صورة مكرورة ممن سبقه من النقاد، ويكاد يكون صورة مكرورة من القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة، لا سيما فى عدله وإنصافه.

تاسـعاً: ويرى الصفـدى أن ابن سناء الملك شاعـر فذ، له سمـاته وخصـائصه الشعرية التى ينفـرد بها دون غيره من الشعراء، وقـد دافع عنه، وأبطل الكثير من انتقادات ابن جبارة التى وجهها إلى شعره، ولقد لاحظت أن الصفدى كان يتحامل أثناء دفاعه عن ابن سناء الملك على شرف الدين بن جبـارة، وكان كثيراً ما يخرج عن دائرة النقد الموضـوعى الهادف إلى النيل من هذا الرجل والسخـرية منه والهزء به، كما لاحظتُ أن الصفدى فى بعض الأحيان لا يفند اتهامات ابن جبارة كلها؛ إما تجاهلاً، وإما اقراراً منه بها.

عاشراً: وللصفدى رأىٌ فى مشكلة السرقات يتلخص فى النقاط الآتية:

١- يرى أن السرقة لا تكون فى الشائع المشترك بين الناس.

٢- يرى أن السرقة قد تكون فى اللفظ دون المعنى، وقد تكون فى المعنى دون اللفظ، وقد تكون فيهما معاً، وهذا أكمل أنواع السرقة عنده.

٣- ولا يرى الصفدى سرقةً فيما قد يكون من آثار المحصول الفكرى والأدبى الذى يختزنه الأديب فى ذاكرته، كوقوع الحافر على الحافر، واستخدام التضمين أو الإيداع بكثرة فى شعره.

٤- يمتدح الصفدى الشاعر الذى يأخذ الصورةالقديمة أو المعنى القديم، ثم يحوره ويعدله، ويعيد صياغته بعد أن يخلع عليه خصائص نفسه، وشاعرية طبعه، ويهيئ له قيماً فنية أعلى وأكبر.

٥- يعيب الصفدى الشاعر إذا هو أخذ المعنى أو الفكرة من غيره، ثم عرضها فى ثوب أقل جمالاً وروعة من ذلك الذى كانت الفكرة أو كان المعنى عليه من ذى قبل، ولعله هنا قد تأثر بابن طباطبا العلوى فى عيار الشعر - أيضاً.

هذه هى النقاط الخمس التى يتلخص فيها رأى الصفدى فى السرقات الشعرية، وقد لاحظت أن الصفدى فى هذا الرأى بكل جزئياته لا يتميز عن النقاد الذين سبقوه، وأدلوا بدلوهم فى المشكلة، حيث كان فى آرائه تلك صورة مكررة لهم ولم تكن له نظرية أو لم يكن له تصور يغاير تصورهم للمشكلة، وهذا فى تصورى لا يعيب الصفدى فى شىء ولا ينقص من قدره بوصفه ناقداً ذوقيًا من نقادنا الذين وجهوا دفة الحياة الأدبية فى حقبة من الزمان؛ حيث كاد النقاد قبله يتفقون مع سابقيهم فى كثير من الآراء التى أدلوا بها فى قضية السرقات، وفى غيرها من قضايا نقدنا العربى.

الحادى عشر: ويرى الصفدى أن الطغرائى - ككل الشعراء - قد تأثر بمن سبقه من الشعراء فى ألفاظهم ومعانيهم لا سيما شعراء العصر العباسى بعهديه الأول والثانى من مثل أبى تمام، ومسلم بن الوليد، وأبى نواس، والشريف الرضى، والمتنبى، وأنه قد أثر فيمن أتى بعده من الشعراء؛ حيث كانت له خصائصه وسماته التى أثرت فيمن بعده من مثل ابن قلاقس، والأرجانى، وابن الساعاتى.

ثانى عشر: أثبتنا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب عربية نشأة علم العروض، ولم يكن هذا الموضوع من هدف هذه الدراسة، لولا أن الصفدى قد أثار حوله غباراً كثيفاً فى الغيث؛ حين نقل عن شيخه ابن ساعد الأنصارى أن اليونانيين لهم شعر، وعندهم ما يسمى بالأيدى والأرجل، ولا يبعد أن يكون قد وصل من عروضهم شىء إلى الخليل بن أحمد أعانه على إبراز العروض إلى الوجود، وقد أخبرنا أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى فى حديث شخصى معه أن كلام الصفدى فى هذه القضية مهم لأننا لا نعلم أحداً قبله أو بعده ادعى هذه الدعوى، ومن هنا جاءت أهمية تعقب كلام الصفدى، والتعليق عليه بقبوله أو رده.

ثالث عشر: وقد لاحظت أن الصفدى لم يعط الفنون البلاغية التى تحدث عنها فى الشرح حقها من الشرح والتحليل، وقد كان فى عرضه لها يكتفى بالتعريف النظرى مرة، وبالتطبيق على الشواهد مرة أخرى، وقد لاحظت أن الصفدى قد أغفل الحديث عن فنون علم المعانى، ولم يعط فنون علم البيان ما تستحقه من اهتمام، وانصب اهتمامه على فنون علم البديع، ومع هذا فقد جاء حديثه عنها موجزاً غاية الإيجاز، والصفدى وإن كان قد تحدث عن ستة عشر فناً بديعياً فقد كان هذا الحديث متمِّمًا لشرح البيت أو الأبيات التى يوردها من اللامية أو غيرها فحسب.

رابع عشر: لاحظت أن شعر الصفدى يتسم بما يتسم به شعر العصر المملوكى الأول من خصائص موضوعية وفنية؛ فمن ناحية الموضوعات شاعت عنده المقطوعات التى يتحدث فيها عن الغزل بالمذكر على عادة أهل العصر، كما احتل النظم فى الألغاز المرتبة الثانية عنده بعد الغزل بالمذكر، ومن ناحية الخصائص الفنية نلاحظ بوضوح اعتماده على الأوزان غير الشائعة فى ديوان الشعر العربى؛ حيث جاءت أغلب مقطوعاته على بحور السريع، والمنسرح، والمقتضب، والمجتث، والخفيف، كما نلاحظ إسرافه فى استخدام البديع بوصفه وسيلة من وسائل التشكيل الفنى فى العمل الشعرى، وهو فى هذا - أيضاً - يجرى على ما جرى عليه مبدعو عصره من طرائق فى التعبير والأداء. هذه هى أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة.

والحمد لله بدءاً ومختتماً وعليه - سبحانه - قصدُ السبيل

# المصادر والمراجع

أولا المصادر:-

١- أعوان العصر، وأعيان النصر/ لصلاح الدين الصفدى/ تحقيق الدكتور على أبو زيد وزملائه / دار الفكر دمشق ٩٨.

٢- إغاثة الأمة بكشف الغمة / لتقى الدين المقريزى/ بتحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور كتاب الهلال إبريل ١٩٩٠م.

٣- الأغانى / لأبى الفرج الأصفهانى/ بتحقيق لجنة نشر كتاب الأغانى/ بالهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٣م وما بعدها.

٤- الإيضاح فى علوم البلاغة / مختصر تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى/ دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٣م.

٥- البداية والنهاية / لعماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى/ الجزء الرابع عشر / مكتبة المعارف ببيروت ١٩٧٧م.

٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع / للشوكانى/ دار المعرفة ببيروت الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.

٧- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب / لتقى الدين المقريزى/ نشر إبراهيم رمزى وطبع المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر ١٣٥٦هـ.

٨- البيان والتبيين/ لأبى عمرو الجاحظ/ تحقيق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون/ ونشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٢م.

٩- التذكرة الصفدية/ لصلاح الدين الصفدى/ الجزء الرابع عشر مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٠.

١٠- تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه/ لابن حبيب الحلبى - تحقيق د. محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦م.

١١- تشنيف السمع بانسكاب الدمع / لصلاح الدين الصفدى/ مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر دون تاريخ.

١٢- تصحيح التصحيف وتحرير التحريف / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق السيد الشرقاوى وتقديم الدكتور رمضان عبدالتواب طبع مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٥م.

١٣- تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون / لصلاح الدين الصفدى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا - بيروت دون تاريخ.

١٤- توشيع التوشيح / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق ألبير حبيب مطلق / مطبعة دار الثقافة ببيروت ١٩٦٦م.

١٥- جنان الجناس / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق سمير حسين حلبى / دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

١٦- جوهر الكنز: تلخيص كنز ذوى البراعة فى أدوات ذوى البراعة / لنجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبى / تحقيق الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام / نشر منشأة المعارف بالاسكندرية الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

١٧- حسن التوسل إلى صناعة الترسل / لشهاب الدين أبى الثناء محمود الحلبى طبعة هندية عام ١٣١٥هـ بمصر.

١٨- الدارس فى تاريخ المدارس / للنعيمى/ عنى بنشره و تحقيق جعفر الحسنى/ مكتبة الثقافة الدينية القاهرة جزءان ١٩٨٨م.

١٩- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة / لابن حجر العسقلانى / الجزء الثانى دار الجيل ببيروت دون تاريخ.

٢٠- ديوان البحترى/ تحقيق حسن كامل الصيرفى - دار المعارف - ذخائر العرب - القاهرة ١٩٨٦م.

٢١- ديوان ابن سناء الملك / تحقيق إبراهيم نصر ومراجعة الدكتور حسين نصار/ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٩م.

٢٢- ديوان أبى الطيب المتنبى طبعة أمين هندية - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٣م.

٢٣- ديوان المشد - تحقيق د. محمد زغلول سلام - سلسلة النشرات الإسلامية العدد رقم ١ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٩م.

٢٤- ديوان ابن المعتز / تحقيق الدكتور محمد بديع شريف / سلسلة ذخائر العرب، العدد ٥٤ جزءان.

٢٥- رسالة الغفران / لأبى العلاء المعرى / تحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن/ سلسلة ذخائر العرب الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

٢٦- رشف الرحيق فى وصف الحريق / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق د. سمير الدروبى. منشورات مجلة البلقاء جامعة عمان الأردن ١٩٩٤م.

٢٧- شذرات الذهب / لابن العماد الحنبلى / الجزء السادس دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع دون تاريخ.

٢٨- شرح المعلقات السبع للقاضى الزوزنى / المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دون تاريخ.

٢٩- الصاحبى فى فقة اللغة / لأبى الحسين أحمد بن فارس / بتحقيق السيد أحمد صقر وطبع عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٧٧م.

٣٠- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / للشيخ يوسف البديعى / تحقيق الأستاذين مصطفى السقا وزيادة سلسلة ذخائر العرب العدد ٣٦ الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٧٧م

٣١- طبقات الشافعية الكبرى / لتاج الدين السبكى / الجزء العاشر بتحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى الطبعة الأولى طبع عيسى البابى الحلبى ١٩٧١م، والجزء السادس طبعة المطبعة الحسنية.

٣٢- العمدة فى صناعة الشعر ونقده / لابن رشيق القيروانى تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان دون تاريخ.

٣٣- عيار الشعر / لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى / تحقيق الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام وطبع منشأة المعارف بالاسكندرية الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

٣٤- الغيث المسجم فى شرح لامية العجم / لصلاح الدين الصفدى / جزآن دار الكتب العلمية، بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٣٥- فض الختام عن التورية والاستخدام / لصلاح الدين الصفدى / بتحقيق الدكتور محمد عبدالعزيز الحناوى دار الطباعة المحمدية الطبعة الأولى ١٩٧٩م القاهرة.

٣٦- فوات الوفيات / لابن شاكر الكتبى / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد/ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة دون تاريخ، وتحقيق الدكتور إحسان عباس مطبعة الثقافة ببيروت دون تاريخ.

٣٧-قصر الغيث المسجم فى شرح لامية العجم/ لعبد الرحمن الشافعى العلوانى الطبيب - طبع على هامش نفحات الأزهار على نسمات الأسحار لعبد الغنى النابلسى عالم الكتب - مكتبة المتنبى القاهرة د.ت.

٣٨- كتاب العروض/ للأخفش الأوسط / تحقيق الدكتور سيد البحراوى ومراجعة الدكتور محمود على مكى مارس ١٩٨٦م / الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٣٩- كشف الحال فى وصف الخال / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق سهام صلان/ دار سعد الدين دمشق الطبعة الأولى ٩٩.

٤٠- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون / لحاجى خليفة / نشر وتصحيح محمد شرف الدين دار العلم الحديث بيروت دون تاريخ.

٤١- لوعة الشاكى ودمعة الباكى / لصلاح الدين الصفدى الطبعة الثانية / مطبعة الجوائب بالآستانة ١٢٩٢هـ.

٤٢- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر / لضياء الدين بن الأثير / تحقيق الدكتورين الحوفى وطبانة دار نهضة مصر للطبع والنشر دون تاريخ.

٤٣- مطالع البدور فى منازل السرور / لعلاء الدين الغزولى / مطبعة إدارة الوطن، الطبعة الأولى ١٢٩٩هـ.

٤٤- معيد النعم ومبيد النقم / لتاج الدين السبكى / تحقيق النجار وشلبى وأبى العيون / طبعة دار الكاتب العربى ١٩٤٨م.

٤٥- مفتاح العلوم / للسكاكى/ الطبعة الثانية ١٩٩٠م نشر مصطفى البابى الحلبى القاهرة.

٤٦- مقامات بديع الزمان الهمذانى / بتحقيق وشرح محمد محيى الدين عبدالحميد/ المكتبة التجارية الكبرى القاهرة دون تاريخ.

٤٧- مقدمة تحقيق جنان الجناس / للأستاذ هلال ناجى / نشر مجلة الذخائر السنة الأولى العدد الثالث لبنان ٢٠٠٠هـ.

٤٨- المنصف للسارق والمسروق منه من شعر المتنبى / لابن وكيع التنيسى / بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم وطبع السلسلة التراثية بالكويت، وبتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية وطبع دار قتيبة ببيروت دون تاريخ.

٤٩- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى الجزء الخامس / لأبى المحاسن يوسف ابن تغرى بردى / تحقيق الدكتور نبيل محمد عبدالعزيز / وطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

٥٠- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** / لتقى الدين المقريزى الجزء الثانى/ طبعة دار صادر بيروت بدون تاريخ، ونسخة أخرى. طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة بسلسلة الذخائر أربعة أجزاء.

٥١- **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** / طبع دار الكتب المصرية لابن تغرى بردى ١٩٤٢م.

٥٢- **نشر العلَم فى شرح لامية العجم** / لجمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمى/ المطبعة الكاستلية بمصر ١٢٨٣هـ.

٥٣- **نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن** / لأحمد بن محمد الأنصارى اليمنى الشردانى طبعة كبير الدين أحمد بالهند ١٢٧٨هـ.

٥٤- **نكت الهميان فى نكت العميان** / لصلاح الدين الصفدى / تحقيق أحمد زكى/ وطبع أسعد طرازونى الحسينى ١٩٨٤م.

٥٥- **الوافى بالوفيات** / لصلاح الدين الصفدى / باعتناء مختلفين / طبع جمعية المستشرقين الألمان. سلسلة النشرات الإسلامية.

٥٦- **الوساطة بين المتنبى وخصومه** / للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى / تحقيق هاشم الشاذلى وطبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٧٩م.

٥٧- **تيمية الدهر فى محاسن أهل العصر لأبى منصور الثعالبى**/ تحقيق إيليا الحاوى توزيع الشركة الشرقية للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى د.ت

**ثانيا: المراجع:**

٥٨- أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعش - سلسلة أعلام العرب مكتبة مصر.

٥٩- الأدب فى العصر الأيوبى الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالإسكندرية دون تاريخ، ونسخة أخرى دار المعارف ١٩٨٣م.

٦٠- **الأدب فى العصر الفاطمى** الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالإسكندرية، دون تاريخ.

٦١- **الأدب فى العصر المملوكى** الجزآن الأول والثانى الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام دار المعارف ١٩٧١م القاهرة، ونسخة أخرى أربعة أجزاء نشر منشأة المعارف بالإسكندرية.

٦٢- **الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية وحتى مجيء الحملة الفرنسية** الدكتور عبداللطيف حمزة، سلسلة الألف كتاب، القاهرة.

٦٣- **الأدب وفنونه** الدكتور محمد مندور دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة دون تاريخ.

٦٤- **أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب** الأستاذ عباس محمود العقاد دار المعارف ١٩٧٧م.

٦٥- **أطوار الثقافة والفكر فى صدر الإسلام وبنى أمية** للأستاذين على الجندى، ومحمد صالح سمك دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٦٠م.

٦٦- **الأعراب الرواة** الدكتور عبدالحميد الشلقانى دار المعارف القاهرة ١٩٧١م.

٦٧- **الأعلام** لخير الدين الزركلى الجزء الرابع طبع بيروت دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

٦٨- **أهدى سبيل إلى علمى الخليل العروض والقافية** الأستاذ إبراهيم مصطفى الطبعة العشرون الناشر محمد على صبيح القاهرة ١٩٨١م.

٦٩- **تاريخ الأدب العربى** لكارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار وآخرين الطبعة الخامسة دار المعارف القاهرة.

٧٠- **تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى** الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٢.

٧١- **تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجرى** الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام الناشر دار المعارف بالقاهرة دون تاريخ.

٧٢- **التجديد الموسيقى فى الشعر العربى** الدكتور محمد رجاء عيد منشأة المعارف بالاسكندرية.

٧٣- **التراث النقدى نصوص ودراسة** للدكتور محمد رجاء عيد منشأة المعارف بالاسكندرية.

٧٤- **الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام** الدكتور أحمد أحمد بدوى الناشر دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة دون تاريخ.

٧٥- **الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام** الدكتور أحمد أحمد بدوى دار نهضة مصر القاهرة دون تاريخ.

٧٦- **الخصومة بين القدماء والمحدثين فى النقد العربى القديم تاريخها وقضاياها** الدكتور عثمان موافى دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٧٧- **خطط الشام** لمحمد كرد على الجزء الرابع مطبعة الترقى بدمشق ١٩٣٦م.

٧٨- **السرقات الأدبية** للدكتور بدوى أحمد طبانة الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩م.

٧٩- **شذا العرف فى فن الصرف** لأحمد الحملاوى الناشر المكتبة التوفيقية بالقاهرة دون تاريخ.

٨٠- **شروح لامية العجم** دراسة تحليلية نقدية لإبراهيم محمد منصور رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة كلية الآداب جامعة طنطا، ونسخة أخرى نشر المركز المصرى العربى للصحافة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٨م.




٨١- **الشريشى وشرحه على مقامات الحريرى** ليحيى محمد نبوى خاطر رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة كلية الآداب جامعة الزقازيق/ فرع بنها.

٨٢- **الشعر العربى من الجاهلية وحتى نهاية القرن الأول الهجرى النشأة والتطور** للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة دار المعارف القاهرة ١٩٨١م.

٨٣- **صفى الدين الحلى** لمحمود رزق سليم، سلسلة نوابغ الفكر العربى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م.

٨٤- **الظاهر بيبرس** للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور سلسلة أعلام العرب المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة القاهرة دون تاريخ.

٨٥- **العروض التعليمى** للدكتور عبدالعزيز نبوى، وسالم عباس. دار الفكر العربى مصر الطبعة الثانية ٩٨.

٨٦- **العروض العربى فى ضوء كتاب الأخفش الأوسط** للدكتور سيد البحراوى، بحث بمجلة فصول عدد تراثنا النقدى، الجزء الثانى العدد الثانى يناير - فبراير - مارس ١٩٨٦م الهيئة العامة للكتاب القاهرة.

٨٧- **عصر الدول والإمارات مصر والشام** للدكتور شوقى ضيف دار المعارف بالقاهرة الطبعة الأولى.

٨٨- **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى** المجلد السادس لمحمود رزق سليم نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الإدارة العامة للثقافة القاهرة مكتبة الآداب ١٩٦٢م.

٨٩- **فى نظرية الأدب: من قضايا الشعر والنثر فى النقد العربى القديم والحديث** للأستاذ الدكتور عثمان موافى، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية ١٩٨٤م.

٩٠- **فى النقد الأدبى** للدكتور شوقى ضيف الطبعة السادسة، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١م.

٩١- القاضى الفاضل دراسة ونماذج للدكتور أحمد أحمد بدوى دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، دون تاريخ.

٩٢- القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل للدكتور عبداللطيف حمزة، سلسلة أعلام العرب وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، دون تاريخ.

٩٣- اللغة الشاعرة للأستاذ عباس محمود العقاد، مكتبة غريب بالقاهرة، دون تاريخ.

٩٤- المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول للأستاذ الدكتور فوزى محمد أمين دار المعارف ١٩٨٢م.

٩٥- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور طبعة دار النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٢م.

٩٦- مشكلة السرقات فى النقد العربى دراسة تحليلية مقارنة، للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامى ببيروت ١٩٧٥م.

٩٧- المعنى الشعرى فى التراث النقدى للدكتور حسن طبل، الناشر مكتبة الزهراء القاهرة ١٩٨٥م.

٩٨- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين. الدكتور رمضان عبدالتواب الطبعة الأولى ٨٦ . مكتبة الخانى القاهرة.

٩٩- مناهج العرب فى التأليف كتاب النثر للدكتور - مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين بيروت، دون تاريخ.

١٠٠- الموشحات فى العصر المملوكى الأول جمع وتحقيق ودراسة لأحمد محمد عطا رسالة ماجستير مكتوبة على الآية الكاتبة بمكتبة كلية الآداب جامعة بنها ١٩٩٠م، وديوان الموشحات المملوكية جمع وتحقيقه نشر الآداب. القاهرة ١٩٩٩م.

١٠١- نشاط الصفدى فى النقد والبلاغة لمنال فليج رسالة دكتوراة مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة جامعة القاهرة تحت إشراف الدكتور محمد كامل جمعة.

١٠٢- النويرى وكتابة نهاية الأرب مصادره الأدبية، وآراؤه النقدية والبلاغية للدكتورة أمينة محمد جمال الدين نشر دار ثابت بالقاهرة مايو ١٩٨٤م.

# الفهرست التحليلى

